تبصير القانع

في الجمع بين شرحي

ابن شطي وابن مانع

على العقيدة السفارينية

وعليها بعض التصحيحات والحواشي

للعلامة الشيخ محمد سليمان بن عبد الله الجراح
رحمه الله

جمع وترتيب
ياسر بن ابراهيم المزروعي

ساهم بطبع هذا الكتاب أحد المحبين للعلم والخير
غفر الله له ولوالديه وذريته وجميع المسلمين - الكويت

دار البشائر الإسلامية


تبصير القانع
في الجمع بين شرحي
ابن شطي وابن فانع
على العقيدة السفارينية

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان - ص.ب: ٥٩٥٥ - ١٤

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تبصير القانع

في الجمع بين شرحي

ابن شطي وابن مانع

على العقيدة السفارينية

وعليها بعض التصحيحات والحواشي

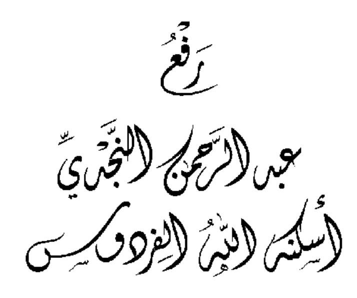
للعلامة الشيخ محمد سليمان بن عبد الله الجراح
رحمه الله

جمع وترتيب
ياسر بن ابراهيم المزروعي

ساهم بطبع هذا الكتاب أحد المحبين للعلم والخير
غفر الله له ولوالديه وذريته وجميع المسلمين - الكويت

دار البشائر الإسلامية





مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتوحِد بجلال ذاته وكمال صفاته، المتقدس في نعوت الجبروت عن شوائب النقص وسماته، والصلاة والسلام على نبيه محمد المؤيد بساطع حججه وواضح بيناته، وعلى آله وأصحابه هداة طريق الحق وحماته.

وبعد:

فإن مبنى علم الشرائع والأحكام، وأساس قواعد عقائد الإسلام، هو علم التوحيد وعلم أسماء الله وصفاته عز وجل. وإن المنظومة السفارينية الموسومة:

بـ (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية)

للإمام العلامة محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي رحمه الله، والمشتملة على غرر الفرائد، ودرر الفوائد ضمن فصول، هي للدين قواعد وأصول، وأثناء نصوص، هي للدين جواهر وفصوص، مع غاية في التنقيح والتهذيب، ونهاية من حسن تنظيم وترتيب، حيث قام مؤلفها بشرحها شرحاً حافلاً في مجلدين كبار، وقد خدم هذا الشرح بالاختصار.

فممن اختصره العلامة حسن بن شطي والعلامة ابن سلوم والعلامة محمد بن مانع، وغيرهم.

وقد خدمت بعض هذه المختصرات بالطبع والتحقيق، ما عدا مختصري ابن شطي وابن مانع، حيث أن مختصر ابن شطي قام بطبعه لأول مرة حفيد المؤلف المفتي الشيخ محمد جميل الشطي ويأتي كلامه في وصف نسخته.

ومختصر ابن مانع طبع مرتين من غير ضبط وتحقيق للنسخة.

فأردت أن أجمعهما في كتاب واحد لتعم الفائدة، وذلك أني قد تيسر لي بفضل من الله قراءة متن العقيدة على فضيلة شيخي وأستاذي العلامة محمد بن سليمان الجراح رحمه الله، وكان الشيخ يرجع إلى هذين الشرحين ويثني على مختصر ابن سلوم.

وقد استشرته في نشر وتحقيق مختصر ابن مانع، فأشار إلى أن لا يطبع إلاَّ مع تعليقات على بعض ما جاء فيها من مسائل لم يفصل ابن مانع فيها كثيراً.

فاستخرت الله بإفرادهما في كتاب واحد يكمل بعضهما الآخر، ويحصل بجمعهما الفائدة العظيمة والنفع الكثير والخير العميم، وسميته مستعيناً بالله فيما أردت:

بـ **(تبصير القانع في الجمع بين مختصر ابن شطي وابن مانع)** وطرزتهما ببعض حواشي لشيخنا محمد الجراح رحمه الله مما دونته ومما أملاه علي أثناء قراءتي عليه.

وإليك وصف النسخ التي استعنت بها في طبع هذا الكتاب:

١ ـ نسخة خطية للمتن وجدتها من بين كتب شيخنا محمد الجراح رحمه الله، وكان شيخنا يستعين بها عند قراءتي عليه، وخطها لا يبعد أن يكون من أحد معاصري شيخنا وفيها بعض الأخطاء كما أن فيها سقط في بيت واحد، وقد صححها شيخنا ويشاهد تصحيحاته بخطه على حواشيها. وتحتوي على ثلاثة عشرة ورقة من القطع المتوسط وفي كل ورقة حوالي سبعة عشر بيتاً، وكان الفراغ من نسخها في غرة ذي الحجة من سنة ١٣٤٨هـ ورمزت لها بحرف (أ).

٢ ـ نسخة مطبوع للمتن مصححة على شيخنا محمد الجراح وعلى عدة نسخ مطبوعة في أوقات متفاوتة وفيها نسخة خطية، قمت بطبعها وعليها بعض الحواشي مما استفدتها عند قراءتي هذا المتن على شيخنا، وقد طبعت على نفقة أحد المحسنين بالكويت السنة الماضية ١٤١٨هـ ورمزت لها بحرف (ب).

٣ ـ نسخة خطية لمختصر ابن شطي وجدتها في مكتبة وزارة الأوقاف الكويتية ضمن كتب الشيخ العلامة عبد الله خلف الدحيان رحمه الله وهو الذي نسخها، وعدد أوراقها ٧٨ ورقة بما يعادل ١٥٥ صفحة من القطع المتوسط، وهي بخط نسخي وقيد ناسخها بقلمه أنها وقف على (الولد خليفة بن خميس عفى الله عنهما) ورمزت لها بحرف (ج).

٤ ـ نسخة مطبوعة لمختصر ابن شطي قام بطبعها حفيد المؤلف الشيخ محمد جميل الشطي صاحب «مختصر طبقات الحنابلة»، وبها حواشي للشيخ محمد جميل وطبعت في مطبعة الترقي بدمشق ١٣٥٠هـ، ١٩٣١م، وقد وضعت بعض هذا الحواشي ورمزت لها حرف (د).

وقال الشيخ محمد جميل في خاتمة طبعته ما نصه:

(يقول الفقير محمد جميل الشطي المفتي والإمام الحنبلي بدمشق، ابن العالم الفاضل الشيخ عمر أفندي ابن الأستاذ العلامة الشيخ محمد أفندي ابن صاحب هذا المختصر قدّس الله روحه:

لقد تم بعون الله تعالى طبع هذا الكتاب النفيس، نظم وتأليف الإمام الكبير والمحقق الشهير العلامة الشيخ محمد السفاريني الحنبلي النابلسي المتوفى سنة ١١٨٨هـ اختصار جدنا الأكبر العلامة المتفنن الورع الشيخ حسن الشطي الحنبلي الدمشقي رحمهما الله تعالى وجزاهما عن الإسلام خيراً كثيراً.

وقد قابلناه وصححناه على مسودة المختصر التي هي بخطه الشريف، غير أنه ظهر لنا من المقابلة والمراجعة أنه رحمه الله لم يعد النظر على مواضع يسيرة منها بين كلمات وحروف فضلاً عن أنها كتبت بخط لا تسهل قراءته[1]، ولذا استعنا على ضبط ما ذكر بمراجعة الأصل، أي شرح السفاريني المخطوط والمطبوع الموجودين عندنا، وعلقنا عليه ما تيسر بعد تعليق العم الكبير رحمه الله، هذا مع تقطيع أبحاثه وجمله بالإشارات الخاصة مما نرجو أن نكون به قد أحسنّا صنعاً وأتممنا فائدة إن شاء الله.

وقد قام معنا بالوقوف على طبعه وحسن مقابلته ومراجعته الرفيقان

---

(١) قلت: أما المخطوطة التي وقفت عليها ورمزت لها حرف (ج) فهي مقروءة ولا سيما أن ناسخها أحد العلماء المشهود لهم ألا وهو العلامة عبد الله خلف الدحيان رحمه الله.

الموفقان الشيخ عبد الغني الدرة الدوماني، والشيخ مصطفى الجذبة الضميري، الحنبليان، وغيرهما من بني العم بارك الله فيهم وفتح عليهم آمين.

فلاح بدر تمامه وفاح مسك ختامه في أواخر شهر ربيع الأنور عام خمسين وثلاثمائة وألف من هجرة النبي الأمين، الذي أنزل عليه (**وما ٤٧ أرسلناك ٣٦٢ إلاّ ٣٢ رحمة ٦٤٨ للعالمين ٢٦١ = ١٣٥٠**).

والحمد لله على فضله وإنعامه وتوفيقه وإلهامه، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه وحزبه، آمين.

وقد قلنا في ذلك:

هذا كتاب في العقائد قد ظهر ... فيه تجلى الحق من أهل الأثر

أستاذ سفارينَ جاد بوضعه ... والقدوة الشطي رعاه واختصر

فجزاهما مولاهما خير الجزا ... ولسعي كل منهما ربي شَكَرَ

يا من طرحتم في العلوم مطولاً ... قد جاءكم أرخت أهدى مختصر

انتهى ما قاله الشيخ محمد جميل في خاتمة طبعته.

٥ ـ نسخة حجرية لمختصر ابن مانع ضمن مكتبة شيخنا محمد الجراح رحمه الله طبعت في مطبعة الحيدري الواقعة في بمبي الهند، وعليها تصحيحات شيخنا وطبعت في شهر رجب سنة ١٣٣٦هـ، ورمزت لها بحرف (هـ).

هذا، وقد ترجمت لكل إمام ابتداء بالعلامة السفاريني ثم الشيخ ابن شطي ثم الشيخ ابن مانع ثم شيخنا محمد الجراح رحمة الله عليهم أجمعين.

وجعلت المتن في أعلى الصفحة وتحته شرح ابن شطي وبعده شرح ابن مانع وتحتهما بعض الحواشي لشيخنا محمد الجراح والشيخ محمد جميل الشطي كما هي في نسخته، وبعض الملاحظات والاستدراكات.
هذا والله أسأل أن يتقبل عملي هذا ويجعله خالصاً لوجهه الكريم فهو ولي ذلك والقادر عليه.

كتبه راجي رحمة رب الغني
ياسر بن إبراهيم بن يوسف المزروعي
إمام مسجد السهول
في ٣ رمضان ١٤١٧هـ
الموافق ١٢/ ١/ ١٩٩٧م
ضاحية عبد الله السالم
الكويت

ترجمة

العلامة الشيخ محمد بن أحمد السفاريني[1]

(١١١٤ ـ ١١٨٨هـ)

هو العلامة الإمام فريد عصره أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الشهرة والمولد، النابلسي الحنبلي.

وُلد بقرية سفارين من قرى نابلس سنة أربعة عشر ومئة بعد الألف من هجرة النبي ﷺ وقرأ القرآن في سنة إحدى وثلاثين في نابلس.

اشتغل بالعلم قليلاً في بلده ثم ارتحل إلى دمشق سنة ثلاث وثلاثين، فأخذ العلم عن جمهرة من أهل العلم والفضل فمنهم:

العلامة محمد بن عبد الرحمن الغزي، وعبد الرحمن بن محي الدين المجلد الحنفي، وأبي المجد مصطفى بن مصطفى السواري، والشهاب أحمد بن علي المنيني قرأ عليه (**شرح جمع الجوامع للمحلى**) و(**شرح الكفاية**) لملاجامي وحضر دروسه (**لصحيح البخاري**) وشرحه على منظومة الخصائص الصغرى للسيوطي وقد أجازه بكل ذلك إجازة مطولة كتبها بخطه وقرأ على الشيخ عبد القادر التغلبي (**دليل الطالب**) للشيخ مرعي

(١) صفحات من ترجمة الإمام السفاريني، للأخ الشيخ محمد بن ناصر العجمي، بتصرف.

الحنبلي وتفقه على شيخ المذهب مصطفى بن عبد الحق اللبدي وقرأ على الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني (**صحيح البخاري**) وبعض (**ثلاثيات أحمد**) وحج سنة ثمان وأربعين فسمع بالمدينة المنورة على الشيخ محمد حياة السندي المسلسل بالأولية وأوائل (**الكتب الستة**) وغيرهم كثير.

كان إماماً متقناً جليل القدر، وظهرت له كرامات عظيمة، وكان حسن التقرير للتحرير، لطيف الإشارة بليغ العبارة، حسن الجمع والتأليف، لطيف الترتيب حتى حصل له في زمن يسير ما لم يحصل لغيره في الزمن الكثير.

قال عنه العلماء كثير فمنهم:

قال العلامة المرادي رحمه الله: «الشيخ الإمام والحبر البحر النحرير الكامل الهمام الأوحد العلامة والعالم الفهامة».

وقال ابن حميد المكي: «العلامة الفهامة المسند الحافظ المتقن».

وقال العلامة الشيخ محمد جميل الشطي: «بهجت الفقهاء والمحدثين، شمس الدنيا والدين خاتمة الحنابلة في الديار النابلسية».

وقال العلامة المحدث عبد الحي الكتاني: «هو الإمام محدث الشام وأثريه، مسند عصره وشامته...».

أخذ عنه بعد أن ذاع صيته بين الناس، وظهر فضله للطلاب جماعة من أهل العلم، قال الشيخ ابن سلوم: «وتخرج به وانتفع خلق كثير من النجديين والشاميين وغيرهم».

ممن أخذ عنه:

محمد مرتضى الزبيدي ومسند الشام محمد بن أحمد بن محمد البخاري الأصل والشهرة الحنفي والشيخ كمال الدين الغزي والشيخ

مصطفى الرحيباني والمحدث عبد القادر بن خليل الرومي والشيخ محمد شاكر بن علي المعروف بابن العقاد.

قال العلامة ابن سلوم: «وصنف تصانيف جليلة في كل فن».

وقد قاربت مؤلفاته الأربعين كتاباً في جميع الفنون فمنها:

* هذا المتن في العقيدة المسمى بالدرة المضية.
* وشرحها في مجلدين حافلين.
* تحبير الوفا في سيرة المصطفى ﷺ.
* رسالة في بيان الثلاث والسبعين فرقة والكلام عليها.
* رسالة في بيان تارك الصلاة.
* شرح دليل الطالب، (وصل فيه إلى الحدود).
* شرح نظم الخصائص الواقعة في الإقناع.
* غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب.
* غرر الذخائر لشرح منظومة الكبائر.
* كشف اللثام في شرح عمدة الأحكام.

وبعد هذه الحياة التي ملئت بطاعة الله من خدمة العلم وأهله توفي رحمه الله سنة ١١٨٨هـ.

قال العلامة الجبرتي: ولا زال يملي ويفيد ويجيز من سنة ثمان وأربعين إلى أن توفي يوم الاثنين ثامن شوال من هذه السنة يعني سنة ثمان وثمانين ومائة وألف بنابلس، وجهز وصلى عليه، ولم يخلف بعده مثله رحمه الله رحمة واسعة.

* * *

ترجمة
الشيخ حسن الشطّي(١)
(١٢٠٥ ــ ١٢٧٤هـ)

هو حسن بن معروف بن شطي ــ بفتح المعجمة وكسر المهملة المشددة ــ الشهير بالشطّي نسبة لجدة المذكور، البغدادي الأصل الدمشقي المولد والدار والوفاة، شيخ الحنابلة ومرجعهم وإمام الفرضين ومسندهم.

وُلد بدمشق في صفر سنة خمس ومئتين وألف ١٢٠٥هـ، ونشأ في حجر والده. حفّظ القرآن ومختصرات الفنون، وتوفي والده في سنة ١٢١٨هـ، فأخذ في طلب العلم وأدرك الشمس محمد الكزبري والشهاب أحمد العطار فأخذ عنهما وعلى الشيخ مصطفى بن عبده السيوطي الشهير بالرحيباني شارح الغاية فلازمه وقرأ عليه الحديث والتفسير والفقه والأصول والفرائض ومهر فيهما وعلى الشيخ غنام النجدي وأخذ الفرائض والنحو على الشيخ عبد الله الكردي وقرأ على الشيخ عبد الرحمن الكزبري والشيخ حامد العطار والشيخ عبد الرحمن الطيبي والشيخ يحيى المصالحي وملا علي أفندي

(١) مختصر طبقات الحنابلة للشيخ محمد جميل الشطّي ص ١٨٨، بتصرف؛ والنعت الأكمل لأصحاب الإمام أحمد بن حنبل للشيخ محمد كمال الدين العامري ص ٣٦٧، بتصرف؛ والسحب الوابلة على ضرائح الحنابلة للشيخ محمد بن حميد النجدي ص ١٥٣، بتصرف.

السويدي والشيخ خليل الخشا، وأخذ حديث المسلسل بالأولية عن الشيخ عمر المجتهد وعن غيرهم بدمشق، ورحل إلى بغداد سنة ١٢٢٦هـ، فأخذ عن مشائخ أجلاء منهم الشيخ محمد البكيري، ورحل إلى الأقطار الحجازية سنة ١٢٣٢هـ، فأخذ عن الشيخ محمد طاهر الكوراني.

فدرس في النحو والصرف والمعاني والبيان فحصل طرفاً صالحاً منها وأجازه مشايخه وباشر التدريس في الجامع الأموي وانتهت إليه رئاسة مذهبه في دمشق بل وسائر القطر الشامي، وصار رحله الحنابلة لأخذ مذهب الإمام أحمد، وقرأ عليه غير الحنابلة في الفنون الأخرى.

وكان يتكسب كأسلافه الصالحين من التجارة الخالصة ولمزيد ورعه لم يعهد له مداخلة في أمور الحكومة حتى تولى مريدوه وتلامذته المناصب العلمية وهم خاضعون لفضله، حيث أخذ عنه فنون الفرائض والحساب والمساحة ونحوها من العلوم واشتغلوا بها حال حياته وبعد وفاته وانتشرت هذه العلوم في دمشق ونحوها فكان له الفضل التام والخير العام في الفقه الحنبلي حيث أنه انفرد في عصره حتى رحل إليه الطلبة من البلاد النجدية والديار النابلسية ودوما ورحبية وغيرها من البلدان فأخذوا عنه الفقه رواية ودراية وكانت دروسه في داره وفي محراب الحنابلة في الجامع الأموي وقد تتلمذ عليه كثير من هذه البلدان وكان له نظم بديع حيث كان ينظم ويرد على من يسأله ويستفسر منه ويمدحه.

من مؤلفاته:

١ ــ منحة مولي الفتح في تجريد زوائد الغاية والشرح.

٢ ــ النثار على الإظهار.

٣ ــ مختصر شرح العقيدة السفارينية (وهو هذا الكتاب وجعلته تحت النظم).

٤ ــ بسط الراحلة لتناول المساحة.

٥ ــ شرح على رسالة في أن المصدرية.

٦ ــ شرح على الكافي في العروض والقوافي.

٧ ــ شرح على حزب النواوي.

٨ ــ منسك كبير (السبل السوالك).

٩ ــ المعراج.

١٠ ــ مولد وعقيدة.

١١ ــ ثبت.

١٢ ــ رسالة في البسملة.

١٣ ــ رسالة في فسخ النكاح.

ولم يزل الشيخ حسن الشطي على طريقته المثلى وحالته الحسنى إلى أن توفي فكانت وفاته بعد الغروب ليلة السبت رابع عشر جمادى الأخرى سنة أربع وسبعين ومئتين وألف ١٢٧٤هـ، ودفن في السفح القاسيوني في مقبرة بني الشطّي المعروفة بتربة البغادة.

وقد رثاه كثير من العلماء ومنهم تلميذه العلامة محمود أفندي حمزة وهذا مطلعها:

هل كوكب العلم استكن تحت الثرى غض الأديم
أم أخذ القبر وطن لما رأى أن لا نديم

فرحم الله الشيخ حسن الشطي وأسكنه أعلى فراديس الجنان.

* * *

ترجمة

الشيخ محمد بن مانع[1]

(١٣٠٠ ــ ١٣٨٥هـ)

هو محمد بن عبد العزيز بن محمد بن عبد الله بن مانع بن شبرمة، وآل شبرمة من آل محمد وهم فخذ من آل وهيب من بني حنظلة أحد البطون من قبيلة بني تميم.

ووالدته من آل شبيلي من العناقر وهم من نفس قبيلة تميم.

وُلد المترجم في بلدة عنيزة عام ١٣٠٠هـ، وبدأ بطلب العلم عندما أدخله والده إلى الكتَّاب ليتعلم القرآن في السابعة من عمره فقرأ القرآن كله وحفظ بعضه ثم ابتدأ بقراءة مختصرات العلوم الشرعية والعربية ككتاب التوحيد، ودليل الطالب، وبلوغ المرام، وشرح الشنشوري على الراحبية في المواريث، والأجرومية، على علماء بلدة عنيزة وبريدة ثم سافر عند بلوغه إلى بغداد للإستزادة من العلم فقرأ على علمائها النحو والصرف والفقه والفرائض والحساب والمنطق ثم إلى مصر فأقام بالأزهر وقرأ فقه

(١) علماء نجد في ثمانية قرون الشيخ عبد الله بن بسام (٦/ ١٠٠).

الحنابلة والنحو ونحوها من العلوم، ثم توجه إلى الشام بدمشق فقرأ على علمائها علم الحديث ثم عاد إلى العراق ولازم أساتذته ومشائخه السابقين فقرأ وتزود عليهم في مختلف أنواع العلوم، وكان مثابراً على التحصيل والمراجعة والبحث، فلا يضيع من وقته لا قليلاً ولا كثيراً وكان يصيبه المرض فلا يترك القراءة بل يأمر من يقرأ عليه وهو يسمع وهذا من شدة حرصه على المعرفة والاستزادة من العلم، وكان مع هذا سريع الحفظ بطيء النسيان وبه نال ما نال من العلم واطلع على ما لم يطلع عليه غيره حتى صار آية في حفظ المتون واستحضار مسائلها وما قاله الشراح عليها، وكان يستحضر الكثير من أحاديث البخاري بأسانيده، وكان فقيهاً مطلعاً على خلاف العلماء ويكاد يحفظ نظم ابن عبد القوي في فقه الحنابلة البالغ ١٤٠٠٠ بيت إلى غيره من المتون.

مشائخه:

فممن تتلمذ عليهم من المشائخ في بلدته عنيزة وما جاورهما:

١ ــ الشيخ محمد بن عبد الله بن سِليم.

٢ ــ الشيخ عبد الله بن عائض.

٣ ــ الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر.

٤ ــ الشيخ صالح العثمان القاضي.

٥ ــ الشيخ عبد الله بن محمد بن دخيل.

وممن تتلمذ عليهم في البلدان التي زارها واستفاد من علمائها مثل دمشق وبغداد والقاهرة:

١ ــ السيد الشيخ محمود شكري الألوسي.

٢ ــ السيد الشيخ علي نعمان الألوسي.

٣ ــ الشيخ محمد الذهبي.

٤ ــ الشيخ جمال الدين القاسمي.

٥ ــ الشيخ عبد الرزاق البيطار.

٦ ــ الشيخ بدر الدين الحسني.

٧ ــ الشيخ العلامة عبد الوهاب أفندي نائب أمين الفتوى ببغداد.

٨ ــ الشيخ عبد الرزاق الأعظمي البغدادي.

٩ ــ العلامة السيد يحيى ابن قاسم الأثري.

وعندما عاد من عنيزة إلى العراق عام ١٣٣٠هـ، قرأ الفقه على الشيخ محمد بن عوجان في بلدة الزبير، وغيرهم من العلماء يطول ذكرهم، ومن العلوم التي قرأها كثير يصعب حصرها فمنها كتب التوحيد والتفسير والفقه والحديث وأصول تلك العلوم والنحو والصرف والبلاغة والمنطق من المتون والشروح والحواشي بعضها من المطولات وبعضها من الرسائل والمختصرات وقرأها كلها قراءة بحث وتحقيق وتدقيق واستيعاب لمسائله.

أعماله:

* ترأس نادي لتحرير المقالات والرد على النصارى المبشرين الذين انتشروا في أطراف الجزيرة العربية للتبشير النصراني في دولة البحرين.

* تولى القضاء بدولة قطر سنة ١٣٣٤هـ، بطلب من حاكمها آنذاك الشيخ عبد الله بن ثاني. فكان يقضي بينهم ويدرس ويخطب فاستمر

عندهم في هذه المناصب ٢٣ سنة فرحل إليه الطلبة من سائر بلدان الخليج ومن آثاره أن دولة قطر قبل مجيئه إليها كان المذهب المشهور عندهم هو مذهب الإمام مالك وبعد مجيء الشيخ إليها وتدريس مذهب الإمام أحمد فيها صار مذهب الحنابلة هو السائد في هذه الدولة إلى هذا الوقت.

وفي عام ١٣٥٨هـ طلب الملك عبد العزيز بن سعود ملك المملكة العربية السعودية، آنذاك ليكون مدرس في المسجد الحرام والمدارس الحكومية ثم عين بعده رئيساً لثلاث هيئات، وفي عام ١٣٦٥هـ، صدر مرسوم ملكي بتعيينه مديراً عاماً للمعارف ثم أسند إليه رئاسة دار التوحيد إلى أن شكلت وزارة المعارف وصار وزيرها سمو الأمير محمد بن عبد العزيز خادم الحرمين، وفي عام ١٣٧٤هـ طلب منه حاكم قطر سابقاً الشيخ علي بن ثاني ليكون مشرفاً على سير التعليم فيها وبعدها صار مستشاراً للحكومة في الأمور الدينية.

وقد تتلمذ عليه كثير من طلبة العلم في بلدته والدول المجاورة لها والدول التي زارها ودرس فيها، وأكثر من استفاد منه خاصة من دول الخليج.

مؤلفاته:

١ ــ مختصر شرح العقيدة السفارينية (وهو هذا الكتاب) وجعلته تحت شرح ابن شطّي.

٢ ــ حاشية على عمدة الفقه.

٣ ــ حاشية على دليل الطالب.

٤ ــ رسالة في أدب البحث والمناظرة.

٥ ــ تحديق النظر في أخبار المهدي المنتظر.

٦ ــ كشف الغطى عما في أعلام الورى من الخطى.

٧ ــ إرشاد الطلاب إلى فضيلة العلم والآداب.

٨ ــ إقامة البرهان على تحريم الإجارة في تلاوة القرآن.

٩ ــ الأجوبة الحميدة على الأسئلة المفيدة للشيخ عبد الرحمن بن حسن.

١٠ ــ شرح شواهد القطر وشواهد المغني.

وقد روي أن الشيخ عبد الرحمن بن سعدي كان يفضله في علم اللغة العربية والنحو خاصة على الشيخ الشنقيطي مؤسس مدرسة النجاة.

وبعد حياة مليئة في خدمة العلم وأهله توفي فجر يوم السبت الثاني عشر من شهر رجب عام ١٣٨٥هـ، أثر مرض أصيب به في بيروت وتوفي فيها ونقل جثمانه إلى قطر وصلى عليه كثير من رجال الحكومة القطرية والأهالي ودفن في قطر رحم الله الشيخ محمد بن مانع رحمة واسعة وأسكن أعلى فراديس الجنان آمين ومن أراد الزيادة فعلية النظر في كتاب الشيخ عبد الله بن بسام وهو علماء نجد في ثمانية قرون فقد أطال في ترجمته فجزاه الله خير الجزاء.

* * *

ترجمة
للشيخ محمد الجراح[1]
(١٣٢٢ ـ ١٤١٧هـ)

هو فضيلة شيخنا العلامة محمد بن سليمان بن عبد الله الجراح عالم الكويت وفرضيها، هاجر جده عبد الله من بلدة حرمة في نجد في السنة التي هاجر فيها أهل بلده إلى الكويت ثم إلى الزبير بعد الجفاف الذي هلكت منه مواشيهم وزروعهم عام ١٢٨٢هـ، وتوفي جده عبد الله في الزبير بعد ستة أشهر من هجرته فرجعت عائلته إلى الكويت فتوطنوها واستقروا بها.

وُلد شيخنا محمد في الكويت عام ١٣٢٢هـ تقريباً، وذلك بعد هجرة جده عبد الله بنحو أربعين سنة تقريباً، وآل جراح من آل فضل الذين هم بطن من بطون بني لام وبنو لام من طي وطي من قحطان بن هود النبي ﷺ كما في المنتخب من ذكر قبائل العرب، ولهم الآن في الرياض وفي حرمه بنوا أعمامه كثيرون، أما في الكويت فلا يوجد إلاَّ أبناء سليمان.

---

(١) تشرفت بالقراءة على شيخنا في علم الفقه والعقيدة والنحو والأدب ونحوها من العلوم وكذا أكرمني الله بقراء القرآن الكريم عليه كاملاً.

طلبه للعلم:

ابتداء بقراءة القرآن في سن التمييز في مدرسة ملا[1] أحمد الحرمي حتى وصل عنده إلى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ من سورة المدثر، ثم أكمله عند الملا محمد المهيني وبعد أن أكمل القرآن عنده تعلم الكتابة والحساب وقسمة المواريث في مدرسة السيد هاشم الحنيان.

وقد حبب إليه طلب العلم في السن المبكر، فحفظ نظم الرحبية في المواريث، ومنظومة الآداب، والعقيدة السفارينية، ومتن دليل الطالب في الفقه. وكان يكرر دروسه كل يوم حيث يذهب إلى ساحل البحر بعد صلاة الفجر متخلياً عن الناس مستحضراً في قلبه قول من قال:

وأخرج من بين البيوت لعلني ... أحدث عنك النفس والقلب خالياً

وكان يكتسب من عمل يده حيث فتح له ولإخوته والدهم سليمان ثلاثة دكاكين للبيع والشراء.

شيوخه في الفقه:

أخذ مبادىء الفقه على علامة الكويت في وقته الشيخ عبد الله خلف الدحيان وكان مجلسه صباحاً ومساءً حيث يحضره كثير من طلبة العلم. وكان يقرأ فيه في الصباح بعد طلوع الشمس تفسير ابن كثير وفتح الباري، وفي المساء بعد صلاة المغرب يقرأ فيه كتباً متنوعة إلى صلاة العشاء وبعد صلاة العشاء يدرس من يحضره من طلبة العلم في مسجد البدر. وبعد

---

(١) الملا: هي كلمة تطلق على كل حافظ للقرآن ومدرسه في الجزيرة العربية وهي أصلاً كلمة فارسية بمعنى حافظ القرآن أو العالم ونقلت إلى الجزيرة لاختلاطهم بالهند في قديم الزمان في البيع والشراء والسفر إليهم لأجل التجارة.

وفاة شيخه لازمه شيخه الثاني: الشيخ عبد الوهاب بن عبد الله الفارس وقرأ عليه أولاً متن دليل الطالب حتى أكمله ثم قرأ عليه نيل المآرب بشرح دليل الطالب ثم قرأ عليه الروض المربع بشرح زاد المستنقع ثم شرح المنتهى للشيخ منصور البهوتي.

ثم على الشيخ الثالث: الشيخ عبد الوهاب العبد الرحمن الفارس حيث قرأ عليه الروض المربع وكشف المخدرات بشرح أخصر المختصرات.

شيوخه في العربية:

الشيخ أحمد عطية الأثري قاضي الكويت سابقاً قرأ عليه قطر الندى وشذور الذهب وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، وكان يشاركه في هذه القراءة أخوه داود. وقرأ عليه أيضاً شرح الدرة المضية للشيخ محمد بن مانع، وكان يدرس في الصيف في مسجد هلال وفي الشتاء في مجلسه بعد العشاء.

والشيخ ملا محمد بن ملا أحمد الحرمي فقرأ عليه شروح الآجرومية وشرح الأزهرية للشيخ خالد الأزهري وشرح القطر وشذور الذهب لابن هشام وشرح الشيخ خالد الأزهري المسمى موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب لابن هشام وأخيراً قرأ عليه شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك وكان يشاركه في هذه القراءة أخوه إبراهيم في مدرسة ملا محمد بعد صلاة الصبح.

ومنهم الشيخ عبد العزيز قاسم حمادة فقرأ عليه شروح الآجرومية.

والشيخ عبد الرحمن بن محمد الفارسي أخو الشيخ أحمد الفارسي فقرأ عليه المتممة الآجرومية وكان يشاركه في هذه القراءة الشيخ عبد الله النوري ويعقوب خاجه رحمهما الله، وذلك في بيته القريب من المدرسة المباركية بعد طلوع الشمس، وكان الشيخ عبد الله النوري وعبد الله العثمان أخو ملا عثمان وعبد اللطيف العدساني يدرسون على الشيخ فن العروض والقوافي بعد المغرب إلى صلاة العشاء وكان شيخنا يحضرهم سماعاً.

ومنهم الشيخ عبد العزيز بن صالح العلجي الإحسائي قرأ عليه نظماً له في الصرف وشرح الدرة المضية للشيخ محمد بن مانع أيام تردده على الكويت للوعظ والإرشاد في مسجد القطامي ودوانيه الشملان بعد صلاة الصبح في منطقة شرق وكان ينزل ضيفاً على شملان مدة إقامته.

ومنهم الشيخ عبد الله الكوهجي قرأ عليه نظماً له في الصرف أيام تردده على الكويت للوعظ والإرشاد وكان إذا جاء ينزل ضيفاً على عبد الله العوضي في الشرق.

ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري حيث تدارس معه الكوكب المنير في أصول الفقه وشرح ألفية الفرائض في المواريث ونونية ابن القيم وقاما بتصحيحها.

وكان حريصاً على الاستفادة من كل عالم يأتي الكويت. وله مراسلات علمية مع الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد والشيخ عبد الرحمن السعدي رحمهما الله من أفاضل علماء نجد وله رغبة شديدة في قراءة مؤلفات الشيخين ابن تيمية وابن القيم وكان يقول من لم يقرأ شيئاً من كتب الشيخين في هذا الزمان لم يخل من البدع إلاَّ من شاء الله.

ويقول عن نفسه أني طويلب علم مقصر وليس معي من فضيلة العلم إلاَّ علمي بأني لست بعالم. اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون واجعلني خيراً مما يظنون.

تولى وظيفة الإمامة في مسجد العثمان في حي القبلة بعدما توفي الشيخ يوسف بن حمود سنة ١٣٦٥هـ، باستخلاف منه رحمه الله ثم تولى الإمامة في مسجد السعيد وقد عمل في الخطابة فكان يقوم بالنيابة عن الشيخ أحمد الخميس رحمه الله في مسجد البدر ثم صار فيه خطيباً على الدوام ولما أزيل مسجد البدر صار يخطب في مسجد العثمان السابق الذكر، ولما أزيل مسجد العثمان صار يخطب في مسجد الساير القبلي، ثم انتقل إلى مسجد المطير بضاحية عبد الله السالم خطيباً له ويقوم بالإمامة في مسجد السهول إلى قبل وفاته بثلاث شهور حيث ثقل عن القيام إماماً فصار يصلي مأموماً واستخلفني في الإمامة والأخ وليد المنيس في الخطابة.

وبعد حياة ملئت بخدمة العلم وأهله والتقرب إلى الله بطاعاته والزهد من هذه الدنيا الفانية توفي فجر يوم الخميس ١٣ جمادى الأولى عام ١٤١٧هـ الموافق ١٩٩٦/٩/٢٥م. هذا، وقد نقلت هذه الترجمة بخطه الشريف وبتصرف مني، وقد قام أخينا الشيخ الدكتور وليد عبد الله المنيس بتأليف كتاب ذكر فيه حياة شيخنا محمد الجراح رحمه الله رحمة واسعة وأحسن للجميع الخاتمة وجعلنا وإياه في جنات النعيم مع النبيين والصديقين والشهداء، آمين.

❊ ❊ ❊

صور المخطوطات

(الدرة المضيه في عقد الفرقة المرضيه)

تاليف الشيخ العالم العلامة

الشيخ محمد المقدسي

السفاديني الحنبلي

غفر الله لنا وله

آمين

صورة الغلاف من نسخة (أ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القديم الباقي ... مقدر الآجال والأرزاق
حي عليم قادر موجود ... قامت به الأشياء والوجود
دلت على وجوده الحوادث ... سبحانه فهو الحكيم الوارث
ثم الصلاة والسلام سرمدا ... على النبي المصطفى كنز الهدى
وآله وصحبه الأبرار ... معادن التقوى مع الأسرار
وبعد فاعلم أن كل العلم ... كالفرع للتوحيد فاسمع نظمي
لأنه العلم الذي لا ينبغي ... لعاقل لفهمه لم يبتغي
يعلم الواجب والمحالا ... كجائز في حقه تعالى
وصار من عادة أهل العلم ... أن يعتنوا في سبر ذا بالنظم
لأنه يسهل للحفظ كما ... يروق للسمع ويشفي من ظما
فمن هنا نظمت لي عقيدة ... أرجوزة وجيزة مفيدة
نظمتها في سلكها مقدمة ... وست أبواب كذاك خاتمة
وسمتها بالدرة المضية ... في عقد أهل الفرقة المرضية
على اعتقاد ذي السداد الحنبلي ... إمام أهل الحق ذي القدر العلي
حبر الملا فرد العلى الرباني ... رب الحجا ماحي الدجى الشيباني
فإنه إمام أهل الأثر ... فمن نحا منحاه فهو الأثري
سقى ضريحا حله صوب الرضى ... والعفو والغفران ما نجم أضا

الورقة الأولى من نسخة (أ)

لاسيما أحمد والنعمان ... ومالك والش محمد في الصنوان

أو من لازم لكل أرباب العمل ... تقليد حبر منهم فاسمع تحل

ومن نحا لسبلهم من الورى ... ما دارت الأفلاك أو نجم سرى

هدية مني لأرباب السلق ... مجانبا للخوض من أهل الحلق

خذها هديت واتق نظامي ... تفز بما أملت والسلام

تمت في غرة ذالحجه من سنه ١٣٤٨

الورقة الأخيرة من نسخة (أ)

كتاب مختصر لوامع الأنوار البهية
لشرح المنظومة في عقد الفرقة المرضية
تأليف الإمام العالم العلامة الحبر البحر
الفهامة فريد عصره ووحيد دهره
شيخ الإسلام وقدوة الأنام الشيخ
حسن بن عمر الشطي الفرضي الحنبلي
نفعنا الله بعلومه والمسلمين
وعفى عنه ووالديه ورضي
عنه وأرضاه وجعل الجنة
جنته مثواه آمين

صورة الغلاف من نسخة (ج)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد فإن شرح العقيدة المسمى بلوامع الأنوار البهية في عقد الفرقة المرضية قد تضمن مع كونه مما يبهر العقول من صحيح المنقول ومن ... فصار بحراً لخر الأساحل له، وبينها وأسماء الأولياء وذكر فيه المذاهب والأقوال في هذا الباب وبين الصحيح وما يرد ... فيه أولو الألباب فوقف عن السلوك فيه المبتدي و... المنتهي مع اشتماله على ما يحتاج إليه، وجمع كلام الأصحاب المعول عليه، فقلت ما لا يدرك كله لا يترك جله، فعزمت على اختصاره مستعيناً بالقوي المتين، فإنه خير دليل ومعين، قال رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي تقدست عن الأشباه ذاته، وتنزهت عن سمات الحدوث صفاته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ند ولا ضد، فالكل خلقه وإليه غاياته، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله من بهرت العقول معجزاته، وصلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ما دامت آلاء الله وأرضه وسماواته، أما بعد فيقول الفقير إلى مولاه العلي محمد بن الحاج أحمد السفاريني الأثري الحنبلي: قد كان في سنة ثلاث وسبعين بعد المائة والألف طلب مني بعض أصحابنا أن أنظم أمهات مسائل اعتقادات أهل الأثر فتعللت باشتغال البال فألح في السؤال فلما لم يندفع نظمت أمهات مسائل عقائد السلف وسميتها الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية وعدتها مائتا بيت وبضعة عشر، ثم بعد تمام نظمها المذكور عزمت على تصنيف شرح لهذا العقد فأجبتهم لتحصيل المطلوب وعولت فيما قصدت على المولى الجواد الكفيل وهو حسبي ونعم الوكيل، وسميته بلوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، ولأقدم أمام المطلوب مقدمة تشتمل على عشرة تنبيهات: الأول اعلم أن الملة المحمدية اعتقادات وعمليات، فالاعتقادات هي التي لا تتعلق بكيفية عمل، والعمليات هي ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية، فالمتعلق بالعملية علم الشرائع والأحكام لأنها لا تستفاد إلا من جهة الشرع، والمتعلق بالاعتقادات هو علم التوحيد والصفات وعلم الكلام وأصول الدين، ولما كان هذا العلم أهم لابتناء العمليات عليها ... البراهين ... والكتفوا في العمليات بالظن المستفاد من الأدلة السمعية، وعلم الكلام هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية، وموضوعه هو المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية، إذ موضوع كل علم ما يبحث في ذلك العلم عن عوارضه الذاتية، ولا شك أنه يبحث في هذا العلم عن أحوال الصانع من القدم والوحدة والقدرة والإرادة وغيرها ليعتقد ثبوتها له تعالى، وكذلك ما يبحث عن الجواهر والأعراض والأجسام والحدوث والافتقار والتركيب من الأجزاء وقبول الفناء ونحو ذلك مما لا يجوز عليه تعالى، وهذا أولى من زعم أن موضوعه ذات الله تعالى وتقدس لبحثه عن صفاته وأفعاله، واستمداد هذا الفن من الكتاب المنزل والسنة والحديث والإجماع والنظر ومسائل القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية، وغايته أن يصير الإيمان والتصديق بالأحكام الشرعية متقناً محكماً لا تزلزله شبهة من شبه المبطلين، ومنفعته في الدنيا انتظام أمر

الحمد لله — أما بعد — يدرك — الحمد لله — السمات: العلامات — أما بعد — وسميتها — الأول — تنبيه — الفناء

صورة الورقة الأولى من نسخة (ج)

٩٩

الاربعا الست بقين من ذي القعدة من شهور سنة الف ومائة
وخمسة وسبعين وكان الفراغ من اختصار هذا الشرح في
يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الثاني من شهور سنة سبع و
اربعين ومائتين والف وصلى الله وسلم على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم سبحان ربك رب العزة عما يصفون
وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين تم نسخ هذا
الكتاب بعون الملك الوهاب بقلم عيبة العيوب وذنوب
الجرائم والذنوب الذي ان حضر لم يعد وان غاب لم يفتقد احوج
الورى الى عفو ربه المنان خادم نعال العلماء واقل
الطلاب علما واكثرهم زللا الفقير الى مولاه الغني
عبد الله بن خلف بن دحيان الحنبلي
غفر الله له ذنوبه وستر عليه في الدارين
عيوبه وبلغه ما موله من
مطلوبه آمين وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وعفى عن كاتبه ووالديه
واخوانه وكافة
المسلمين
آمين

وكان الفراغ من نسخها وكتابتها يوم الاحد في شهر ذي القعدة لستة عشر
خلت منه من شهور سنة ثاني عشرة بعد الثلاثمائة والف من هجرة
النبي عليه الصلاة واتم التسليم والرضى
اصحابه

صورة الورقة الأخيرة من نسخة (ج)



في نوبة الفقير الى مولاه الغني محمد بن سليمان الجراح الحنبلي
شرعت في قراءة هذا الكتاب الجليل ليلة السبت الموافق ... شوال ... سنة على استاذنا الشيخ أحمد عطية الأثري

وهو حي لا يموت

الحمد لله الذي وفقنا لطبع هذه الرسالة الجامعة للفوائد المشتملة على الغرر الفرائد المسماة

الكواكب الدرية

لشرح الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية

على نفقة خالد بن احمد الغانم خليل ابن ابراهيم الباكر غفر الله لهما ولوالديهما والمسلمين

باهتمام ... تاجر تجار المدينة يوسف
علي بن المرحوم ... ابن الشيخ نور الدين جيواخان غفر الله له الرحمن

مالك مطبع ...

طبع في المطبع ...

صورة الغلاف للنسخة (هـ) ويظهر عليها
خط الشيخ محمد الجراح رحمه الله

٧
نبته



بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي علا فوق مخلوقاته واعترفت بوحدانيته جميع
مصنوعاته وتقدس عن سمات المحدثات فليس له شبيه لا في
ذاته ولا في اسمائه ولا في صفاته واصلي واسلم على سيدنا محمد
الذي أوضح الله به سبيل الهدى فمن تمسك بسنته فقد فاز
ومن حاد عنها فقد ضل واعتدى وعلى آله واصحابه المتقين
ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين اما بعد فيقول الفقير
الى رحمة ربه ورضوانه محمد بن عبد العزيز بن مانع عامله الله
بلطفه واحسانه لما من الله تعالى باقرائي المنظومة الوحيدة
المسماة بالدرة المضية في عقد اهل الفرقة المرضية نظم
الامام الهمام محمد بن احمد السفاريني لجماعة من الطلاب السلفيين
ذوي الالباب رأيتها محتاجة لشرح يميط عنها حجابها ويعين على فهمها
حفاظها وقد كنت قرأت في تراجم بعض الافاضل من الحنابلة كالشيخ
العلامة حسن الشطي والشيخ الامام محمد بن علي بن سلوم وغيرهما
انهم قد اختصروا شرح ناظمها ذلك الشرح الجليل الذي سلك
فيه مسلك الاطناب والتطويل وحيث انني لم اظفر بشيء من
تلك المختصرات ولم يكن - فيما علمت مشهورا أقدمت مقتديا
بأولئك الائمة على اختصار شرح ناظمها واضفت الى ذلك فوائد

الورقة الأولى من نسخة (هـ)

النظام فالحمد لله اولا وآخرا فهو الاول والآخر والباطن والظاهر وهو بكل شئ عليم والصلاة والسلام على خير الانام نبينا محمد وعلى آله واصحابه الكرام وكان الفراغ من تبييضه ضحوة يوم الاربعاء ثامن عشر جمادى الاخرى سنة ١٣٣٤ الف وثلثمائة واربع وثلاثين على يد جامعه الفقير الى رحمة ربه محمد بن عبد العزيز بن مانع الحنبلي مذهبا والسلفي اعتقادا غفر الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات آمين رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين ه

خاتمة الطبع

الحمد لله الفرد المنزه عن ارادة الاوهام والخواطر الاحد المقدس في ذاته عن مجانسة الاجسام والجواهر خالق كل شاكر وذاكر ورازق كل جاحد وشاكر ومعدم كل منظور وناظر وباعث كل مقبور وداثر والصلوة والسلام على رسوله الكريم الذي قال الله تعالى في حقه بالمؤمنين رؤف رحيم وعلى آله واصحابه الذين جاهدوا في اعلاء الدين القويم

اما بعد فقد زين بحلى الطبع هذه الرسالة الجامعة للفوائد المشتملة على غرر الفرائد اعني الكواكب الدرية لشرح الدرة المضية في عقد اهل الفرقة المرضية بالاهتمام التام وسعي التاجر الفهام الشيخ يوسف علي بن آدم جي بن شيخ نور الدين جيوا خان غفر لهم الرحمن في المطبع الحيدري الواقع في ممبائي في شهر رجب المرجب سنة ست وثلثين وثلثمائة بعد الالف من الهجرة النبوية على صاحبها التحية والسلام وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

الورقة الأخيرة من نسخة (هـ)

تبصير القانع

في الجمع بين شرحي

ابن شطي وابن قانع

على العقيدة السفارينية

وعليها بعض التصحيحات والحواشي
للعلامة الشيخ محمد سليمان بن عبد الله الجراح
رحمه الله

جمع وترتيب
ياسر بن ابراهيم المزروعي

[المحقق]

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح ابن شطي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن شرح العقيدة المسمى بلوامع الأنوار البهية، لشرح الدرة المضية، في عقد الفرقة المرضية، قد ضمنه مؤلفه ما يبهر العقول، من صحيح المنقول وصريح المعقول، فصار بحراً زاخراً لا ساحل له، وتيهاً واسعاً لا أول له، وذكر فيه المذاهب والأقوال في هذا الباب، وبيّن الصحيح وما يُرد بما تتحير فيه أولو الألباب، فوقف عن السلوك فيه المبتدي، واستصعبه الفاضل المنتهي، مع اشتماله على ما يحتاج إليه، وجمع متفرق كلام الأصحاب المعول عليه، فقلت: ما لا يدرك كله لا يترك جله، وعزمت على اختصاره مستعيناً بالقوي المتين، فإنه خير ولي ومعين.

قال رحمه الله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي

تقدست عن الأشباه ذاته، وتنزهت عن سمات الحدوث صفاته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا ند، ولا ضد، فالكل خلقه وإليه غاياته.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله من بهرت العقول معجزاته، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ما دامت آلاء الله وأرضه وسمواته، أما بعد:

فيقول الفقير إلى مولاه العلي، محمد بن الحاج أحمد السفاريني الأثري الحنبلي، قد كان في سنة ثلاث وسبعين بعد المائة والألف طلب مني بعض أصحابنا أن أنظم أمهات مسائل اعتقادات أهل الأثر فتعللت باشتغال البال، فألح في السؤال، فلما لم يندفع نظمت أمهات مسائل عقائد السلف وسميتها (**الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية**) وعدّتها مائتا بيت وبضعة عشر، ثم بعد تمام نظمها ألح المذكور وإخوانه على تصنيف شرحٍ لهذا العقد فأجبتهم إنجاحاً لمطلوبهم، وعولت فيما قصدت على المولى الجواد الجليل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وسميته: بـ (**لوامع الأنوار البهية، وسواطع الأسرار الأثرية، لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**).

ولأُقدم أمام المطلوب مقدمة تشتمل على عشر تعريفات مهمة.

الأول: اعلم أن الملّة المحمدية تنقسم إلى اعتقاديات وعمليات. فالاعتقاديات هي التي لم تتعلق بكيفية عمل وتسمى أصلية، والعمليات هي ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية.

فالمتعلق بالعملية علم الشرائع والأحكام لأنها لا تستفاد إلاَّ من جهة الشرع، والمتعلق بالاعتقاديات هو علم التوحيد والصفات وعلم الكلام وأصول الدين. ولما كان هذا العلم أهم لابتناء العمليات عليه أوردوا البراهين والحجج عليه واكتفوا في العمليات بالظن المستفاد من الأدلة السمعية.

وعلم الكلام هو علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية. وموضوعه هو المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية، إذ موضوع كل علم ما يبحث في ذلك العلم عن عوارضه الذاتية، ولا شك أنه يبحث في هذا العلم عن أحوال الصانع من القدم والوحدة والقدرة والإرادة وغيرها ليعتقد ثبوتها له تعالى، وكذلك ما يبحث فيه عن الجواهر والأعراض والأجسام والحدوث والافتقار والتركيب من الأجزاء وقبول الفناء ونحو ذلك مما لا يجوز عليه تعالى، وهذا أولى من زعم أن موضوعه ذات الله تعالى وتقدس، للبحث عن صفاته وأفعاله.

واستمداد هذا الفن من الكتاب المنزل والتفسير والحديث والفقه والإجماع والنظر، ومسائله: القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية، وغايته: أن يصير الإيمان والتصديق بالأحكام الشرعية متقناً محكماً لا تزلزله شبهة من شبهة المبطلين. ومنفعته في الدنيا انتظام أمر المعاش بالمحافظة على العدل والمعاملة التي يحتاج إليها في إبقاء النوع الإنساني على وجه لايؤدي إلى الفساد، وفي الآخرة النجاة من العذاب المرتب على الكفر وسوء الاعتقاد، وسيأتي حد كل بحث من هذا عند ذكره في النظم إن شاء الله تعالى.

الثاني: اعلم أن الصحابة الكرام قد تنازعوا في كثير من مسائل الأحكام وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيماناً بلا انفصام، ولكن بحمده تعالى لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب والسنة على كل حال، فكلمتهم واحدة من أولهم إلى آخرهم لم يسوموها تأويلاً ولم يبدوا لشيء منها إبطالاً، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالإيمان والتعظيم.

الثالث: الرأي، مصدر وهو التفكر في مبادىء الأمور ونظر عواقبها وعلم ما يؤل إليه من الخطأ والصواب. وقد نهى الصديق ثم الفاروق ومن بعدهما من الصحابة عن القول بالرأي. وأضل كل رأي وأبطله الرأي المتضمن لتعطيل أسماء الرب وصفاته وأفعاله بالمقاييس الباطلة التي وضعها أهل البدع فردوا لأجلها ألفاظ النصوص وحرفوا المعاني.

ثم إن الرأي المذموم هو المجرد الذي لا دليل عليه من كتاب ولا سنة، وأما الرأي المسند إلى الاستدلال من النص فهذا من ألطف فهم النصوص.

الرابع: الخبر إن طابق ما في الخارج فهو صدق، وإن لم يطابق الواقع في الخارج فهو كذب، ولا فرق في ذلك بين اعتقاد المطابقة مع الصدق أو عدمها مع الكذب، وبين أن لا يعتقد شيئاً أو يعتقد عدم المطابقة مع وجودها، أو يعتقد وجودها مع عدمها، فإذا علم هذا علم أنه لا واسطة بين الصدق والكذب وهذا مذهب أهل الحق.

الخامس: تعريف المتواتر والآحاد.

التواتر اصطلاحاً خبر عدد يمتنع معه لكثرته تواطؤٌ على كذبٍ أو وقوعه منهم اتفاقاً عن محسوس أو عن عدد كذلك إلى أن ينتهي إلى محسوس من مشاهدة أو سماع، والحاصل بخبر التواتر ضروري لا يمكن دفعه عند أصحابنا والأكثر.

فالعلم الضروري ما اضطر العقل إلى التصديق به، وهذا كذلك.

ثم اعلم أن خبر التواتر لا يولد العلم بل يقع العلم عنده بفعل الله تعالى عند الفقهاء وغيرهم من أهل الحق خلافاً لمن قال بالتولد.

وأما الآحاد فهو ما عدا التواتر فدخل مستفيض مشهور وعزيز[١]، وخبر الآحاد إن كان مستفيضاً مشهوراً أفاد علماً نظرياً وقيل يفيد القطع، وغير المستفيض يفيد الظن فقط ولو مع قرينه عند الأكثر، وقال الموفق وابن حمدان والطوفي وجمع أنه يفيد العلم بالقرائن، قال المرداوي في شرح التحرير: وهذا أظهر وأصح.

السادس: يعمل بخبر الآحاد في أصول الدين، وحكى الإمام ابن عبد البر الإجماع على ذلك.

السابع: المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وأعيان التابعين لهم بإحسان وأتباعهم وأئمة الدين، لكن لما كان فشو البدع وظهورها بعد المائتين وأظهر المأمون القول بخلق القرآن وظهر مذهب الاعتزال وكان الذي قام في نحورهم ورد مقالتهم وإبطال

---

(١) المستفيض المشهور: هو ما زاد نقلته على ثلاثة عدول. والعزيز: هو ما لا تنقص نقلته عن عدلين. (د).

مذهبهم وتزييفه سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه نسب مذهب السلف إليه وعول أهل عصره من أهل الحق فمن بعدهم عليه، وإلاَّ فهو المذهب المأثور، والحق الثابت المشهور، لسائر أئمة الدين.

فالأئمة الأربعة والبخاري ومسلم وغير هؤلاء كلهم عقيدة واحدة سلفية أثرية وإن كان الاشتهار للإمام أحمد للعلة التي ذكرناها حتى إن الشيخ أبا حسن الأشعري رضي الله تعالى عنه، قال في كتابه أصول الديانة ما نصه بحروفه: فإن قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون، قيل له قولنا الذي به نقول وديانتنا التي بها ندين التمسك بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث فنحن بذلك معتصمون، وبما كان عليه الإمام أحمد بن حنبل نضر الله وجهه قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون؛ لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله تعالى به الحق عند ظهور الضلال، وأوضح به المنهاج وقمع به المبتدعين فرحمة الله تعالى عليه من إمام مقدم، وكبير مفهم، وعلى جميع أئمة المسلمين، انتهى.

الثامن: قال الجلال السيوطي في الأوائل: أول من تفوّه بكلمة خبيثة في الاعتقاد الجعد بن درهم مؤدب مروان الحمار آخر ملوك بني أمية فقال بأن الله تعالى لا يتكلم، قال شيخ الإسلام أصل فشو البدع بعد القرون الثلاثة وإن كان قد نبع أصلها في أواخر عصر التابعين. ولما كان بعد المائة الثانية انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية وكلام الأئمة في هؤلاء في ذمهم وتضليلهم معروف.

التاسع: مذهب السلف هو المذهب المنصور، والحق الثابت المأثور. قال الحافظ ابن رجب: وفي زماننا تتعين كتابة كلام أئمة السلف المقتدى بهم إلى زمن الشافعي وأحمد وإسحاق وأبـي عبيد، وليكن الإنسان على حذر مما حدث بعدهم.

وفي الآداب للعلامة ابن مفلح رحمه الله تعالى عن الطبراني قال: حدثنا عبد الله ابن الإمام أحمد قال: حدثني أبـي، قال: قبور أهل السنة من أهل الكبائر روضة، وقبور أهل البدعة من الزنادقة حفرة. فسّاق أهل السنة أولياء الله تعالى. وزهّاد أهل البدعة أعداء الله تعالى.

العاشر: اعلم رحمك الله تعالى أن اصطلاحي في هذا الشرح الاستدلال بالكتاب القديم، وبقول النبـي الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، واقتفاء الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وما درج عليه الرعيل الأول من القرون المفضلة مما تلقاه أئمة الدين بالقبول. وإن زعم متحذلق[1] أنه يباين العقول فهو كلام باطل، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تأتي بمحارات العقول لا بمحالاتها.

ومرادي بالشيخ أو شيخ الإسلام حيث أطلق شيخ الإسلام ابن تيمية، ومرادي بالمحقق تلميذه ابن القيم، وبالعلامة ابن مفلح، وهذا أوان الشروع في المقصود.

(بسم الله)، أي: باسم مسمى هذا اللفظ الأعظم الموصوف بأوصاف الكمال، فالباء متعلقة بمحذوف تقديره فعلاً خاصاً مؤخراً أولى من تقديره اسماً عاماً مقدماً، فتقديره أؤلف عند التأليف أولى من أبتدىء،

---

(١) التحذلق: إظهار الحذق وادعاء المرء أكثر مما عنده. (د).

وكذا عند القراءة ونحو ذلك، وحذفت همزة الوصل من الاسم خطاً كما حذفت لفظاً وكتبت الباء متصلة بالسين لكثرة الاستعمال، وطولت الباء للتعظيم ولتكون كالعوض عن الهمزة وهي للاستعانة أو المصاحبة أو التعدية، أي: أقدم اسم الله تعالى وأجعله ابتداء نظمي وتأليفي.

والاسم لغة: ما دل على مسمى، وعرفاً: ما دل مفرداً على معنى في نفسه ولم يقترن بزمان، والتسمية جعل اللفظ دالاً على المعنى وهو مشتق عند البصريين من السمو وهو العلو لأنه يدل على مسماه فيعليه ويظهره، وعند الكوفيين من السمة وهي العلامة لأنه علامة على مسماه.

فائدة: الاسم في حق المخلوق غير المسمى، وفي الخالق تعالى لا غير ولا عين. قال الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه بدائع الفوائد: أسماء الله تعالى الحسنى التي في القرآن من كلامه تعالى وكلامه غير مخلوق، لا يقال هي غيره ولا هي هو، وهذا المذهب مخالف لمذهب المعتزلة الذين يقولون أسماؤه غيره وهي مخلوقة انتهى.

والله علم على الذات «الواجب الوجود» المستحق لجميع المحامد، وهو عربي عند الأكثر. وأكثر محققي النظار على عدم اشتقاقه بل هو اسم مفرد مرتجل للحق جل شأنه.

(الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من رحم بجعله لازماً بنقله إلى باب فعُل بضم العين أو بتنزيله منزلة اللازم إذ هما صفتان مشبهتان، وهي لا تشتق من متعد، والرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى غالباً.

فالرحمن صفة في الأصل بمعنى كثير الرحمة جداً ثم غلب على البالغ في الرحمة غايتها وهو الله تعالى والرحيم ذو الرحمة الكثيرة، وأتى به بعد الرحمن الدال على جلائل النعم إشارة إلى أن ما دل عليه من دقائق الرحمة وإن ذكر بعدما دل على جلائلها الذي هو المقصود الأعظم مقصود أيضاً لئلا يتوهم أنه غير ملتفت إليه.

ورحمة الله جل شأنه صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تقتضي التفضل والإنعام، وأمّا تفسيرها برقة في القلب تقتضي التفضل، فالتفضل غايتها فيراد منها غايتها كما يقوله من يقوله من المتكلمة كالزمخشري وغيره من النظار، فهذا إنما يليق برحمة المخلوق لا برحمة الخالق تعالى وتقدس وبينهما بون، ونظير ذلك العلم فإن حقيقة علمه تعالى القائمة به ليست مثل الحقيقة القائمة بالمخلوق بل نفس الإرادة التي يرد بعضهم الرحمة إليها هي في حقه تعالى مخالفة لإرادة المخلوق، إذ هي في حق المخلوق ميل قلبه إلى الفعل أو الترك والله تعالى منزه عن ذلك.

وكذلك رد الزمخشري لها في حقه تعالى إلى الفعل بمعنى الإنعام والتفضّل فإن فعل العبد الاختياري إنما يكون لجلب نفع للفاعل أو دفع ضر عنه ولا كذلك فعله تعالى، فما فر منه أهل التأويل موجود فيما فروا إليه من المحذور، وبهذا ظهر أنه لا حاجة إلى دعوى المجاز في رحمته تعالى فإنه خلاف الأصل وهو إنما يصار إليه عند تعذر حمل الكلام على حقيقته ولا تعذر هنا كما لا يخفى، وكذا معيار المجاز صحة نفيه كما إذا قيل زيد أسد أو بحر لشجاعته أو كرمه، فإنه يصح أن تقول ليس بأسد أو ليس ببحر وهذا مما لا خفاء، فيه ولا يصح أن يقال الله تعالى ليس

برحيم، فلو كانت الرحمة مجازاً في حقه تعالى لصح ذلك، ولا ريب، أن الرحمة صفة كمال.

والحاصل أن الصفة تارة تعتبر من حيث هي هي، وتارة تعتبر من حيث قيامها به تعالى، وتارة من حيث قيامها بغيره، وليست الاعتبارات متماثلة إذ ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، والكلام على الصفات فرع عن الكلام في الذات، كما أنا نثبت ذاتاً ليست كالذوات فلنثبت رحمة ليست كرحمة المخلوق.

شرح ابن مانع

(بسم الله الرحمن الرحيم)

وبه نستعين

الحمد لله الذي علا فوق مخلوقاته، واعترفت بوحدانيته جميعُ مصنوعاته، وتقدس عن سمات المحدثات، فليس له شبيه لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته.

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد الذي أوضح الله به سبيل الهدى، فمن تمسك بسنّتِهِ فقد فاز، ومن حاد عنها فقد ضل واعتدى، وعلى آله وأصحابه المتّقين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين.

أمّا بعد: فيقول الفقير إلى رحمة ربّه ورضوانه، محمدُ بنُ عبد العزيز بنُ مانع ــ عامله الله بلطفه وإحسانه ــ لما منّ الله تعالى بإقرائي المنظومةَ الوحيدةَ المسماةَ (**بالدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية**) نظمَ الإمام الهمام محمدِ بنِ أحمد السفاريني، لجماعة من الطلاب السلفيينَ ذوِي الألباب، رأيتها محتاجة لشرح يميط عنها حجابَها، ويعين

على فهمها حُفَّاظَها، وقد كنت قرأت في تراجم بعض الأفاضل من الحنابلة، كالشيخ العلامة حسن الشطي، والشيخ الإمام محمد بن علي بن سلوم، وغيرهما، أنهم قد اختصروا شرح ناظمها، ذلك الشرح الجليل الذي سلك فيه مسلك الإطناب والتّطويل.

وحيث إني لم أظفر بشيء من تلك المختصرات، ولم يكن ـ فيما علمتُ ـ مشهوراً أقدمتُ مقتدياً بأولئك الأئمة على اختصار شرح ناظمها وأضفت إلى ذلك فوائد كثيرةً مما وجدته في كتب المحققين، مما يهم طالبَ العلم درايَتُهُ، وسميت هذا المختصرَ (**الكواكبَ الدّرية، لشرح الدرّة المضية، في عقد أهل الفرقة المرضية**) ومن الله وحده أستمد الإعانة، إنه خير معين.

قال الناظم مبتدئاً بالبسملة: (**بسم الله الرحمن الرحيم**)، أي: باسم مسمى هذا اللفظِ الأعظمِ، الموصوف بأوصاف الكمال ابتدائي، والله علم للذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد لم يطلق على غيره.

والرَّحْمن الرّحيم: اسمان مشتقان من رَحُمَ بجعلِهِ لازماً، أو بتنزيله منزلة اللازم، إذ هما صفتان مشبهتان.

والرَّحمن: أبلغ من الرحيم؛ لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى غالباً، والرحمن في الأصل بمعنى: كثير الرحمة، ثم غلب على البالغ في الرحمة غايتَها، وهو الله.

والرّحيم: ذو الرّحمة الكثيرة، وأتى به بعد الرحمن الدال على جلائل النعم، إشارة إلى أن ما دل عليه من دقائق الرحمة فيكون كالتتمة.

* * *

الحمدُ للَّـه القديمِ الباقي مسببُ الأسبـاب والأرزاقِ

شرح ابن شطي

(الحمد) لغة: الثناء باللسان على الجميل الاختياري على جهة التعظيم والتبجيل، وعرفاً: فعل ينبىء عن تعظيم المنعم على الحامد أو غيره. وأل في الحمد للجنس أو الاستغراق أو العهد، أي: كل الحمد مستحق أو جنسه مختص ومملوك (لله)، وإن كانت أل للعهد فالمعهود ثناء الله تعالى على نفسه وثناء ملائكته ورسله وأنبيائه وخواص خلقه.

واللام في لله للملك أو الاستحقاق أو الاختصاص، ولما ابتدأ بالبسملة ابتداءً حقيقياً أعقبها بالحمدلة ابتداءً إضافياً.

(القديم) نعت لله تعالى وهو اسم من أسمائه. والقديم هو الذي لم يسبق وجوده عدم فإنه سبحانه وتعالى متصف بالقدم وهي صفة سلبية في اصطلاحهم والصفات السلبية ما مدلولها عدم أمر لا يليق به تعالى، فَقِدَمَهُ تعالى ذاتي واجب له تعالى غير مسبوق بعدم، إذ هو تعالى لا ابتداء لوجوده.

(الباقي) مشتق من البقاء وهو امتناع لحوق العدم، والبقاء صفة واجبة له تعالى كما وجب له القدم لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه.

تنبيه: نقل بعض المحققين أن البقاء صفة نفسية وعن الأشعري أنها صفة معنى، والمشهور عند المتكلمين المحققين أنها صفة سلبية كالقدم ومنهم من ذهب إلى أن القدم سلبي والبقاء وجودي، ومعنى ما ذكرنا أنه تعالى لا يشاب بالعدم وهذا من نعوت الجلال، والجلالُ عبارة عن الصفات السلبية، ففي القدم سلب الحدوث وفي البقاء سلب الفناءِ ولحوقِ العدم فنعوت الجلال كالقوام للكمال.

(مسبب **الأسباب**) المتوصل بها إلى مسبباتها، أي: خالق الأسباب المتوصلِ بها إلى المطلوب، فإن قلت: هل من أسمائه تعالى المسبب حتى أطلقته عليه مع أن أسمائه توقيفية أم كيف الحكمَ، قلتُ: ذكر غير واحد من المحققين منهم الإمام المحقق في بدائع الفوائد أن ما يطلق عليه سبحانه وتعالى في باب الأسماءَ والصفات توقيفي وما يطلق عليه في باب الأخبار لا يجب أن يكون توقيفياً كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه.

(و)مقدر (**الأرزاق**) بالفتح جمع رزق بالكسر ما ينتفع به من حلال وحرام.

شرح ابن مانع

قال الناظم رحمه الله تعالى:

قوله: (**الحمد لله**) الحمد لغة: الثناء باللسان على الجميل الاختياري على جهة التعظيم والتبجيل، وعرفاً: فعل يُنْبِـيءُ عن تعظيم المنعم على الحامد وغيره.

والشكر لغة: هو الحمد اصطلاحاً، وعرفاً: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله، فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه.

فالحمد أعم من جهة المتعلق؛ لأن متعلقه الفواضل، والفضائل. فالفواضل: الصفات المتعدية كالكرم، والفضائل: الصفات اللازمة كالجمال وجودة الذهن ونحو ذلك، وأخص من جهة المورد؛ لأن مورده اللسان، والجَنان فقط.

والشكر أعم من جهة المورد؛ لأن مورده اللسان، والجنان والأركان.

قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضميرَ المحجبا

وأخص من جهة المتعلق، لأن متعلقه الصّفات الفواضل فقط.

و(**القديم**): نعت لله تعالى، وهو الذي لم يسبق وجوده عدم، وبرهانه أنه لو كان حادثاً، ولم يكن قديماً، لافتقر هو أيضاً إلى محدث، وافتقر محدثه إلى محدث، فأما تسلسل ذلك إلى ما لا نهاية، وما تسلسل لم يتحصل أو ينتهي إلى محدث قديم هو الأول، وذلك هو المطلوب الذي سميناه محدث العالم وبانئه.

(**الباقي**): مشتق من البقاء، وهو امتناع لحوق العدم، والبقاء صفة واجبة لله كما وجب له القدم؛ لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه.

(**مسبب الأسباب**): المتوصل بها إلى مسبباتها، وفي نسخة: مقدر الآجال، وهي أولى لأمرين: الأول: أن المقدر من صفات أفعاله المعبر عنها بالفواضل، وفي نسخة بدل الآجال: الأقدار، وهي أعم. والثاني: الدلالة على تقدير الآجال جمع أجل محركة، غاية الوقت في الموت، وحلول الدين، ومدة الشيء.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

(و)مقدر (**الأرزاق**): جمع رزق ــ بالكسر ــ ما ينتفع به من حلال وحرام.

* * *

حـيٌّ عليـمٌ قـادرٌ مـوجـودُ قامت بهِ الأشياءُ والوجودُ

(حي)، أي: لم يزل موجوداً وبالحياة موصوفاً، وسائر الأحياء يعترضهم الموت والعدم في أحد الطرفين[1] أو فيهما معاً ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، والحياة صفة ذاتية حقيقية قائمة بذاته تعالى.

(عليم) بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم خلقه.

(قادر)، أي: ذو القدرة التامة، والقدرة عبارة عن صفة يوجد بها المقدور على طِبْقِ العلم والإرادة.

(موجود) سبحانه وتعالى بالوجود القديم لأن العالم وكل جزء من أجزائه حادث ومفتقر من حيث وجوده وعدمه إليه تعالى من حيث صانعيته وإيجاده إياه، وصانع العالم المحتاج إليه في وجوده لا يكون إلا واجباً بخلاف وجود غيره فإنه جائز.

(قامت)، أي: وجدت واستمرت (به) سبحانه وتعالى **(الأشياء)** كلها من الجواهر والأعراض العلوية والسفلية، **(و)**قام به **(الوجود)** لكل موجود سواه، فهو الذي خلقه وسوّاه، وأحدثه وأنشاه، فوجود الباري صفة له واجب قديم، ووجود غيره جائز محدث بإحداث الخالق الحكيم.

---

(١) وجد هنا على هامش نسخة المختصِر بخط ولده السيد الشيخ أحمد الشطي مفتي الحنابلة الأسبق ما نصه:
الطرفان هما الوجود والحياة فلو فرضنا شيئاً موجوداً حياً وانعدم ومات فباعتبار كونه كان موجوداً ثم اتصف بالعدم اعترضه العدم من بعد الوجود، وباعتبار موته من بعد اتصافه بالحيوة اعترضه الموت من بعد الحياة، وباعتبار الوصفين معاً اعترضه الوصفان المضادان لهما. اهـ. (د).

وعطف الوجود على الأشياء من عطف الخاص على العام للتنصيص عليه راداً على القائلين بكلية الوجود ووحدته وأنه قديم وأنه موجود في الخارج وهذا ضرب من الهذيان، فإنه من المعلوم بصريح العقل وصحيح النقل أن الخالق المبدع ليس هو المخلوق ولا جزءًا من أجزائه ولا صفة من صفاته تعالى وتقدس عما يقولون علواً كبيراً.

شرح ابن مانع

قوله: (**حي**)، أي: لم يزل موجوداً وبالحياة موصوفاً، والحياة: صفة ذاتية حقيقية قائمة بذاته تعالى. (**عليم**) بالسرائر والخفيات، التي لا يدركها علم خلقه. (**قادر**)، أي: ذو القدرة التامة.

(**موجود**): بالوجود القديم؛ لأن العَالَم وكل جزء من أجزائه حادث ومفتقر من حيث وجوده وعدمه إليه تعالى.

(**قامت**)، أي: وجدت واستمرت (**به**) سبحانه وتعالى، (**الأشياء**): كلها، من الجواهر والأعراض، (**و**)قام به (**الوجود**) لكل موجود سواه. فوجود الباري واجب قديم، ووجود غيره جائز محدث بأحداث الخالق الحكيم.

* * *

دلت على وجوده الحوادثُ سبحانه فهو الحكيم الوارث

ثـم الصـلاةُ والسـلامُ سـرمـداً على النبـيِّ المصطفـى كنـزِ الهُـدى

وآلِـهِ وصحبـهِ الأبـرارِ معـادنِ التَّقـوى مـع الأسـرارِ

شرح ابن شطي

(**دلت**) دلالة عقلية قطعية (**على وجوده**) سبحانه وتعالى (**الحوادث**) جمع حادث وهو خلاف القديم.

(**سبحانه**) وتعالى، وهو اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه وانتصابه بفعل متروك إظهاره (**فهو الحكيم**)، أي: المتقن لخلق الأشياء بحسن التدبير وبديع التقدير، بحيث يخضع العقل لرفعته، ويشهد بإتقان صنعته. والحكيم من أسمائه تعالى وهو ذو الحكمة، وهي إصابة الحق بالعلم. فالحكمة منه تعالى علم الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام.

(**الوارث**)، أي: الباقي بعد فناء الخلق والمسترد لأملاكهم ومواريثهم بعد موتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

ثم إني بعد ابتدائي بالبسملة والحمدلة والثناء عليه تعالى بما هو أهله أعقبته بالصلاة على النبي ﷺ إظهاراً لعظمة قدره وأداء لبعض حقوقه الواجبة إذ هو الواسطة بين الله تعالى وبين عباده امتثالاً لقوله تعالى: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ فقلت:

(**ثم الصلاة**) وهي من الله تعالى الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن غيرهم التضرع والدعاء بخير، (**والسلام**) بمعنى التحية والسلامة من النقائص والرذائل (**سرمداً**)، أي: دائماً متصلاً، والسرمد الدائم.

(على النبي) وهو إنسان أوحي إليه بشرع وإن لم يؤمر بتبليغه فإن أمر بتبليغه فهو رسول أيضاً على المشهور.

(المصطفى)، أي: المختار والمستخلص، مأخوذ من الصفوة.

(كنز)، أي: معدن ومقر **(الهدى)** وموضعه الذي نشأ عنه، والكنز في الأصل المال المدفون تحت الأرض، والهدى مصدر ومعناه الرشاد والدلالة ولو غير موصلة.

(و)الصلاة والسلام الدائمان على **(آله)** صلَّى الله عليه وسلم وهم أتباعه على دينه **(و)**الصلاة والسلام الدائمان على **(صحبه)** اسم جمع لصاحب والمراد بالصاحب هنا الصحابي، والصحابي من اجتمع بالنبي ﷺ مؤمناً ولو لحظة ومات على ذلك ولو تخلله ردة، **(الأبرار)** جمع البر أو البار وهو الصادق.

(معادن) جمع معدن وهي المواضع التي يستخرج منها جواهر الأرض، والعدن الإقامة، والمعدن مركز كل شيء.

(التقوى) ومواضعها، والتقوى لغة: الحجز بين شيئين، وشرعاً: التحرز بطاعة الله تعالى عن مخالفته وامتثال أمره واجتناب نهيه.

(مع الأسرار) البديعة والأحوال الرفيعة، والسر ما استودعته لأخيك وكرهت أن يطلع عليه أحد.

تنبيه: ذكر الحافظ أبو زرعة أن أصحاب النبي ﷺ يزيدون على مائة ألف، وروي أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ممن روى عنه وسمع منه ﷺ.

قلت: جزم بهذا العدد الجلال السيوطي.

قوله: (**دلت**)، أي: دلالة عقلية قطعية (**على وجوده**) سبحانه وتعالى، (**الحوادث**): جمع الحادث، وهو خلاف القديم. (**سبحانه**): اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه، (**فهو**) تعالى (**الحكيم**). أي: المتقن لخلق الأشياء بحسن التدبير وبديع التقدير. (**الوارث**)، أي: الباقي بعد فناء خلقه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: (**ثم الصلاة**)، هي من الله الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، ومن غيرهم التضرع، والدعاء بخير، (**والسلام**): بمعنى التحية والسلامة من النقائص والرذائل.

قال ابن الجوزي: وأما الجمع بين الصلاة والسلام، فهو الأولى، والأكمل، والأفضل. لقوله تعالى: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾. ولو اقتصر على أحدهما جاز من غير كراهة.

(**سرمداً**): أي دائماً، (**على النبي**): وهو إنسان أوحي إليه بشرع وإن لم يؤمر بتبليغه، فإن أمر بتبليغه فهو رسول أيضاً. (**المصطفى**)، أي: المختار.

وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع مرفوعاً: «أن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم» ورواه الترمذي. ولفظه: «أن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

(**كنز الهدى**)، أي: معدن الرشاد، (**و**)الصلوات والسلام على (**آله**)، أي: أتباعه على دينه. ولذا قال نشوان:

آل النبــــي هـــم أتبـــاع ملَّتـــه
مـــن الأعـــاجـــم والســـودان والعـــرب
لـــو لـــم يكـــن آلـــه إلا قـــرابتـــه
صلـــى المصلّـــي علـــى الطـــاغـــي أبـــي لهـــب

(**و**)على (**صحبه**): اسم جمع لصاحب، والمراد به هنا: الصحابي، وهو من اجتمع بالنبي مؤمن به، ولو لحظة، ومات على ذلك.

و(**الأبرار**): جمع بار، وهو الصادق، والكثير البر، والصدق في اليمين.

(**معادن**): جمع معدن، الموضع الذي تستخرج منه جواهر الأرض. أي: هم مستقر التقوى، ومواضعها.

و(**التقوى**): التحرز بطاعة الله عن مخالفته، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، (**مع الأسرار**) الرفيعة، والأحوال البديعة.

* * *

وَبَعْـدُ فَـاعْلَـمْ أَنَّ كُـلَّ العِلْـمِ كالفَرْعِ للتَّوْحِيدِ فَاسْمَعْ نَظْمِي
لأنَّـه العلْـم الَّـذي لا يَنْبَغـي لِعـاقـلٍ لِفَهْمِـهِ لَـمْ يَبْتَغِـي (١)

شرح ابن شرطي

(وبعد) الواو بدل عن أما النائبة عن مهما، ولتضمنها معنى الشرط لزمت الفاء في جوابها. وبعد من الظروف ويؤتى بها للانتقال من أسلوب إلـى غيـره، أي: بعـد البسملـة والحمـدلـة والصـلاة والسـلام علـى رسـول الله ﷺ وعلـى آلـه وصحبـه، ويستحـب الإتيـان بهـا فـي الخطـب والمكاتبات.

(فاعلم) الفاء في جواب الواو النائبة عن أما والعلم صفة يميز المتصف بها بين الجواهر والأجسام والأعراض، والواجب والممكن والممتنع، تمييزاً جازماً مطابقاً.

(أن كل العلم)، أي: سائر العلوم الشرعية وكذا العقلية (كالفرع لـ) علم ا(لتوحيد) المتفرع عليه والناشىء عنه، (فاسمع) سماع فهم وعرفان (نظمي) لأمهات مسائله.

والتوحيد تفعيل للنسبة كالتصديق والتكذيب لا للجعل، فمعنى وحدت الله تعالى نسبته للوحدانية لا جعلته واحداً، فإن وحدانية الله تعالى ذاتية له ليست بجعل جاعل. والتوحيد التصديق بما جاء به النبي ﷺ من الخبر الدال على أنه تعالى واحد في ألوهيته لا شريك له والتصديق بذلك الخبر أن ينسب إلى الصدق ومطابقة الواقع بالقلب واللسان معاً، لأنا نعني بالتوحيد هنا الشرعي وهو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً

(١) كذا في (أ) و(ب) وهو أسلم للوزن لما في الشرحين.

وصفاتٍ وأفعالاً، فلا تقبل ذاته الانقسام بوجه ولا تشبه صفاته الصفات ولا تنفك عن الذات ولا يدخل أفعاله الاشتراك.

وإنما كانت العلوم كالفرع لعلم التوحيد لأنه أشرف العبادات وشرط في صحة كل عبادة وشرط لقبول الأعمال، وإنما سمي هذا العلم بالتوحيد لأنه أكثر مسائله.

(لأنه)، أي: علم التوحيد **(العلم)** العظيم القدر **(الذي لا ينبغي)**، أي: لا يطلب ولا يحسن **(لعاقل)** من ذكر وأنثى **(لفهمه)**، أي: لإدراك صور معرفته في ذهنه واقتداره على الاتصاف بالعلم به **(لم يبتغ)**، أي: لم يطلبه ويدأب في تحصيله ليكون في إيمانه على بصيرة، ويباين أهل الشك والريب والحيرة.

شرح ابن مانع

قوله: **(وبعد)**، هذه كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى غيره. أي: بعد الحمدلة، والصلاة والسلام. **(فاعلم)**: أمر من العلم، وهو صفة يميز المتصف بها بين الجواهر والأعراض. **(أن كل العلم)**، أي: سائر العلوم الشرعية، وكذا العقلية، **(كالفرع لـ)**ـعلم ا**(لتوحيد)** المتفرع عليه، والناشىء عنه.

والتوحيد ثلاثة أقسام:

توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الصفات.

فتوحيد الربوبية: أنّ لا خالق، ولا رازق إلا الله.

وتوحيد الإلـهية: إفراده تعالى بالعبادة.

وتوحيد الصفات: أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به نبيه ﷺ نفياً وإثباتاً.

(فاسمع): سماع فهم وإذعان. **(نظمي)**: لأمهات مسائله. **(لأنه)**، أي: ـ علم التوحيد ـ **(العلم)** العظيم. **(الذي لا ينبغي)**، أي: لا يحسن **(لـ)**ـشخص بالغ **(عاقل)** من بني آدم ذكراً أو أنثى. **(لفهمه)**، أي: إدراك صور معرفته في ذهنه. **(لم يبتغ)**، أي: لم يطلبه ليكون في إيمانه على بصيرة.

* * *

فَيَعْلَـمُ الـواجِـبَ والمُحـالا كجـائـزٍ فـي حقِّـهِ تَعَـالـى

وَصار مِن عَادةِ أهلِ العلمِ أن يَعتنوا في سَبْرِ ذا بالنَّظم

لأنَّـهُ يَسْهُـلُ لِلْحِفْـظِ كَمـا يَرُوق للسّمع ويشفي من ظما

فمـن هُنـا نظمـت لـي عَقيـدة أُرْجُـوزَةً وجيـزَةً مُفيـدة

نَظَمتُهـا فـي سِلكِهَـا مُقَـدِّمـة وَسِتُ أبوابٍ كذاك خَاتِمَة

شرح ابن شطي

(فيعلم الواجب)، أي: يجب على كل مكلف شرعاً أن يعرف ما يجب لله تعالى وهو ما لا يتصور في العقل عدمه كوجوده تعالى ووجوب قدمه.

(و)يعلم (المحالا) وهو ما لا يتصور في العقل وجوده كالشريك له تعالى، وألفه للإطلاق، (كجائز) وهو ما يصح في نظر العقل وجوده وعدمه على السواء كإرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع ونسخ بعضها ببعض إلى سائر ما يجوز (في حقه تعالى) وتقدس، ومثل ذلك لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

(وصار) في هذه الأزمنة ومن قبلها (من عادة أهل العلم) بالسنة (أن يعتنوا)، أي: يقصدوا ويهتموا (في سبر)، أي: تتبع مهمات مسائل (ذا)، أي: هذا العلم (بالنظم) لسهولة حفظه.

(لأنه)، أي: المنظوم (يسهل) سَهُل لانَ ويَسُر (للحفظ، كما يروق) أي: يحسن ويلذ (للسمع ويشفي)، أي: يبرىء (من ظما)، أي: من شدة عطش واشتياق إلى معرفة أصول علم التوحيد.

(**فمن هنا**)، أي: من أجل ما ذكرنا (**نظمت**) النظم التأليف (**لي**) ولمن كان مثلي (**عقيدة أُرجوزة**)، أي: مرجزة النظم من بحر الرجز (**وجيزة**)، أي: قليلة (**مفيدة**)، أي: مربحة لمن قرأها.

(**نظمتها في سلكها**)، أي: خيطها، (**مقدمة**) بكسر الدال على الأفصح من قدم بمعنى تقدم، ومقدمة العلم ما يتوقف الشروع فيه عليها، (**وست أبواب**) جمع باب وهو فرجة في ساتر يتوصل بها من خارج إلى داخل ومن داخل إلى خارج، وفي العرف اسم لطائفة من العلم يشتمل على فصول وفروع ومسائل غالباً، (**كذاك**) يشتمل على (**خاتمة**) وهي في اللغة عاقبة الشيء وآخرته وهنا من هذا القبيل ما يأتي به المصنف أو الناظم في آخر كتابه أو في آخر بحث أو مسألة لتعلقها بما تقدمها في الجملة.

وهذه فهرسة ما ذكرنا: **المقدمة** في ترجيح مذهب السلف على غيره، **الباب الأول** في معرفة الله تعالى وما يتعلق بذلك، **الثاني** في الأفعال، **الثالث** في الأحكام والكلام على الإيمان ومتعلقات ذلك، **الرابع** في بعض السمعيات من الحشر والنشر وإشراط الساعة ونحو ذلك، **الخامس** في النبوات ومتعلقاتها وفضل الصحابة، **السادس** في ذكر الإمامة ومتعلقاتها، **والخاتمة** في فوائد جليلة.

شرح ابن مانع

قوله: (**فيعلم الواجب**)، أي: يجب شرعاً على كل مكلف أن يعرف ما يجب لله تعالى، وهو ما لا يتصور في العقل عدمه كوجوده تعالى، ووجوب قدمه، (و)يعلم (**المحالا**): وهو ما لا يتصور في العقل وجوده كالشريك له تعالى.

(كـ)ـما يجب على كل مكلف أن يعلم لكل حكم (**جائز**)، وهو ما يصح في نظر العقل وجوده وعدمه على السواء، كإرسال الرسل وإنزال الكتب (**في حقه تعالى**) وتقدس، ومثل ذلك لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم. وسيأتي تفصيل ذلك في محله.

قوله: (**وصار**)، أي: في هذه الأزمنة، (**من عادة أهل العلم**) بالسنة، (**أن يعتنوا**)، أي: يشتغلوا ويهتموا. (**في سبر**)، أي: تتبع. (**ذا**)، أي: هذا العلم (**بالنظم**) لسهولة حفظه. ولهذا قال: (**لأنه**)، أي: المنظوم. (**يسهل**)، أي: يلين (**للحفظ**)، والعلوق في الحافظة، (**كما**) أنه (**يروق**)، أي: يحسن (**للسمع**) لكونه ينبسط له ويلتذ بسماعه. (**ويشفي**)، أي: يبرىء. (**من ظما**)، أي: عطش، واشتياق إلى معرفة أصول علم التوحيد، وفيه استعارة مصرحة.

قوله: (**فمن هنا**). أي: من أجل ما ذكرنا من فائدة النظم. (**نظمت**)، أي: ألفت (**لي**) ولمن كان مثلي من متبعي السلف الصالح. (**عقيدة**): سلفية أثرية. (**أرجوزة**)، أي: من بحر الرجز، أحد بحور الشعر الستة عشر. (**وجيزة**)، أي: قليلة الألفاظ، ولكنها كثيرة المعاني. (**مفيدة**)، أي: مربحة من قرأها.

(**نظمتها**)، أي: نظمت مسائلها. (**في سلكها**)، أي: خيطها. (**مقدمة**) ــ بكسر الدال ــ على الأفصح. (**وست أبواب**): جمع باب، وهو في العرف: اسم لطائفة من العلم يشتمل على فصول وفروع ومسائل غالباً. (**كذاك**): يشتمل أيضاً على (**خاتمة**) وهي عاقبة الشيء وآخرته.

* * *

وسَمْتُهـا بـالـدُّرة المُضِيّـةِ في عَقدِ أهلِ الفِرقةِ المَرْضِيَّةِ
عَلَى اعتقادِ ذِي السّدادِ الحَنبلي إمامِ أهلِ الحق ذي القَدْرِ العَلِي
حبـرِ المـلاَ فـردِ العُلـى الـرَّبَّـانـي
رَبِّ الحِجَـا مـاحي الـدُّجـا الشَّيبـاني

شرح ابن شطي

ولما نظمت هذه العقيدة (**وسمتها**) من السمة وهي العلامة (**بالدرة**) بضم الدال المهملة وفتح الراء المشددة اللؤلؤة العظيمة (**المضية**)، أي: المنورة (**في عَقْدِ**)، أي: اعتقاد (**أهل الفرقة**)، أي: الطائفة (**المرضية**) في اعتقادها.

(**على اعتقاد**) متعلق بنظمت. والاعتقاد هو حكم الذهن الجازم، فإن كان موافقاً للواقع فهو صحيح وإلا فهو فاسد. (**ذي**)، أي: صاحب (**السداد**) بفتح السين، القصد في الدين والسبيل، والمراد بذي السداد هو الإمام الأمجد إمامنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل المَرْوَزي ثم البغدادي (**الحنبلي**) نسبة إلى جده (**إمام أهل الحق ذي القدر**)، أي: المقدار، (**العلي**)، أي: المرتفع لكثرة فضائله وتوفر محامده ومناقبه وآثاره في الإسلام المشهورة ومقاماته في الدين المذكورة، فقد انتشر ذكره في البلاد وعم نفعه العباد. قال الإمام إسحاق بن راهويه: الإمام أحمد حجة بين الله تعالى وبين عبيده في أرضه.

(**حبر الملأ**) بفتح الحاء وكسرها وسكون الباء: العالم والصالح، والملأ بفتح الميم واللام مهموز: أشراف الناس.

(**فرد**)، أي: واحد صاحب الخصال (**العلا**)، أي: المرتفعة (**الرباني**)، أي: العالم العامل المعلم للعلم غيره، وهو منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون للدلالة على كمال الصفة وهو الشديد التمسك بدين الله تعالى وطاعته.

(**رب**)، أي: صاحب (**الحجى**) كالي العقل والفطنة.

كان سيدنا الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه ربعة من الرجال حسن الوجه والهيئة لا يخوض في شيء من أمور الناس، ذا وقار وسكينة من أحيا الناس وأكرمهم نفساً وأحسنهم عشرة لا يسمع منه إلا المذاكرة بالحديث وذكر الصالحين، (**ماحي**) بنور السنة، أي: مذهب أثر (**الدجى**)، أي: ظلمة البدعة، يقال دجى الليل، أي: أظلم.

(**الشيباني**) نسبة إلى أحد أجداده شيبان المذكور في نسبه.

شرح ابن مانع

قوله: (**وسمتها**) من السمة وهي العلامة، أي: أسميتها ـ يعني عقيدته ـ (**بالدرة**)، أي: اللؤلؤة. (**المضية**)، أي: المنورة. (**في عقد**)، أي: اعتقاد. (**أهل الفرقة**)، أي: الطائفة (**المرضية**) في اعتقادها.

قوله: (**على اعتقاد**). متعلق بنظمت، والاعتقاد حكم الذهن الجازم، فإن كان مطابقاً للواقع فهو صحيح، وإلا فهو فاسد. و(**ذي**): بمعنى صاحب. و(**السداد**) ـ بفتح السين المهملة ـ ، أي: القصد في الدين والاستقامة، والمراد به: إمامنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل المروزي، ثم البغدادي (**الحنبلي**)، نسبة إلى جدّه أبي أبيه حنبل. (**إمام أهل الحق**): الذين هم الفرقة الناجية لاعتصامهم بالكتاب والسنة.

(**ذي**)، أي: صاحب. (**القدر**)، أي: المقدار. (**العلى**)، أي: المرتفع لكثرة فضائله.

قال الإمام الشافعي: خرجت من بغداد وما خلفت فيها أحداً أتقى ولا أورع، ولا أفقه، ولا أعلم من أحمد بن حنبل.

(**حبر الملأ**): الحبر ـ بفتح الحاء المهملة وكسرها وسكون الموحدة ـ العالم المتقن، والملأ: أشراف الناس. (**فرد**)، أي: واحد. (**العلا**): السامية. (**الرباني**): هو الذي يربّى بصغار العلم قبل كباره، كما في صحيح البخاري.

وقال ابن عباس: الرباني هو المعلم أخذه من التربية، أي: يربي الناس كما يربي الطفلَ أبوه.

(**رب**)، أي: صاحب. (**الحجى**)، أي: العقل. (**ماحي**) بنور السنّة (**الدُّجى**)، أي: ظلمة البدعة.

(**الشيباني**): نسبة إلى شيبان أحد أجداده.

* * *

فَــإنَّــهُ إمــامُ أهــلِ الأثــرِ فمَن نَحَا منحاه فهوُ الأثَري

سقَــى ضَــريحــاً حلَّــهُ صَــوبُ الــرضَــى
والعَفْــوُ والغُفْــرانُ مَــا نجــمٌ أضَــا

وحلَّــهُ وســائِــرَ الأئِمَّــةِ مَنَازِلَ الرِّضوانِ أعلَى الجَنَّةِ

شرح ابن شطي

(فإنه)، أي: الإمام أحمد (إمام أهل)، أي: أصحاب (الأثر)، يعني: الذين يأخذون عقيدتهم من المأثور.

(فمن)، أيْ أيّ إنسان (نحا)، أي: قصد (منحاه)، أي: مقصده (فهو)، أي: ذلك الذاهب (الأثري)، أي: المنسوب إلى العقيدة الأثرية والفرقة السلفية.

ولد رضي الله تعالى عنه في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة ببغداد وتوفي نهار الجمعة من ربيع الأول لاثنتي عشرة ليلة خلت منه سنة إحدى وأربعين ومائتين، وغسله المرَوْذِي[1] وحزر من صلى عليه بمائة ألف ألف وعلى السور نحو ستين ألف سوى من كان في السفن.

(١) هو أبي بكر أحمد بن محمد بن الحجاج بن عبد العزيز المروذي ـ بفتح الميم وتشديد الراء وسكون الواو وذال معجمة ـ نسبة إلى موضع يقال له مرو الروذ، توفي في جمادى الأولى سنة خمس وسبعين ومائتين، ودفن عند رجلي قبر الإمام أحمد رضي الله عنهما، وقال: بعثني أبو عبد الله ـ يعني الإمام أحمد ـ في حاجة وقال: كل شيء تقوله على لساني فأنا قلته. ولما توفي الإمام أحمد هو الذي تولى إغماضه لما مات وغسله، فلذلك أقامه مقام نفسه. مطالب أولي النهى (٣/ ٤٤٤)، بتصرف.

وكان رضي الله تعالى عنه يقول: قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم يوم الجنائز. وأسلم من اليهود والنصارى والمجوس يوم موته عشرون ألفاً وناحت الجن عليه وهتفت بموته الهواتف.

(**سقى ضريحاً**)، أي: قبراً (**حله**)، أي: سكنه ونزل به (**صوب**) فاعل سقي وهو بفتح الصاد وسكون الواو انْصِبَابُ الغيث، أي: غيث (**الرضى**) وإراقته على قبره وانصبابه على ضريحه، أي: رضوان الله ورحمته.

(**و**)سقي ضريحاً حله صوب (**العفو**) من الله تعالى (**والغفران**) من الغفر وهو الستر ولا يزال على ضريحه متواصلاً ومستمراً (**ما نجم**)، أي: كوكب (**أضا**)، أي: استنار.

(**وحله**)، أي: أحله (**وسائر**)، أي: بقية (**الأئمة**) من علماء الأمة (**منازل الرضوان**) من الرحيم الرحمن (**أعلى الجنة**)، أي: الدرجات العالية من الجنان.

شرح ابن مانع

قوله: (**فإنه**)، أي: الإمام أحمد ــ رضي الله عنه ــ (**إمام**) وقدوة. (**أهل**)، أي: أصحاب. (**الأثر**)، يعني: الذين يأخذون عقيدتهم من المأثور عن الله في كتابه، أو في سنة نبيه ﷺ، أو ما ثبت عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين.

(**فمن**)، أي: إنسان. (**نحا**)، أي: قصد. (**منحاه**)، أي: مقصده ومذهبه (**فهو**)، أي: ذلك الذاهب مذهب أحمد الذي هو أحمد، (**الأثري**) المنسوب إلى العقيدة الأثرية، ويعرف بمذهب السلف وعليه اعتقاد الأئمة

المعتبرين كالأئمة الأربعة وغيرهم، من كل إمام معتبر حتى الأشعري تاب من عقيدته التي كان عليها، ورجع إلى مذهب السلف، كما صرح هو بذلك في كتاب الإبانة.

وأما المتنسبون إليه الآن، فقد رماهم الله بالجهل، حتى اعتقدوا التجهم من حيث لا يشعرون، وإنما نسب هذا المذهب الأحمد لإمامنا أحمد ـ رضي الله عنه ـ لأنه هو الذي قاوم أهل البدع، حتى أظهره الله عليهم ونصر به دينه. كما قال علي بن المديني: إن الله أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث: أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل يوم المحنة.

قال أبو حاتم: إذا رأيت الرجل يحب الإمام أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة.

وقال علي بن أَعيُن رحمه الله:

أضحى ابن حنبل حجة مبرورة   وبحب أحمد يعرف المتنسك
وإذا رأيت لأحمد متنقصاً   فاعلم بأن ستوره ستهتك

قال عبد الوهاب الوراق: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل. قالوا له: وأي شيء بان لك من فضله وعلمه على سائر من رأيت؟ قال: رجل سئل عن ستين ألف مسألة، فأجاب فيها بأن قال: حدثنا، وأخبرنا، وروينا.

وإلى هذا أشار الإمام الصرصري في لاميته بقوله يمدح الإمام أحمد رضي الله عنه:

حوى ألف ألف من أحاديث أسندت   وأثبتها حفظاً بقلب محصل
أجاب على ستين ألف قضية   بأخبرنا لا عن صحائف نقل

وهذه منقبة لا يعلم أحد من الأئمة فعلها، وقد سئل كثير منهم عن معشار عشر ذلك، فأحجم عن الجواب عن أكثرها.

وقال علي بن المديني: اتخذت أحمد إماماً فيما بيني وبين الله. ولد سيدنا الإمام أحمد في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين ومائة ببغداد، وتوفي نهار الجمعة من شهر ربيع الأول لاثنتي عشرة ليلة خلت منه سنة إحدى وأربعين ومائتين، وغسله المروزي رحمه الله تعالى.

قوله: (**سقى ضريحاً**)، أي: قبراً. (**حله**)، أي: سكنه الإمام أحمد. (**صوب**): فاعل سقى، أي: غيث. (**الرضا**)، أي: رضوان الله تعالى. (و)صوب (**العفو**) والصفح من الله، (**والغفران**)، أي: ستر الذنوب، والتجاوز عنها.

(**ما نجم**)، أي: كوكب. (**أضا**)، أي: استنار.

(**وحله**)، أي: سيدنا الإمام أحمد. (**وسائر**)، أي: بقية (**الأئمة**) من علماء الأمة. (**منازل الرضوان**) من الله تعالى.

(**أعلى الجنة**)، أي: الدرجات العالية، وأعلى يجوز أن يكون مرفوعاً خبر المبتدأ محذوف، تقدير التي هي أعلى الجنة، وأن يكون منصوباً على البدلية، أو مفعولاً لفعل محذوف تقديره أعني. والله أعلم.

* * *

المقدمة

في ترجيح مذهب السلف

اعلَمْ هُديتَ أنَّه جاء الخَبَر ... عَنِ النَّبـِيِّ المُقْتَفَى خَيرِ البَشَر

بـأَنَّ ذي الأمَّـة سَـوفَ تَفتـرَق ... بِضْعاًوَسَبْعِينَ اعتقاداًوالمُحِق

مَا كَانَ في نَهجِ النَّبِيِّ المُصْطَفى ... وَصَحْبِهِ مِن غَيرِ زَيغٍ وَجَفَا(١)

شرح ابن شطي

المقدمة في ترجيح مذهب السلف على غيره

(اعلـم) فِعْـلُ أمـر أي كـن متهيئـاً ومتفهمـاً لإدراك مـا يلقـى إليـك، (هُديتَ) جملة معترضة دعائية (أنه)، أي: الشأن (جاء الخبر)، يعني: الحديث (عن النبـي المقتفى)، أي: المختص المتبع (خير البشر، بأن ذي) أي: هذه (الأمة) المحمدية (سوف تفترق) فيما بعد (بضعاً)، أي: إلى بضع (وسبعين) فرقة، والبضع ما بين الثلاث إلى التسع، (اعتقاداً)، أي: افتراقهم لأجل الاعتقاد.

(١) قد أوضح الشيخ العلامة ابن بدران في أجوبته على أسئلة الشيخ عبد الله خلف الدحيان في كتابه المسمى (العقود الياقوتية في جيد الأسئلة الكويتية) بأن هذه الفرقة هي التي كانت على نهج النبـي ﷺ وأصحابه الكرام. راجع الكتاب الطبعة الأولى ص ٥١.

(والمحق) من جميعها طائفة واحدة وهي **(ما كان)** سيرها واعتقادها **(في نهج)**، أي: منهج **(النبـي المصطفى)**، أي: صفوة خلق الله **(وصحبه من غير زيغ)**، أي: من غير ميل **(و)**من غير **(جفا)** بالجيم، أي: من غير تجاف عن هديهم، والجفاء نقيض الصلة ويقصر.

والمشار إليه في البيتين هو ما رواه سيدنا الإمام أحمد من حديث معاوية رضي الله تعالى عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة».

ورواه أبو داود وفي رواية أنه ﷺ قال: ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة كلهم في النار إلا فرقة واحدة، فقيل من هم يا رسول الله؟ يعني: الفرقة الناجية، فقال: هو من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابـي.

قال بعض العلماء هم، يعني: الفرقة الناجية أهل الحديث، يعني: الأثرية والأشعرية والماتريدية.

شرح ابن مانع

مقـدمـة

في ترجيح مذهب السلف على مذهب الخلف

وهي اسم فاعل من قدم بمعنى تقدم، وهي قسمان:

مقدمة علم، ومقدمة كتاب.

فمقدمة العلم: ما يتوقف الشرع فيه عليها، كمعرفة حده، ورسمه، وموضوعه، وغايته.

ومقدمة الكتاب: تقال لطائفة من كلامه قدمت أمام المقصود منه لارتباط له بها وانتفاع بها فيه، وما هنا من هذا القبيل.

قوله: (**اعلم**): فعل أمر. و(**هديت**): جملة دعائية. (**أنه**)، أي: الأمر والشأن. (**جاء الخبر**)، يعني: الحديث. (**عن النبـي المقتفى**)، أي: المتبع (**خير البشر**)، بل جميع الخلق ﷺ. (**بأن ذي**)، أي: هذه (**الأمة**) المحمدية. (**سوف**)، أي: ستفترق فيما بعد. (**بضعاً**)، أي: إلى بضع (**وسبعين**) فرقة، والبضع: ما بين الثلاثة إلى التسعة. (**اعتقاداً**)، أي: افتراقهم لأجل الاعتقاد. (و)إنما (**المحق**) من جميعها طائفة واحدة، وهي (**ما كان**) سيرها (**في نهج**)، أي: منهج (**النبـي المصطفى**)، وهو نبينا محمد ﷺ (و)نهج (**صحبه**) رضوان الله عليهم (**من غير زيغ**)، أي: ميل وانحراف (و)من غير (**جفا**) ــ بالجيم ــ أي: تجاف عن هديهم، والجفاء ــ بالمد ــ نقيض الصلة، ويقصر، والمشار إليه في البيتين، هو ما رواه الترمذي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليأتين على أمتي كما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أُمَهُ علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وأن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلاَّ ملة واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابـي ــ وفي لفظ ــ هي ما كان على ما أنا عليه وأصحابـي».

* * *

وَلَيسَ هذا النصُ جَزماً يُعْتَبَرَ   في فرقةٍ إلاَّ عَلَى أهلِ الأثَرِ

(وليس هذا النص) المذكور (جزماً) يحتمل المصدر، أي: اجزم به جزماً، أو أنه مفعول لأجله، أي: من جهة الجزم واليقين (يعتبر)، أي: يستدل به ويوافق (في فرقة) ، أي: لا ينطبق ويصدق على فرقة من الثلاث والسبعين فرقة (إلاَّ على) فرقة (أهل الأثر) وما عداهم من سائر الفرق قد حكموا المعقول وخالفوا المنقول.

فـائـدة: أهل السنة والجماعة ثلاث فرق[1]:

الأثرية: وإمامهم الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه.

والأشعرية: وإمامهم أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى.

والماتريدية: وإمامهم أبو منصور الماتريدي رحمه الله تعالى.

---

(١) وجدت على هامش (ج) بخط الشيخ العلامة عبد الله خلف الدحيان رحمه الله.
فائدة: ذكر المصنف رحمه الله في بعض تعليقاته ما نصه: ذكر العقائد ما لفظه عقائد الفرقة الناجية قال: وهم الأشاعرة والماتريدية وأهل الحديث، وقال بعض العلماء: الفرقة الناجية أهل الحديث يعني الأثرية والأشعرية والماتريدية فإذا قلت لفظ الحديث يقتضي عدم التعدية حيث قال فيه ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلهم في النار إلاَّ فرقة واحدة وهي ما كان على ما أنا عليه وأصحابي، فالجواب: أن الثلاث فرق هي فرقة واحدة لأنهم كلهم أهل الحديث فإن الأشاعرة والماتريدية لم يردوا الأحاديث ولا أهملوها وإنما فوضوها وإما أولوها وكل منهم أهل حديث، وحينئذ فالثلاثة فرقة واحدة لاقتفائهم الأخبار وانتحالهم الآثار. بخلاف باقي الفرق فإنهم حكموا العقول وخالفوا المنقول فهم أهل بدعة وضلالة ومخالفة وجهالة والله تعالى أعلم. اهـ.

وأما **فرق الضلال فكثيرة جداً**، قال بعض أهل العلم: أهل البدع خمسة، يعني من جهة أصولها ثم كل واحدة تتشعب وتفترق فرقاً شتى:

أحدها: المعتزلة القائلون بأن العباد خالقوا أعمالهم وينفون رؤية الله تعالى في الآخرة وهم عشرون فرقة يضلل بعضهم بعضاً: الواصلية، العمرية، الهذلية، النظامية، الأسرارية، الإسكافية، الجعفرية، البشرية، المرداوية، الهشامية، الصالحية، الحائطية، الحدبية، المعمرية، الثمامية، الخياطية، الجاحظية، الكعبية، الجبائية، الهاشمية.

الفرقة الثانية: الشيعة الشنيعة، وافترقت إلى اثنتين وعشرين فرقة وأصول ذلك كله ثلاث فرق: **غلاة، وإمامية، وزيدية**.

أما الغلاة فافترقت ثمانية عشر فرقة يكفر بعضها بعضاً: السبائية، الكاملية، البنانية، المغيرية، الجناحية، المنصورية، الخطابية، الذمية، الغرابية، الهاشمية، الزرارية؛ اليونسية، النعمانية، الزرامية، المفوضة، البدائية، النصيرية، الإسماعيلية.

وأما الزيدية فانقسموا إلى ثلاث فرق: الجارودية، السليمانية، البترية.

وأما الإمامية فقالوا باتباع الاثني عشر إماماً ـ وتشعب متأخرو الإمامية إلى معتزلة ومشبهة ومفضلة.

الفرقة الثالثة: الخوارج تشعبوا إلى سبعة فرق: المحكمة، البيهسية، الأزارقة، النجدية، الأصفرية، الإباضية، وافترقوا أربع فرق: الحفصية، اليزيدية، الحارثية، الرابعة القائلون بطاعة لا يراد بها الله تعالى.

السابعة الحجاردة ويتشعب من مذهبهم إحدى عشر فرقة: الميمونية، الحمزية، الشعبية، الحازمية، المعلومية، المجهولية، الصلتية، التغالبة، ثم افترقوا أربع فرق: الأخنسية، والمعبدية، والشيبانية، والمكرمية.

الفرقة الرابعة: المرجئة (وهم خمس)[1] فرق: اليونسية، العبيدية، الغسانية، الثوبانية، التومنية، النجارية.

الفرقة الخامسة من المرجئة: الجبرية.

الفرقة السادسة: المشبهة.

ولا يخفى ما في عد هذه الفرق من التداخل.

والمشهور أن أصول الفرق الضالة سبعة أولها المعتزلة (٢٢) ثم الشيعة (٢٢) فالخوارج (١٦) فالمرجئة (٥) فالنجارية (٣) فالجبرية (١) فالمشبهة (٣).

شرح ابن مانع

قوله: **(وليس هذا النص)**. أي: المذكور. **(جزماً)**، أي: من جهة الجزم واليقين. **(يعتبر في فرقة)**، أي: لا ينطبق ولا يصدق على واحدة من الثلاث والسبعين. **(إلا على)**: على فرقة **(أهل الأثر)**، وما عداهم من سائر الفرق، فقد حكموا العقول الفاسدة، وخالفوا المنقول عن معدن النبوة الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

* * *

(١) لعله ست كما لعل أصل الفرق ست أيضاً لما سيظهر من تعدادهما. (د).

فَـأَثْبَتُـوا النُّصُـوصَ بـالتَّنْـزِيـهِ مِـنْ غَيْـرِ تَعطيـلٍ ولا تَشْبيـهِ

فكُـلَّ مـا جـاءَ مِـنَ الآيـاتِ أو صَحَّ في الأَخْبَارِ عَنْ ثِقَاتِ

مِـــنَ الأحـــادِيـــث نُمـــرّهُ كَمَـــا

قَدْ جاء فاسْمَع مِن نِظامي واعلَما

وَلا نَـــرُدُّ ذَاكَ بِـــالعُقُـــولِ لِقَـــولِ مُفْتَـــرٍ بِـــهِ جَهُـــولِ

فَعقَـدُنـا الإِثبـاتُ يَـا خَلِيلِـي مِـن غَيـرِ تَعطِيـلٍ وَلا تَمثِيـلِ

شرح ابن شيطي

ثم أخذ يذكر بعض ما عليه أهل الفرقة الناجية فقال:

(**فأثبتوا النصوص**) القرآنية، والأحاديث النبوية، متمسكين (**بالتنزيه**) لله سبحانه وتعالى (**من غير تعطيل**) للصفات الواردة في الكتاب العزيز والسنة الصحيحة وهو نفيها عنه تعالى، فإن المعطلين لم يفهموا من أسماء الله تعالى وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات فجمعوا بين التمثيل والتعطيل فمثلوا أولاً وعطلوا آخراً.

فهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته تعالى بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، فعطلوا ما يستحقه سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات اللائقة به عز وجل بخلاف سلف الأمة وأجلاء الأئمة فإنهم يصفون الله سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف (**ولا تشبيه**) تعالى الله عن ذلك، فإنه تعالى قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ فرد على المشبهة بنفي المثلية ورد على المعطلة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

(فكل ما جاء) عن الله تعالى في القرآن العظيم **(من الآيات أو صح)** مجيئه **(في الأخبار)** الثابتة **(عن)** رواة **(ثقات)** في النقل ــ وهم العدول الضابطون ــ **(من الأحاديث)** الصحيحة مما يوهم تشبيهاً أو تمثيلاً فهو من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى نؤمن به وبأنه من عند الله تعالى، و **(نمره كما قد جاء)** عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ.

قال الإمام أحمد: لا يوصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والحديث.

فمذهب السلف عدم الخوض في مثل هذا والسكوت عنه وتفويض علمه إلى الله تعالى.

(فاسمع) سماع إذعان **(من نظامي واعلما)** فعل أمر مؤكد بنون التوكيد الخفيفة المنقلبة ألفاً أي: اعلم ذلك علم تحقيق واعتمده.

(ولا نرد ذاك) الوارد في الكتاب المنزل وما جاء عن النبي المرسل **(بالعقول لقول)** إنسان **(مفتر)** من الفرية وهي الكذب **(به)**، أي: بذلك القول الذي تقوّله من التأويل والتمويه والتضليل، **(جهول)** صفة لمفتر.

(فعقدنا) معشر الأثرية **(الإثبات)** للأسماء والصفات كما وردت **(يا خليلي)** من الخلة وهي نهاية المحبة، **(من غير تعطيل)** لها عن حقائقها ونفيها مع صحة مخارجها، بل نثبتها ونؤمن بها، ولا تشبيه في مجرد إثباتها **(ولا)**، أي: ومن غير **(تمثيل)** لها بصفات المخلوق، بل إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل.

قوله: (**فأثبتوا**) ــ يعني أهل الأثر ــ (**النصوص**) القرآنية والأحاديث النبوية، متمسكين (**بالتنزيه**) لله تعالى، (**من غير تعطيل**) للصفات الواردة في الكتاب والسنة، وهو نفيها عنه تعالى. فإن المعطلين لم يفهموا من أسمائه تعالى وصفاته إلاَّ ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فجمعوا بين التمثيل والتعطيل، بخلاف سلف الأمة، فإنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف (**ولا تشبيه**) ــ تعالى الله عن ذلك ــ فإنه قال في كتابه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾.

فرد على المشبهة بنفي المثلية، ورد على المعطلة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾.

ويرحم الله الإمام ابن القيم حيث قال في نونيته:

لسنا نشبّه وصفه بصفاتنا	إن المشبّه عابد الأوثان
كلّا ولا نخليه من أوصافه	إن المعطل عابد البهتان
من مثّل الله العظيم بخلقه	فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمٰن عن أوصافه	فهو الكفور وليس ذا إيمان

قوله: (**فكل ما جاء**) ــ أي عن الله تعالى ــ (**من الآيات**) القرآنية (**أو صح**) مجيئه (**في الأخبار**) بالأسانيد الصحيحة بخلاف الضعيفة، فإن وجودها كعدمها، فلا بد من أن تكون الأخبار (**عن**) رواة (**ثقات**) في النقل (**من الأحاديث**) والآثار مما يوهم تشبيهاً، فهو من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، نؤمن به وبأنه من عند الله و(**نمره، كما قد جاء**) عنه تعالى أو عن

رسوله، فمذهب السلف عدم الخوض في هذا، والسكوت عنه، وتفويض علمه إلى الله.

قال ابن عباس: هذا من المكتوم الذي لا يفسر، وكذا قال غيره من الصحابة والتابعين.

وأما أهل التأويل فأبوا إلا أن يفسروا ويؤولوا حتى خالفوا سلف الأمة وأئمتها، وابتدعوا في ذلك، وكل بدعة ضلالة.

(**فاسمع**) سماع إذعان (**من**) منطوق (**نظامي**) ومفهومه. (**واعلما**)، أي: اعلم ذلك علم تحقيق. والألف بدل عن نون التوكيد الخفيفة.

قوله: (**ولا نرد ذاك**)، أي: الوارد في الكتاب والسنة. (**بالعقول**): بضرب من التأويل، (**لـ**)ـأجل (**قول**) إنسان (**مفتر**)، أي: كاذب (**به**)، أي: بذلك القول، (**جهول**) لمخالفة المنقول والمعقول، (**فعقدنا**) أهل السنة والجماعة (**الإثبات**) للأسماء والصِّفات كما وردت.

(**يا خليلي**): من الخلّة، وهي نهاية المحبّة، والمراد به هنا: الموافق على مذهب السّلف، (**من غير تعطيل**) لها عن حقائقها، (**ولا تمثيل**) لها بصفات المخلوقين. فالممثل يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً، والمثبت يعبد رب الأرض والسماء.

* * *

فكلُّ من أوَّل في الصِّفَاتِ كذاتِهِ من غيرِ مَا إثبَاتِ
فقَد تعدَّى وَاسْتَطَالَ وَاجْتَرَى وخَاضَ فِي بحرِ الهلاكِ وافترَى

شرح ابن شطي

(**فكل من أوّل في الصفات**) الثابتة للذات المقدسة، والمراد بالتأويل هنا أن يراد باللفظ ما يخالف ظاهره، أو صرف اللفظ عن ظاهره لمعنى آخر أو عن حقيقته لمجازه، وهو في آيات الصفات المقدسة من المنكرات عند أئمة الدين، من علماء السلف المعتبرين، فإنا حيث أثبتنا ذاتاً لا كالذوات، فما المانع من إثبات صفات لا كصفات المحدثات.

فصفاته (**كذاته**) تعالى فليس لنا أن نتأول في صفات الله تعالى ولا في ذاته (**من غير ما**) زائدة تأكيداً للنفي ولإقامة الوزن (**إثبات**) عن صاحب الشرع وأصحابه وأئمة التابعين وأتباعهم، فهم العمدة دون غيرهم.

وعلم من النظم أنه تعالى يطلق عليه الذات كما يقال إنه شيء لا كالأشياء وأنه ذات لا كالذوات، بخلاف الماهية فأكثر المتكلمين منع إطلاقها على الله تعالى لأن معنى الماهية المجانسة وهي المشاركة في الجنس والفصل.

(**فقد تعدى**) خبر للمبتدأ الذي هو كل، وتعديه تجرّيه على ما لم يأذن به الله ورسوله، فإنه فَعَل ما ليس له فعله وقال على الله تعالى بما لم يأذن الله ورسوله له به، (**واستطال**) على السلف الصالح فكأنه استدرك عليهم ما يزعم أنهم أغفلوه وحرر فيما يدعي أنهم أهملوه (**واجترى**) من الجرأة، أي: تشجع وافتأت حده (**وخاض**) ، أي: دخل واقتحم (**في بحر**

الهلاك)، أي: الموت والانمحاق، يعني: رمى بنفسه في بحر يذهب بدينه ويؤول به إلى الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي (**وافترى**) على مولاه.

شرح ابن مانع

قوله: (**فكل من أوّل في الصّفات**)، أي: الثابتة لله تعالى. والمراد بالتأويل هنا: أن يراد باللفظ ما يخالف ظاهره، أو صرف اللفظ عن ظاهره لمعنى آخر، أو عن حقيقته لمجاز، وهو في آيات الصّفات من المنكرات عند أئمة الدين، فحيث أثبتنا ذاتاً لا تشبه الذوات، فما المانع من إثبات صفات لا تشبه صفات المحدثات.

فالكلام في الصّفات فرع الكلام في الذات، فصفاته تعالى قديمة ثابتة (**كذاته**) تعالى، فليس لنا أن نتأول في الصفات ولا في الذات (**من غير ما إثبات**) عن صاحب الشرع وأصحابه، وما: زائدة لتأكيد النفي.

(**فقد تعدى**) ذلك المؤول طوره (**واستطال**) على السلف. (**واجترى**)، أي: تشجع وافتات حده في ترك الاتباع للسلف الصالح. (**وخاض**)، أي: اقتحم. (**في بحر الهلاك**)، أي: الموت. (**وافترى**)، أي: كذب على الله بتحريفه، وتمثيله، وتعطيله، وتأويله.

ولله در القائل:

وقصارى أمرِ من أوّل أن ظنوا ظنونا
فيقولون على الرحمٰن ما لا يعلمونا

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في الفتوى الحموية بعد كلام مفيد:

ولا يجوز أيضاً أن يكون الخالفون أعلم بالله من السالفين، كما يقوله بعض الأغبياء ممن لم يقدر قدر السلف، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها من أن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم، فإن هذا القول إذا تدبّره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلالة. اهـ. المراد.

* * *

أَلَم تَرَ اختلافَ أصْحَابِ النَّظر فِيه وحُسن مَا نَحاه ذُو الأثر
فإِنَّهُمْ قدِ اقتَدُوا بالمُصْطَفى وصَحبِهِ فَاقنَعْ بِهذا وَكَفى

شرح ابن شطي

(ألم تر اختلاف أصحاب النظر) ، يعن: نظار المتكلمة من سائر الفرق وردّ بعضهم على بعض (فيه) ، أي: في نظرهم الذي يزعم كل فريق منهم أنه هو العلم الحق، فيأتي غير ذلك الفريق فينقضه ويرمي صاحبه بالزندقة.

(و)ألم تر (حسن ما) ، أي: المذهب الذي ذهب إليه والمنحا الذي (نحاه) وقصده (ذو) ، أي: صاحب مذهب (الأثر، فإنهم) ، أي: الأثرية المفهومين من قوله ذو الأثر (قد اقتدوا) فيما اعتقدوه (بـ)ـالنبي (المصطفى وصحبه) الذين صحبوه وعاينوا الوحي والتنزيل.

(فاقنع) ، أي: ارض (بهذا) البيان (وكفى) بهؤلاء مستنداً ومعتقداً.

تنبيهان:

الأول: لا خلاف بين العقلاء أن الحق سبحانه وتعالى يتصف بجميع صفات الكمال منزه عن جميع صفات النقصان، لكنهم مع اتفاقهم على ذلك اختلفوا في الكمال والنقص فتراهم يثبت أحدهم لله ما يظنه كمالاً وينفي الآخر عين ما أثبته هذا لظنه نقصاً، وسبب ذلك أنهم سلطوا الأفكار على ما لا سبيل إليه من طريق الفكر، فإن الله تعالى خلق العقول وأعطاها قوة الفكر وجعل لها حداً تقف عنده من حيث هي مفكرة لا من حيث هي قابلة للوهب الإلـهي، فإذا استعملت العقول أفكارها فيما هو في طورها وحدها ووفت النظر حقه أصابت بإذن الله تعالى، وإذا سلطت الأفكار على

ما هو خارج عن طورها ووراء حدها الذي حده الله تعالى لها ركبت متن عمياء[1] فلم يثبت لها قدم ولم تركن على أمر تطمئن إليه، فإن معرفة الله تعالى التي وراء طورها مما لا تستقل العقول بإدراكها من طريق الفكر وترتيب للمقدمات، وإنما تدرك ذلك بنور النبوة وولاية المتابعة، فهو اختصاص إلـٰهي يختص به الأنبياء وأهل وراثتهم.

ولما عجزت العقول من طريق الفكر عن معرفة الحق التي هي وراء طورها ومنحها القبول، وقد أنزل الكتاب وأنزل فيه ما حارت في إدراكه العقول من الآيات المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلَّا الله تعالى، أمرنا الشارع بالإيمان بها ونهانا عن التفكر في ذات الله تعالى رحمة منه بنا ولطفاً لعجزنا عن إدراكه.

الثاني: قد ذم السلف الخوض في علم الكلام. قال الإمام الشافعي: ما رأيت أحداً ارتدى بالكلام فأفلح.

وقال الإمام أحمد: عليكم بالسنة والحديث وما ينفعكم، وإياكم والخوض والمراء فإنه لا يفلح مَنْ أَحَبَّ الكلام.

وقال الإمام مالك: لو كان الكلام علماً لتكلم به الصحابة والتابعون رضي الله تعالى عنهم.

وقال الفقيه أبو عبد الله الدسيمي، قال: حكى لنا الإمام أبو الفتح محمد بن علي الفقيه، قال: دخلنا على الإمام أبي المعالي الجويني نعوده في مرض موته، فأُقعد، فقال لنا: اشهدوا عليَّ إني قد رجعت عن كل

---

(١) أي: ظهر دابة عمياء. (د).

مقالة قلتها أخالف فيها السلف الصالح، وإني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور.

قال الإمام الحافظ الذهبي: قلت: هذا معنى قول بعض الأئمة عليكم بدين العجائز، يعني: إنهن مؤمنات بالله تعالى على فطرة الإسلام لم يدرين ما علم الكلام.

فإن قلت: إذا كان علم الكلام بالمثابة التي ذكرت فكيف ساغ للأئمة الخوض فيه؟ قلت: علم الكلام الذي نهى عنه أئمة الإسلام هو العلم المشحون بالفلسفة والتأويل والإلحاد والأباطيل دون علم السلف ومذهب الأثر وما جاء في الذكر الحكيم وصحيح الخبر، فهذا لَعَمْرِي تِرْيَاقُ القلوب الملسوعة بأراقم الشبهات[1].

شرح ابن مانع

قوله: (**ألم تر اختلاف أصحاب النظر**)، يعني: نظَّار المتكلمة من سائر الفرق، ورد بعضهم على بعض. (فيه)، أي: في نظرهم، فيزعم كل فريق أنه محق، فيأتي الآخر فينقض كلامه ويبطله ويرميه بالزندقة والإلحاد، فكل فرقة تضلل الأخرى. وما أحسن ما قيل:

حجج تهافت كالزجاج تخالها   حقاً وكلٌّ كاسر مكسور

(و)ألم تر (**حسن ما**)، أي: المذهب الذي ذهبه والمنحا الذي (**نحاه**): أي قصده. (ذو): أي صاحب (**الأثر**) من سلوك الصراط المستقيم.

---

(١) الترياق بالكسر: دواء السم، والأراقم: جمع أرقم وهو الحية التي فيها سواد وبياض. (د).

(فإنهم)، أي: أهل الأثر (قد اقتدوا) فيما اعتقدوه (بـ)ـالنبي (المصطفى) ﷺ (و)اقتدوا من بعده بـ(ـصحبه) الذين صحبوه ونقلوا عنه الشريعة، بخلاف أهل التعطيل، فإنهم قد اقتدوا بتلامذة اليهود والمشركين، وضلاّل الصابئين، فإن أول من حفظ عنه في الإسلام أنه قال: إن الله سبحانه ليس على العرش حقيقة، وإنما استوى بمعنى استولى: الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها، فنسبت مقالة الجهمية إليه.

وقد قيل: إن الجعد أخذها عن إبان بن سمعان، وأخذها إبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت عن لبيد بن الأعصم الساحر الذي سحر الرسول ﷺ. ذكر ذلك شيخ الإسلام في الحموية وغيرها من كتبه المفيدة النافعة.

(فاقنع)، أي: ارض (بهذا) البيان، (وكفى) بأئمة السلف قدوة، فقد تبين أنهم اقتدوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن خالفهم فقد اقتدى بتلامذة اليهود، والمشركين، وضلاّل الصابئين كما تقدم.

* * *

الباب الأول
في معرفة الله تعالى

أَوَّلُ واجبٍ عَلى العبيدِ مَعرِفَةُ الإلهِ بالتَّسديدِ
بأنَّهُ واحدٌ لا نظِيرَ لَهُ ولا شِبهَ ولا وزيرَ

شرح ابن شطي

الباب الأول
في معرفة الله وما يتعلق بذلك

(أول واجب على العبيد) جمع عبد (معرفة الإله) سبحانه وتعالى.

وهي عبارة عن معرفة وجود ذاته تعالى بصفات الكمال دون معرفة حقيقة ذاته وصفاته لاستحالة ذلك عقلاً عند الأكثرين.

وقوله أول واجب، يعني لنفسه على كل مكلف بالنظر في الوجود والموجود ووجوب بذلك بالشرع دون العقل لأن العقل لا يوجب ولا يحرم وهذا مذهب أهل السنة، وقالت المعتزلة وجبت معرفة الله تعالى عقلاً لا شرعاً.

(بالتسديد)، أي: التقويم والتوفيق للسداد، أي: الصواب. ويجب النظر قبلها لتوقفها عليه فهو أول واجب لغيره. وقال القاضي: أول واجب

وطاعةٍ اكتسابُ إرادة النظر المؤدي إلى المعرفة فمن تركه مع القدرة عليه لغير عذر أثم، ولا إثم على الناظر مدة نظره.

والنظر والمعرفة اكتساب وقد يوهبان لمن أراد الله هداه، ولا يقعان ضرورة، وقيل بلى. والمعرفة تزيد وتنقص كالإيمان، نص عليه الإمام أحمد، فمعرفة التفصيل أزيد من معرفة الجملة.

وأول نِعَم الله تعالى الدينية على المؤمن أن أقدره على إرادة النظر والاستدلال لمعرفته تعالى، وأول نعمه الدنيوية الحياة العرية عن ضرر، فشكر المنعم واجب شرعاً خلافاً للمعتزلة في قولهم عقلاً.

فيجب على كل مكلف شرعاً أن يعرف الله تعالى بصفات الكمال ويجزم (**بأنه**) سبحانه وتعالى (**واحد**) لا يتجزأ ولا ينقسم، فرد صمد (**لا نظير له**)، أي: لا مثل له (**ولا شبه**) له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ولا شريك له في ملكه (**ولا وزير**) يحمل ثقله ويعينه في تدبير خلقه، ولا ظهير له في صنعه ولا معين له في ملكه.

شرح ابن مانع

قوله: (**أول واجب**)، أي: شرعاً، (**على العبيد**): جمع عبد، والمراد به المكلف بالنظر (**معرفة الإله**) سبحانه وتعالى، وهي عبارة عن معرفة وجوب وجود ذاته بصفات الكمال فيما لم يزل ولا يزال دون معرفة حقيقة ذاته وصفاته، لاستحالة ذلك.

(**بالتسديد**)، أي: التقويم. يعني: بالنظر الصائب في الوجود والموجود والنظر يجب قبلها لتوقفها عليه، فهو أول واجب لغيره، ثم اعلم أن الناظم ــ رحمه الله تعالى ــ وافق من يقول: إن معرفة الله تعالى

نظرية، والصحيح: أنها فطرية ضرورية. قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً: «كل يولد على فطرة» الحديث، وفي صحيح مسلم عن عياض الأنصاري في الحديث القدسي: «خلقت عبادي حنفاء مسلمين»، الحديث.

فالفطرة المراد بها: الإسلام، كما قاله: أبو هريرة، وأبـي شهاب. وسئل مجاهد عن الفطرة فقال: هي الإسلام. وكذا قال قتادة. ثم قال مجاهد: لا تبديل لخلق الله. قال: لا تبديل لدين الله. وقاله سعيد بن جبير، وقتادة، والنخعي. وكلام السّلف في ذلك كثير يصعب استيفائه.

قال الإمام أحمد في رواية المروزي: معرفة الله تعالى في القلب تتفاضل.

وتزيد، وهذا يدل على أن المعرفة أصلها في القلب فطرّية، ثم إنها تزيد وتتمكن بتظاهر الأدلة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيميّة: ذهب طوائف من النظار إلى أن معرفة الله واجبة، ولا طريق إليها إلا بالنظر، فأوجبوا النّظر على كل أحد. وهذا القول إنما اشتهر في الأمة عن المعتزلة، ونحوهم. ولهذا قال أبو جعفر السمناني وغيره إيجاب الأشعري النظر في المعرفة بقية بقيت عليه من الاعتزال.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ والذين أوجبوا النظر ليس معهم ما يدل على عموم وجوبه، إنما يدل على أنه قد

يجب. فإنهم قالوا: الواجب لا يحصل إلّا به، لقوله تعالى: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾. وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝﴾.

فهذه النصوص خطاب مع المتكبرين الجاحدين، فأمروا بالنظر ليعرفوا الحق.

قال بعض العلماء: يجب النظر في حال دون حال، وعلى شخص دون شخص. فوجوبه من العوارض لا من اللوازم العامة، فيجب على من فسدت فطرته واحتاج إلى النظر، وأما من حصلت له المعرفة بدون النظر ولم تفسد فطرته فليس واجب عليه، والله أعلم.

ومن أراد تحقيق هذه المسألة فعليه برسالة العلامة الشيخ محمد بن محمد بن محمد المبجي تلميذ ابن قاضي الجبل، فقد كتب رسالة خاصة من الكلام على الفطرة، أفاد فيها وأجاد.

وكذا شرح الأصفهانية لشيخ الإسلام ابن تيمية وغالب مؤلفاته رحمه الله فيجب على كل مكلف أن يعرف الله تعالى بصفات الكمال ويجزم **(بأنه)** سبحانه وتعالى **(واحد)** لا يتجزأ ولا ينقسم أَحَدٌ لا من عددٍ فردٌ صمد **(لا نظير)**، أي: لا مثل **(له ولا شبه)** له في ذاته ولا في أفعاله ولا شريك له في ملكه **(ولا وزير)**، أي: معين له تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

* * *

صفـــاتُـــهُ كـــذاتِـــه قـــديمـــة　　أسمـــائُـــهُ ثَـــابتَـــةٌ عَظيمَـــة
لكنَّهـــا فـــي الحـــقِّ تَـــوقيفيَّـة　　لنـــا بـــذا أدِلَّـــةٌ وفيَّـــة

شرح ابن شيطي

(صفاته) سبحانه وتعالى الذاتية والفعلية والخبرية (كذاته قديمة) لا ابتداء لوجودها ولا انتهاء، إذ لو كانت محدثة لاحتاجت إلى محدث تعالت ذاته المقدسة وصفاته المعظمة عن ذلك. فإن حقيقة ذاته مخالفة لسائر الحقائق وكذلك صفاته تعالى.

قال المحققون: ليست حقيقته تعالى معلومة الآن في الدنيا للناس وإنما يعلم تعالى بصفاته.

وهل يمكن علم حقيقته في الآخرة؟ قال بعضهم نعم لحصول الرؤية فيها كما سيأتي، وبعضهم لا.

والرؤية لا تفيد الحقيقة كما يأتي، فمذهب السلف من الفرقة الناجية بين التعطيل وبين التمثيل فلا يمثلون صفات الله تعالى بصفات خلقه كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ولا ينفون ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الحموية: التأويل الذي لا يعلمه إلاَّ الله تعالى هو الحقيقة التي يؤول الكلام إليها، فتأويل الصفات هو الحقيقة التي انفرد الله تعالى بعلمها، وهو الكيف المجهول الذي قال فيه السلف كمالك وغيره الاستواء معلوم والكيف مجهول، فكيفية الاستواء مثلاً هو التأويل الذي لا يعلمه إلاّ الله جلّ وعلا.

تـنـبـيـه: اختلف الناس في إثبات صفات الباري جل شأنه فأثبتها أهل الحق من غير نفي لها ولا لبعضها، وهذا مذهب سلف الأمة وسائر

الأئمة وأثبت المتكلمون بعضها من الحياة والقدرة والإرادة والعلم والكلام والسمع والبصر ويسمونها الصفات الثبوتية والمعنوية وما عداها من صفات الأفعال والسلوب[1] ونحوها فحادثة عندهم.

وذهبت المعتزلة والفلاسفة وأكثر فرق الضلال إلى نفيها، نعم المعتزلة تثبت له تعالى الأسماء دون الصفات.

فصل

في بحث أسمائه جل وعلا

(**أسماؤه ثابتة**) بالنص والعقل (**عظيمة**)، وإنها قديمة عند أهل الحق كصفاته الذاتية وكذا الفعلية. والمراد بأسمائه تعالى ما دل على مجرد ذاته كالله أو باعتبار الصفة كالعالم والقادر.

قال المحقق في بدائع الفوائد: أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت فإنها دالة على صفات كماله فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية، وأما زعم المعتزلة أن الله تعالى كان أزلاً بلا اسم ولا صفة فلما أوجد الخلق وضعوا له الأسماء والصفات فهو خطأ فاحش، قال السمين: هذا القول منهم أشد خطأ من قولهم بخلق القرآن لإشعاره بالاحتياج للغير. وقال ابن حمدان: قد نص الشافعي أن أسماء الله تعالى غير مخلوقة، وقال الإمام أحمد: من قال أن أسماء الله تعالى مخلوقة فقد كفر، قال ابن حمدان: ولا يقال أسماء الله تعالى هي المسمى ولا غيره إذ الغير ما فارق أو يفارق بزمان أو مكان أو الوجود والعدم، بل يقال الاسم للمسمى به أو صفة للمسمى وعلم عليه أو دال على المسمى، وقيل أسماء الفعل غيره

---

(١) هي الصفات التي يدخل في مفهومها لفظ العدم، كالباقي والقديم والأزلي ونحو ذلك. اهـ. لابن المختصر. (د).

وأسماء الذات هي المسمى نفسه.

قال وقد عظم على الإمام أحمد الكلام على الاسم والمسمى، وأمسك عنه بعضهم وقال لا نعلم.

ولما ذكر أسماءه سبحانه وتعالى وأنها ثابتة للذات المقدسة وأنها عظيمة قديمة أردف ذلك بقوله:

(لكنها)، أي: الأسماء **(في)** القول **(الحق)** المعتمد **(توقيفية)** لنص الشارع.

ومما يجب أن يعلم أن علماء السنة اتفقوا على جواز إطلاق الأسماء الحسنى والصفات العلى على الباري جل وعلا إذا ورد بها الإذن من الشارع وعلى امتناعه على ما ورد المنع عنه، واختلفوا حيث لا إذن ولا منع في جواز إطلاق ما كان تعالى متصفاً بمعناه ولم يكن من الأسماء الأعلام الموضوعة من سائر اللغات، إذ ليس جواز إطلاقها عليه تعالى محل نزاع لأحد بشرط أن لا يكون إطلاقه يوهم نقصاً بل كان مشعراً بالمدح. فالجمهور منعوا إطلاق ما لم يأذن به الشارع مطلقاً، وجوزه المعتزلة مطلقاً، ومال إليه الباقلاني، وتوقف إمام الحرمين، وفصّل الغزالي فجوّز إطلاق الصفة وهي ما دل على معنى زائد على الذات ومنع إطلاق الاسم وهو ما يدل على نفس الذات.

والتوقيفي ما ورد به كتاب أو سنة صحيحة أو حسنة أو إجماع لأنه لا يخرج عنهما، وأما السنة الضعيفة والقياس فلا يثبت بهما لأن المسألة من العلميات فلهذا قال **(لنا)** معشر أهل السنة **(بذا)**، أي: باعتبار ثبوت التوقيف في أسماء الباري جل وعلا من الشارع **(أدلة)** جمع دليل **(وفية)** توفي بالمقصود، لأن ما لم يثبت عن الشارع لم يكن مأذوناً في إطلاقه عليه والأصل المنع حتى يقوم دليل الإذن.

قال المحقق في بدائع الفوائد: ما يطلق عليه سبحانه وتعالى في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه في باب الأخبار لا يجب أن يكون توقيفياً كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه، فهذا فصل الخطاب.

شرح ابن مانع

قوله: (**صفاته**) جلَّ جلاله، أي: الذاتيّة، والفعلية، والخبرية. (**كذاته**) عز شأنه (**قديمة**): لا ابتداء لوجودها، ولا انتهاء لها. (**أسماؤه**): سبحانه (**ثابتة**) بالنص والعقل. (**عظيمة**): وصفها بذلك لكونها معظمة موصوفة بأنها حسنى.

والمراد بأسمائه تعالى ما دل على مجرد ذاته كالله أو باعتبار الصفة كالعالم، والقادر.

ولأسمائه الحسنى اعتباران:

أحدهما: من حيث الذات.

والثاني: من حيث الصفات.

فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة. (**لكنها**)، أي: الأسماء الحسنى (**في**) القول (**الحق**) المعتمد، (**توقيفية**) بنص الشرع وورود السمع بها، فلا يطلق على الله إلاَّ ما أطلقه على نفسه، أو أطلقه عليه رسوله ﷺ (**لنا**) معشر أهل السنة.

(**بذا**)، أي: باعتبار ثبوت التوقيف في أسماء الباري، (**أدلة**): جمع دليل، (**وفيّة**): عالية توفي بالمقصود؛ لأن ما لم يثبت عن الشارع لم يكن مأذوناً في إطلاقه عليه، والأصل المنع حتى يقوم دليل الإذن، فإذا ثبت كان توقيفياً.

* * *

لـه الحيـاةُ والكـلامُ والبَصـر   سَمـعٌ إرادةٌ وعلـمٌ واقتَـدَر
بِقُـدرةٍ تعلَّقـت بمُمكـنِ   كَـذَا إرادةٌ فَـعِ وَاستَبِـنِ
والعلـمُ والكـلامُ قـد تعلَّقـا   بكلّ شيءٍ يا خَليلي مُطلَقا
وسمْعُـهُ سُبحـانَـهُ كـالبَصَـرِ   بكُـلِ مسمـوعٍ وكُـلِّ مُبصَـرِ

شرح ابن شطي

فصل

في بحث صفات مولانا عز وجل

ولمَّا كانت صفاته تعالى منها ما اتفق عليه كالصفات السبعة، ومنها ما اختلف فيه كصفات فعله تعالى ورحمته وغضبه ونحوها بدأ بما اتفق عليه منها وهي السبع صفات الثبوتية.

الأولى: مما يجب (له) سبحانه وتعالى (**الحياة**) وهي صفة ذاتية ثبوتية قديمة أزلية تقتضي صحة العلم والقدرة لاستحالة قيامهما بغير الحي.

قال أهل السنة: حياته تعالى صفة زائدة على العلم والإرادة قديمة قائمة بذاته لأجلها يصح أن يعلم ويقدر لا نفس صحة العلم والقدرة فهي صفة كمال في نفسها. فصفة الحياة هي الجامعة لسائر الصفات متقدمة الرتبة عليها فلا يتقدمها إلَّا الوجود وهي لا تتعلق بشيء لا موجود ولا معدوم، ومثلها الوجود والبقاء والقدم عند من يعدها من الصفات الذاتية، وضابطها: أنها كل صفة لا تقتضي أمراً زائداً على قيامها بمحلها، كما أن ضابط ما يتعلق من الصفات أنها كل صفة تقتضي أمراً زائداً على القيام بمحلها؛ فإن العلم يقتضي معلوماً والقدرة تقتضي مقدوراً إلى آخره.

قال العلماء: حياة الباري عز وجل مما اتفق عليه العقلاء. نعم، الحياة في حقه لا يجوز أن تكون بمعنى الحياة في حقنا؛ لأنها في حقنا قوة تتبع اعتدال النوع، وهذا في حقه تعالى محال[1].

الصفة الثانية: (و)يجب له تعالى (الكلام)، أي: يجب الجزم بأنه تعالى متكلم بكلام قديم ذاتي وجودي غير مخلوق ولا محدث ولا حادث لا يشبه كلام الخلق.

قال شيخ الإسلام: اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله تعالى متكلم بكلام قائم به وأن كلامه تعالى غير مخلوق، وأنكروا على الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم في قولهم أن كلامه تعالى مخلوق خلقه في غيره وأنه كلم موسى بكلام خلقه في الشجرة وكلم جبريل بكلام خلقه في الهواء. واتفق أئمة السلف على أن كلام الله منزّل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، قال: ومعنى قولهم منه بدأ، أي: هو المتكلم به لم يخلقه في غيره كما قالت الجهمية ومن وافقهم بأنه بدأ من بعض المخلوقات وأنه سبحانه لم يقم به كلام. قال: ولم يرد السلف أنه كلام فارق ذاته، فإن الكلام وغيره من الصفات لا يفارق الموصوف بل صفة المخلوق لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فكيف صفة الخالق تفارقه وتنتقل إلى غيره؟

ولهذا قال سيدنا أحمد: كلام الله تعالى ليس ببائن منه خلقه في بعض الأجسام، قال شيخ الإسلام: ومعنى قول السلف وإليه يعود ما جاء في الآثار أن القرآن يُسرى به حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في

(١) وجد على هامش نسخة المختصر بخطه رحمه الله ما صورته: ليست حياته تعالى بسبب اتصال روح كحياة المخلوق ولا قابلة للزوال ولا هي معنى من المعاني ولا عرض من الأعراض. انتهى، قاله العارف النابلسي في شرح السنوسية. (د).

القلوب منه آية وما جاءت به الآثار عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين وغيرهم من أئمة المسلمين؛ كالحديث الذي رواه الإمام أحمد في المسند عن النبي ﷺ أنه قال ما تقرب العباد إلى الله بمثل ما خرج منه، يعني: القرآن، وقول أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه لما سمع كلام مسيلمة إن هذا كلام لم يخرج من إلّ، أي: من رب، وقول السلف القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود كما استفاضت الآثار عنهم بذلك. قال أحمد: القرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود، يعني ما قدمنا.

فإن قيل: هل كلام الباري جل وعلا صفة ذات أو صفة فعل؟

فالجواب: مذهب سلف الأمة ومحققي الأئمة أنه صفة ذات وفعل معاً، فإن صفة الكلام لله عز شأنه ثابتة بإجماع الأنبياء على ذلك، فيتكلم إذا شاء ومتى شاء بلا كيف، فإن الكلام صفة كمال لا نقص فيه، فالرب أحق أن يتصف بالكلام من كل موصوف بالكلام فيجب ثبوت كونه متكلماً وإن ذلك لم يزل ولا يزال، والمتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً له بدون قدرته ومشيئته، والذي لم يزل يتكلم إذا شاء أكمل ممن صار الكلام يمكنه بعد أن لم يكن الكلام ممكناً له، وحينئذٍ فكلامه قديم مع أنه يتكلم بمشيئته وقدرته.

وتحرير مذهب السلف أن الله تعالى متكلم وأن كلامه قديم، وأن القرآن كلام الله وأنه قديم حروفه ومعانيه، وقد توعد الله جل شأنه من جعله قول البشر بقوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾، ومحمد ﷺ بشّر فمن قال إنه قول محمد فقد كفر ولا فرق بين أن يقول بشر أو جني أو ملك، فمن جعله قولاً لأحد من هؤلاء فقد كفر.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، فالمراد أن الرسول بلغه عن مرسله لا أنه قول له من تلقاء نفسه وهو كلام الله الذي أرسله كما قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، فالذي بلغه الرسول هو كلام الله لا كلامه، والكلام كلام من قاله مبتدئاً به لا كلام من قاله مبلغاً مؤدياً.

وموسى عليه السلام سمع كلام الله من الله بلا واسطة، والمؤمنون يسمعه بعضهم من بعض، فسماع موسى مطلقاً بلا واسطة، وسماع الناس مقيد بواسطة، والناس يعلمون أن النبي ﷺ إذا تكلم بكلام تكلم بحروفه ومعانيه بصوته ﷺ ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم، وإذا كان هذا معلوماً فيمن يبلغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك.

ولهذا قال النبي ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم» فجعل الكلام كلام الباري وجعل الصوت الذي يقرؤه به العبد صوت القارىء، وأصوات العباد ليست هي الصوت الذي ينادي الله به ويتكلم به كما نطقت النصوص بذلك بل ولا مثله، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله. فليس علمه مثل علم المخلوقين، ولا كلامه مثل كلامهم، ولا نداؤه مثل ندائهم، ولا صوته مثل أصواتهم.

فمن قال عن القرآن الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله وهو كلام غيره فهو ملحد مبتدع ضال، ومن قال إن أصوات العباد أو المداد الذي يكتب به القرآن قديم أزلي فهو ملحد مبتدع ضال، بل هذا القرآن هو كلام الله تعالى وهو مثبت في المصاحف مبلغاً عنه مسموعاً من القرّاء، ليس هو مسموعاً منه تعالى، فكلام الله قديم وصوت العبد مخلوق.

والحاصل أن مذهب الحنابلة كسائر السلف أن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت، قال الإمام أحمد: القرآن كيف تصرف فهو غير مخلوق ولا نرى القول بالحكاية والعبارة وغلَّط من قال بهما وجهَّله، قال الإمام الموفق بن قدامة: وأما قولهم إن كلام الله يجب أن لا يكون حروفاً يشبه كلام الآدميين فالجواب إن الاتفاق في أصل الحقيقة ليس بتشبيه كما إن اتفاق البصر في أنه إدراك المبصرات والسمع في أنه إدراك المسموعات ليس بتشبيه كذلك.

هذا وأما قولهم إن الحروف تحتاج إلى مخارج وأدوات فالجواب أن احتياجها إلى ذلك في حقنا لا يوجب ذلك في كلام ربنا تعالى عن ذلك، على أن بعض المخلوقات لم تحتج إلى مخارج في كلامها كالأيدي والأرجل والجلود التي تتكلم يوم القيامة والحجر الذي سلم على النبي ﷺ والحصى الذي سبّح في كفه، وقال ابن مسعود: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

وقولهم إن التعاقب يدخل في الحروف، قلنا إنما كان ذلك في حق من ينطق بالمخارج والأدوات والله سبحانه وتعالى لا يوصف بذلك.

وقد اتفقت العلماء على أن الله سبحانه وتعالى يتولى الحساب بين خلقه يوم القيامة في حالة واحدة وعند كل واحد منهم إن المخاطب في الحال هو وحده وهذا خلاف التعاقب.

ثم إن الصوت قد صحت به الأخبار، قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري: ومن نفى الصوت يلزمه أن الله تعالى لم يُسمع أحداً من ملائكته ولا رسله كلامه بل ألهمهم إياه إلهاماً، قال: وحاصل الاحتجاج للنفي

الرجوع إلى القياس على أصوات المخلوقين لأنها التي عهدت ذات مخارج ولا يخفى ما فيه، إذ الصوت قد يكون من غير مخارج كما أن الرؤية قد تكون من غير اتصال أشعة، ولئن سلم فيمنع القياس المذكور لأن صفة الخالق لا تقاس على صفة المخلوقين، وحيث ثبت ذكر الصوت بهذه الأحاديث الصحيحة وجب الإيمان به. ثم إما التفويض وإما التأويل.

وقال أيضاً في موضع آخر من شرح البخاري من قوله ﷺ: «ثم يناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قرب» حمله بعض الأئمة على مجاز الحذف، أي: يأمر من ينادي فاستبعده بعض من أثبت الصوت بأن في قوله يسمعه من بعد إشارة إلى أنه ليس من المخلوقات لأنه لم يعهد مثل هذا فيهم، وبأن الملائكة إذا سمعوه صعقوا وإذا سمع بعضهم بعضاً لم يصعقوا، قال: فعلى هذا فصوته صفة من صفات ذاته لا يشبه صوت غيره إذ ليس يوجد شيء من صفاته في صفات المخلوقين، وهكذا قرره المصنف يعني البخاري في كتاب خلق أفعال العباد، انتهى.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا تكلم بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل عليه السلام، فإذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟ يقول: الحق، فينادون الحق الحق» أخرجه أبو داود ورجاله ثقات، ونحوه من حديث أبي هريرة رواه البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وكذا رواه الإمام أحمد وابنه عبد الله وقال: سألت أبي فقلت يا أبي، الجهمية يزعمون أن الله لا يتكلم بصوت فقال: كذبوا إنما يدورون على التعطيل.

وقد روي في إثبات الحرف والصوت أحاديث تزيد على أربعين حديثاً بعضها صحاح وبعضها حسان ويحتج بها، أخرجها الإمام الحافظ ضياء الدين المقدسي وغيره، وأخرج الإمام أحمد غالبها والحافظ ابن حجر أيضاً في شرح البخاري، واحتج بها البخاري وغيره من أئمة الحديث على أن الحق جل شأنه يتكلم بحرف وصوت وقد صححوا هذا الأصل واعتقدوه واعتمدوا على ذلك منزهين الله تعالى عما لا يليق بجلاله من شبهات الحدوث وسمات النقص كما قالوا في سائر الصفات.

الصفة الثالثة والرابعة: ما أشار إليهما بقوله: (و)يجب له سبحانه وتعالى (البصر) وهو صفة قديمة قائمة بذاته تعالى يتعلق بالمبصرات فيدرك بها إدراكاً تاماً لا على سبيل التخييل والتوهم ولا على طريق تأثّر حاسة.

(سمع) بإسقاط حرف العطف، أي: ويجب له سبحانه وتعالى سمع، والسمع صفة قديمة تتعلق بالمسموعات وإثبات هاتين الصفتين، أعني السمع والبصر للدلائل السمعية، وهما صفتان زائدتان على الذات عند أهل السنة كسائر الصفات لظواهر الآيات والأحاديث وليسا راجعين إلى العلم بالمسموعات والمبصرات خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم.

ففي البخاري عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات.

قال البيهقي: السميع من له سمع يدرك به المسموعات، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات، وكل منهما في حق الباري تعالى صفة قائمة بذاته تعالى ولا يلزم من قدم السمع والبصر قدم المسموعات والمبصرات،

كما لا يلزم من قدم العلم والقدرة قدم المعلومات والمقدورات، لأنها صفات قديمة تحدث لها تعلقات بالحوادث.

الصفة الخامسة: (إرادة)، أي: ويجب له تعالى صفة الإرادة، ويرادفها المشيئة، وهما عبارتان عن صفة في الحي توجب تخصيص أحد المقدورين في أحد الأوقات بالوقوع مع استواء نسبة القدرة إلى الكل، وهي قديمة أزلية باقية وهي شاملة لجميع الكائنات.

الصفة السادسة: ما أشار إليها بقوله: (و)يجب له عز وجل (علم)، أي: يجب الجزم بأنه تعالى عالم بعلم واحد وجودي قديم باقٍ ذاتي ينكشف به المعلومات عند تعلقه بها.

تنبيه: ذكر شيخ الإسلام وغيره أدلة عقلية على إثبات صفة العلم لله تعالى منها إيجاده سبحانه وتعالى الأشياء لاستحالة إيجاده الأشياء مع الجهل كما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾، ودلائل ثبوت صفة العلم لله تعالى من الكتاب والسنة كثيرة جداً.

الصفة السابعة: ما أشار إليها بقوله: (واقتدر) جل شأنه على إيجاد الموجودات وخلق الممكنات بقدرة، وهي صفة أزلية تؤثر في المقدورات عند تعلقها بها. فالله جل شأنه قادر على جميع الممكنات باتفاق المتكلمين وكذا الحكماء.

ولما فرغ من تعداد السبع صفات التي يثبتها المتكلمة الصفاتية وغيرهم شرع في ذكر ما لها من التعلقات وتقدم أن الحياة لا تتعلق بشيء[1] فقال:

---

(١) أي: لا تقتضي أمراً زائداً على القيام بمحلها وعكسها المتعلقة. اهـ. لابن المختصر. (د).

(**بقدرة تعلقت**) قدرة الله تعالى الأزلية القديمة الذاتية (**بممكن**) وقد علمت أن الممكن ما ليس بواجب الوجود ولا مستحيل الوقوع، ولم يوجد شيء ولن يوجد إلاَّ بها. وقد نص الإمام أحمد أنه تعالى قادر بقدرة قديمة وقوة شديدة، وفهم من النظم أن القدرة لا تتعلق بواجب ولا مستحيل فليسا من متعلقاتها ولا عجب في ذلك لأنها لو تعلقت بهما لزم انقلابهما جائزين.

تنبيه: صحح بعض متأخري الأشعرية أن للقدرة الأزلية تعلقين:

صلوحياً، وهو التعلق الأزلي بمعنى أنها في الأزل صالحة للإيجاد والإعدام على وفق تعلق الإرادة الأزلية بهما فيما لا يزال.

وتعلقاً تنجيزياً، وهو التعلق الحادث المقارن لتعلق الإرادة بالحدوث الحالي.

وظاهر كلام علمائنا بل وكلام الإمام أحمد أن تعلق القدرة بالممكن تعلق واحد مغيّاً بغاية محدودة من الزمان يوجد في ذلك الزمان المخصص بالإرادة القديمة الأزلية والله تعالى أعلم.

ولما كانت الإرادة تتعلق بما تعلقت به القدرة من جميع الممكنات قال: (كذا)، أي: مثل القدرة في التعلق بالممكنات (إرادة) وإنها أيضاً إرادة واحدة وإن القدرة والإرادة غير متناهيتي المتعلقات كما قاله المتكلمون، إلاَّ أن تعلق القدرة بالممكنات تعلق إيجاد أو إعدام وتعلق الإرادة بها تعلق تخصيص كما تقدم.

والأولى التعويل في ثبوت عموم تعلق الإرادة على الأدلة السمعية مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

(**فعي**) من وعاه حفظه وجمعه، أي: اجمع حواشي هذا الكلام واحفظ مضمون هذا النظام (**واستبن**)، أي: اطلب البيان من مظانه.

(**والعلم**)، أي: علم الله تعالى (**والكلام**)، أي: كلامه تعالى (**قد تعلقا بكل شيء**) من الأشياء من الجائزات والواجبات والمستحيلات، فيجب شرعاً أن يعلم أن علم الله غير متناه من حيث تعلقه، إما بمعنى أنه لا ينقطع وهو واضح، وإما بمعنى أنه لا يصير بحيث لا يتعلق بالمعلوم فإنه يحيط بما هو غير متناه كالأعداد والأشكال ونعيم الجنة، فهو شامل لجميع المتصورات سواء كانت واجبة كذاته وصفاته، أو مستحيلة كشريك له تعالى، أو ممكنة كالعالم بأسره، الجزئيات من ذلك والكليات على ما هي عليه من جميع ذلك، وأنه واحد لا تعدد فيه ولا تكثر وإن تعددت معلوماته وتكثرت.

أما وجوب عموم تعلقه سمعاً فمثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية.

تنبيهان:

الأول: معنى تعلق علمه تعالى بالمستحيل علمه تعالى باستحالته وأنه لو تصور متصور وقوعه لزمه من الفساد كذا، على ما أشار إليه بعض السلف بقوله: علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما لم يكن أن لو كان كيف كان يكون. وبهذا تميز عن علمنا بالمستحيل.

الثاني: قال شيخ الإسلام قدس الله روحه: إن علم الله تعالى السابق محيط بالأشياء على ما هي عليه ولا محو فيه ولا تغير ولا زيادة ولا نقصان، فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف كان

يكون، وأما ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ فهل يكون فيه محو وإثبات؟ على قولين للعلماء. وأما الصحف التي بيد الملائكة فيحصل فيها المحو والإثبات انتهى.

ومثل العلم في تعلقه بالواجب والجائز والمستحيل صفة الكلام فإنه يتعلق بكل شيء من الثلاثة.

(**يا خليلي**)، أي: يا صديقي ومحبي (**مطلقاً**) عن التقيد بواحد من الثلاثة.

(**وسمعه سبحانه**) وتعالى (**كالبصر**) منه جل شأنه. فسمعه تعالى يتعلق (**بكل**) شيء (**مسموع و**) بصره سبحانه وتعالى يتعلق بـ(**بكل**) شيء (**مبصر**)، فهو سبحانه وتعالى سميع بصير بسمع وبصر قديمين ذاتيين وجوديين متعلقين بكل مسموع ومبصر كما ذكره علماؤنا وأسندوه إلى نص الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه، يعني: أن هاتين الصفتين متحدتا المتعلق، فتعلقا بالموجود واجباً كان أو ممكناً، عيناً كان أو معنى، كلياً كان أو جزئياً، مجرداً كان أو ذا مادة، مركباً أو بسيطاً.

شرح ابن مانع

قوله: (**له**) سبحانه (**الحياة**)، وهي صفة ذاتية ثبوتية قديمة أزلية تقتضي صحة العلم والقدرة لاستحالة قيامهما بغير الحي.

والحياة في حقه لا يجوز أن تكون بمعنى الحياة في حقنا؛ لأنها في حقنا قوة تتبع اعتدال النوع، وهذا في حقه محال، وهي لا تتعلّق بشيء لا موجود، ولا معدوم.

(**والكلام**)، أي: يجب الجزم بأنه متكلم بكلام قديم ذاتي وجودي

غير مخلوق، ولا محدث، ولا حادث، ولا يشبه كلام الخلق، منه بدا، وإليه يعود.

ومعنى قولهم منه بدا، أي: هو المتكلم به لم يخلقه في غيره ولم يرد السلف أنه كلام فارق ذاته، بل هو صفة له لا تفارقه، ومعنى قولهم وإليه يعود: أن القرآن يسرى به حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف، ولا في القلب منه آية، كما جاء ذلك في الآثار، وصفة الكلام صفة ذات وفعل، فهو تعالى متكلّم ويتكلّم بمشيئته وقدرته بحرف وصوت.

قال الحافظ بن حجر: ومن نفى الصوت يلزمه أن الله تعالى لم يسمع أحداً من ملائكته ولا رسله كلامه، بل ألهمهم إياه إلهاماً.

ثم اعلم أن بعض الأغبياء ممن أعمى الله بصيرته نسب إلى الحنابلة أنهم يقولون: إن كلامه سبحانه عرض من جنس الأصوات والحروف وهو مع ذلك قديم. وهذا كذب عليهم لم يقله أحد من أتباع الإمام أحمد رحمه الله تعالى، وأعظم فرية من ذلك: أن بعض الجهمية نسب إلى الحنابلة أنهم يقولون بقدم الأوراق والجلد والمداد، وهذا من جنس ما قبله فلا تغتر به. قال الإمام ابن القيم الحنبلي في نونيته:

وكذلك القرآن عين كلامه الـ	ـمسموع منه حقيقة ببيان
هو قول ربي كله لا بعضه	لفظاً ومعنى ما هما خلقان
تنزيل رب العالمين وقوله	للفظ والمعنى بلا روغان
لكن أصوات العباد وفعلهم	كمدادهم والرق مخلوقان
فالصوت للقارىء ولكن الكلا	م كلام رب العرش ذي الإحسان
هذا إذا ما كان ثم وساطة	كقراءة المخلوق للقرآن

فإذا انتفت تلك الوساطة مثل ما   قد كُلِمَ المولود من عمران
فهنالك المخلوق نفس السمع لا   شيء من المسموع فافهم ذان

(و)يجب له سبحانه (**البصر**)، وهو صفة قديمة قائمة بذاته يتعلّق بالمبصرات، فيدرك بها إدراكاً تاماً لا على سبيل التخيل والتوهم، ولا على سبيل تأثر حاسة، وكذا يجب له تعالى (**سمع**)، وهو صفة قديمة يتعلّق بالمسموعات. وإثبات هاتين الصفتين ـ أعني السمع والبصر ـ للدلائل السمعية، وهما صفتان زائدتان على الذات، وليسا راجعين إلى العلم بالمسموعات والمبصرات، خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

وعن أبي موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفَرٍ، فكنا إذا علونا كبّرنا. فقال: «اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً قريباً».

ويجب له جل وعلا (**إرادة**)، ويرادفها: المشيئة، وهما عبارتان عن صفة في الحي توجب تخصيص أحد المقدورين في أحد الأوقات بالوقوع، مع استواء نسبة القدر إلى الكل.

(و)يجب له عز وجل (**علم**)، أي: يجب الجزم بأنه تعالى عالم بعلم واحد قديم ذاتي محيطٍ بكل معلوم، كلي أو جزئي على ما هو عليه ليس بضروري، ولا كسبي، ولا نظري، ولا استدلالي.

ويجب له تعالى قدرة، وأشار إليها بقوله: (**واقتدر**) جلّ شأنه على إيجاد الموجودات، وخلق الممكنات، وهي صفة أزلية تؤثر في المقدورات عند تعلقها بها.

واعلم أن أهل السنة يثبتون لله تعالى ما أثبته لنفسه من الصفات، أو أثبته له رسوله ﷺ، ولا يحصرون ذلك بعدد.

وأما المتكلمة الصفاتية: فيثبتون لله تعالى سبع صفات، وهي التي ذكرها المصنّف بقوله: له الحياة، والكلام، والبصر ــ الأبيات، ثم أعقب ذلك بذكر متعلقاتها فقال: **(بقدرةٍ تعلّقت)** قدرته تعالى الأزلية القديمة الذاتية **(بـ)**كل **(ممكن)**، وهو ما ليس بواجب الوجود، ولا مستحيل الوقوع، ولم يوجد شيء ولن يوجد إلاَّ بها.

(كذا إرادة)، أي: مثل القدرة في التعلق بالممكنات، الإرادة: وهي والقدرة غير متناهية المتعلقات، إلاَّ أن تعلق القدرة بالممكنات، تعلق إيجاد أو إعدام، وتعلق الإرادة بها، تعلق تخصيص. قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

(فعي): أمر من وعاه يعيه ــ بمعنى حفظه وجمعه، أي: اجمع حواشي هذا الكلام واحفظه، وإثبات الياء لضرورة الشعر. **(واستبن)**، أي: اطلب البيان من مظانه، وإنما أمر بالجمع والحفظ وطلب البيان، لاشتمال المقام على غموض، ولكثرة النزاع فيه.

(والعلم)، أي: علم الله تعالى. **(والكلام)**، أي: كلامه سبحانه. **(قد تعلقا بكل شيء)** من الجائزات والواجبات والمستحيلات، ومعنى تعلق بالمستحيلات عِلمه باستحالتها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه: إن علم الله السابق محيط بالأشياء على ما هي عليه، ولا محو فيه، ولا تغيير، ولا زيادة، ولا نقصان، فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف كان يكون.

قال: وأما ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ، فهل يكون فيه محو وإثبات على قولين للعلماء؟ وقال: وأما الصحف التي بيد الملائكة فيحصل فيها المحو والإثبات.

(يا خليلي)، أي: صديقي. **(مطلقاً)** عن التقييد بواحد من الثلاثة: الواجبات، والجائزات، والمستحيلات، بل يعمها جميعها.

(وسمعه سبحانه) وتعالى، **(كالبصر)** منه جل شأنه يتعلق **(بكل)** شيء (مسموع)، (و)بصر يتعلق بـ(ـكل) شيء **(مبصر)**. فهو تعالى سميع بصير، يعني: أن هاتين الصفتين متحدتا المتعلق، فيتعلقا بالموجود واجباً كان أو ممكناً، عيناً كان أو معنى، كلياً كان أو جزئياً، مجرداً كان أو ذا مادة، مركباً أو بسيطاً.

* * *

وأنَّ ما جاء[1] مَعَ جبريلِ من مُحكم القرآنِ والتنزيلِ
كلامُه سُبحانه قديمُ أَعْيَ الورَى بالنَّصِ يا عَلِيْمُ

شرح ابن شطي

فصل

في مبحث القرآن العظيم

اعلم رحمك الله تعالى أن الناس اختلفوا في هذا الكتاب المنزل على النبي المرسل، محمد ﷺ ما نزل قطر وهطل؛ فمذهب السلف الصالح وأئمة الأثر هو ما أشير إليه بقوله:

(**وأن**)، أي: ونجزم ونتحقق فهو معطوف على قوله: بأنه واحد... البيت وما بعده. فالواجب اعتقاده بأن (**ما**)، أي الوحي: والكلام الذي (**جّاء**) من الله تعالى (**مع جبرَيل**) الملك المكرم أمين الله تعالى على وحيه لأنبيائه ورسله (**من محكم القرآن**) العظيم (**و**)محكم (**التنزيل**) الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ، فهو عطف مرادف (**كلامه سبحانه**) وتعالى (**قديم**).

قال الشيخ الإمام أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي الشافعي في كتابه الذي سماه الفصول في الأصول: سمعت الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول، سمعت الإمام أبا بكر عبد الله بن أحمد يقول، سمعت الشيخ أبا حامد الإسفراييني يقول: مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر. والقرآن حمله جبريل عليه السلام مسموعاً من الله تعالى،

(١) زاد في حاشية ابن قاسم (قد) في (وأن ما قد جاء).

والنبي ﷺ سمعه من جبريل، والصحابة رضي الله تعالى عنهم سمعوه من رسول الله ﷺ، قال: وهو الذي نتلوه نحن بألسنتنا وفيما بين الدفتين وما في صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً ومقروأً وكل حرف منه كالباء والتاء كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر عليه لعائن الله والملائكة والناس أجمعين، انتهى كلامه بحروفه.

وقد أخبر الله تعالى بتنزيله وشهد بإنزاله على رسوله فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾، وقال جل شأنه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾، والمنزل على الرسول ﷺ هو هذا الكتاب.

وقد أمر سبحانه وتعالى بترتيله وقراءته والاستماع له، وأخبر أنه يسمع ويتلى، وكل هذا من صفات هذا الموجود عندنا لا من صفات ما في النفس الذي لا يظهر لحس ولا يدرى ما هو.

قال الإمام الموفق: كتاب الله العربي الذي أنزل على محمد ﷺ فهو كتاب الله الذي هو هذا الذي هو سور وآيات وحروف وكلمات بغير خلاف.

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾﴾، ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾. والآيات في هذا كثيرة جداً، وكذا الأحاديث كقوله ﷺ: «إن هذا القرآن حبل الله، وهو النور المبين والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه» الحديث.

وقال ﷺ: «من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات، ومن قرأه فلحن فيه فله بكل حرف حسنة» حديث صحيح.

وأجمع المسلمون على أن القرآن أنزل على محمد وأنه معجزة النبي ﷺ المستمرة الذي تحدى الله تعالى الخلق الإتيان بمثله فعجزوا، وأجمعوا على أنه يقرأ ويسمع ويحفظ ويكتب، وكل هذه الصفات لا تعلق لها بالكلام النفسي.

قال شيخ الإسلام: فإن قلت: قد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وغيره من السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ أنزل إلى بيت العزة في السماء الدنيا ثم أنزل بعد ذلك منجماً مفرقاً بحسب الحوادث، وقد أخبر الله تعالى أن القرآن الكريم مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾.

فالجواب: أن كون القرآن العظيم مكتوب في اللوح المحفوظ وفي الصحف بأيدي الملائكة الكرام لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله تعالى سواء كتبه الله تعالى قبل أن يرسل به جبريل أو بعد ذلك، وإذا كان قد أنزله مكتوباً إلى بيت العزة جملة واحدة ليلة القدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله، وهو تعالى كتب أعمال العباد قبل أن يعملوها وقدر مقادير الخلائق قبل أن يعملوها كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة، ثم أنه يأمر الملائكة بكتابتها بعد ما يعملونها فيقابل بين الكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنه فلا يكون بينهما تفاوت هكذا قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وغيره من السلف وهو حق، فإذا كان ما يخلقه بائناً عنه قد كتبه قبل أن يخلقه فكيف يستبعد أن يكون كلامه الذي يرسل به ملائكته مكتوباً قبل

أن يرسلهم به، ومن زعم أن جبريل عليه السلام أخذ القرآن من الكتاب ولم يسمعه من الله تعالى كان هذا باطلاً.

وذكر الإمام الموفق في البرهان أن الله تعالى لما كلم موسى عليه السلام فناداه ربه يا موسى فأجاب سريعاً استئناساً بالصوت لبيك لبيك أسمع صوتك ولا أرى مكانك فأين أنت؟ قال يا موسى: «أنا فوقك وعن يمينك وعن شمالك، وأمامك وعن ورائك» فعلم أن هذه الصفة لا تكون إلا لله تعالى، قال فكذلك أنت يا إلهي أفكلامك أسمع أم كلام رسولك قال: بل كلامي يا موسى! كما في الخبر. قال وجاء في خبر آخر أن بني إسرائيل قالوا يا موسى بم شبهت صوت ربك قال إنه لا شبه له.

ولما بين الناظم أن القرآن العظيم الذي أنزله الله تعالى هو كلام الله تعالى وأنه قديم، أعقب ذلك ببعض نعوت هذا الكتاب المنزل على النبي المرسل فقال: (أعْيَ)، أي: أعجز (الورى)، أي: جميع الخلق من الإنس والجن (بالنص) القرآني (يا عليم)، أي: يا عالم البالغ في العلم فإن العليم صفة مبالغة قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾، فتحدى الخلق بالإتيان بمثله.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾، غاية التحدي والتبكيت[1] والرد عليهم والتنكيت، أي: إن كانوا صادقين في زعمهم أن النبي ﷺ تقوّل القرآن العظيم فليأتوا بحديث مثله، فإنه إذا كان محمد ﷺ قادراً على أن يتقوله كما يقدر

---

(١) يقال بكّته بالتشديد عنفه وغلبه بالحجة. (د).

الإنسان على أن يتكلم بما يتكلم به من نظم ونثر كان هذا ممكناً للناس الذين هم من جنسه فيمكن الناس أن يأتوا بمثله.

فصل

في مبحث القرآن العظيم، والكلام المنزل القديم

اعلم أن مذهب السلف الصالح في القرآن أنه كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، تكلم به الله صدقاً، وسمعه منه جبريل حقاً، وبلغه محمداً وحياً، ولهذا قال:

(**وإن**)، أي: ونجزم أن (**ما**)، أي: الوحي والكلام الذي (**جاء**) من الله تعالى (**مع جبريل**)، الملَك المكرم، أمين الله على وحيه لأنبيائه ورسله، (**من محكم القرآن**) العظيم، (**والتنزيل**)، أي: أنزله الله تعالى على نبيّه محمد ﷺ بواسطة جبريل، فهو عطف مرادف (**كلامه سبحانه**) وتعالى (**قديم**) حروفه ومعانيه غير مخلوق، وقد أخبر تعالى بتنزيله وشهد بإنزاله. فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا (٢٣)﴾. وقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦)﴾. والآيات في ذلك أكثر من أن تحصى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ في قاعدته التي في بيان أن القرآن كلام الله تعالى: ليس شيء منه كلاماً لغيره، لا جبريل، ولا محمد ﷺ، ولا غيرهما قال: وفي قوله تعالى: ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ دلالة على بطلان قول من يقول: إنه كلام مخلوق خلقه في جسم من الأجسام المخلوقة، كما هو قول الجهميين الذين قالوا بخلق القرآن.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: القرآن كيف تصرف فهو غير مخلوق، ولا نرى القول بالحكاية والعبارة، وغلّط من قال بهما وجهّله.

(أعي)، أي: عجز **(الورى)** من الإنس والجن **(بالنص)** القرآني. **(يا عليم)**: مبالغة عالم تمم به البيت.

قال الله تعالى: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

* * *

وليس في طَوقِ الوَرى من أصْلِهِ   أنْ يستطيعُوا سُورةً من مِثْلِهِ

شرح ابن شيطي

(وليس في طوق)، أي: وسع (الورى) من جميع الخلق. فالمعنى ليس في قدرة الخلق ولا طاقتهم ولو بذلوا جهدهم بغاية ما يمكنهم ولو مع تمام المشقة الحاصلة لهم (من أصله)، أي: الورى من أولهم إلى آخرهم ويحتمل وهو المراد أنه ليس في طوق الخلق من الأصل (أن يستطيعوا) الإتيان بأقصر (سورة) من القرآن، فليس في طوق جميع الخلق من أصل خلقهم من غير أن يسلبهم الله تعالى ذلك الإتيان بأقصر سورة (من مثله)، أي: القرآن كما تحدى الديّان أهل الفصاحة والبلاغة واللسن، وذوي الرزانة[1] والدراية والفطن، فاعترفوا بالعجز عن الإتيان بمثل أقصر سورة في القرآن.

قال شيخ الإسلام: نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب، فإنه ليس من جنس الشعر والرجز ولا الرسائل والخطابة ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته عجيب خارق للعادة وليس له نظير في كلام جميع الخلق، وهذا نهاية الإعجاز وبالله التوفيق.

فوائد:

الأولى: التحدي المعارضة، والمتحدي هو الذي يتحدى الناس، أي: يدعوهم إلى أن يعارضوه.

(١) اللسن بفتحتين: الفصاحة ــ الرزانة: الوقار والسكون. (د).

الثانية: قال الحافظ ابن الجوزي: وكان المرتضى العلوي يقول بالصرفة، يعني أن الله تعالى صرف العرب عن الإتيان بمثله لا أنهم عجزوا عنه.

قال الإمام ابن عقيل: الصرف عن الإتيان بمثله دال على أن لهم قدرة حاصلة. قال: وإن كان في الصرف نوع إعجاز إلا أن كون القرآن في نفسه ممتنعاً عن الإتيان بمثله لمعنى يعود عليه آكد في الدلالة وأعظم لفضيلة القرآن، وما قول من قال بالصرفة إلا بمثابة من قال بأن عيون الناظرين إلى عصى موسى عليه السلام خيل لهم أنها حية وثعبان لا أنها في نفسها انقلبت، فالتحدي للمصروف عن الشيء لا يحسن كما لا يتحدى العجم بالعربية.

وقال شيخ الإسلام: من أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام إنه معجز بصرف الدواعي مع قيام الموجب لها، أو سلب القدرة الجازمة وهو أن الله تعالى صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضى التام.

الثالثة: كون القرآن معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط، أو نظمه وأسلوبه حسب، أو إخباره بالغيب والمغيبات، ولا من صرف الدواعي والمعارضات، بل هو آية بينة ومعجزة ظاهرة ودلالة باهرة وحجة قاهرة من وجوه متعددة: من جهة اللفظ والنظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أمر بها وأخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك، وعن الغيب الماضي والمستقبل، وعن المعاد وما بُيِنَ فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة وغير ذلك، فكل ما ذكره الناس من وجوه

الإعجاز في القرآن فهو حجة على إعجازه ولا تناقض في ذلك بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له.

الرابعة: قال علماؤنا: وفي بعض آية إعجاز، وعلى التحقيق يتفاضل ثوابه ويتفاوت إعجازه، وفاتحة الكتاب أفضل سورة، وآية الكرسي أعظم آية، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن، والأحاديث الواردة في فضائل القرآن وتخصيص بعض السور والآيات بالتفضيل وكثرة الثواب في تلاوتها كثيرة جداً.

وذهب الأشعري والباقلاني إلى المنع ويروى عن الإمام مالك. وقال الحافظ السيوطي في الإتقان: اختلف القائلون بالتفضيل، فقال بعضهم الفضل راجع إلى عظم الأجر ومضاعفة الثواب بحسب انفعالات النفس وخشيتها وتفكرها عند ورود أوصاف العلي الأعلى، وقيل بل يرجع لذات اللفظ، فالتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها وبالله التوفيق.

شرح ابن مانع

(**وليس في طوق الورى**)، أي: ليس في وسع الخلق وطاقتهم. (**من أصله**)، أي: الورى (**أن يستطيعوا**) الإتيان بأقصر (**سورة من مثله**)، أي: القرآن، وفي قوله: وليس في طوق الورى من أصله إلخ. . . إشارة إلى أن القرآن معجز في نفسه خلافاً لمن يقول بالصرفة، وهو أن الله صرف قلوب العباد عن معارضته، وهذا القول أضعف ما قيل في وجوه إعجاز القرآن، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

* * *

وليس ربنا بَجوهَر وَلا عَرَضٍ ولا جسمٍ تَعالَى ذُو العُلا

فصل

في ذكر الصفات التي يثبتها لله تعالى أئمة السلف وعلماء الأثر دون غيرهم

ولما كان في إثبات هذه الصفات ما يبدر للعقول الفلسفية والأقيسة الكلامية والأخيلة الخلفية ما يوهم التجسيم قدم أمام المقصود ما ينفي ذلك بقوله:

(**وليس ربنا**) تبارك وتعالى (**بجوهر**) يراد به ما قابل العرض ويراد به ما في اصطلاح أهل الكلام يعني العين الذي لا يقبل الانقسام لا فعلاً ولا وهماً ولا فرضاً ولا هو الجزء الذي لا يتجزأ.

(**ولا**) ربنا جلّ شأنه (**عرض**) وهو ما لا يقوم بذاته بل بغيره بأن يكون تابعاً لذلك الغير في التحيز أو مختصاً به اختصاص النعت بالمنعوت.

(**ولا**) هو سبحانه (**جسم**) وهو ما تركب من جزئين فصاعداً.

ولما نفى كون الباري جل وعز جوهراً أو عرضاً أو جسماً لاتصاف الأول بالإمكان والحقارة، والثاني لاحتياجه إلى محل يقوم به، والثالث لأنه مركب فيحتاج إلى الجزء فلا يكون واجباً لذاته ولا مستغنياً عن غيره وفي ضمن ما نفى رد على بعض فرق الضلال من المجسمة، أعقب ذلك بقوله (**تعالى**) وتقدس (**ذو العلى**) في ذاته العلية، وصفاته القدسية، عمـ(ـا) يقول الظالمون علواً كبيراً.

فصل
في ذكر الصفات التي يثبتها لله
أئمة السلف دون غيرهم من الخلف

اعلم أن الذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة، متقدمهم ومتأخرهم، إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتاً حقيقية لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين، فله صفات لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو أوّله على غير ما ظهر من معناه، فهو جهمي قد اتبع غير سبيل المؤمنين.

ولما كان في إثبات بعض الصفات ما يبدر للعقول الفاسدة ما يوهم التجسيم، قدم أمام ذلك ما ينفيه فقال:

(وليس ربنا) تبارك وتعالى **(بجوهر)**: يراد به ما قابل العرض وهو عند المتكلمين: الجزء الذي لا يتجزأ، أي: الجوهر الفرد. وعند الفلاسفة وبعض محققي النظار: لا وجود للجوهر الفرد، وإليه ميل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أو ابن القيم ـ قدس الله سره ـ **(ولا عرض)**، وهو ما لا يقوم بذاته بل بغيره بأن يكون تابعاً لذلك الغير في التحيز وإلا لكان ممكناً؛ لأن العرض كل موجود يحدث في الجواهر

والأجسام كالألوان والطعوم والروائح، (**ولا جسم**)؛ لأن الجسم متركب ومتحيز، وذلك أمارة الحدوث، (**تعالى**) وتقدس (**ذو العلا**) في ذاته العلية، وصفاته القدسية عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قال بعض الأئمة: جمع أهل الحق جميع ما قيل في التوحيد في كلمتين:

إحداهما: أن كل ما تصور في الأفهام فالله تعالى بخلافه.

الثانية: اعتقاد أن ذاته ليست مشبهة بذات ولا معطلة عن الصفات، وقد أكد ذلك بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾. ويرحم الله القائل:

كل ما ترتقي إليه بوهم ... من جلال وقدرة وثناء
فالذي أبدع البرية أعلى ... منه سبحان مبدع الأشياء

* * *

سُبحانهُ قد استوى كَما وَرد ... من غيرِ كيفٍ قَد تعالى أن يُحَدْ
فـلا يُحيـطُ عِلْمُنَـا بـذاتِـهِ ... كَـذاكَ لا يَنْفَـكُّ عَـنْ صِفـاتِـهِ

شرح ابن شطي

ثم ذكر بعد هذا التمهيد المذهب السلفي والاعتقاد الأثري فقال:

(**سبحانه قد استوى**) على عرشه من فوق سبع سمواته استواء يليق بذاته (**كما ورد**) في الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والنصوص السلفية، مما لا يحصى.

فهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ من أولها إلى آخرها. ثم عامة كلام الصحابة رضي الله تعالى عنهم والتابعين لهم بإحسان رحمهم الله تعالى، ثم كلام سائر أئمة الدين، بأن الله تعالى مستو على عرشه بائن من خلقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى استواءه على عرشه في سبعة مواضع من كتابه.

وأما الأحاديث فمنها قصة المعراج فهي متواترة، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي»[1].

---

(١) وفي رواية: «سبقت غضبي» في (ج).

وذكر الإمام البخاري في كتاب التوحيد من صحيحه حديث أنس رضي الله تعالى عنه حديث الإسراء وفيه: «ثم علا به يعني جبريل فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله حتى جاوز سدرة المنتهى ودنا من الجبار رب العزة فتدلى حتى إذا كان قاب قوسين أو أدنى».

وقال ﷺ في حديث الأوعال: «والعرش فوق ذلك والله فوق عرشه وهو يعلم ما أنتم عليه». رواه الإمام أحمد في المسند وابن خزيمة في كتاب التوحيد.

وقد أكثر العلماء من التصنيف في ثبوت العلو والاستواء، فمن ذلك مسألة العلو لشيخ الإسلام، والعلو للإمام الموفق، والجيوش الإسلامية للمحقق، وكتاب العرش للحافظ الذهبي، وما لا أحصي عدهم.

قال العلامة الشيخ مرعي في أقاويل الثقات: لم يقل قائل يا الله يدعي إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو بحيث لا يمكن رفع هذه الضرورة عن القلوب ولا يلتفت الداعي يمنة ولا يسرة.

قال سيدنا الكبير الشيخ عبد القادر الجيلي الحنبلي قدس الله تعالى سره في كتابه الغنية في الفقه: وهو تعالى بجهة العلو مستو على العرش محتو على الملك محيط علمه بالأشياء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ الآية، ولا يجوز وصفه بأنه تعالى في كل مكان بل يقال إنه في السماء على العرش استوى كما قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾.

وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل وأنه استواء الذات على العرش، وكونه على العرش مذكور في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل بلا كيف هذا نص كلامه.

وقال الإمام القرطبي في تفسيره في سورة الأعراف: وقد كان السلف الأول رضي الله تعالى عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنه استوى على عرشه حقيقة. انتهى.

وقال الحافظ أبو نعيم في كتابه محجة الواثقين: وأجمعوا أن الله فوق سمواته وأنه عالٍ على عرشه مستوٍ عليه لا مستول عليه، وقال ابن رشد المالكي في كتابه المسمى بالكشف: وأما هذه الصفة يعني القول بالجهة فلم تزل أهل الشريعة يثبتونها حتى نفتها المعتزلة، وقد ظهر أن إثبات الجهة واجب شرعاً وعقلاً إلى آخر كلامه، وقيل للإمام عبد الله بن المبارك: كيف نعرف ربنا قال بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه.

على أن نفس الإمام الأشعري في كتابه الإبانة قال: إن الله تعالى مستو على عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝﴾ وقال: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا إلى نحو السماء لأن الله تعالى مستو على العرش الذي فوق السماوات، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو السماء، قال: وقال قائلون أن معنى استوى استولى وملك وقهر وأن الله في كل مكان، وجحدوا أن يكون على عرشه، فلو كان كما قالوا كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة لأن الله تعالى قادر على كل شيء. ثم بسط الأدلة على هذه المسألة من الكتاب والسنة والعقل بما يطول نقله.

وقال أيضاً في كتابه جمل المقالات: قال أهل السنة وأصحاب

الحديث: الله ليس بجسم ولا يشبه الأشياء وأنه على العرش كما قال عز وجل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝﴾. ولا نتقدم بين يدي الله في القول بل نقول استوى بلا كيف، إلى أن قال: ولم يقولوا شيئاً إلا ما وجدوه من الكتاب أو جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ، هذا نص كلامه:

وكذا قال البغوي تابعاً للأشعري، وقال الباقلاني: فإن قال قائل فهل تقولون إنه تعالى في كل مكان قيل له: معاذ الله بل هو مستو على عرشه كما أخبر وساق الآيات، ثم قال: ولو كان في كل مكان لكان في بطن الإنسان والحشوش ولصح أن يرغب إليه نحو الأرض وإلى خلفنا ويميننا وشمالنا، قال: وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئة قائله وأطال في الاستدلال في كتابه التمهيد في أصول الدين.

إذا علمت هذا فاعلم أن كثيراً من الناس يظنون أن القائل بالجهة أو الاستواء هو من المجسمة لأنهم يتوهمون أن من لازم ذلك التجسيم وهذا وهم فاسد وظن كاذب؛ لأنا نقول أولاً لمن ارتكب هذا المركب لازم المذهب ليس بمذهب عند أئمة أهل التحقيق فكيف ينسب إلى المرء شيء من لوازم كلامه، وهو من أبعد الناس عنه بقصده ومرامه، فإن أهل الإثبات المتبعين للمنصوص ينزهون الله تعالى عن التكييف والحد ويعتقدون أن من وصفه تعالى بالجسم أو كيف فقد زاغ والحد، ولهذا قال لما أثبت له صفة الاستواء، كما ورد **(من غير كيف)** كما روى اللالكائي الحافظ في كتابه السنة عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها قالت في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝﴾: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة والبحث عنه كفر. وهذا له حكم المرفوع لأن مثله لا يقال من قبل الرأي. وروي نحو ذلك عن مالك

رضي الله تعالى عنه، وروي عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن الاستواء فقال: آمنت بلا تشبيه، وصدقت بلا تمثيل، واتهمت نفسي بالإدراك وأمسكت عن الخوض غاية الإمساك، وعن سيدنا الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه لما سئل عن الاستواء أجاب بقوله استوى كما ذكر، لا كما يخطر للبشر.

فمعنى قول أم سلمة رضي الله تعالى عنها ومن نحا نحوها من الأئمة: الاستواء معلوم، أي: وصفه تعالى بأنه على العرش استوى معلوم بطريق القطع الثابت بالتواتر، وأما الوقوف على حقيقة أمر يعود إلى الكيفية فمجهول، والجهالة فيه من جهة أنه لا سبيل لنا إلى معرفة الكيفية لأنها تبع للماهية. وقولهم: والسؤال عنه بدعة؛ لأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم لم يسألوا عنه رسول الله ﷺ، والتابعين لم يسألوا الصحابة، ولأن جوابه يتضمن الكيفية.

ولهذا قيل في الجواب لمن دخلت عليهم الشبهة طالبين سؤالهم بالتكييف، والكيف مجهول، فالذي ثبت نفيه في الشرع والعقل واتفاق السلف إنما هو علم العباد بالكيفية، فعندها تنقطع الأطماع وعن دركها تقصر العقول، والوقوف على درج سلم التسليم تنتهي همم الأئمة الفحول.

ولهذا قال في تتمة نظمه: **(قد تعالى)** الله علا وجل، ولسنا في اتباع المأثور مع التسليم للمولى الحكيم على وجل، بأن الله تعالى وتقدس وتنزه من **(أن يحد)**، أو يقاس بما يحد، وفيه إشارة إلى رد زعم من زعم بأنه يلزم من كونه تعالى مستوياً على عرشه أن يحد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله تعالى عنه: استوى على عرشه على الوجه الذي يستحقه سبحانه من الصفات اللائقة به.

فإن قال قائل: لو كان الله تعالى فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساوياً وذلك كله محال، والجواب أن يقال: إن هذا لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت للأجسام فهذا اللازم تابع لهذا المفهوم، وأما استواء يليق بجلال الله تعالى ويختص بعظمته فلا يلزم شيء من اللوازم الباطلة التي يجب نفيها كما يلزم سائر الأجسام، وحال هذا القائل مثل من يقول إذا كان للعالم صانع فأما أن يكون جوهراً أو عرضاً، وكلاهما محال، إذ لا يعقل موجود إلا كذلك.

والقول الفصل هو ما عليه الأمة الوسط من أن الله تعالى مستو على عرشه استواء يليق بجلاله، فكما أنه تعالى موصوف بالعلم والبصر والقدرة ولا يثبت لذلك خصائص الأعراض التي للمخلوقين فكذلك سبحانه هو فوق عرشه فلا يثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوقين على المخلوق تعالى الله عن ذلك، والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها إحاطة تليق بجلاله.

(**فلا يحيط علمنا**) معشر الخلق من الملائكة والإنس والجن ولو بذلنا جهدنا أن تدرك عقولنا العلم (**بذاته**) المقدسة، وحقيقته المعظمة؛ قال شيخ الإسلام: لا يعلم ما هو إلا هو، (**كذاك**)، أي: كما أن علمنا لا يحيط بالذات المقدسة (**لا ينفك**)، أي: لا يخلص ولا يزول (**عن صفاته**) الذاتية، وأفعاله الاختيارية، فذاته المقدسة ليست مثل ذوات المخلوقين وصفاته كذاته ليست كصفات المخلوقين، فنسبة صفة المخلوق إليه كنسبة صفة الخالق إليه، وليس المنسوب كالمنسوب، ولا المنسوب إليه كالمنسوب إليه.

تـنبيـه: اختلف النظار في صفات الباري عز وجل، هل هي عين ذاته تعالى أو غير ذاته المقدسة؟

قال شيخ الإسلام: والذي عليه سلف الأمة وأئمتها إذا قيل لهم علم الله وكلام الله هل هو غير الله أم لا ، لم يطلقوا النفي ولا الإثبات، فإنهم إذا قيل لهم غيره أوهم أنه مباين له، وإذا قيل ليس غيره أوهم أنه هو، بل يستفصل السائل فإن أراد بقوله غيره أنه مباين له منفصل عنه فصفات الموصوف لا تكون مباينة له منفصلة عنه وإن كان مخلوقاً، فكيف بصفات الخـالـق؟ وإن أراد بـالغيـر أنهـا ليسـت هـي هـو، فليسـت الصفـة هـي الموصوف، فهي غيره بهذا الاعتبار.

واسم الرب تعالى إذا أطلق يتناول الذات المقدسة بما تستحقه من صفات الكمال فيمتنع وجود الذات عرية عن صفات الكمال، فاسم الله جلَّ وعزَّ يتناول الذات الموصوفة بصفات الكمال، وهذه الصفات ليست زائدة عن هذا المسمى بل هي داخلة في المسمى ولكنها زائدة على الذات المجردة، فالرب تعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال وصفاته داخلة في مسمى أسمائه سبحانه وتعالى. انتهى.

وهذا تحقيق لا مزيد عليه فاحفظه فإنه مهم.

شرح ابن مانع

قوله: (**سبحانه**)، أي: تنزيهاً لجلال الله عما يقول المعطلة ويعتقده المشبهة. (**قد استوى**) على عرشه بعد خلق السموات والأرض، (**كما ورد**) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

وثم في هذه الآية وغيرها للترتيب لا لمجرد العطف، كما يقوله النفاة، فهو تعالى مستو على العرش على الوجه الذي قاله، وبالمعنى الذي أراده استواءً منزهاً عن المماسة والتمكن والحلول لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بقدرته، ومقهورون في قبضته، ولو ذكر الناظم ما يدل على الترتيب، كان أحسن موافقة للقرآن العظيم، وقد لاحظ الإمام الصرصري ذلك حيث قال:

قضى خلقه ثم استوى فوق عرشه ... ومن علمه لم يخل في الأرض موضع
وليس بخاف عنه مثقال ذرّة ... تضمنها بحر وبيداء بلقع
ومن قال إن الله جل بذاته ... بكل مكان جاهل متسرع
إليه الكلام الطيب الصدق صاعد ... وأعمال كل الخلق تحصى وترفع

ولما سأل ربيعة شيخ الإمام مالك عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾. كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول ــ يعني ــ معلوم لغة، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق.

وروي أيضاً نحو ذلك عن الإمام مالك. وسئل الإمام الشافعي عن الاستواء فقال: آمنت بلا تشبيه، واتهمت نفسي في الإدراك، وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك. ولما سئل الإمام أحمد عن الاستواء أجاب بقوله: استوى كما ذكر لا كما يخطر للبشر.

وقال إمام الأئمة محمد بن خزيمة: من لم يقرّ بأن الله تعالى استوى على عرشه فوق سبع سماواته بائن من خلقه فهو كافر يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه.

فمذهب السلف الصالح أن الله تعالى مستو على عرشه حقيقة من غير مماسة، ولا حاجة إلى شيء من مخلوقاته، ومذهب جهم بن صفوان وشيخه الجعد بن درهم، وشيخه إبان بن سمعان اليهودي وأشياخهم وأتباعهم تحريف كلام الله، وعدم الرضى، والتسليم لما أخبر به عن نفسه، أو أخبر به عنه رسوله ﷺ فقالوا: استوى: استولى أو قهر أو ملك أو غلب. إلى غير ذلك من الظن والتخمين المنافي لما يطلب في العقائد من الجزم واليقين. ويرحم الله القائل:

أمر اليهود بأن يقولوا حطة ... فأبوا وقالوا حنطة لهوان

وكذلك الجهمي قيل له استوى ... فأبى وزاد الحرف للنقصان

قال استوى استولى وذا من جهله ... لغة وعقلاً ما هما سيان

إلى أن قال:

نون اليهود ولام جهمي هما ... في وحي رب العرش زائدتان

فاستواء الباري تعالى على عرشه استواء حقيقي يليق بذاته تعالى (من غير كيف) ولا تشبيه لصفاته بصفات خلقه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وما أحسن ما قيل:

على عرشه الرحمٰن سبحانه استوى ... كما أخبر القرآن والمصطفى روى

وذاك استواء لائق بجلاله ... وأبرأ من قولي له العرش قد حوى

فمن قال مثل الفلك كان استواؤه ... على جبل الجودي من شاهق هوى

ومن يتبع ما قد تشابه يبتغي ... به فتنة أو يبغي تأويله غوى

فلم أقل استولى ولست مكلفاً ... بتأويله كلا ولم أقل احتوى

ومن قال لي كيف استوى لا أجيبه ... بشيء سوى أني أقول له استوى

ثم قال الناظم مُلوِحاً بالرد على الممثلة والمعطلة: **(قد تعالى)** الله **(أن يحد)** وفيه الرد على من زعم أنه يلزم من كونه مستوياً على عرشه أنه يحد تعالى الله عن ذلك، إذ المحدود محدث، والمحدث مفتقر للخالق، والخالق سبحانه هو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وهو بكل شيء عليم.

الأول من غير بداية، والآخر من غير نهاية، والظاهر من غير تحديد، والباطن من غير تخصيص، موجود بالوجود القديم من غير تشبيه ولا تكييف، **(فلا يحيط علمنا)** معشر الخلق **(بذاته)** تعالى، فلا يعلم ما هو إلا هو.

وقد نفى أئمة السلف علم العباد بكيفية صفات الله وحقيقة ذاته.

ولو اجتمع العقلاء بأجمعهم على أن يكيّفوا بصر المخلوق، أو سمعه، أو عقله، لم يقدروا على ذلك مع أنه مخلوق.

فإذا عجزوا عن تكييف ما هو مخلوق فعن تكييف من لا يجانسه مخلوق ولا يقاس على معقول أعجز، ليس له مثل يقاس عليه هو، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾، لا يلحقه الوهم، ولا يكيفه العقل، ولذلك قال المصطفى ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» تنبيهاً على نفي التشبيه والتكييف، واعترافاً للغني الحميد بالجلال والعظمة، فهذه غاية المعرفة، ﷺ.

(كذاك)، أي: كما أن علمنا لا يحيط بذاته المقدسة. **(لا ينفك)**، أي: يخلص ويزول **(عن صفاته)** الذاتية، وأفعاله الاختيارية، فذاته ليست مثل ذوات المخلوقين، وصفاته كذاته ليست كصفات المخلوقين.

* * *

فكل ما قد جاء في الدَّليل فثَابتٌ من غيرِ مَا تَمثِيلِ
من رحمةٍ ونحوها كوجهه ويَدهِ وكُلِّ ما مِن نهجهِ
وعَيْنُهُ وصفَةِ النُّزولِ وَخَلقِهِ فاحذر مِن النُّزُولِ

شرح ابن شطي

ثم أخذ في ذكر الصفات التي يثبتها السلف فقال:

(فكل ما)، أي: وصف (قد جاء) مضمونه (في الدليل) الشرعي من الكتاب العظيم وسنة النبي الكريم ووصفه به السلف الصالح (فثابت) له سبحانه وتعالى وموصوف به (من غير ما) زائدة لمزيد النفي وتأكيده (تمثيل)، بل نثبته كما ورد ولا نتعرض له بتأويل ولا رد. فمذهب السلف في آيات الصفات أنها لا تأول ولا تفسر بل يجب الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى.

فقد روى اللالكائي الحافظ عن محمد بن الحسن قال: اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه، إذا علمت ذلك فمما يثبته السلف له تعالى صفة الرحمة وقد أشار إليها بقوله:

(من رحمة) وهي صفة قديمة قائمة بذاته تعالى تقتضي التفضّل والإنعام كما تقدم أول الكتاب (ونحوها)، أي: نحو الرحمة من محبته وغضبه ورضاه ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

قال شيخ الإسلام في التدمرية: القول في بعض الصفات كالقول في بعض الذات، فإن كان المخاطب ممن يقر بأن الله تعالى حي بحياة عليم بعلم قدير بقدرة بصير ببصر متكلم بكلام مريد بإرادة ويجعل ذلك كله

حقيقة وينازع في محبته تعالى ورضاه وغضبه وكراهته فيجعل ذلك مجازاً ويفسره إما بالإرادة وإما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات، قيل له لا فرق بين ما نفيته وبين ما أثبته بل القول في أحدهما كالقول في الآخر، فإن قلت له إرادة تليق به كما أن للمخلوق إرادة تليق به، قيل لك وكذلك له محبة تليق به وللمخلوق محبة تليق به، وله تعالى رضا وغضب يليق به وللمخلوق رضا وغضب يليق به.

ثم ذكر من صفات الله تعالى التي يثبتها السلف فقال: **(كوجهه)**، أي: من الصفات الثابتة له تعالى صفة الوجه إثبات وجود لا إثبات تكييف وتحديد؛ وهذا الذي نقل الخطابي وغيره أنه مذهب السلف والأئمة الأربعة وبه قال الحنفية والحنابلة وكثير من الشافعية وغيرهم، وهو إجراء آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفي الكيفية والتشبيه عنها محتجين بأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف، فكذلك إثبات الصفات.

وقالوا إنَّا لا نلتفت في ذلك إلى تأويل لسنا منه على ثقة ويقين لاحتمال أن يكون المراد غيره لأنه مأخوذ بالظن والتخمين، لا بالقطع واليقين، فلا نبني اعتقادنا عليه، ولا نرجع عن النص الثابت إليه، فإن هذا عند السلف مذموم.

قال بعض المحققين: صفات الرب تعالى معلومة من حيث الجملة والثبوت غير معقولة من حيث الكيف والتحديد، فالمؤمن مبصر بها من وجه أعمى من وجه، مبصر من حيث الإثبات والوجود، أعمى من حيث التكييف والتحديد، قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، وفي الحديث: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله».

قال أبو الحسن الأشعري: لله تعالى وجه بلا كيف ونصدق بجميع الروايات التي يثبتها أهل النقل.

وقال الإمام أبو حنيفة: وله تعالى وجه ويد ونفس فما ذكر الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف.

(ويده) تعالى الثابت بها النص القرآني، والحديث النبوي العدناني، كقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾، وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى أنت الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته ونفخ فيك من روحه»، الحديث.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: أتى النبي ﷺ رجل من اليهود فقال: يا محمد إن الله يجعل السمٰوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيهزهز فيقول أنا الملك أنا الملك قال: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، الآية.

قال شيخ الإسلام: ففي هذه الآيات والأحاديث الصحيحة والآية المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول ما يبين أن السمٰوات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة الله تعالى أصغر من أن تكون مع قبضته لها إلاّ كالشيء الصغير في يد أحدنا حتى يدحوها كما يدحو بالكرة.

إذا استحضرت ما ذكرناه، فاعلم أن مذهب السلف وعلماء الحنابلة ومن وافقهم من أهل الأثر أن المراد باليدين إثبات صفتين ذاتيتين يسميان يدين يزيدان على النعمة والقدرة، محتجين بالآيات القرآنية والأخبار النبوية.

قال الإمام البغوي في قوله تعالى: ﴿بِيَدَيَّ﴾، في تحقيق الله تعالى التثنية في اليد دليل على أنها ليست بمعنى القدرة والقوة والنعمة وإنهما صفتان من صفات ذاته، قال البيهقي: المتقدمون من هذه الأمة لم يفسروا ما ورد من الآي والأخبار في هذا الباب مع اعتقادهم بأجمعهم أن الله واحد لا يجوز عليه التبعيض.

وذهب بعض أهل النظر إلى أن اليمين يراد به اليد واليد لله صفة بلا جارحة، فكل موضع ذكرت فيه من الكتاب والسنة فالمراد بذكرها تعلقها بالمكان المذكور معها من الطي والأخذ والقبض والبسط والقبول والإنفاق وغير ذلك تعلق الصفة الذاتية بمقتضاها من غير مباشرة ولا مماسة وليس في ذلك تشبيه بحال، وهذا مذهب السلف والحنابلة وغيرهم ومن وافقهم.

قال الخطابي: وليس معنى اليد عندي الجارحة وإنما هي صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على ما جاءت به ولا نكيفها وننتهي إلى حيث انتهى بها الكتاب والأخبار الصحيحة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، انتهى.

وقال الإمام ابن خزيمة في كتابه السنة: مذهبنا مذهب أهل الآثار ومتبعي السنن، نقول لله جل وعلا يدان كما أعلمنا الخالق الباري في

محكم تنزيله وعلى لسان نبيّه المصطفى ﷺ، نقول كلتا يدي ربنا عز وجل يمين على ما أخبر النبي ﷺ، ونقول أن الله عز وجل يقبض الأرض جميعاً بإحدى يديه ويطوي السماء بيده الأخرى وكلتا يديه يمينان لا شمال فيهما، كيف يكون مشبهاً من يثبت لله تعالى أصابع على ما بينه النبي المصطفى ﷺ للخالق الباري ويقول: «إن الله جل وعلا يجعل السماء على إصبع والأرضين على إصبع» إلى تمام الحديث، وأطال من التبكيت على من أوّل النصوص وبالله التوفق.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمـٰن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء» ثم قال عليه الصلاة والسلام: «اللهم مصرف القلوب صرّف قلوبنا إلى طاعتك».

(وكل ما)، أي: كل شيء وارد من صفات الله تعالى **(من نهجه)**، أي: نهج اليد والوجه ونحوهما والنهج الطريق الواضح، أي: كل ما ورد من الأوصاف من القدم والصورة.

(و)من **(عينه)** عز وجل فنهجه الواضح وسبيله المبين الإقرار بما ورد والإيمان بما صح من غير تشبيه ولا تمثيل، بل نقر ونذعن، ونسلم ونؤمن، بكل ذلك ونثبته إثبات وجود لا تكييف ولا تحديد، فمن ذلك العين في قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ۝٣٩﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، فمذهب السلف إثبات ذلك صفة لله.

وذكر البخاري في حجة الوداع من كتاب المغازي من صحيحه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كنا نتحدث بحجة الوداع والنبي ﷺ

بين أظهرنا فلا ندري ما حجه، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره وقال: «ما بعث الله من نبي إلاَّ أنذر أمته، أنذره نوح والنبيون من بعده وإنه يخرج فيكم فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس بأعور، وأنه أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافئة» والأحاديث في ذلك كثيرة.

قال البيهقي والقرطبي وغيرهما: في هذا نفي نقص العور عن الله تعالى وإثبات العين له صفة، وعرفنا بقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾إنها ليست بحدقة، وقال علماؤنا قد ورد السمع بإثبات صفة له تعالى وهي العين فتجري مجرى السمع والبصر، وليس المراد إثبات عين هي حدقة ماهيتها شحمة لأن هذه العين من جسم محدث والله يتعالى عن ذلك.

وأما العين التي وصف بها الباري جل وعلا فهي مناسبة لذاته في كونها غير جسم ولا جوهر ولا عرض، فلا يعرف لها ماهية ولا كيفية، ومن المفاسد قياس الغائب على الشاهد.

وذكر الشيخ إبراهيم الكوراني في شرح منظومة شيخه الشيخ محمد المقدسي القشاشي ما لفظه: ثم وقفت من كلام الشيخ الأشعري في الإبانة الذي هو آخر مصنفاته والمعتمد في المعتقد على ما يشد أركان ما قررناه من مذهبه وذلك أنه قال: وإن له تعالى عينين بلا كيف وإن لله علماً، ونثبت لله تعالى السمع والبصر ولا ننفي ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج. انتهى.

قال الكوراني: فصرح بإثبات العينين بلا كيف والحمد لله رب العالمين. انتهى.

وقال سيدنا أحمد: أحاديث الصفات تمر كما جاءت من غير بحث عن معانيها، ونخالف ما خطر في البال عند سماعها، وننفي التشبيه عن الله تعالى عند ذكرها مع تصديق النبي ﷺ والإيمان بها، وكل ما يعقل ويتصور فهو تكييف وتشبيه وهو محال.

(و)من (صفة النزول)، أي: مما يثبته السلف ولا يتأولونه صفة نزول الباري جل وعلا إلى سماء الدنيا كما أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النبي ﷺ قال: «إن الله ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم بني كلب»، ولحديث الإمام أحمد ومسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى يمهل حتى إذا كان ثلث الليل الأخير نزل إلى السماء الدنيا فنادى هل من مستغفر، هل من تائب، هل من سائل، هل من داعٍ، حتى ينفجر الفجر»، ورواه البخاري.

قال الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري: قد اختلف في معنى النزول على أقوال: فمنهم من حمله على ظاهره وحقيقته وهم المشبهة تعالى الله عن قولهم، ومنهم من أنكر صحة الأحاديث وهم الخوارج، ومنهم من أجراه على ما ورد مؤمناً به على طريق الإجمال منزهاً لله تعالى عن الكيفية والتشبيه وهم جمهور السلف ونقله البيهقي وغيره عن الأئمة الأربعة والسفيانين والحمادين والأوزاعي والليث وغيرهم.

ومنهم من أوله على وجه يليق في كلام العرب، ومنهم من أفرط في التأويل حتى كاد يخرج إلى نوع التحريف، قال الإمام البيهقي: وأسلمها

الإيمان بلا كيف والسكوت عن المراد إلاَّ أن يرد ذلك عن الصادق فيصار إليه، ومن الدليل على ذلك اتفاقهم على أن التأويل المعين غير واجب فحينئذٍ التفويض أسلم، انتهى.

وقال العلامة الطوفي: المشهور عند أصحاب الإمام أحمد أنهم لا يتأولون الصفات التي من جنس الحركة كالمجيء والإتيان والنزول والهبوط والدنو والتدلي، كما لا يتأولون غيرها متابعة للسلف الصالح، وكلام السلف في هذا الباب يدل على إثبات المعنى المتنازع فيه.

قال الأوزاعي لما سئل عن حديث النزول: يفعل الله ما يشاء، وقال حماد بن زيد: يدنو من خلقه كيف شاء، وهو الذي حكاه الأشعري عن أهل السنة والحديث. قال ابن حمدان في نهاية المبتدئين: نقول بحديث النزول مما سنده صحيح ولفظه صريح.

قال التميمي في اعتقاد سيدنا الإمام أحمد: النزول حق نقول به من غير انتقال ولا حلول في الأمكنة. وقال ابن البنا: لا يقال بحركة ولا انتقال. وقال القاضي: لا على جهة الانتقال والحركة كما جازت رؤيته تعالى وتجلى للجبل لا على وجه الحركة والانتقال، ولا نثبت نزولاً عن علو وزوال بل نزولاً لا يعقل معناه ولا يعقل ذلك في الشاهد، وإجماع الأمة أنه بائن من خلقه وهو على ما يثبته لنفسه في ذاته وصفاته ومن شبهه بخلقه كفر. وقال القاضي: النزول صفة ذات والحق أنه صفة فعل.

(و)مما اختلف فيه وأثبته السلف والماتريدية دون غيرهم صفة (خلقه)، قال الوزني من الحنفية في كتابه الذي سماه مرقاة المبتدئين، في أصول الدين، ما ملخصه: التخليق صفة لله تعالى، وهو فعل الله، لاقتضاء

المفعول فعلاً، لاستحالة مفعول بلا فعل، ففعله تعالى صفة له فاستحال دخوله تحت قدرته وإرادته.

واعلم أن الأئمة الأربعة ونظائرهم من أئمة أهل السنة وأكثر رجال الصوفية الذين كانت كراماتهم ظاهرة مثل مالك بن دينار، وإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وذي النون المصري، والسري السقطي، ومعروف الكرخي، وسهل بن عبد الله التستري، والجنيد، والشبلي... وغيرهم، كانوا يصفون الله تعالى بالفعل والكلام والرؤية والسمع كما يصفونه بالحياة والعلم والقدرة، انتهى.

وقال النسفي في عقائده المشهورة: والتكوين صفة لله أزلية، وهو تكوينه للعالم ولكل جزء من أجزائه وهو غير المكون عندنا، قال شارحها التفتازاني: التكوين هو المعنى المعبّر عنه بالفعل، والخلق، والتخليق، والإيجاد، والإحداث، والاختراع، ونحو ذلك، ويُفَسَّر بإخراج المعدوم من العدم إلى الوجود صفة لله تعالى؛ لإطباق العقل والنقل على أنه خالق للعالم مكوّن له. انتهى.

ولهذا قال شيخ الإسلام في شرح العقائد الأصفهانية: الصواب أن الخلق غير المخلوق، وذكر من الآيات القرآنية والأخبار النبوية الدالة على هذا الأصل شيئاً كثيراً.

ولما كان أهل الملة مختلفين فمنهم من نفى الصفات من أصلها وأثبت الأسماء وهم المعتزلة، ومنهم من نفى الصفات الخبرية والأفعال الاختيارية أن تقوم بذاته تعالى وأثبت السبع صفات كالأشعرية، وكان مذهب السلف وسائر الأئمة وجمهور الأمة إثبات الصفات الذاتية والأسماء

الحسنى والصفات الخبرية وصفات الأفعال الاختيارية لله تعالى، حثك على الاتباع لسلف الأمة فقال: (**فاحذر من النزول**) من ذروة الإيمان، فإن السلامة كل السلامة في اتباع الرعيل الأول.

شرح ابن مانع

قوله: (**فكل ما**)، أي، وصف، (**قد جاء في الدليل**) الشرعي من الكتاب والسنة، (فـ)إنه (**ثابت**) له تعالى وموصوف به (**من غير ما تمثيل**)، بل نثبت له ما ورد، ولا نتعرض له بتأويل ولا رد، فمذهب السلف في آيات الصفات الإثبات، وأنها لا تؤوّل ولا تفسّر، بل يجب الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله تعالى.

(**من رحمة**): وهي صفة قائمة بذاته تعالى تقتضي التفضل والإنعام.

(**ونحوها**)، أي: نحو الرحمة من محبته تعالى ورضاه وغضبه. قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

(**كوجهه**)، أي: من الصفات الثابتة له تعالى صفة الوجه، إثبات وجود لا إثبات تكييف وتحديد. قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾.

وقال أهل التأويل من المعتزلة وغيرهم: المراد بالوجه: الذات المقدسة. فأما كونه صفة الله فلا، وهو خطأ. بل الصواب الأول.

(و)كـ(**يده**)، أي: من الصفات الثابتة له جلّ وعلا صفة اليد، كما قال تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾.

(**وكل ما**)، أي: شيء وارد من صفات الله تعالى.

(**من نهجه**): أي: نهج اليد والوجه ونحوهما. والنهج: الطريق الواضح، أي: كل ما ورد من الأوصاف من الرِّجل والقدم والصورة، (و)من (**عينه**). فنهجه الواضح الإقرار بما ورد والإيمان بما صح من غير تشبيه، ولا تمثيل، ولا إلحاد، ولا تعطيل.

(و)من (**صفة النزول**): أي: مما يثبته السلفُ ولا يتأولونه صفة نزول الباري إلى سماء الدنيا، كما في صحيح مسلم وغيره، عن أبي سعيد وأبي هريرة مرفوعاً: «إن الله يمهل حتى إذا كان ثلث الليل الأخير نزل إلى السماء الدنيا فنادى: هل من مستغفر؟ هل من تائب؟ هل من سائل؟ هل من داع؟ حتى ينفجر الفجر»، ورواه البخاري ولفظه: «ينزل ربنا عز وجل إلى السماء الدنيا».

(و)من صفة (**خلقه**): التي أثبتها السلف والماتريدية دون المعتزلة، والأشعرية والكلابية.

(**فاحذر من النزول**) من ذروة الإيمان والاتباع، إلى حضيض التأويل والابتداع.

* * *

فَسَائِرَ الصّفاتِ والأفعالِ قديمة للّه ذي الجلال
لكن بلا كيف ولا تمثيل رَغْماً لأهلِ الزَّيغِ والتعَطِيلِ
فَمِرُّها كَمَا أَتَتْ في الذِّكْرِ مِنِ غَيرِ تأويلِ وغيرِ فِكْرِ

شرح ابن شطي

(**فسائر الصفات**) الذاتية (و)سائر صفات (**الأفعال**) من الاستواء والنزول والإتيان والمجيء والتكوين ونحوها (**قديمة لله**)، أي: هي صفات قديمة لله (**ذي الجلال**) والإكرام، ليس منها شيء محدث وإلاَّ لكان محلاً للحوادث، وما حل به الحادث فهو حادث، تعالى الله عن ذلك.

ولما كان ربما توهم متوهم أن ذلك سلم للتشبيه والتمثيل المنفي في محكم النص استدرك ذلك فقال (**لكن**) بسكون النون (**بلا كيف ولا تمثيل**) وإثبات ذلك والاعتراف به والإقرار والإذعان بموجبه لما دلت عليه النصوص، فاعتقدنا ذلك (**رغماً**)، أي: (**لأ**) جل رغم أنوف أ(**هل الزيغ**)، أي: الميل والانحراف، يقال زاغ إذا مال، (و)رغماً لأنوف أهل (**التعطيل**)، فإن من الناس من حمل النصوص على التشبيه والتمثيل، ومنهم من حملها على التحريف والتعطيل، وأهل الحق أثبتوا النصوص واعتقدوها بلا تكييف.

ولهذا قال (**فمرها**)، أي: آيات الصفات وأخبارها ولا تتعرض لمعانيها وأسرارها بل تفسيرها أن نمرها (**كما أتت في الذكر**) القرآني، والحديث عن المعصوم العدناني، (**من غير تأويل**) لها (**وغير فكر**) في معانيها، فإن ذلك ليس في طوق البشر أن يكلفوه، ولا في وسعهم أن يعرفوه، وعلى ذلك مضت أئمة السلف، والحق مع من سلف.

قوله: (**فسائر الصفات**)، أي: الذاتية: من الحياة، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والعلم، والكلام... وغيرها.

وسائر الصفات الخبرية: من الوجه، واليدين، والقدم، والعين.

(و)**سائر** (**الأفعال**): من الاستواء، والنزول، والإتيان، والمجيء، والتكوين... ونحوها.

(**قديمة**) عند سلف الأمة وأئمتها (**لله ذي الجلال**) والإكرام ليس منها شيء محدث، وإلاَّ لكان محلاًّ للحوادث وما حلت به الحوادث فهو حادث ــ تعالى الله عن ذلك ــ.

(**لكن**) إثبات ذلك (**بلا كيف ولا تمثيل**)، بل متابعة السلف الكرام.

(**رغماً لأهل الزيغ**)، أي: الميل والإنحراف عن منهج الحق، (و)رغماً لأهل (**التعطيل**) من الطوائف الضالة.

(**فمرها**)، أي: آيات الصفات (**كما أتت في الذكر**)، أي: القرآن، والحديث الصحيح (**من غير تأويل**) لها، (**وغير فكر**) في معانيها.

قال سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته، والسكوت عنه. ليس لأحد أن يفسره إلا الله ورسوله ﷺ.

وسمع الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ شخصاً يروي حديث النزول ويقول ينزل بغير حركة ولا انتقال، ولا تغير حال، فأنكر الإمام أحمد عليه ذلك وقال: قل كما قال رسول الله ﷺ، فهو كان أغير على ربه منك.

* * *

وَيَسْتَحِيلُ الجَهلُ والعَجْزُ كَمَا قَدِاسْتَحَالَ الموتُ حقاًوالعمى

فكلُّ نَقْصٍ قَد تَعَالى اللَّـهُ عَنْـهُ فَيَـا بُشْـرَى لِمَـنْ وَالاهُ

شرح ابن شطي

ولما فرغ من ذكر ما يجب له تعالى من الأسماء والصفات أخذ في ذكر ما يستحيل في حقه تعالى فقال:

(**ويستحيل**) في حق الله تعالى أضداد الصفات التي اتصف بها، فمما يستحيل في حق مولانا عز وجل (**الجهل**) الذي هو ضد العلم، (**والعجز**) الذي هو ضد القدرة، (**كما**) أنه (**قد استحال**) في حقه تعالى (**الموت**) الذي هو ضد الحياة، حق ذلك (**حقاً**)، فهو مصدر.

(**و**)يستحيل في حقه تعالى (**العمى**) الذي هو ضد البصر، وكذا الصمم الذي هو ضد السمع، والبكم الذي هو ضد الكلام، والفناء الذي هو ضد البقاء، والعدم الذي هو ضد الوجود، والفقر الذي هو ضد الغنى، والمماثلة للحوادث المنفي في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وتقدم أنه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض، فهي من المستحيلة في حقه تعالى. وما نفاه سبحانه وتعالى عن نفسه في محكم الذكر كقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾، ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، ونحو ذلك.

والنفي إنما يدل على عدم المنفي والعدم المحض ليس بشيء أصلاً.

والحاصل أن كل ما كان ضداً لما ذكر من أوصافه أو نقيضاً أو خلافاً فهو تعالى منزه عنه مطلقاً، ولذا قال: (**فكل نقص**) من هذه الأوصاف المذكورة ونحوها (**قد تعالى**) وتنزه (**الله عنه**) لأن له الكمال المطلق.

(**فيا بشرى**) نادى البشرى بشارة (**لمن**)، أي: شخص من أهل السنة والجماعة قد (**والاه**) الله أو قد والى هو الله أي اتخذه ولياً معتمداً عليه ومفوضاً جميع أموره إليه مع اقتفائه المأثور واتباعه للرسول. فكأنه يقول لنفسه ولسائر أهل السنة: هذا أوان حصول البشرى لكم، أو يا بشرى أقبلي وتعالي فهذا أوانك، وإنما نوه بالبشرى لمن والاه الله تعالى لعظم ذلك وحضره ودخوله في حصن ولايته ومحل نظره.

شرح ابن مانع

ولما فرغ من ذكر ما يجب لله من الأسماء والصفات، شرع في ذكر ما يستحيل في حقه تعالى فقال:

قوله: (**ويستحيل**)، أي: في حقه تعالى أضداد الصفات التي اتصف بها سبحانه، فمن ذلك (**الجهل**) الذي هو ضد العلم، (**والعجز**) الذي هو ضد القدرة، (**كما**) أنه (**قد استحال**) في حقه تعالى (**الموت**) الذي هو ضد الحياة.

(**حقاً**): مصدر منصوب بفعل محذوف تقديره أحق ذلك حقاً.

(**و**)يستحيل (**العمى**) الذي هو ضد البصر، وكذا الصمم الذي هو ضد السمع، والبكم الذي هو ضد الكلام، والفناء الذي هو ضد البقاء، والعدم الذي هو ضد الوجود، والفقر الذي هو ضد الغنى، والمماثلة

للحوادث المنفية في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾.

(**فكل نقص**) من هذه الأوصاف (**قد تعالى**) وتنزه (**الله عنه**)؛ لأن له الكمال المطلق.

(**فيا بشرى**) احضري (**لـ**)كل (**من**)، أي: شخص من أهل السنة والجماعة قد (**والاه**) الله أو قد والى هو الله، أي: اتخذه ولياً معتمداً عليه ومفوضاً أمره إليه.

* * *

وكُـلُّ مـا يُطْلَـبُ فِيـهِ الجَـزْمُ | فَمنــعُ تقليــدٍ بِــذاكَ حتْــمُ
لأنَّــه لا يُكتَفَــى بــالظَّــنِ | لذِي الحجَا فِي قَوْلِ أهلِ الفَنِ
وقِيل يَكْفِي الجزمُ إجماعاً بما | يُطْلَبُ فِيهِ عِند بَعْضِ العُلَما
فَالجازمُونَ مَن عوَامِ البَشَرِ | فَمُسْلِمُونِ عِنْدَ أَهْلِ الأثَـرِ

شرح ابن شطي

فصل

(في ذكر الخلاف في صحة إيمان المقلد في العقائد وعدمها)

وفي جوازه وعدمه، وقد أشار إلى هذا المقام، الذي هو مزلة أقدام، فقال:

(**وكل ما**)، أي: حكم أو مطلوب مما عنه الذكر الحكمي وهو المعنى الذي يعبر عنه بالكلام الخبري، وهو ما أنبأ عن أمر في نفسك من إثبات أو نفي، والمراد هنا كل اعتقاد (**يطلب فيه**)، أي: ذلك الاعتقاد من معرفة الله تعالى وما يجب له ويستحيل عليه ويجوز (**الجزم**) بأن يجزم به جزماً لا يحتمل متعلقه النقيض عنده لو قدره في نفسه، فإن طابق الواقع فهو اعتقاد صحيح وإلاَّ ففاسد. فما كان من هذا الباب (**فمنع تقليد**) وهو لغة وضع الشيء في العنق، وعرفاً أخذ مذهب الغير، يعني: اعتقاد صحته واتباعه عليه بلا دليل، فإن أخذه بالدليل فليس بمقلد له فيه ولو وافقه، فالرجوع إلى قوله ﷺ ليس بتقليد (**بذاك**)، أي: بما يطلب فيه الجزم ولا يكتفى فيه بالظن.

(**حتم**)، أي: لازم واجب، قال علماؤنا وغيرهم يحرم التقليد في معرفة الله وفي التوحيد والرسالة وكذا في أركان الإسلام الخمس ونحوها

مما تواتر واشتهر عند الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه والأكثر، وذكره أبو الخطاب عن عامة العلماء، واستدلوا لتحريم التقليد بأمره سبحانه وتعالى بالتدبر والتفكر والنظر.

وفي صحيح ابن حبان لما نزل في آل عمران ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيات، قال ﷺ: «الويل لمن قرأهن ولم يتدبرهن، ويل له ويل له». والإجماع على وجوب معرفة الله تعالى.

(**لأنه**)، أي: الشأن والحال والأمر (**لا يكتفى**) في أصول الدين ومعرفة رب العالمين (**بالظن**) الذي هو ترجيح أحد الطرفين على الآخر، فالراجح هو الظن والمرجوح الوهم (**لذي**)، أي: لصاحب (**الحجى**) كـإلَـى، أي: العقـل (**فـي قـول أهـل الفـن**) مـن الأئمـة وعلمـاء المنقـول والمعقول من الأصوليين والمتكلمة وغيرهم.

قال في شرح مختصر التحرير: وأجازه يعني التقليد في أصول الدين جمع. قال بعضهم ولو بطريق فاسد، قال العلامة ابن مفلح: وأجازه بعض الشافعية لإجماع السلف على قبول الشهادتين من غير أن يقال لقائلهما هل نظرت. وإلى هذا أشار بقوله:

(**وقيل يكفي**)، في أصول الدين (**الجزم**) ولو تقليداً (**إجماعاً بما**)، أي: حكم (**يطلب**) بضم أوله مبنياً لما لم يسم فاعله ونائب الفاعل مضمر يعود على الجزم (**فيه**)، أي: في ذلك المطلوب من أصول الدين (**عند بعض العلماء**) من علماء مذهبنا والشافعية وغيرهم.

(**فالجازمون**) بعقدهم ولو تقليداً (**من عوام البشر**) الذين ليسوا بأهل للنظر والاستدلال بما لا يتم الإسلام بدونه (**فمسلمون عند أهل الأثر**) وأكثر النظار والمحققين وإن عجزوا عن بيان ما لا يتم الإسلام إلاَّ به.

قال ابن حامد من علمائنا: لا يشترط أن يجزموا عن دليل يعني بل يكفي الجزم ولو عن تقليد.

قال ابن عقيل: والحق الذي لا محيد عنه ولا انفكاك لأحد منه صحة إيمان المقلد تقليداً جازماً صحيحاً، وأن النظر والاستدلال ليسا بواجبين، وأن التقليد الصحيح محصل للعلم والمعرفة.

وقال الإمام النووي: الآتي بالشهادتين مؤمن حقاً وإن كان مقلداً على مذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف لأنه ﷺ اكتفى بالتصديق بما جاء به ولم يشترط المعرفة بالدليل، وقد تظاهرت بهذا الأحاديث الصحاح يحصل بمجموعها التواتر والعلم القطعي. انتهى.

وبما تقرر تعلم أن النظر ليس بشرط في حصول المعرفة مطلقاً وإلا لما وجدت بدونه لوجوب انتفاء المشروط بانتفاء الشرط، لكنها قد توجد فظهر أن النظر لا يتعين على كل أحد وإنما يتعين على من لا طريق له سواه بأن بلغته دعوة النبي ﷺ ولم يحصل له العقد الجازم ابتداءً تقليداً، فيجب عليه النظر حتى يظهر له حقيقة الإسلام إذ الإعراض غير جائز، فمثل هذا الشخص النظر عليه واجب إجماعاً.

وأما المقلد الذي يؤمن بما جاء به النبي ﷺ أول ما بلغته دعوته وصدق به تصديقاً جازماً بلا تردد فمع صحة إيمانه بالاتفاق لا يأثم بترك النظر وإن كان ظاهر ما تقدم الإثم مع حصول الإيمان.

تنبيه: في مسألة التقليد ثلاثة أقوال:

أولها: النظر واجب.

الثاني: ليس بواجب والتقليد جائز.

الثالث: التقليد حرام ويأثم بترك النظر والاستدلال ومع إثمه بترك النظر فإيمانه صحيح، وقد فهم كل هذا مما قررناه.

وثَم قول رابع وهو أن النظر حرام لأنه مظنة الوقوع في الشبه لاختلاف الأذهان بخلاف التقليد، ولكن قد علم مما مر أن الرجوع إلى الكتاب والسنة ليس بتقليد، وإن سمي تقليداً فمجاز، فمن شهد لله تعالى بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة ونهج سبيل المسلمين من فعل المأمور وترك المحظور ولم يأت بمكفر فهو مؤمن وبالله التوفيق، ويؤيد هذا ما أخرجه الإمام الحافظ ابن عساكر في كتابه (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري) بسنده المتصل إلى أبي حازم العبدي الحافظ أنه قال: سمعت السرخسي يقول لما قرب حضور أجل الأشعري رحمه الله تعالى في داري ببغداد دعاني فأتيته فقال: إشهد عليَّ أني لا أُكفر أحداً من أهل القبلة لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف عبارات. انتهى.

فنسأل الله تعالى التوفيق وحسن الخاتمة.

فصل

في ذكر الخلاف في صحة إيمان المقلد في العقائد، وفي جوازه وعدمه

قوله: **(وكل ما)**، أي: اعتقاد **(يطلب فيه)** أو في ذلك الاعتقاد من معرفة الله تعالى، وما يجب له، وما يستحيل عليه، وما يجوز **(الجزم)**،

أي: بأن يجزم به جزماً لا يحتمل متعلقه النقيض عنده لو قدره في نفسه، فإن طابق الواقع فهو اعتقاد صحيح وإلا فاسد، وما كان من هذا الباب **(فمنع تقليد)**. وهو لغة: وضع الشيء في العنق حال كونه محيطاً به، وذلك الشيء يسمى قلادة، وعرفاً أخذ مذهب الغير. يعني: اعتقاد صحته وأتباعه عليه بلا دليل. فإن أخذه بالدليل فليس بمقلد له ولو وافقه، فالرجوع إلى قوله ﷺ ليس بتقليد، كما سيأتي بيانه آخر الكتاب.

(بذاك)، أي: بما يطلب في الجزم. **(حتم)**، أي: لازم.

قال علماؤنا وغيرهم: يحرم التقليد في معرفة الله تعالى، وفي التوحيد والرسالة، وكذا في أركان الإسلام الخمسة مما تواتر واشتهر. **(لأنه)**، أي: الأمر والشأن **(لا يكتفى)** في الأصول الدينية ومعرفة الله تعالى **(بالظن)** الذي يفيده التقليد. والظن: هو ترجيح أحد الطرفين على الآخر، فالراجح: هو الظن، والمرجوح: هو الوهم، فلا يكتفى به في أصول الدين. **(لذي الحجى)**، أي: صاحب العقل والفطنة **(في قول أهل الفن)** من الأئمة.

قال ابن حمدان: كل ما يطلب فيه الجزم يمتنع التقليد فيه، والأخذ فيه بالظن، لأنه لا يفيده وإنما يفيده دليل قطعي. وقال في شرح مختصر التحرير: وأجازه: يعني التقليد في أصول الدين جمع.

وقال ابن مفلح: وأجازه بعض الشافعية لإجماع السلف على قبول الشهادتين من غير أن يقال لقائلها نظرت. وإلى هذا أشار بقوله:

(وقيل يكفي)، أي: في أصول الدين **(الجزم)** ولو تقليداً **(إجماعاً)** **(بـ)**ـكل **(ما)**، أي: حكيم. **(يطلب فيه)**، أي: في ذلك المطلوب من

أصول الدين (**عند بعض العلماء**) من الحنابلة، والشافعية وغيرهم. (**فالجازمون**) حينئذٍ بعقدهم ولو تقليداً (**من عوام البشر**) الذين ليسوا بأهل للنظر والاستدلال. (فـ)ـعلى الصواب هم (**مسلمون عند أهل الأثر**) وأكثر النظار، وإن عجزوا عن بيان ما لا يتم الإسلام إلا به.

قال ابن حامد: لا يشترط أن يجزم عن دليل. يعني: بل يكفي الجزم ولو عن تقليد.

وقال النووي: الآتي بالشهادتين مؤمن حقاً، وإن كان مقلداً على مذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف؛ لأنه ﷺ اكتفى بالتصديق بما جاء به، ولم يشترط المعرفة بالدليل.

قلت: وهو القدوة، وبه ﷺ الأسوة.

* * *

الباب الثاني
في الأفعال المخلوقة

وسَائرُ الأشياءِ غَيرَ الذَّاتِ ... وغير ما الأسماءِ والصفاتِ
مَخلُوقَةٌ لربِّنا من العَدمْ ... وضَلَّ مَن أثنا عليها بالقِدَمْ

شرح ابن شطي

الباب الثاني
في الأفعال المخلوقة

(وسائر)، أي: بقية (الأشياء) جمع شيء (غير الذات) المقدسة (وغير ما) زائدة لتأكيد النفي (الأسماء)، أي: غير أسمائه تعالى فإنها قديمة كالذات، (و)غير (الصفات) الذاتية والخبرية (مخلوقة لربنا) تبارك وتعالى (من العدم) مسبوقة به، فكل ما سواه سبحانه بأسمائه وصفاته محدث مسبوق بالعدم، وهذا المتفق عليه عند سلف الأمة وأئمتها من أن الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه خالق كل شيء بقدرته ومشيئته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهو سبحانه خالق الممكنات المحدثات من الأجسام والأعراض القائمة بالحيوان والجماد والمعادن والنبات وغيرها.

وهـذا الـذي دلت عليه الكتب المنزلة، واختبرت به الرسل المرسلة، وعليه سلف الأمة وأئمتها بل وعليه جماهير العقلاء وأكابرهم من جميع الطوائف خلافاً لبعض الفلاسفة كأرسطو القائل بقدم العالم ولهذا قال:

(وضل) عن الصراط المستقيم (من)، أي: شخص (**أثنى عليها**)، أي: على سائر الأشياء سوى الذات المقدسة وصفاتها القديمة، فسائر ما عدا ذلك كل من أثنى على شيء منها أو نعتها (**بالقدم**) فقد ضل وأضل، وقد أخبر الله تعالى في محكم الذكر بأنه ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»، أي: مقادير الخلائق التي خلقها في ستة أيام إلى أن يدخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم.

وفي التوراة ما يوافق الكتاب والسنة من ذكر الماء الذي كان مخلوقاً قبل أن يخلق السمٰوات والأرض، وإن الله تعالى خلق السماء من بخار ذلك الماء، والعرش أيضاً خلق قبل ذلك كما دل عليه الكتاب والسنة.

وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، فقال: وما أكتب؟ قال: ما هو كائن إلى يوم القيامة»، وهذا هو التقدير المذكور في قوله: «قدر مقادير الخلائق»، الحديث.

الباب الثاني
في الأفعال المخلوقة

قوله: (**وسائر**)، أي: بقية (**الأشياء**): جمع شيء (**غير الذات**) المقدسة. (**وغير ما الأسماء**)، أي: أسمائه تعالى (و)**غير** (**الصفات**) الذاتية، والخبرية، والفعلية، (**مخلوقة لربنا**) تبارك وتعالى (**من العدم**) مسبوقة به، (**وضل**) عن الصراط المستقيم (**من أثنى عليها**)، أي: على سائر الأشياء بأن وصفها (**بالقدم**). فقد أخبر تعالى أنه خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «أن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة»، وكان عرشه على الماء، أي: قدر مقادير الخلائق التي خلقها في ستة أيام إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

كما في السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: ما هو كائن إلى يوم القيامة»، وهذا هو التقدير المذكور في قوله مقادير الخلائق.

* * *

وَرَبُّنَـــا يَخلُـــق بــــاختيَـــارِ   مِن غَيرِ حَاجَةٍ ولا اضطرارِ
لكنَّـــه لاَ يخلُـــق الخَلـــقَ سُـــدًى
كما أَتَى في النَّص فاتَّبِعِ الهُدَى[1]

شرح ابن شطي

(وربنا) تبارك وتعالى (يخلق) ما شاء أن يخلقه من سائر مخلوقاته (باختيار) منه، فمذهب سلف الأمة وأئمتها أن الله تعالى لم يزل فاعلاً لما يشاء وأنه تقوم بذاته الأمور الاختيارية، وأنه تعالى لم يزل متصفاً بصفاته الذاتية والفعلية، فلم يحدث له اسم من أسمائه ولا صفة من صفاته. فيخلق سبحانه المخلوقات ويحدث الحوادث بعد أن لم تكن سواء كان ذلك على مثال سابق أو لا، والإبداع إحداث الشيء بعد أن لم يكن على غير مثال سابق (من غير حاجةٍ) منه تعالى إليه، أي: يخلق الخلق لا لحاجةٍ إليه (ولا اضطرار) عليه فالحاجة المصلحة والمنفعة. والاضطرار الإلجاء والإحواج والإلزام والإكراه، فلا حاجة باعثة له سبحانه على خلقه للخلق ولا مكره له عليه بل خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لمحصن المشيئة وصرف الإرادة، وهذا قول جمهور من يثبت القدر وينتسب إلى السنَّة من أهل الكلام والفقه وغيرهم وقال به طوائف من الحنبلية والمالكية والشافعية وغيرهم وهو قول الأشعري وأصحابه وحجة هذا أنه لو خلق الخلق لعلة لكان ناقصاً بدونها مستكملاً بها، الثاني[2] أنه تعالى فعل المفعولات وأمر بالمأمورات لحكمه محموده، قال شيخ الإسلام هذا قول أكثر الناس من المسلمين وغيرهم وقول طوائف من أصحاب أبـي حنيفة

(١) هذا البيت مؤخر على البيت الذي بعده في (ج)، وقدمناه كما في (أ) و (هـ).
(٢) أي القول الثاني بعد قول الجمهور. (د).

والشافعي ومالك وأحمد رضي الله تعالى عنهم وقول أكثر أهل الحديث والتصوف وأهل التفسير ومن ثم قال:

(لكنه) تعالى وتقدس ـ هذا استدراك من مفهوم قوله أنه يخلق بالاختيار ـ **(لا يخلق الخلق سدى)**، أي: هملاً بلا أمر ولا نهي ولا حكمة، ومعنى السدى المهمل، **(كما أتى في النص)** القرآني والسنة النبوية والآثار مما هو كثير جداً.

إن الله تبارك وتعالى لا يفعل إلاَّ لحكمة وعلم وهو العليم الحكيم فما خلق شيئاً ولا قضاه ولا شرعه إلاَّ بحكمة بالغة وإن تقاصرت عنه عقول البشر، **(فاتبع الهدى)** باقتفاء المأثور واتباع السلف الصالح ولا تجحد حكمته كما لا تجحد قدرته فهو الحكيم القدير.

والحاصل أن فعل الله تعالى وتقدس وأمره لا يكون لعلة في قول مرجوح اختاره كثير من علمائنا وبعض المالكية والشافعية وقاله الظاهرية والأشعرية. والقول الثاني أنّه لعلة وحكمة اختاره الطوفي، وهو مختار شيخ الإسلام وابن القيم وابن قاضي الجبل، وحكاه عن إجماع السلف.

قال شيخ الإسلام: لأهل السنة في تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه قولان والأكثرون على التعليل والحكمة، احتج المثبتون للحكمة والعلة بقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وقوله: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ ونظائرها.

ولأنه تعالى حكيم شرع الأحكام لحكمة ومصلحة لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾، والإجماع واقع على اشتمال الأفعال على الحكم والمصالح جوازاً عند أهل السنة فيفعل ما يريد بحكمته.

قوله: (وربنا) تبارك وتعالى (**يخلق**)، أي: ما شاء من المخلوقات (**باختيار**) منه تعالى، كما هو مذهب سلف الأمة وأئمتها، فهو تعالى لم يزل فاعلاً لما يشار، وأنه تقوم بذاته الأمور الاختيارية، وأنه تعالى لم يزل متصفاً بصفاته الذاتية والفعلية، فلم يحدث لهم اسم من أسمائه، ولا صفة من صفاته، فيخلق سبحانه المخلوقات، ويحدث الحوادث، بعد أن لم تكن (**من غير حاجة**) منه تعالى (**ولا اضطرار**) عليه، فلا حاجة باعثة له سبحانه على خلقه للمخلوقات ولا مكره له عليها، بل خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لمحض المشيئة وصِرف الإرادة، (**لكنه**) تعالى (**لا يخلق الخلق سدًى**)، أي: هملاً بلا أمر، ولا نهي، ولا حكمة، بل خلق المخلوقات وأمر بالمأمورات لحكمة محمودة، وإن تقاصرت عنها عقول البشر، (**كما أتى في النص**) القرآني، والسنة النبوية: أن الله تعالى لا يفعل إلاّ لحكمة وعلم وهو العليم الحكيم.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾؟. وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾؟.

فتعالى الله الملك الحق لا إلـه إلاّ هو رب العرش الكريم، فنزه سبحانه نفسه وباعدها عن هذا الحسبان، وأنه تعالى متعال عنه، فلا يليق به لقبحه ومنافاته الحكمة، فإثبات العلة والحكمة لأفعاله هو الحق الحقيق بالاتباع، وقد حكاه ابن قاضي الجبل عن إجماع السلف.

(**فاتبع الهدى**) بالتمسك بالكتاب والسنة، واقتفاء السلف الصالح ولا تجحد لحكمة الله، فهو الحكيم القدير.

أفعَـــالُنـــا مَخلُـــوقـــةٌ لله — لكِنَّهـا كَسـبٌ لَنَـا يَـا لاَهـي

وكُـــلُّ مَـــا يَفعَلُـــه العبـــادُ — مِـن طـاعـةٍ أو ضِـدِّهـا مُـرادُ

لـربِّنـا مِـن غيـرِ مـا اضطـرارِ — مِنـهُ لَنـا فـافْهَـمْ وَلا تُمـارِ

شرح ابن شطي

(**أفعالنا**) معشر الخلائق جميعها خيرها وشرها، كبيرها وصغيرها (**مخلوقة**) ومصنوعة (**لله**) تعالى، خلقها وأوجدها كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾، ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾.

قال العلماء: اتفق أئمة السلف قبل ظهور البدع والأهواء على أن الخالق هو الله لا سواه وأن الحوادث كلها حادثة بقدرة الله تعالى من غير فرق بين ما يتعلق بقدرة العبد وبين ما لا تتعلق به، فهي مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً وبقدرة العبد على وجه آخر، وإليه أشار بقوله (**لكنها**)، أي: أفعالنا التي تصدر عنا في باديء الرأي (**كسب لنا**) معشر الخلق، والكسب في اصطلاح المتكلمين ما وقع من الفاعل مقارناً لقدرة محدثة واختيار.

وقال العلامة ابن حمدان من علمائنا: الكسب هو ما خلقه الله في محل قدرة المكتسب على وفق إرادته في كسبه، والقدرة هي التمكن من التصرف، وقيل سلامة البنية.

وقوله: (**يا لاهي**) تكملة للبيت بالإتيان بالقافية وإشارة إلى الحث على الطاعة وقلب الهوى عن اللهو.

قال النسفي في عقائده كغيره من علماء السنة: وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها إن كانت طاعة ويعاقبون عليها إن كانت معصية، لا كما زعمت الجبرية إنه لا فعل للعبد أصلاً وإن حركاته بمنزلة حركات الجماد لا قدرة عليها ولا قصد ولا اختيار، وهذا باطل لأنا نفرق بالضرورة بين حركة البطش وحركة الارتعاش ونعلم أن الأول باختياره دون الثاني، ولأنه لو لم يكن للعبد فعل أصلاً لما صح التكليف ولا يترتب استحقاق الثواب والعقاب على أفعاله ولا إسناد الأفعال التي تقتضي سابقة القصد والاختيار إليه على سبيل الحقيقة مثل صلّى وصام وكتب بخلاف مثل طال واسودّ لونه، والنصوص القطعية تنفي ذلك، كقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ إلى غير ذلك. قال التفتازاني: ومن جمله ما لهم من الفرق بين الكسب والخلق أن الكسب وقع بآله والخلق لا بآله والكسب لا يصح انفراد القادر به والخلق يصح.

(**وكل ما**)، أي: فعل أو الذي (**يفعله العباد من طاعة**) وهي ما تكون متعلق المدح في العاجل والثواب في الآجل (**أو ضدها**)، أي: ضد الطاعة وهي المعصية، يعني: ما فيه ذم في العاجل والعقاب أو اللوم في الآجل (**مراد لربنا**) تعالى، أي: داخل تحت إرادته ومشيئته، فالله خالق كل شيء، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

(**من غير ما**) زائدة لتأكيد النفي (**اضطرار**)، أي: من غير إلجاء وجبر (**منه**)، أي: من الله تعالى (**لنا**) معشر العباد، بل خلق فينا قدرة وأقدرنا على إيقاع أفعالنا بالإذن منه والتمكين لنا، فلقدرة العبد تأثير في إيجاد فعله لا بالاستقلال والاستبداد، بل بالإعانة والإذن والتمكّن من الفاعل المختار الجواد.

(**فافهم**) فهم إذعان وتحقيق (**ولا تمار**) في عملك، والمراء الجدال.

وحاصل ذلك أن الناس انقسموا إلى طرفي إفراط، وتفريط، ووسط.

أما المفرّطون: فالقدرية، ضلوا في القدر، والقدرية متفقون على أن العبد هو المحدث للمعصية كما هو المحدث للطاعة، وعندهم أن الله تعالى ما أحدث هذا ولا هذا بل أمر بالطاعة ونهى عن المعصية.

قال شيخ الإسلام: غلوا في أفعال الحيوان حتى جعلوها تحدث بلا سبب محدث لها، وجعل أكثرهم ما يحدث بسبب منه ومن غيره فعلاً يسمونها الأفعال المتولدة، كالشبع عن الأكل، والري عن الشرب، وخروج السهم عن النزع، وحصول الموت عن الضرب ونحو ذلك. وقول هؤلاء القدرية شر من قول الجبرية من بعض الوجوه، وهؤلاء القدرية فرطوا غاية التفريط بحيث أنهم نفوا أن يكون الله خالقاً لأفعال عباده فأثبتوا خالقاً غيره مستقلاً بالخلق والأمر دونه، تعالى الله عن ذلك.

وأما المفرطون: فالجبرية، وهم الذين يزعمون أنه لا فعل للعبد أصلاً وإن حركاته بمنزلة حركات الجماد لا قدرة له عليها ولا قصد ولا اختيار لكن نفوا تأثير الأسباب والحكم في الجماد والحيوان وأنكروا أن يكون للحيوان من الإنسان أو غيره فعل يفعله بقدرته.

قال ابن القيم: يقولون إن أحدهم غير فاعل في الحقيقة ولا قادر، وإن الفاعل فيه غيره والمحرك له سواه وإنه آلة محضة. وهؤلاء إذا أنكرت عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر وحملوا ذنوبهم عليه حتى يروا أفعالهم كلها

طاعات خيرها وشرها لموافقتها المشيئة والقدر، حتى أن من هؤلاء من يعتذر عن إبليس لعنه الله تعالى ويتوجع له ويقيم عذره بجهده وينسب ربه تعالى إلى ظلمه.

والحاصل إن هذه المقالة من أشنع المقالات والمحتج بالقدر على معاصي الله تعالى زنديق.

وأما مذهب أهل السنَّة وأما المتوسطون: فهم أهل السنة والجماعة، فلم يفرطوا تفريط القدرية النفاة، ولم يفرطوا إفراط الجبرية المحتجين بالقدر على معاصي الله.

وهؤلاء على مذهبين: مذهب الأشعري ومن وافقه من الخلف، ومذهب سلف الأمة. فمذهب أهل السنة كافة إن جميع أفعال الطاعات والمعاصي والكفر والفساد واقعة بقضاء الله تعالى وقدره لا خالق سواه، فأفعال العباد مخلوقة لله تعالى خيرها وشرها حسنها وقبيحها، والعبد غير مجبور على أفعاله بل هو قادر عليها هذا القدر باتفاق أهل السنة.

ثم إن الأشعري ومن وافقه أثبت للعبد كسباً ومعناه أنه قادر على فعله وإن كانت قدرته لا تأثير لها في ذلك.

قال شيخ الإسلام: هذا قول الأشعري ومن وافقه من المثبتة للقدر من الفقهاء وطوائف من أهل السنة وأصحاب مالك والشافعي وأحمد حيث لا يثبتون في المخلوقات قوى ولا طبائع ويقولون أن الله تعالى فعل عندها لا بها، ويقولون إن قدرة العبد لا تأثير لها في الفعل.

ويقول الأشعري: إن الله فاعل فعل العبد وإن عمل العبد ليس فعلاً للعبد بل كسباً له، وهذا قول من ينكر الأسباب والقوى التي في الأجسام

وينكر تأثير القدرة التي للعبد التي يكون بها الفعل، ويقول أنه لا أثر لقدرة العبد أصلاً في فعله، لكن الأشعري يثبت للعبد قدرة محدثة واختياراً، ويقول إن الفعل كسب للعبد لكنه يقول لا تأثير لقدرة العبد في إيجاد المقدور، وهو مقام دقيق، حتى قال بعضهم إن هذا الكسب الذي أثبته الأشعري غير مفعول وذلك لأنه يلزم أن لا يكون فرق بين القادر والعاجز، إذ مجرد الاقتران لا اختصاص له بالقدرة، فإن فعل العبد يقارن حياته وعمله وإرادته وغير ذلك من صفاته، فإذا لم يكن للقدرة تأثير إلاَّ مجرّد الاقتران فلا فرق بين القدرة وغيرها، ومن هذه الطائفة من يقول إن قدرة العبد مؤثرة في صفة الفعل لا في أصله كما يقوله الباقلاني ومن وافقه.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها وجمهور أهل السنة المثبتة للقدر من جميع الطوائف يقولون أنّ العبد فاعل لفعله حقيقة وإن له قدرة حقيقة واستطاعة حقيقة ولا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل من أن الله تعالى يخلق السحاب بالرياح وينزل الماء بالسحاب وينبت النبات بالماء، ولا يقولون القوى والطبائع الموجودة في المخلوقات لا تأثير لها بل يقرون بأن لها أثراً لفظاً ومعنى، لكن يقولون هذا التأثير هو تأثير الأسباب في مسبباتها والله تعالى خالق السبب والمسبب، ومع أنه خالق السبب فلا بد للسبب من سبب آخر يشاركه ولا بد له من معارض يمانعه، فلا يتم أثره إلاَّ مع خلق الله تعالى له بأن يخلق الله تعالى السبب الآخر ويزيل الموانع.

قال شيخ الإسلام: الأعمال والأقوال والطاعات والمعاصي هي من العبد بمعنى أنها قائمة به وحاصلة بمشيئته وقدرته، وهو المتصف بها والمتحرك بها الذي يعود حكمها عليه. وهي من الله تعالى بمعنى أنه

خلقها قائمة بالعبد وجعلها عملاً وكسباً كما يخلق المسببات بأسبابها، فهي من الله تعالى مخلوقة له ومن العبد صفة قائمة به واقعة بقدرته وكسبه، كما إذا قلنا هذه الثمرة من هذه الشجرة وهذا الزرع من الأرض بمعنى أنه حدث منها، ومن الله تعالى بمعنى أنه خلقه منها لم يكن بينهما تناقض.

فالحوادث تضاف إلى خالقها باعتبار وإلى أسبابها باعتبار، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وقال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، مع قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، وأخبر أن العباد يفعلون ويصنعون ويعملون ويؤمنون ويكفرون ويفسقون ويتقون ويصدقون ويكذبون.

وقد دلت الدلائل اليقينية على أن كل حادث فالله خالقه وفعل العبد من جملة الحوادث، فمن قال إن شيئاً من الحوادث أفعال الملائكة والجن والإنس لم يخلقها الله تعالى فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع السلف والأدلة العقلية.

والحاصل أن مذهب السلف ومحققي أهل السنة أن الله تعالى خلق قدرة العبد وإرادته وفعله، وأن العبد فاعل لفعله حقيقة ومحدث لفعله، والله سبحانه وتعالى جعله فاعلاً له ومحدثاً له، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، فأثبت مشيئة العبد وأخبر أنها لا تكون إلاَّ بمشيئته تعالى.

وهذا قول جمهور أهل السنة من جميع الطوائف وهو قول كثير من أصحاب الأشعري كأبـي إسحاق الإسفراييني وإمام الحرمين وغيرهما، وهذا كثير في الكتاب والسنة يخبر تعالى أنه يحدث الحوادث بالأسباب،

وكذلك دل على إثبات القوى والطبائع للحيوان وغيره، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾، ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾.

شرح ابن مانع

قوله: (**أفعالنا**)، أي: معشر العباد جميعها (**مخلوقة لله**)، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

قال العلماء: اتفق السلف قبل ظهور البدع والأهواء، على أن الخالق هو الله لا سواه، وأن الحوادث كلها حادثة بقدرة الله تعالى من غير فرق بين ما يتعلق بقدرة العبد وبين ما لا يتعلق بها، فهي مقدرة بقدرة الله تعالى اختراعاً، وبقدرة العبد على وجه آخر، أشار إليه بقوله: (**لكنها**)، أي: أفعالنا (**كسب لنا**) معشر الخلق.

قال العلامة ابن حمدان: الكسب هو ما خلقه الله في محل قدرة المكتسب على وفق إرادته في كسبه.

وقال شيخ الإسلام: الكسب عند القائل به عبارة عن اقتران المقدور بالقدرة الحادثة، والخلق هو المقدور بالقدرة القديمة، ومن جملة ما فرق به بين الكسب والخلق أن الكسب وقع بآلة، والخلق لا بآلة، والكسب يصح انفراد القادر به والخلق يصح.

قال علماء السنّة: وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها إن كانت طاعة، ويعاقبون عليها إن كانت معصية.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ رسالة مفردة في الكلام على الإرادة والأمر وغير ذلك، قال فيها: ومما ينبغي أن يعلم أن مذاهب سلف الأمة مع أن قولهم الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه على كل شيء قدير، وأنه هو الذي خلق العبد هلوعاً، إذا مسَّه الشر جزوعاً، وإذا مسّه الخير منوعاً، ونحو ذلك، إن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة.

قال تعالى ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾.

وقوله: **(يا لاهي)**. تكملة للبيت، وفيه إشارة إلى الحث على المبادرة في الطاعات.

(وكل ما)، أي: فعل **(يفعله العباد من طاعة)**، وهي متعلق المدح في العاجل، والثواب في الآجل. **(أو ضدها)**، أي: وكل ما يفعلونه من ضد الطاعة وهي المعصية، يعني: ما فيه ذم في العاجل، وعقاب أو لوم في الآجل. **(مراد لربنا)** تعالى، أي: داخل تحت إرادته ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير.

(من غير ما اضطرار): من باب الافتعال أبدلت التاء طاء كما تقرر في محله، وما: زائدة لتأكيد النفي **(منه)** تعالى **(لنا)** معشر العباد، بل خلق فينا قدرة وأقدرنا على إيقاع أفعالنا بالإذن منه، فلقدرة العبد تأثير في إيجاد فعله لا بالاستقلال، بل بالإعانة والتمكين، ولله در الإمام أبي الخطاب فما أحسن قوله:

قالوا فأفعال العباد فقلت ما ... من خالق غير الإله الأمجد

قـالـوا فهـل فعـل القبيـح مـراده　　قلـــت الإرادة كلهـــا للسيـــد
لـــو لـــم يـــرده وكـــان نقيصـــة　　سبحـانـه عـن أن يعجـزه الـردي

(**فافهم**) فهم إذعان وتحقيق، (**ولا تمار**) في علمك، بل كن مع الحق حيث كان.

والمماراة: المجادلة على مذهب الشك والريبة، ويقال للمناظرة: مماراة؛ لأن كل واحد من المتجادلين يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه، كما يمتري الحالب اللبن من الضرع.

* * *

وجازَ للمَولى يُعَذِّبُ الورَى	من غير مَا ذَنبٍ وَلا جُرمٍ جَرَى
فكُلُّ مَا منه تَعالى يجمُلُ	لأنَّهُ عن فِعلِه لا يُسئَلُ
فإن يُثِبْ فإنَّه مِن فَضلِه	وإن يُعذِّب فَبِمحض عَدْلِه

شرح ابن شطي

ثم أشار في النظم إلى مسألة عظيمة مبنية على أن أفعال الباري لا تعلل فقال:

(وجاز للمولى) جل وعلا **(يعذب الورى)** الخلق، والمراد به هنا ذوو العقول من الحيوان **(من غير ما)** زائدة لمزيد تأكيد النفي، أي: من غير **(ذنب)**، أي: إثم **(ولا جرم)** وهو بمعنى ما قبله **(جرى)** من العبد ولا صدر عنه. فيجوز عليه تعالى عقلاً أن يثيب العاصي وأن يعاقب الطائع لولا ما أخبر به من إثابة المطيع، فلا يجب عليه واحد من الأمرين.

(فكل ما)، أي: شيء **(منه تعالى)** من إثابة وعقوبة وخلق خير وشر **(يجمل)**، أي: يحسن، فكل ما يصدر عن الباري جل شأنه من الأمر والخلق بالنسبة إليه حسن جميل حتى إثابة العاصي وعقوبة المطيع **(لأنه)** تعالى **(عن فعله)**، الذي يصدر عنه **(لا يسئل)**، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

(فإن يثب) عباده المطيعين وخلقه المتقين، والثواب الجزاء **(فإنه)**، أي: إثابته بالخير والجزاء الحسن **(من فضله)** تعالى الزائد وكرمه الجزيل لأن أتقى الناس وأعبدهم لا تعادل عبادته وتقواه نعمة إيجاده من العدم إلى الوجود فضلاً عن سائر نعمه تعالى على عبده من البصر والسمع وغيرهما،

والفضل العطاء عن اختيار لا عن إيجاب كما تزعمه الحكماء، ولا عن وجوب كما تقوله المعتزلة.

(وإن يعذب) عباده ولو المطيعين منهم **(فبمحض)**، أي: خالص **(عدله)** تعالى والمحض الخالص، يعني: إنه لو عذبهم لعذبهم بعدله الخالص من شآئبة الظلم لأنه تعالى تصرف في ملكه، والعدل: وضع الشيء في محله من غير اعتراض على الفاعل، عكس الظلم: الذي هو وضع الشيء في غير محله مع الاعتراض على الفاعل، واستدل لهذا بقوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، يعني: لم تتصرف في غير ملكك بل إن عذبت عذبت من تملك، وبقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، وبقول النبي ﷺ: «إن الله لو عذب أهل سمٰواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم».

وتقدم هذا في شرح قوله، لكنه لا يخلق الخلق سدًى، فإن المحقق كشيخه وجمع لم يرتضوا بهذا وبرهنوا وأثبتوا الحكمة والعلة في أفعاله تعالى على الوجه الذي شرحناه.

ومذهب الأشاعرة، إن أفعال الباري تعالى ليست معللة بالأغراض والمصالح، والغرض ما لأجله يصدر الفعل عن الفاعل، ويقولون إن الله تعالى يفعل هذه الحوادث عند الأسباب المقاربة لها وإن ذلك عادة محضة، ويجعلون اللام في أفعاله لام العاقبة لا لام التعليل.

ومذهب الماتريدية امتناع خلو فعله تعالى عن المصلحة، ومذهب السلف إن الله تعالى خالق كل شيء وربه ومليكه، ويثبتون لله تعالى حكمة يفعل لأجلها قائمة به تعالى لا منفصلة عنه إذا علمت ذلك وفهمته.

قوله: **(وجاز للمولى)** جل جلاله وهو رب العالمين. **(يعذب الورى)**، أي: الخلق. **(من غير ما ذنب)**، أي: إثم. **(ولا جرم)**: هو بمعنى ما قبله وعطفه عليه لزيادة البيان. **(جرى)**: من العبد.

(فكل ما)، أي: شيء **(منه تعالى)** من إثابة وعقوبة وخلق خير وشر.

(يجمل)، أي: يحسن، فكل ما يصدر عنه تعالى من الأمر والخلق بالنسبة إليه حسن جميل حتى إثابة العاصي وعقوبة المطيع؛ **(لأنه)** تعالى **(عن فعله لا يسأل)**، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، **(فإن يثب)** المطيعين **(فإنه)**، أي: الثواب بالخير **(من فضله)** تعالى، **(وإن يعذب)** عباده **(فبمحض عدله)** تعالى، يعني: أنه تعالى لو عذبهم لعذبهم بعدله الخالص من شائبة الظلم؛ لأنه تعالى تصرّف في ملكه. والعدل: وضع الشيء في محله من غير اعتراض على الفاعل عكس الظلم.

واستدل لهذا بقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ﴾، يعني: لم تتصرف في غير ملكك. وبقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، وبقول النبي ﷺ: «إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم» وبقوله ﷺ في دعاء الحزن: «اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك عدل في قضائك»، الحديث.

فتبين أن كل قضائه في عبده عدل. ولهذا يقال: أطعتك بفضلك والمنّة لك، وعصيتك بعلمك أو بعدلك والحجة لك، فاسألك بوجوب حجتك عليّ، وانقطاع حجّتي إلاّ ما غفرت لي.

* * *

فَكم يَجب عَلَيهِ فعلُ الأصلَحِ ولا الصلاح ويحَ من لم يفلِحِ
فكـل مـن شـاء هـدَاهُ يهتـدِي وإن يُرِدْ ضَلاَلَ[1] عبدٍ يعتدي

شرح ابن شطي

(فلم يجب عليه) سبحانه وتعالى (فعل الأصلح)، أي: الأنفع (ولا) يجب عليه أيضاً (فعل الصلاح) لعباده خلافاً للمعتزلة. فمعتزلة البصرة قالوا بوجوب الأصلح في الدين، وذهب معتزلة بغداد إلى وجوب الأصلح في الدين والدنيا معاً، وهذه المسألة مترجمة في كتب القوم بمسألة وجوب الصلاح والأصلح ولهذا قال (ويح)، هذه كلمة ترحم وتوجع تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها وهي منصوبة على المصدر وقد ترفع وتضاف كما هنا وضدها ويل فإنها تقال للحزن والهلاك.

فإن قلت: كان المناسب هنا الإتيان بكلمة ويل لاقتضاء المقام، قلت: بل الأنسب كلمة ويح لأنه يتوجع ويترحم لإخوانه من الملة الإسلامية كيف استزلهم الشيطان مع ظهور أدلة القرآن والسنة لمذهب أهل السنة.

(من)، أي: شخص بالغ عاقل (لم يفلح)، أي: لم يفز بمتابعة الحق وموافقة الشرعة، ورفض الباطل ومجانبة البدعة.

والفلاح من الكلمات الجوامع وهو عبارة عن أربعة أشياء بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعز بلا ذل، وعلم بلا جهل.

قالوا فلا كلمة في اللغة أجمع للخيرات منها.

(١) ما في (هـ) إضلال. وما في باقي النسخ كما في النظم.

ولمذهب المعتزلة لوازم فاسدة تدل على فساده، منها إن القربات من النوافل صلاح فلو كان الصلاح واجباً وجبت وجوب الفرائض، ومنها إن عدم خلق إبليس وجنوده أصلح للخلق وأنفع وقد خلقه الباري جل شأنه. وأيضاً إنظاره وتمكينه وتمكين جنوده وجريانهم من الآدمي مجرى الدم في أبشارهم[1] ينافي مذهبهم، فكان يلزمهم أن لا يقع شيء من ذلك والواقع خلافه.

(**فكل من**)، أي: آدمي من خلقه (**شاء**) الله تعالى (**هداه**) المراد بالهدى هنا التوفيق والإلهام وهذه الهداية هي المستلزمة للاهتداء والمشيئة ترادف الإرادة فكل من شاء الله تعالى هدايته من جميع خلقه (**يهتدي**) الهداية المطلوبة في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

تـنـبـيـه: المشهور عند المعتزلة ومن مذهبهم إن الهداية هي الدلالة الموصلة إلى المطلوب، فإن لم تكن موصلة إلى المطلوب فليست بهداية عندهم، وعند أهل الحق إن الهداية مجرد الدلالة على طريق يوصل إلى المطلوب سواء حصل الوصول والاهتداء أو لم يحصل كما ذكرنا ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

(**وإن يرد**) الله سبحانه وتعالى: (**ضلال عبد**) من خلقه بترك المأمور وارتكاب المحظور (**يعتدي**) بارتكاب ذلك، وانتهاك المحارم واقتحام المهالك، والضلال ضد الهدى. فالتوفيق والخذلان، من الحكيم الكريم المنان، والتوفيق إرادة الله تعالى من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد

---

(١) جمع بشرة. (د).

بأن يجعله قادراً على فعل ما يرضيه مريداً له محباً له مؤثراً له على غيره ويبغض إليه ما يسخطه ويكرهه، وهذا مجرد فعله والعبد محل له.

ولم يرتض ابن القيم بتفسير التوفيق بأنه خلق الطاعة، والخذلان خلق المعصية، لأن ذلك مبني على مذهب الجبر وإنكار الأسباب والحكم.

تنبيه: فهم من النظم إن الباري جل وعلا يريد من العبيد ما لا يرضاه ولا يحبه، فإن الإرادة لا تستلزم الأمر والرضى والمحبة، وقالت المعتزلة يمتنع عليه إرادة الشرور والمعاصي والقبائح، وقالوا يريد ما لا يقع، ويقع ما لا يريد، حتى زعموا أن أكثر ما يقع من عباده على خلاف مراده تعالى الله عن ذلك.

والحاصل أن الأمر والرضى والمحبة لا تكون إلاَّ في الخير، والإرادة قد تكون في الخير وقد تكون في غيره فهي تتعلق بكل ممكن كما تقدم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، فإن قلت قد قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، فالجواب الإرادة التي نعنيها هي الإرادة الكونية، وأما الإرادة الدينية فهي ترادف الرضى والمحبة.

شرح ابن مانع

قوله: (**فلم يجب عليه**) تعالى (**فعل الأصلح**)، أي: الأنفع. (**ولا**) يجب عليه جلَ جلاله فعل (**الصّلاح**) لعباده خلافاً للمعتزلة.

(**ويح**): كلمة ترحم تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها. وهي منصوبة على المصدر، وقد ترفع وتضاف كما هنا. وضدها: ويل. وأتى

بها دون كلمة تأويل ترحماً لمن استزله الشيطان من المسلمين مع ظهور الأدلة (من) أي شخص بالغ عاقل.

(لم يفلح)، أي: يفز باتباع الحق، والفلاح من الكلمات الجوامع، وهو عبارة عن أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزّ بلا ذل، وعلم بلا جهل. قالوا: فلا، كلمة أجمع للخير منها.

(فكل من)، أي: شخص. (شاء) الله تعالى (هداه)، أي: توفيقه (يهتدي) الهداية المطلوبة في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾، (وإن يرد) سبحانه (إضلال عبد) بترك المأمور وارتكاب المحظور (يعتدي) بفعل ذلك. قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾.

* * *

والرزقُ مَا يَنفَعُ مِن حلالِ أو ضده فَحُلْ عن المحالِ
لأنَّه رازقُ كلِّ الخَلقِ وليسَ مخلوقٌ بغيرِ رزق

شرح ابن شطي

فصل

في الكلام على الرزق

وهو اسم لما يسوقه الله تعالى إلى الحيوان فيأكله، وقد أشار الناظم إلى ذكره بقوله:

(**والرزق ما ينفع**) المرتزق، أي: ينتفع المرتزق بحصوله له سواء كان ذلك المنتفع به (**من حلال**) وهو ما انجلت عنه التبعات وهو ضد الحرام ولهذا قال: (**أو ضده**)، أي: ضد الحلال وهو الحرام، وهو ما منع منه شرعاً إما لصفة في ذاته ظاهرة كالسم والخمر، أو خفية كالرياء ومذكى المجوس ونحوهم لأنه في حكم الميتة، وإما لخلل في تحصيله كالربا والغصب ونحو ذلك، فكل ذلك رزق لأن الله تعالى يسوقه للحيوان فيتناوله ويتغذى به.

وخالفت المعتزلة فقالوا الحرام ليس برزق وفسروه تارة بمملوك يأكله المالك وتارة بما لا يمنع عن الانتفاع به وذلك لا يكون إلاَّ حلالاً، فيلزمهم على التفسير الأول إن ما يأكله الدواب ليس برزق مع ظاهر قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾، فيكون مصادماً للقرآن، لأنه يقتضي أن كل دابة مرزوقة.

ويلزمهم على الوجهين أيضاً أن من أكل الحرام طول عمره لم يرزقه الله تعالى أصلاً وهو خلاف الإجماع الحاصل من الأمة قبل ظهور المعتزلة

أن لا رازق إلاَّ الله تعالى وإن استحق العبد الذم واللوم على أكل الحرام، ولهذا قال: **(فحل)**، أي: زل وارجع **(عن المحال)** وجه كونه محالاً أنه لا أحد يبقى بلا رزق ولا يمكن إلاَّ أن يأكل رزقه، فعلى كل حال ما ذهب إليه المعتزلة ضرب من المحال.

ولهذا أوضح كون ذلك محالاً بقوله: **(لأنه)** سبحانه وتعالى **(رازق كل الخلق)** كما في الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية مما لا يحصى إلاَّ بكلفة **(وليس)** يوجد **(مخلوق)** من سائر الحيوانات ويبقى **(بغير رزق)** فظهر فساد مذهب المعتزلة وحقيقة مذهب أهل الحق، فإن الله تعالى قسم بين خلقه معايشهم في الحياة الدنيا، ومعلوم أن الحرام معيشة لبعض الأنام والله الفعال لما يريد.

شرح ابن مانع

قوله: **(والرّزق ما ينفع)**، أي: المرتزق ينتفع بحصوله سواء كان ذلك المنتفع به **(من حلال)**، وهو ما انحلت عنه التبعات ضد الحرام. **(أو ضده)**، أي: ضد الحلال، وهو الحرام، أي: ما منع منه شرعاً.

أما الصفة في ذاته ظاهرة كالسم والخمر، أو خفية كالربا، ومذكى المجوسي ونحوه، لأنه في حكم الميتة، وأما لخلل في تحصيله كالرّبو أو الغضب ونحو ذلك. فكل ذلك رزق؛ لأن الله يسوقه للحيوان فيتغذى به. **(فحل)**، أي: زل. **(عن المحال)**، أي: الخطأ.

قال في القاموس: والمحال من الكلام ـ بالضم ـ ما عدل عن وجهه كالمستحيل، ومراده بذلك مذهب المعتزلة القائلين: إن الإنسان إذا تغذى طول عمره بالحرام لم يرزقه الله، وما ذهبوا إليه محال؛ **(لأنه)**

تعالى (**رازق كل الخلق**)، كما دلت على ذلك الأدلة من الكتب والسنة. قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾.

(**وليس**) يوجد (**مخلوق**) من سائر الحيوانات ويبقى (**بغير رزق**)، فظهر فساد مذهب المعتزلة، وصحة مذهب أهل السنة، فإن الله تعالى قسم بين الخلق معائشهم في الحياة الدنيا، ومعلوم أن الحرام معيشة لبعض الأنام، والله الفعال لما يريد.



ومـن يمـت بِقتلِـهِ مِـنَ البَشـرْ   أو غَيـرِه فبِـالقَضَـاءِ والقَـدَرْ
وَلَـــم يفُــتْ مِـــن رِزقِـــهِ وَلاَ الأجَـــلْ
شـــيءٌ فَـدَع أهـلَ الضـلاَلِ والخَطَـل

شرح ابن شطي

(ومن يمت) من سائر الحيوانات، (بقتله) من سائر أنواع القتل (من البشر) محركة، الإنسان ذكراً كان أو أنثى (أو غيره) من سائر الحيوانات لدفع توهم أن ما قتل منها ليس كذلك (فـ)ـموته (بالقضاء)، أي: بقضاء الله تعالى وهو لغة الحكم، وعرفاً إرادة الله تعالى الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال.

(والقدر) بتحريك الدال وتسكن مصدر قدرت الشيء بفتح الدال مخففة إذا أحطت بمقداره، وأل فيه وفي القضاء عوض عن مضاف إليه، أي: بتقدير الله تعالى لذلك.

وهو عند الماتريدية تحديده تعالى أزلاً كل مخلوق بحده الذي يوجد به من حسن وقبح ونفع وضر، وما يحويه من زمان ومكان، وما يترتب عليه من طاعة وعصيان، وثواب وعقاب وغفران.

وعند الأشاعرة إيجاد الله تعالى الأشياء على قدر مخصوص وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم وجرى به القلم، إذا علمت هذا مع ما قدمناه تحت قوله وكل ما يفعله العباد، البيتين، علمت أن القدر عند السلف ما سبق به العلم وجرى به القلم مما هو كائن إلى الأبد، وأنه عز وجل قدر مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء قبل أن يكون في الأزل، وعلم سبحانه وتعالى إنها ستقع في أوقات

معلومة عنده تعالى وعلى صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها.

فقوله: ومن يمت بقتله إلى آخره، المراد إن المقتول ميت بأجله، أي: الوقت المقدّر لموته لا كما يزعم بعض المعتزلة من أن الله تعالى قد قطع عليه الأجل، والحق عند أهل الحق إن المقتول ميت في الوقت الذي قدره الله تعالى له وعلم أنه يموت فيه لا كما زعمت المعتزلة أنه قد قطع عليه الأجل، يعني: أنه لم يوصله إليه وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أمد هو أجله الذي علم الله تعالى موته فيه لولا القتل فهم يقطعون بامتداد العمر لولا القتل.

وزعم أبو الهذيل منهم أنه لو لم يقتل لمات في ذلك الوقت البتة، وقول غيره لو لم يقتل لجاز أن يموت في ذلك الوقت وأن لا يموت، وهو مذهب أهل السنة، يعني: إلى أجله الذي إذا جاء لا يتأخر عنه ولا يتقدم كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

والحاصل أن المقتول مات بأجله الذي أجله الله تعالى لا يتقدم موته عليه لحظة ولا يتأخر عنه لحظة، فإنه عز وجل حكم بآجال العباد على علم من غير تردد. وأما الأحاديث التي فيها أن بعض الطاعات تزيد في العمر مثل صلة الرحم ونحو ذلك مما جاء أنه يقصر العمر فهذا في الصحف التي يقع فيها المحو والإثبات وعلم الله تعالى لا يقع فيه تغيير ولا زيادة ولا نقصان كما مر.

والحق أن الأجل واحد لا كما زعم الكعبي إن للمقتول أجلين القتل والموت، وإنه لو لم يقتل لعاش إلى أجله الذي هو الموت، ولا كما زعمت الفلاسفة أن للحيوان أجلاً طبيعياً قيل هو في الإنسان أن يبلغ مائة وعشرين سنة وموته عندهم به بتحلل رطوبته وانطفاء حرارته الغريزيتين، وأجلاً آخر غير الطبيعي اخترامه بحسب الآفات والأمراض.

ولرد هذه المذاهب الباطلة والعقائد الفاسدة العاطلة أشير بقوله:

(**ولم يفت**) على المقتول ولا غيره (**من رزقه**) المقسوم له في علم الملك الحي القيوم شيء قل ولا جلّ (**ولا**) فاته أيضاً من (**الأجل**) المحتوم (**شيء**) ولا لحظة واحدة.

(**فدع**)، أي: اترك وجانب (**أهل الضلال**) من طوائف الاعتزال فإنهم قد ضلوا الطريق القويم، وأضلوا عن الصراط المستقيم.

(**و**)دع أهـل (**الخطـل**) وهـو بفتـح الخـاء المعجمـة والطـاء المهملـة الخفة والسرعة والكلام الفاسد الكثير، وهذا مناسب لحال الفلاسفة لسرعة كلامهم وتنميقه مع ما فيه من الاضطراب وكثرة الخطأ وقلة الصواب والتناقض والتحكّم بالعقول، والخوض فيما لا تعلم حقيقته إلاّ بالتلقي عن الرسول، فكم لهم من هفوة باردة ومقالة فاسدة.

شرح ابن مانع

قوله: (**ومن يمت**)، أي: من سائر الحيوانات. (**بقتله**): من سائر أنواع القتل (**من البشر**). الإنسان ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو جمعاً، (**أو غيره**)، أي: غير البشر من سائر الحيوانات. (**فـ**)ـموته (**بالقضاء**)، أي: بقضاء الله تعالى. وهو لغة: الحكم. وعرفاً: إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال. (**والقدر**)، أي: بتقدير الله تعالى.

قال الخطابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القدر من الله تعالى والقضاء معنى الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره، ويتوهم أن قوله ﷺ: «فحج آدم موسى» من هذا الوجه، وليس كذلك. وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من أفعال العباد واكتسابهم، وصدورها عن تقدير منه وخلق لها، خيرها وشرها.

(**ولم يفت**) على المقتول ولا غيره (**من رزقه**) المقسوم له في علم الله تعالى، (**ولا**) فاته أيضاً من (**الأجل**) المحتوم (**شيء**)، ولا لحظة واحدة.

(**فدع**)، أي: اترك (**أهل الضلال**) من طوائف الاعتزال (**و**)دع أهل (**الخطل**)، أي: الكلام الفاسد وأهل الضلال هم القائلون: إن للمقتول أجلين: القتل والموت. وأنه لو لم يقتل لعاش إلى أجله الذي هو الموت، وهذا قول باطل.

ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يُجْمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد». وقد ورد أن هذه الكتابة تكتب بين عيني الجنين.

قال الحافظ بن رجب: وبكل حال فهذه الكتابة التي تكتب للجنين في بطن أمه غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلائق المذكورة في قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: «إن الله تعالى قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة».

قال علماء الحديث: فيكتب رزقه قليلاً كان أو كثيراً، وصفته حلالاً كان أو حراماً أو مكروهاً، ويكتب أجله طويلاً كان أو قصيراً، والله أعلم.

* * *

الباب الثالث
في الأحكام

وَواجِبٌ عَلى العبادِ طُرًّا أن يَعبُدوهُ طاعةً وَبِرَّا
ويفعَلُوا الفِعلَ الَّذي به أمَرَ حتماً ويترُكُوا الَّذي عنهُ زَجرَ

شرح ابن شطي

الباب الثالث
في الأحكام والكلام على الإيمان ومتعلقات ذلك

اعلم وفقني الله وإياك وسائر المسلمين لمرضاته أن طرق الناس قد اختلفت في علة التكليف وحكمته مع كون الله تعالى لا ينتفع بطاعة ولا تضره معصية، وحسبك ما يدل عليه العقل الصحيح والنقل الصريح.

أما أتباع الرسل الذين هم أهل البصائر فحكمة الله عز وجل في تكليفهم ما كلفهم به أعظم وأجل عندهم مما يخطر بالبال أو يعبر به المقال أو أعرب به المقال فيشهدون له سبحانه في ذلك من الحكم الباهرة والأسرار العظيمة أكثر مما يشهدونه في مخلوقاته وما تضمنته من الأسرار والحكم ويعملون مع ذلك أنه لا نسبة فيما أطلعهم سبحانه عليه من ذلك إلى ما طوى علمه عنهم واستأثر به دونهم وأن حكمته في أمره ونهيه، لأنه جل وعلا أهل أن يعبد، وإلى هذا المقام أشار بقوله:

(**وواجب على العباد طراً**)، أي: جميعاً وهو منصوب على المصدر أو على الحال (**أن يعبدوه**) سبحانه وتعالى (**طاعة**)، أي: لأجل الطاعة وامتثال الأمر لما ندب الخلق إليه من التكليف على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام (**وبراً**)، أي: لأجل البر والإحسان الناشيء عنهما المحبة فهو سبحانه أهل أن يعبد وأهل أن يكون الحب كله له والعبادة له، حتى لو لم يخلق جنة ولا ناراً ولا وضع ثواباً ولا عقاباً لكان جل شأنه أهلاً أن يعبد أقصى ما تناله قدرة خلقه من العبادة.

وفي الفطرة والعقل ما يقتضي شكره وإفراده بالعبادة كما فيهما ما يقتضي تناول المنافع واجتناب المضار، فإن الله تعالى فطر خلقه على محبته والإقبال عليه وابتغاء الوسيلة إليه وأنه لا شيء على الإطلاق أحب إلى العباد منه، وإن فسدت فطر أكثر الخلق بما طرأ عليها مما اقتطعها واحتالها عما خلق فيها كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

فبين سبحانه أن إقامة التوجه وهو إخلاص القصد وبذل الوسع لدينه المتضمن محبته وعبادته حنيفاً مقبلاً عليه معرضاً عما سواه هو فطرته التي فطر عليها عباده فلو خُلُّوا ودواعي فطرهم لما مالوا عن ذلك ولا اختاروا سواه، ولكن غيرت الفطر وأفسدت كما قال النبي ﷺ: «ما من مولود إلاَّ يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجذعونها»[1].

---

(١) وقد أخرجه الإمام البخاري بلفظ: «ما من مولود إلاَّ يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء». (د).

ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

ومنيبين نصب على الحال من المفعول، أي: فطرهم منيبين إليه والإنابة إليه تتضمن الإقبال عليه بمحبته وحده والإعراض عما سواه، واعلم أنه لا يمكن أحداً من خلقه قط أن يعبده حق عبادته ولا يوفيه حقه من المحبة والحمد ولهذا قال أفضل خلقه وأكملهم وأعرفهم به وأحبهم إليهم وأطوعهم له، لا أحصي ثناء عليك.

ولما كانت عبادته سبحانه وتعالى تابعة لمحبته وإجلاله وكانت المحبة نوعين: محبة تنشأ عن الإنعام والإحسان فتوجب شكراً وعبودية بحسب كمالها ونقصانها، ومحبة تنشأ عن جمال المحبوب وكماله فتوجب عبودية وطاعة أمر واجتناب نهي أكمل من الأولى، وكان الباعث على الطاعة والعبودية لا يخرج عن هذين النوعين.

قال الناظم عاطفاً امتثال الأمر والانتهاء عما عنه الزجر:

(و)أن (**يفعلوا**)، يعني: العباد (**الفعل الذي به أمر**) سبحانه وتعالى فإن كان على سبيل الجزم والتأكيد فعلوه على الوجوب وإن كان على سبيل الندب والإرشاد فعلى الندب، ولهذا قال (**حتماً**)، أي: لازماً، يعني: أنهم يفعلون ما أمر الله به أمراً على سبيل الحتم واللزوم، وأما إذا كان الأمر لا على سبيل الحتم ففعله غير لازم لهم بل هو مندوب.

(و)أن (**يتركوا**) الشيء (**الذي عنه زجر**) ولا يخفى أن الزجر يفيد التحريم لأن معنى الزجر المنع، فإن لم يكن على سبيل الزجر والتحتيم

فيكون للكراهة وخلاف الأولى وتركه على سبيل الندب والاستحباب، فتكون الطاعة تارة تقع عن محبة وشوق وأخرى عن خوف مقرون بحب، وأما من أتى بصورة الطاعة خوفاً مجرداً عن الحب فليس بمطيع ولا عابد وإنما هو كالمكره أو كأجير السوء إن أعطي عمل وإن لم يعط كفر وأبق.

شرح ابن مانع

الباب الثالث

في الأحكام والكلام على الإيمان ومتعلقات ذلك

اعلم أن الأحكام: جمع حكم. وهو عند الأصوليين خطاب الله المتعلق بأفعال المكلف من حيث أنه مكلف وهي خمسة، لأن الحكم إن عوقب تاركه فهو واجب، أو فاعله فهو حرام، أو أثيب فاعله فهو ندب، أو تاركه فهو مكروه، أو لم يثب ولم يعاقب فهو مباح.

وقد اختلف الناس في علة التكليف، فذهبت الجبرية: إلى أن ذلك صادر عن محض الإرادة، وصرف المشيئة، وأنه لا علة ولا حكمة. وذهب القدرية: إلى أن ذلك استئجار منه لعباده لينالوا أجرهم بالعمل. وبطلان هذين المذهبين أوضح من أن يقام عليه دليل.

وأما مذهب أهل الحق، أهل البصائر أتباع الرسل، فحكمة الله تعالى في تكليفهم ما كلفهم به أعظم عندهم وأجل مما يخطر بالبال، أو يعبر عنه بالمقال، ويعلمون أن من حكمته تعالى في أمره ونهيه، كونه أهلاً أن يعبد وحده لا شريك له، وأن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. وإلى هذا المقام أشار بقوله:

قوله: (**وواجب على العباد طراً**)، أي: جميعاً ــ وهو منصوب على الحال ــ (**أن يعبدوه**) سبحانه وتعالى، والعبادة: ما أمر به شرعاً من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي. (**طاعة**)، أي: لأجل الطاعة وامتثال الأمر. (**وبراً**)، أي: لأجل البر والإحسان الناشىء عنهما المحبة، فهو سبحانه أهل أن يعبد، وأهل أن يكون الحب كله له والعبادة له، حتى لو لم يخلق جنة، ولا ناراً، ولا وضع ثواباً، ولا عقاباً.

(**ويفعلوا**)، يعني: العباد، (**الفعل الذي به أمر**)، فإن كان على سبيل الحتم والوجوب فعلوه (**حتماً**)، أي: لزوماً.

قال في النهاية: الحتم اللازم الواجب الذي لا بد من فعله، وإن كان على سبيل الندب والإرشاد فعلوه ندباً، (و)أن (**يتركوا**) الشيء (**الذي عنه زجر**)، أي: منع، والزجر يفيد التحريم، وإن لم يكن على سبيل الزجر فالمكروه وخلاف الأولى.

* * *

وكـــلّ مـــا قـــدّر أو قضـــاه فـــواقـــعٌ حتمـــاً كمـــا قَضَـــاهُ
وليسَ واجِـبٌ عَلَـى العبـدِ الـرِّضَـى
بكـــلِّ مقضـــيٍّ ولٰكِـــن بـــالقَضَـــا
لأنَّـــه مـــن فِعلِـــه تَعـــالـــى وذَاكَ مـن فِعـلِ الـذي تَقَـالا

شرح ابن شطي

فصل

في الكلام على القضاء والقدر غير ما تقدم

قال: (وكل ما)، أي: كل شيء (قدر)ه سبحانه وتعالى (أو قضاه) من سائر الأشياء (فواقع حتماً) لازماً (كما قضاه)، أي: كما حكم به وقدره حسبما سبق به علمه وجرى به القلم في أم الكتاب الذي كتبه قبل أن يخلق السماوات والأرض والخلائق بخمسين ألف عام المذكور في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾.

قال في النهاية قد تكرر في الحديث ذكر القدر وهو عبارة عما قضاه الله تعالى وحكم به من الأمور، وقال في القضاء إنه الفصل والحكم، وقد تكرر في الحديث ذكر القضاء وأصله القطع والفصل، وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه فيكون بمعنى الخلق.

وقال الأزهري: القضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه.

فقوله في النظم: فواقع حتماً كما قضاه، إشارة إلى أن الله تعالى قدر الأشياء في الأزل وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده على صفات مخصوصة فهي تقع على حسب ما قدرها وقضاها من غير زيادة ولا نقص، وقصد بذلك الرد على المعتزلة القدرية المنكرة لسبق العلم بالأشياء قبل وجودها وزعمهم أن الله تعالى لم يقدّر الأمور أزلاً ولم يكتبها ولم يتقدم له علم بها وإنما يأتنفها علماً حال وقوعها وهؤلاء انقرضوا.

وأما القدرية المثبتة لسبق العلم بالأشياء إنما خالفوا السلف في زعمهم أن أفعال العباد مقدورة لهم واقعة منهم على جهة الاستقلال لا إذن ولا صنع للباري في ذلك كما مر الكلام على ذلك.

(وليس واجب على العبد) المكلف **(الرضا)** وهو سكون القلب والطمأنينة إلى قدم اختيار الله للعبد أنه اختار له الأفضل فيرضى به.

قال المحقق: الرضا بالله أعلى من الرضى بما من الله، وليس من شرط الرضا أن لا يحس بالألم والمكاره، بل أن لا يعترض على الحكم وأن لا يتسخطه، وأجمع العلماء على أن الرضا مستحب مؤكد استحبابه واختلفوا في وجوبه على قولين.

وكان شيخ الإسلام يذهب إلى القول باستحبابه، قال ولم يجيء الأمر به كما جاء بالصبر وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم.

قال ابن القيم ولا سيما عند من يرى أن الرضا من جملة الأحوال التي ليست مكتسبة وأنه موهبة محضة فكيف يأمر به وليس مقدوراً.

وأما الرضا بقضاء الله فهو المشار إليه بقوله لا يجب الرضا **(بكل مقضي)** بل حكم المقضي لا بد فيه من التفصيل لأنه إما أن يكون مقضياً

دينياً شرعياً، فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له ربه وسيده، فاختيار العبد خلاف ذلك منافٍ لإيمانه وتسليمه ورضاه بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، وإما أن يكون كونياً قدرياً وهذا منه ما لا يسخطه الله كالمصائب الذي يبتلي عبده بها فهذا لا يضره فراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه ويكشفها، وليس في ذلك منازعة للربوبية وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر، فهذا تارة يكون واجباً، وتارة يكون مستحباً، وتارة يكون مباحاً مستوي الطرفين، وتارة يكون حراماً، وتارة يكون مكروهاً.

فالمقضي الذي لا يحبه الرب ولا يرضاه مثل المعايب والذنوب، فالعبد مأمور بسخطه ومنهي عن الرضا به وهذا هو التفصيل الواجب في الرضا بالقضاء المشار إليه بقوله: **(ولكن)** يجب الرضا **(بالقضا)** فإن لفظ الرضا بالقضاء لفظ محمود مأمور به وهو من مقامات الصديقين فصار له حرمة أوجبت لطائفة قبوله من غير تفصيل وهم القدرية، والمرجئة، والجبرية، وكل على سبيل ضلال.

والحق في ذلك التفصيل فنرضى بقضاء الله تعالى الذي هو خلقه الذي أمرنا أن نرضى به ولا نرضى من ذلك بالمقضي مما نهانا عن الرضا به فنرضى بالقضاء ونسخط من المقضي ما لا يحبه الله تعالى ويرضاه.

ولهذا قال **(لأنه)**، أي: القضاء **(من فعله)**، أي: من فعل الله سبحانه و **(تعالى)**، وهذا أحد الأجوبة عن الرضا بالقضاء، فنرضى بفعل الله تعالى دون المعصية الصادرة من العبد وهذا ونحوه لا يتمشى على أصول من يجعل محبة الرب ورضاه ومشيئته واحدة، فإن من قال كل ما

شاء الله تعالى وقضاه فقد أحبه ورضيه لا يحسن منه ولا عنده هذا التفصيل كما لا يخفى، وأيضاً هذا إنما يصح عند من جعل القضاء غير المقضي، والفعل غير المفعول، وهو مذهب السلف.

وأما من لم يفرق بينهما فكيف يصح هذا عنده، وإن الله جل شأنه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه؟

(وذاك)، أي: المقضي المبغوض لله تعالى ورسوله من المعاصي والظلم والعدوان ونحوها لا يرضى به العبد لأنه **(من فعل)** الشخص **(الذي تقالا)** تفاعل من قلاه كرماه رفضه وأبغضه، أي: من فعل الذي أتى بما يبغضه الله تعالى بإتيانه به وملابسته له، وفعله الذي فعله من المظالم والمعاصي والأشياء المبغوضة للباري سبحانه وتعالى، فأتى بما يوجب بغضه ويكرهه فهذا لا يسوغ الرضا به.

وسر المسألة أن الذي إلى الرب منها غير مكروه وإنما المكروه المسخوط هو ما للعبد منها.

قال الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله تعالى: القضاء يراد به ثلاثة أشياء:

أحدها: الأمر والنهي، فهذا الرضا به واجب.

والثاني: الكفر والمعاصي، فهذا الرضا به ليس بواجب.

والثالث: المصائب التي تصيب العبد، فهل الرضا بها واجب أو مستحب؟ ثم يقال القضاء الذي هو صفة الله تعالى الرضا به واجب، وأما المقضي فهو الكفر والمعاصي التي هي أفعال العباد، فالرضى بها ليس بواجب. انتهى. ومقصوده ولا جائز.

وفي تائية شيخ الإسلام ابن تيمية:

وقال فريق نرتضي بقضائه ... ولا نرتضي المقضي لأقبح خلة
وقال فريق نرتضي بإضافة ... إليه وما فينا فنلقى بسخطة
فنرضى من الوجه الذي هو خلقه ... ونسخط من وجه اكتساب بحيلة

قال الطوفي في شرح التائية المذكورة:

الثالث: قول من قال نرضى بالقضاء الذي هو تقديره ولا نرضى بالمقضي الذي هو أفعالنا القبيحة، قال وبهذا أجاب بعض أهل السنة المعتزلة عن قولهم لو كان الكفر بقضاء الله تعالى لوجب الرضا به، لأن الرضى بالقضاء واجب لكن الرضى بالكفر كفر فلا يكون بقضاء الله تعالى، فأجابهم بالفرق بين القضاء والمقضي.

الرابع: قول من قال نرضى بالمقضي من حيث أنه خلق الله ومراده، ونسخطه من حيث هو مكتسب لنا، وهذا من باب اختلاف الجهتين، فإن قلت ليس إلى العبد شيء منها قلنا هذا هو الجبر الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق، والقدري أقرب إلى التخلص منه من الجبري، وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية هم أسعد بالتخلص منه من الفريقين.

فصل

في الكلام على القضاء والقدر

قوله: (**وكل ما**)، أي: شيء (**قدر**)ه سبحانه وتعالى (**أو قضاه**) من سائر الأشياء (**فـ**ـهو (**واقع حتماً**) لازماً. (**كما قضاه**)، أي: حكم به وقدره حسبما سبق في عمله وجرى به القلم في الكتاب الذي كتبه قبل أن

يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف عام المذكور في قوله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ ﴾.

قال العلامة الحافظ ابن رجب: والإيمان بالقدر على درجتين:

أحدهما: الإيمان بأن الله تعالى سبق في علمه ما يعلمه العباد من خير وشر، وطاعة ومعصية، قبل خلقهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار، وأعد لهم الثواب والعقاب جزاء لأعمالهم قبل خلقهم وتكوينهم، وأنه كتب ذلك عنده وأحصاه، وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه.

والدرجة الثانية: إن الله خلق أفعال العباد كلها من الكفر، والإيمان، والطاعة، والعصيان وشاءها منهم، فهذه الدرجة يثبتها أهل السنة والجماعة وتنكرها القدرية، والدرجة الأولى أثبتها كثير من القدرية ونفاها غلاتهم، كمعبد الجهني الذي سأل ابن عمر عن مقالة، وكعمرو بن عبيد وغيره.

قال العلماء: والمنكرون لهذا ـ أي: العلم القديم ـ القائلون الأمر أنف قد انقرضوا، وهم الذين كفرهم الإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد، وغيرهم من الأئمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله سره: وأما هؤلاء، يعني الفرقة الثانية، فإنهم مبتدعون ضالون، لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك قال: وفي هؤلاء خلق كثير من العلماء والعباد كتب عنهم، وأخرج البخاري ومسلم لجماعة منهم، لكن من كان داعية لم يخرجوا له. وهذا مذهب فقهاء الحديث، كالإمام أحمد وغيره.

قال الإمام أحمد: لو تركنا الرواية عن القدرية، لتركنا أكثر أهل البصرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه: هذا لأن مسألة خلق أفعال العباد وإرادة الكائنات مسألة مشكلة، ورُوي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال لما سئل عن القدر:

ما شئت كان وإن لم أشأ	وما شئت إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت	ففي العلم يجري الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت	وهذا أعنت وذا لم تعن
فمنهم شقي ومنهم سعيد	ومنهم قبيح ومنهم حسن

هذا، والبحث طويل عريض، وإن أحببت زيادة الاطلاع، وتحقيق البحث فعليك بمؤلفات الإمام شيخُ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه الإمام ابن القيم، فقد ألّف هذا الإمام كتاباً سمّاه [شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر، والحكمة والتعطيل] لم يؤلف مثله لا قبله ولا بعده فيما علمت.

(**وليس واجب على العبد**) المكلف (**الرضى**)، وهو سكون القلب وطمأنينته (**بكل مقضي**)، بل فيه تفصيل؛ لأنه إما أن يكون مقضياً دينياً شرعياً، فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره الله له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، فاختيار العبد خلاف ذلك منافٍ لإيمانه وتسليماً، ورضاه بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً.

وإما أن يكون كونياً قدرياً كالمصائب التي يبتلى بها العبد، فهذا لا يضره فراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه ويكشفها، وليس في ذلك

منازعة للربوبية، وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر، **(ولكن)** يجب الرضى **(بالقضاء)**، فإن لفظ الرضى بالقضاء لفظ محموداً مأمور به.

(لأنه)، أي: القضاء. **(من فعله)**، أي: من فعل الله **(تعالى)**. فنرضى بفعله تعالى دون المعصية الصادرة من العبد. **(وذاك)**، أي: المقتضى المبغوض لله ولرسوله من المعاصي والظلم لا يرضى به العبد؛ لأنه **(من فعل)** الشخص **(الذي تقالى)**: تفاعل من قلاه كرماه، رفضه وأبغضه، أي: من فعل الذي أتى بما يبغضه الله بإتيانه به من المعاصي والظلم، فهذا لا يسوغ الرضى به.



ويفسُـقُ المُـذنِـبُ بـالكَبيـرَة　　كَـذا إذا أصـرَّ بـالصَغيـرَة
لا يَخْرجُ المَرءُ من الإيمانِ　　بمُوبقات الذَّنبِ والعصيان

شرح ابن شطي

فصل

في الكلام على الذنوب ومتعلقاتها

اعلم وفقك الله تعالى أن فرقة المعتزلة من أول فرقة أسسوا قواعد الخلاف لما ورد به ظاهر السنة وجرى عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان رضي الله تعالى عنهم في باب العقائد، وذلك أن رئيسهم واصل بن عطاء اعتزل مجلس الحسن البصري يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ويثبت المنزلة بين المنزلتين، فقال له الحسن اعتزل عنا فسموا المعتزلة، وأما أهل السنة فلم يخرجوه من الإسلام ولم يحكموا عليه بخلود في النار، وإنما هو فاسق بكبيرته مؤمن بإيمانه وهو تحت مشيئة الله تعالى ولهذا قال:

(ويفسق) المسلم المكلف (المذنب بالكبيرة)، أصل الفسوق الخروج عن الاستقامة، وسمي الرجل فاسقاً لخروجه عن أمر الله، والمذنب هو المقترف للذنب وهو الإثم، والكبيرة كل معصية فيها حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة، والصواب تقسيم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة.

(كذا)، أي: مثل إتيانه الكبيرة (إذا أصر) على الجريمة الصغيرة، يقال أصر على الشيء إذا لزمه وداومه، وأكثر ما يستعمل في الشر والذنوب. وأما من أتبع الذنب الصغير بالاستغفار فليس بمصر عليه وإن

تكرر منه، فمن أصر فإنه يفسق حتى **(بالصغيرة)** لأن الإصرار يصير الصغيرة في حكم الكبيرة.

قال بعض العلماء: تصير الصغيرة كبيرة بخمسة أشياء: الإصرار عليها، والتهاون بها، والفرح بها، والافتخار بها، وصدورها عن عالم فيقتدى به فيها.

ثم ذكر ما عليه أهل السنة من أن إتيان الجريمة وإن كانت كبيرة لا يخرج بها الشخص المؤمن من الإيمان بقوله:

(لا يخرج المرء) هو بتثليث الميم الإنسان **(من الإيمان)** الآتي تعريفه فيما بعد **(بموبقات الذنب)** متعلق بقوله لا يخرج، والموبقات المهلكات جمع موبقة سميت الجريمة الكبيرة بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبها في الدنيا بما يترتب عليها من العقاب وفي الآخرة من العذاب، وتفاصيل ذلك كثيرة جداً.

والمراد أن الإنسان لا يخرج من الإيمان بملابسته وإتيانه بموبقات الذنوب التي هي الكبائر، وأل في الذنب للجنس أو الاستغراق فيشمل كل الذنوب **(والعصيان)** دون الشرك بالله والكفر به بأي أنواع المكفرات فإن ذلك يخرجه من الدين بيقين، والعصيان ضد الطاعة وهو يرادف الذنب والإثم والجرم.

وقد اختلف الناس في هذه المسألة على طرق، فطريق الخوارج أن من ارتكب كبيرة من الذنوب بل والصغيرة لأن عندهم كل ذنب كبيرة نظراً لعظمة من عصي، وكل كبيرة كفر، يخرج من الإيمان ويدخل الكفر ويخلد في النار، وطريق المعتزلة أنه يخرج من الإيمان ولا يدخل في

الكفر فهو في منزلة بين الكفر والإيمان، ومن أصولهم إثبات المنزلة بين المنزلتين كما مر، ومع ذلك هو خالد في النار مع قولهم إن مرتكبي الكبائر ليسوا بكفار، هذا كله عند الطائفتين ما لم يتوبوا قبل معاينة الموت.

والحق مذهب أهل الحق من أهل السنة، إن مرتكبي الكبائر في مشيئة الله تعالى وعفوه لأن أصل الإيمان موجود، ونصوص الكتاب والسنة لا تدل إلاَّ على هذا كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ الآيتين، وفي ذلك يقول: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾، فسماه أخاً وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بـي شيئاً أتيتك بقرابها مغفرة»، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وفي حديث الشفاعة: «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان».

فالتوحيد من أعظم بل أعظم أسباب المغفرة فمن فقده فقد المغفرة ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، فدلت الآية مع حديث أنس أن من جاء مع التوحيد بملء الأرض خطايا لقيه الله تعالى بملئها مغفرة مع مشيئة الله تعالى، فإن شاء غفر له وإن شاء واخذه بذنوبه، ثم كانت عاقبته أن لا يخلد في النار بل يخرج منها ثم يدخل الجنة، فدل الكتاب والسنة واتفاق الفرقة الناجية على أنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد.

وأما آية النساء ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا﴾، فلها نظائر أمثالها

من نصوص الوعيد كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾، وكذلك ما ورد من السنة كقوله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها[1] خالداً مخلداً في نار جهنم» ونظائره كثيرة، فقالت فرقة في الكلام إضمار، فمنهم من قال بإضمار الشرط والتقدير فجزاؤه كذا إن جازاه أو إن شاء، ومنهم من قال بإضمار الاستثناء والتقدير فجزاؤه كذا إلاَّ أن يعفو، وقالت فرقة هذا وعيد وإخلاف الوعيد لا يذم بل يمدح، فيجوز على الله تعالى إخلاف الوعيد لا إخلاف الوعد، والفرق بينهما أن الوعيد حقه فإخلافه عفو وهبة وإسقاط ذلك موجب كرمه وجوده وإحسانه، والوعد أوجبه على نفسه بوعده والله تعالى لا يخلف الميعاد.

وعلى كل حال قد قام الدليل على ذكر الموانع من إنفاذ الوعيد بعضها بالإجماع وبعضها بالنص، فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، فلا تعطل هذه النصوص وأضعاف أضعافها فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين، وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما وبناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية، وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقاً وأمراً، وقد جعل الله تعالى لكل ضد ضداً يدافعه ومانعاً يمانعه، ويكون الحكم للأغلب منهما.

---

(١) أي: يضرب بها نفسه. (د).

والحاصل والله أعلم كون المذنب الملي[1] وإن كثرت ذنوبه وعظمت خطاياه في مشيئة مولاه، إن شاء عذبه وإن شاء عافاه، وعلى كل حال، خلود أهل التوحيد في النار من المحال، فالصواب اجتنابه والتعويل على مذهب أهل الحق.

فصل

في الكلام على الذنوب ومتعلقاتها للصحابة

اعلم وفقنا الله وإياك أن أول اختلاف وقع في هذه الأمة: هو خلاف الخوارج حيث أخرجوا عصاة الموحدين من الإسلام بالكلية، وأدخلوهم في دائرة الكفر، وعاملوهم معاملة الكفار، واستحلوا بذلك دماء المسلمين وأموالهم ثم حدث بعضهم خلاف المعتزلة. وقولهم: إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، ويثبتون المنزلة بين المنزلتين، ثم حدث خلاف المرجئة. وقولهم: إن الفاسق مؤمن كامل الإيمان.

وقد صنف العلماء قديماً وحديثاً في هذه المسائل تصانيف متعددة، وبينوا ما هو الحق فيها، وصرحوا أن الفاسق المِليَّ مرتكب الكبيرة، فاسق بكبيرته، مؤمن بإيمانه وهو تحت مشيئة الله تعالى. ولهذا قال:

(ويفسق)، أي: المسلم المكلف. (المذنب) بإتيان المعصية (الكبيرة)، وأصل الفسوق الخروج عن الاستقامة والجور، وبه سمي العاصي فاسقاً، والكبيرة كل معصية فيها حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة، وزاد شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ أو ورد فيها

(١) أي: المنسوب إلى الملة الإسلامية. (د).

وعيد بنفي إيمان أو لعن ونحوهما، وإلى ذلك أشار العلامة موسى الحجاوي بقوله:

فما فيه حدّ في الدنا أو توعدٌ — بأخرى فَسِمْ كبرى على نص أحمد
وزاد حفيد المجد أو جا وعيده — بنفي لإيمان ولعن لمبعد

(كذا)، أي: مثل إتيان الكبيرة (إذا أصر بالصغيرة) ــ الباء بمعنى على ــ، أي: على الجريمة الصغيرة، والإصرار لزومها ودوامه عليها، وأما من أتبعها بالتوبة والاستغفار، فليس بمصر عليها، وفي الحديث: «ما أصر من استغفر».

(لا يخرج المرء من الإيمان) الآتي تعريفه (بموبقات الذنب)، أي: المهلكات جمع موبقة. سميت الجريمة الكبيرة؛ لأنها سبب لإهلاك مرتكبها في الدنيا بما يترتب عليها من العقاب وفي الآخرة من العذاب، وأل في الذنب للجنس أو الاستغراق، فيشمل كل الذنوب (والعصيان) دون الشرك بالله تعالى، والعصيان: ضد الطاعة، وهو يرادف الذنب، فالمؤمن لا يخرج من الإيمان بملابسة كبائر الذنوب والعصيان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

وفي الحديث القدسي الذي رواه الترمذي عن أنس مرفوعاً: «يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»، فدلت الآية وحديث أنس أن من جاء مع التوحيد بملأ الأرض خطايا، لقيه الله بملئها مغفرة مع مشيئة الله تعالى، فإن شَاءَ غفر لهُ، وإن شاء عذّبه وأخذه بذنبه، ثم كان عاقبته أن لا يخلد في النار، بل يخرج منها ثم يدخل الجنة.

* * *

وواجِـبٌ عَلَيْـهِ أنْ يَتُـوبـا مِن كُلِّ مَا جَرَّ عَلَيْهِ حُوْبا
وَيَقْبلُ المَوْلَى بمحضِ الفَضْلِ مِنْ غَيْرِ عبدٍ كافرٍ مُنْفَصِلِ
مَا لَمْ يَتُبْ مِن كُفْرِهِ بِضِدِهِ فَيرتَجِع عَن شركِهِ وصدِهِ

شرح ابن شيطي

ولما كان من متعلقات الذنوب التوبة وكانت واجبة على كل من تلبس بذنب، ذكر ذلك بقوله:

(وواجب) وجوب لزوم (عليه)، أي: المذنب (أن يتوبا) بألف الإطلاق للوزن، أي: أن يرجع، فالتوبة أصل كل مقام ومفتاح كل حال، فمن لا توبة له لا مقام له ولا حال.

قال النووي: أصل التوبة لغة الرجوع والمراد بالتوبة هنا الرجوع عن الذنب. انتهى.

فهي الرجوع عن الذنب بأن يقلع عنه ويندم عليه ويعزم على أن لا يعود إليه ويرضي الآدمي عن ظلامته إن تعلقت به. وقال بعضهم: التوبة الواجبة الرجوع عما كان مذموماً في الشرع من ترك واجب أو فعل محرم إلى ما هو محمود في الشرع.

قال النووي رحمه الله تعالى: أركانها ثلاثة: الإقلاع، والندم على فعل تلك المعصية والعزم على أن لا يعود إليها أبداً، وأن لا يغرغر. انتهى.

فإن كانت المعصية لآدمي فلها ركن رابع وهو التحلل من صاحب ذلك الحق، وأصلها الندم وهو ركنها الأعظم.

وقد فسرت الصحابة رضي الله تعالى عنهم كأميري المؤمنين عمر وعلي وابن مسعود التوبة بالندم، ومنهم من فسرها بالعزم على أن لا يعود، وقد روي ذلك مرفوعاً من وجه فيه ضعف لكن لا يعلم مخالف من الصحابة في هذا، وكذلك التابعون من بعدهم.

وفي قوله: (**من كل ما**)، أي: شيء (**جرَّ**)، أي: قاد وجذب (**عليه**)، أي: الذنب (**حوبا**)، أي: إثماً، والحوب بالضم الهلاك والبلاء، ومراد الناظم من ذلك من كل ما جر عليه الهلاك والبلاء، إشعار بوجوب التوبة من كل ذنب كبير أو صغير، وهذا مما اتفق عليه العلماء فإنهم اتفقوا على أن التوبة من كل معصية واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها سواء كانت صغيرة أو كبيرة، وإنها من مهمات الإسلام وقواعد الدين المتأكدة، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع، وعند المعتزلة بالعقل.

وظاهر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والآثار السلفية على أن من تاب لله توبة نصوحاً واجتمعت شروط التوبة في حقه أنه يقطع بقبول توبته كرماً منه وفضلاً، وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع خلافاً للمعتزلة، أما في حق قبول توبة الكافر بالإسلام فهذا بالإجماع كما نقله غير واحد.

قال النووي في شرح مسلم وغيره: توبة الكافر من كفره قبولها مقطوع به، وأما قبول توبة المذنب النصوح بشروطها فقول الجمهور وكلام ابن عبد البر يدل على أنه إجماع، ومن الناس من قال: لا يقطع بقبول التوبة بل يرجى وصاحبها تحت المشيئة، منهم إمام الحرمين.

وإلى قبول التوبة فضلاً وكرماً أشار بقوله: (**ويقبل المولى**) الذي هو رب العالمين ذو الكرم الواسع (**بمحض**)، أي: خالص (**الفضل**) والكرم

من غير وجوب عليه تعالى ولا إلزام **(من)** كل عبد مذنب تاب إلى الله تعالى توبة نصوحاً بشروطها المذكورة فإذا اجتمعت قبلت، ولا بد أن تكون من شخص مسلم **(غير عبد كافر)** بالله ورسوله **(منفصل)** عن الدين إما بردة أو كان كافراً أصلياً فلا تقبل توبته من الذنوب **(ما لم يتب)**، أي: يرجع **(من كفره)** فيسلم ويتصف من بعد رجوعه عن الكفر **(بضده)** من الإسلام.

فإن كان مرتداً بإنكار ما علم من الدين بالضرورة إيجاباً وتحريماً فيرجع عن إنكاره ذلك ويقر ويذعن حسبما جاء به النبي الكريم ﷺ، وإن كان مشركاً أو معتقداً أن لله شريكاً يستقل بالنفع والضرر وعلم الغيب مما استأثر الله تعالى بعلمه **(فـ)** ـلا يقبل منه ما لم **(يرتجع عن شركه)** الذي كان متصفاً به **(وصده)**، أي: إعراضه عن الدين واتباع سيد العالمين بأن يذعن وينقاد لشريعة خير العباد مسلماً خاضعاً مقبلاً بقلبه وقالبه، خالعاً ما كان عليه، فهذا يقبل إسلامه إجماعاً.

وأما المذنب فزعم بعض الناس أنه لا يقطع بقبول توبته مع استيفاء الشروط متعللاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ . فجعل كل الذنوب تحت المشيئة.

وربما تعلقوا بمثل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾، وبقوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾.

والظاهر أن هذا في حق التائب لأن الاعتراف يقتضي الندم والصحيح قول الجمهور.

وهذه الآيات لا تدل على عدم القطع فإن الكريم إذا أطمع لم يقطع من رجائه المطمع، ومن هنا قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن عَسى من الله واجبة، وقد ورد جزاء الإيمان والعمل الصالح بلفظ عسى أيضاً فلم يدل على ذلك على أنه غير مقطوع به كما في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ الآية. وأما قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فإن التائب ممن يشاء أن يغفر له كما أخبر بذلك في مواضع كثيرة من كتابه.

تنبيهات:

الأول: اختلف الناس هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر والصغائر أم لا تكفر سوى الصغائر؟.

قال الحافظ ابن رجب: والصحيح قول الجمهور أن الكبائر لا تكفر بدون التوبة لأنها فرض لازم على العباد، وأما النصوص المتضمنة مغفرة الذنوب وتكفير السيئات للمتقين فإنه سبحانه وتعالى لم يبين في الآيات خصال التقوى ولا العمل الصالح، فإن من جملة ذلك التوبة النصوح ومن لم يتب فهو ظالم غير متقي.

الثاني: تقدم أن الصحيح المعتمد وجوب التوبة حتى من الصغائر كالكبائر، وقيل: لا تجب من الصغائر توبة لأنها تقع مكفرة باجتناب الكبائر لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

الثالث: تنازع الناس في العبد هل يصير إلى حال يمتنع عليه قبول التوبة إذا أرادها؟ فصوب شيخ الإسلام قدس الله روحه أن التوبة ممكنة من كل ذنب لمن أرادها ويمكن أن الله يغفر له، وهذا الذي عليه أهل السنة

والجمهور. وقد فرض بعض الناس أن من توسط أرضاً مغصوبة ومن توسط جرحى فكيف ما تحرك قتل بعضهم فقيل هذا لا طريق له إلى التوبة، والصحيح أن هذا وغيره إذا تاب قبل الله توبته.

الرابع: تصح التوبة في المعتمد من كل ذنب مع الإصرار على آخر عند السلف والخلف.

قال شيخ الإسلام: ومن تاب من بعض ذنوبه فالتوبة تقتضي مغفرة ما تاب عنه فقط وما علمت فيه نزاعاً إلَّا في الكافر إذا أسلم فإن إسلامه يغفر له الكفر، وهل يغفر له الذنوب التي فعلها في حال كفره ولم يتب منها في الإسلام على قولين معروفين، الصحيح أنه إذا لم يتب من الذنب بقي على حكمه ولا يغفر إلَّا بمشيئة الله تعالى كغيره من المسلمين الذين عملوا في الإسلام. انتهى.

وإذا تاب الإنسان توبة عامة فهي تتناول كل ما رآه ذنباً لأن التوبة العامة تتضمن عزماً عاماً لفعل المأمور وترك المحظور وندماً عاماً على كل محظور[1].

الخامس: من اغتاب إنساناً أو قذفه ونحوه هل يشترط لصحة توبته إعلامه بذلك واستحلاله من ذلك؟.

أما المال وما يجوز أن يعتاض عنه بمثله أو قيمته فلا بد من الرد إن قدر، قال في الهداية: مظالم العباد تصح التوبة منها على الصحيح في

---

(١) إنما أظهر لفظ المحظور مع أن المقام مقام إضمار لئلا يعود على لفظ المضاف وهو ترك فيتغير المعنى، لأن الندم شرط أن يكون من المحظور لا من تركه. (د).

المذهب، وهو قول ابن عباس، ومن مات نادماً عليها كان الله عز وجل المجازي للمظلوم عنه، يعني حيث لم يقدر على رد المظلمة. وفي الرعاية: يرد ما أثم به وتاب بسببه ببذله إلى مستحقه أو ينوي ذلك إذا أمكنه أو تعذر رده في الحال، فالمشهور عند الجمهور لا يجب الإعلام ولا الاستحلال.

قال شيخ الإسلام أنه قول الأكثرين وأنه إن تاب من قذف إنسان أو غيبته قبل علمه به لا يشترط لتوبته إعلامه والتحلل منه، واختاره القاضي.

قال عبد الله بن المبارك لسفيان بن عيينة: التوبة من الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته، قال سفيان: بل تستغفره[1] مما قلت فيه، فقال ابن المبارك: لا تؤذه مرتين.

ومثل قول ابن المبارك اختار شيخ الإسلام وابن الصلاح الشافعي، قال شيخ الإسلام: واختار أصحابنا أنه لا يعلمه بل يدعو له دعاء يكون إحساناً إليه في مقابلة مظلمته، فإن تضرر الإنسان بما علمه من شتمه أبلغ من تضرره بما لا يعلم، ثم قد يكون الإعلام سبب العدوان على الظالم أو لا[2]، إذ النفوس لا تقف غالباً عند العدل والإنصاف[3]، وأيضاً فيه

---

(١) أي: تطلب السماح مما قلته في شأنه. (د).

(٢) أي: وقد لا يكون لكنه لما كان الإعلام سبباً للعدوان على الغير ولو لبعض الناس لم يشترط في صحة التوبة. (د).

(٣) أي: بل تطلب الانتقام والتشفي منه فيكون المُعْلم تعدى على نفسه وعلى غيره. (د).

زوال ما كان بينهما من كمال الألفة والمحبة، أو تجدد القطيعة والبغضة والله تعالى أمر بالجماعة ونهى عن الفرقة.

فعلى هذا لو سأل المقذوف والمسبوب قاذفه هل فعل ذلك أم لا لم يجب عليه الاعتراف على الصحيح من الروايتين، إذ توبته صحت في حق الله تعالى بالندم وفي حق العبد بالإحسان إليه بالاستغفار ونحوه.

وهل يجوز الاعتراف أو يستحب أو يكره أو يحرم؟ الأشبه أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال، وعلى هذا لو استحلف على ذلك جاز له أن يحرف ويعرض لأنه مظلوم بالاستحلاف، فإذا كان تاب وصحت توبته لم يبق لذلك عليه حق فلا تجب اليمين عليه، وأما لو ظلمه في دم أو مال فلا بد من إيفاء الحق فإن له بدلاً.

قال ابن مفلح: وفي هذا خلاص عظيم وتفريج كربات النفوس من آثار المعاصي والمظالم.

شرح ابن مانع

قوله: **(وواجب عليه)**، أي: على المذهب. **(أن يتوبا)** ــ بألف الإطلاق للوزن ــ، أي: يرجع عن الذنب بأن يقلع عنه، ويندم عليه، ويعزم على أن لا يعود إليه، ويرضى الآدمي عن ظلامة إن تعلقت به **(من كل ما)**، أي: شيء. **(جر)**، أي: قاد. **(عليه)**، أي: على المذنب. **(حوباً)**، أي: إثماً.

(ويقبل المولى) الذي هو رب العالمين **(بمحض الفضل)**، أي: خالص الكرم من كل عبد مذنب تاب إلى الله تعالى توبة نصوحاً بشروطها المذكورة قريباً، ولا بد أن تكون **(من)** شخص مسلم **(غير عبد كافر)** بالله

ورسوله، (**منفصل**) عن الدين سواء كان مرتداً، أم كافراً أصلياً، فلا تقبل توبته من الذنوب، (**ما لم يتب**)، أي: يرجع (**من كفره**) فيسلم ويقر لله بالوحدانية، ولنبيه ﷺ بالرسالة، ويؤمن بجميع ما جاء به النبي ﷺ، ويتصف من بعد رجوعه عن الكفر (**بضده**) من الإسلام، (**فـ**)ـلا يقبل منه ما لم (**يرتجع عن شركه**) الذي كان متصفاً به.

(**وصده**)، أي: إعراضه عن الدين، فإن كان مرتداً بإنكار ما علم من الدين بالضرورة إيجاباً وتحريماً، فيرجع عن إنكاره ذلك، وإن كان مشركاً معتقداً أن لله شريكاً يستقل بالنفع والضر وعلم الغيب، فلا بد من رجوعه عما كفر به حتى تقبل توبته.

* * *

وَمَنْ يَمُتْ وَلَم يَتُبْ مِن الخَطا　　　فأمرُهُ مُفوَّضٌ لذِي العَطَا
فإن يَّشأ يَعفُو وإن شاءَ انْتَقَم　　　وإنْ يَّشَأ أعطَى وأجْزَلَ النِّعم

شرح ابن شطي

(ومن)، أي: أيُّ امرىء مذنب (يمت)، أي: يدركه الموت وهو مصر على ذنوبه ومنهمك في شهواته (ولم يتب من الخطا) الذي ارتكبه والإثم الذي اكتسبه (فأمره) الذي يؤول إليه (مفوض)، أي: موكول ومَردود (لذي)، أي: صاحب (العطا) الواسع والكرم والعطا ويمد النوال، وفي الأسماء الحسنى المعطي، أي: يعطي من يريد ما يريد.

ومن ثم قال (فإن يشأ) سبحانه وتعالى (يعفو)، أي: يتجاوز عن من مات مرتكباً لذنوبه ولم يتب منها، والعفو هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه وأصله المحو وذهاب الأثر (وإن شاء انتقم) منه، فإن عامله بالفضل عفا عنه، وإن عامله بالعدل انتقم وآلم، والانتقام أن يبلغ في العقوبة حدها.

(وإن يشأ أعطى) النوال السهل (وأجزل)، أي: أكثر وأعظم لهم (النعم) بكسر النون جمع نعمة بكسر النون أيضاً والاسم بالفتح، قال في القاموس: النعمة بالكسر المسرة، ونعيم الله عطيته.

قال المحقق في كتابه الجيوش الإسلامية: النعمة نعمتان نعمة مطلقة ونعمة مقيدة. فالنعمة المطلقة هي المتصلة بسعادة الأبد وهي نعمة الإسلام وهي التي أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط أهلها ومن خصهم بها وجعلهم أهل الرفيق الأعلى حيث يقول:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾، فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾.

وإذا قيل ليس لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو صحيح.

والنعمة الثانية هي النعمة المقيدة كنعمة الصحة والغنى وعافية الجسد وأمثال ذلك، فهذه مشتركة بين البر والفاجر والمؤمن والكافر، وإذا قيل لله على الكافر نعمة بهذا الاعتبار فهو حق.

والحاصل أن مذهب أهل الحق من أهل السنة والجماعة إن مات مذنباً ولو مصراً على كبائر الذنوب ولم يتب منها لم نقطع له بخروج من الدين، بل نثبت أنه من المؤمنين، ولم نقطع له بدخول النار، بل نفوض أمره إلى الحكيم الغفار، فإن شاء عذبه غير أنه لا يخلده في النار، وإن شاء عفا عنه ابتداء، إما بشفاعة مقبولة أو بدعوة صالحة أو بمصيبة من تشديد عند الموت أو غيره من مصايب البرزخ، والصدقة عنه بعد الموت والأعمال الصالحة التي يهديها غيره له، أو برحمة أرحم الراحمين ونحو ذلك، وإن شاء رفع عند العذاب، وأجزل له الثواب، ورفع له الدرجات، وبدل الله سبحانه سيئاته حسنات.

تنبيهان: هذه المسألة يترجمها بعض القوم بمسألة وعيد الفساق، وبعضهم بمسألة عقوبة العصاة، وبعضهم بمسألة انقطاع عذاب أهل الكبائر، وضابطها أن يرتكب المؤمن كبيرة غير مكفرة بلا استحلال ويموت بلا توبة.

وقد اختلف الناس في حكمه كما تقدم، فأهل السنة لا يقطعون له بالعقوبة ولا بالعفو بل هو في مشيئة الله تعالى، وإنما يقطعون بعدم الخلود في النار بمقتضى ما سبق من وعده وثبت بالدليل، خلافاً للمعتزلة في قولهم يقطع له بالعذاب الدائم والبقاء المخلد في النار، لكنه عندهم يعذب عذاب الفساق لا عذاب الكفار، وأما الخوارج فعندهم أنه يعذب عذاب الكفار لكفره عندهم.

والدليل لمذهب أهل الحق الآيات والأحاديث الدالة على أن المؤمنين يدخلون الجنة، فإن كان بعد العذاب ودخول النار فهي مسألة انقطاع العذاب، وإن كان قبل ذلك فهي مسألة العفو التام، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾. ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾.

وقال ﷺ: «من قال لا إلـه إلاَّ الله دخل الجنة»، وقال: «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة وإن زنى وإن سرق».

الثاني: ذكر بعض المحققين انعقاد الإجماع على أنه لا بد سمعاً من نفوذ الوعيد في طائفة من العصاة أو طائفة من كل صنف منهم كالزناة وشربة الخمر وقتلة الأنفس وأكلة الربا وأهل السرقة و الغصوب إذا ماتوا على غير توبة، فلا بد من نفوذ الوعيد في طائفة من كل صنف لا لفرد معين لجواز العفو، وأقل ما يُصدق عليه نفوذ الوعيد واحد من كل صنف والأدلة قاضية بقصر العصاة على عصاة الموحدين، وقد رتب بعض الناس على ذلك امتناع سؤال العفو لجميع المسلمين لمنافاته لذلك، وهذا ساقط إلاَّ إذا قصد العفو ابتداء لكل فرد من أفراد الأمة، على أن العفو يصدق بما

بعد العذاب والتعذيب فمن قال بمنع المنع[1] فهو المصيب، وبالله التوفيق.

شرح ابن مانع

قوله: (**ومن يمت**)، أي: أيّ امرىء مذنب أدركه الموت وهو مصر على ذنوبه، (**ولم يتب من الخطأ**) الذي ارتكبه، (**فأمره**) الذي يؤول إليه (**مفوض**)، أي: موكول ومردود (**لذي**)، أي: صاحب (**العطا**) الواسع ويمد.

وفي الأسماء الحسنى: المعطي أن يعطي من يريد ما يريد، ومن ثم قال: (**فإن يشأ**) سبحانه وتعالى. (**يعفو**)، أي: يتجاوز عن من مات مرتكباً لذنوبه، ولم يتب منها.

والعفو: التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، (**وإن شاء انتقم**) منه، فإن عامله بالفضل عفا وأنعم، وإن عامله بالعدل انتقم وآلم.

والانتقام: أن يبلغ في العقوبة حدها، وفي الأسماء الحسنى: المنتقم وهو البالغ في العقوبة لمن يشاء.

(**وإن يشأ أعطى**) النوال. (**وأجزل**)، أي: أكثر. (**النعم**): جمع نعمة، وهي المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير.

* * *

(١) أي: فمن قال بالمنع من منع الدعاء... إلخ، يعني: فمن قال بجواز ذلك. (د).

وقِيلَ فِي الدُروزِ والزَّنَادِقَة ... وَسَـائِـرِ الطـوائِـفِ المُنـافِقَـة

وَكُـــلُّ داعٍ لابتِـــداعٍ يُقتَـــلُ ... كَمَـنْ تَكَـرَّرَ نَكثُـهُ لا يُقْبَـلُ

لأَنَّـهُ لَـمْ يبـدُ مِـن إيمـانِـهِ ... إلَّا الَّـذِي أذاعَ مِـن لِسـانِـهِ

كمُلحِـدٍ وسـاحِـرٍ وَسَـاحِـرَة ... وَهُمْ عَلَى نِيّاتِهِم فِي الآخِرَة

قُلتُ وَإن دَلَّتْ دَلائِلُ الهُدَى ... كَمَا جَرَى للعَيْلَبُونِي اهتَدَى

فَـإنَّـهُ أذَاعَ مِـن أسْـرارِهِـم ... مَا كَانَ فِيهِ الهتْكُ عَن أسْتَارِهِمْ

وَكَانَ للدِّينِ القَوِيم نَاصِراً ... فَصَـارَ مِنَّـا بـاطِنـاً وَظَـاهِـراً

فَكُـلُّ زِنْـدِيـقٍ وَكُـلِّ مـارِقِ ... وَجَـاحِـدٍ وَمُلْحِـدٍ مُنـافِـقِ

إذَا اسْتَبَـانَ نُصحُـهُ لِلـدِّيـنِ ... فـإنَّـهُ يُقْبَـلُ عَـنْ يَقِيـنِ

—— شرح ابن شطي ——

فصل

في ذكر من قيل بعدم قبول إسلامه من طوائف أهل العناد والزندقة والإلحاد

اعلم وفقني الله وإياك أن علمائنا ذكروا تحتم قتل جماعة من الزنادقة وأهل الإلحاد لعدم قبول إسلامهم بحسب الظاهر كالزنديق ومن تكررت ردته، أو كفر بسحره ما أو سب الله تعالى أو رسوله أو تنقصه، وأما حكمهم في الآخرة فإن صدقوا قبل بلا خلاف، وعن الإمام أحمد رواية ثانية تقبل توبتهم كغيرهم وهذا الذي نختاره، ولهذا قال:

(وقيل) وهو المذهب فقهاً (في) طوائف (الدروز) وهؤلاء وأتباعهم ومن نحا نحوهم هم الطائفة الموسومة بالإسماعيلية، قال فيهم الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه في «كتابه الذي صنفه عليهم: ظاهر

مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض، وقد جزم شيخ الإسلام بكفر الإسماعيلية في محلات متعددة من مصنفاته وأنهم من القرامطة النصيرية وأنهم أشد كفراً من الغالية الذين يقولون بإلـٰهية أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب رضي الله تعالى عنه ونُبوَّته.

(**والزنادقة**) جمع زنديق فارسي معرب، قال الإمام الموفق: الزنديق هو الذي يظهر الإسلام ويخفي الكفر، كان يسمى منافقاً ويسمى اليوم زنديقاً، ومن ثم قال (**وسائر**)، أي: بقية (**الطوائف**) جمع طائفة وهي القطعة أو الواحد فصاعداً أو إلى الألف، وأقلها رجلان أو رجل فيكون بمعنى النفس (**المنافقة**) من النفاق وهو إبطان الكفر وإظهار الإيمان.

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه: وعامة ما يوجد النفاق في أهل البدع فإن الذي ابتدع الرفض كان منافقاً زنديقاً، وكذلك يقال عن الذي ابتدع التجهم، وكذلك رؤوس القرامطة وأمثالهم لا ريب أنهم من أعظم المنافقين، وهؤلاء لا يتنازع المسلمون في كفرهم، ولهذا قال:

(**وكل داعٍ لا**)نتحال ا(بتداع) مكفرٍ من بدع الضلال.

ذكر القاضي وأصحابه من علماء المذهب رواية عن الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه: لا تقبل توبة داعية إلى بدعة مضلة، والمذهب تقبل توبة من كفر ببدعة ولو داعية خلافاً لابن حمدان والبلباني في عقيدتيهما قال شيخ مشايخنا: بدر الدين البلباني في مختصر عقيدة ابن حمدان ولا تقبل، يعني التوبة ظاهراً من داعية إلى بدعته المضلة ولا من ساحر وزنديق ولا ممن تكررت ردته، ولذا قال (**يقتل**) الداعية لعدم قبول توبته ظاهراً كالدرزي والزنديق وسائر طوائف المنافقين.

(كمن)، أي: كمكلف (تكرر نكثه)، أي: نقضه للإسلام بأن تكررت ردته، واتجه العلامة الشيخ مرعي في غايته أن أقل التكرر ثلاث، قال في النهاية: النكث نقض العهد والاسم النِكث بالكسر، (لا يقبل) منه بعد تكرر ردته الإسلام على ظاهر المذهب لظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾﴾.

والسبب في عدم قبول توبة نحو المنافق (لأنه لم يبد) للعيان ظاهراً (من إيمانه) الذي زعم أنه أتى به ودخل به إلى الإسلام (إلاَّ الذي أذاع)، أي: أظهر ونشر قبل توبته (من لسانه) مع اعتقاده للإسلام، فلم يزد على ما كان يقوله ويأتي به ويذيعه في حال كفره وكتمانه للعقيدة الفاسدة والكفر المستور شيئاً، وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾. وهؤلاء لا يظهر منهم على ما يتبين به رجوعهم فلا يظهر منهم بالتوبة خلاف ما كانوا عليه فإنهم كانوا ينفون عنهم الكفر قبل ذلك وقلوبهم لا يطلع عليها فلا يكون لما قاله حكم لأن الظاهر من حال هؤلاء أنهم إنما يستدفعون عنهم القتل بإظهار التوبة إذا بدا منهم ما يؤاخذون به.

(كـ) ما لا يقبل إيمان (ملحد) مأخوذ من الإلحاد وهو الميل والعدول عن الشيء، قال في كنز الأسرار: الملاحدة والزنادقة هم الذين يسبون الله عز وجل أو واحداً من أنبيائه، وكذلك من سب النبي ﷺ أو عابه أو ألحق به نقصاً في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله، أو شبهه بشيء على طريق التشويه أو الإزراء عليه أو التصغير لشأنه.

قال في الفروع: ويقتل من سب الله أو رسوله، نقل حنبل عن الإمام

أحمد رضي الله عنه أو تنقصه ولو تعريضاً، وقال: من عرض بشيء من ذكر الرب فعليه القتل مسلماً كان أو كافراً وهو مذهب أهل المدينة.

وفي فصول ابن عقيل عن الأصحاب: لا تقبل توبته إن سب النبي ﷺ لأنه حق آدمي لم يعلم إسقاطه، وأما إن سب الله تعالى فتقبل توبته لأنه يقبل التوبة في خالص حقه.

(وساحر وساحرة) ممن يكفر بسحره.

وكل من قلنا أن إسلامه لا يقبل بل حكمه أن يقتل يعني بحسب الظاهر في الدنيا **(وهم)** يعني: الدروز والزنادقة والمنافقة ونحوهم يبعثون **(على نياتهم في الآخرة)** فمن صدق منهم في توبته قبلت باطناً ونفعه ذلك بلا خلاف.

والحاصل أن الشيخ وغيره من المحققين بل وجمهور الأمة وأكثر الأئمة جزموا بقبول توبة كل زنديق ومنافق، وملحد ومارق، ظاهراً ووكلوا سريرته إلى الله تعالى، والمشهور فقهاً عدم قبول توبتهم كما مر.

وقد توسطت في المسألة فيما أشير إليه بقوله:

(قلت وإن دلت) من الشخص التائب **(دلائل الهدى)** وقرائن الأحوال **(كما جرى للعيلبونيّ)** الصالح الفاضل حسن نسبة إلى بلده عيلبون وهي بليدة ما بين قرية حطين ودير حنا كانت لطائفة من الدروز ومسكناً لهم من أعمال صفد وكان هو درزياً من جملتهم فتاب ورجع عن كفره وحسن حاله وصلحت أعماله وأقبل بقلبه وقالبه على دين الإسلام، فمن ظهرت منه قرائن الأحوال، واتباع الهدى ورفض الضلال، كما جرى لهذا الرجل الصالح فقد **(اهتدى)**، وأنقذه الله تعالى من الضلال والردى.

(**فإنه**)، أي: العيلبوني (**أذاع**)، أي: نشر وأظهر (**من أسرارهم**)، أي: من أسرار طائفة الدروز وما هم عليه من الكفر الذي لا مزيد عليه وانتحالهم ما لا يجوز عند أحد من سائر أهل الملل من الوقوع على المحارم من البنات والأخوات، وأكلهم الخنزير، ورفضهم العبادات، وإنكارهم الشرائع، وارتكابهم الضلالات، (**ما**)، أي: شيئاً كثيراً (**كان فيه**)، أي: ذلك المذاع أو الإذاعة (**الهتك**)، أي: الكشف، أي: الظهور والإبانة (**عن أستارهم**) التي كانوا يكتمونها ويستترون بإظهارهم الإسلام تقية مع عكوفهم على الكفر الصراح، واعتقادهم أن كل ما حرمته الشريعة فهو مباح، ولهم من الاصطلاحات التي يريدون لها معاني فيما بينهم غير ظواهرها ما هو معروف عند كل من اطلع على عقائدهم، وأظهره العيلبوني من مقاصدهم، فيجعلون الصلاة لمعرفة أشرارهم، ويريدون بالصوم كتمان أسرارهم، وبالحج قصدهم عقالهم ومن نحو هذا الهذيان.

(**وكان**) العيلبوني ومن نحا منحاه (**للدين القويم**) والهدى المستقيم (**ناصراً**) باتباعه (**فصار منا**) معشر المسلمين (**باطناً وظاهراً**) فهو مسلم مقبول الإسلام في الظاهر والباطن. وكان حسن العيلبوني شاعراً لبيباً رحل إلى مصر وأخذ بها عن الشمس البابلي وغيره ودخل دمشق وجاور بها وله القصيدة النونية التي هجا بها الدروز وله غير ذلك، ثم ارتحل إلى عكا وبها توفي سنة خمس وثمانين وألف رحمه الله تعالى.

فالذي نختاره وندين الله به ما أشرنا إليه بقولنا:

(**فكل زنديق**) لا يتدين بدين (**وكل مارق**) من أهل البدع والضلالات

(وجاحد) من درزي، ودهري، وفيلسوفي، وبرهمي، وعابد وثن، وشمس، ونار، وغيرها، (وملحد) في آيات الله، ومنكر لشرائع الله، وكافر برسول الله وهو مع ذلك (منافق)، أي: ذي نفاق يبطن الكفر ويظهر الإسلام (إذا) تاب مما هو عليه و (استبان)، أي: امتحن حاله فظهر صحة إيمانه و (نصحه للدين) القويم وصدق إيقانه، (فإنه)، أي: هذا التائب (يقبل) منه ذلك الرجوع والتوبة عن تلك الترهات، وهو مقبول لدى من يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات (عن يقين)، وإنما كان كذلك لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية.

تنبيه: دخل في عموم ما ذكر: الحلولية، والإباحية، ومن يفضل متبوعه على الأنبياء، ومن يزعم أنه إذا حصلت له المعرفة والتحقيق سقط عنه الأمر والنهي، ومن يزعم أن العارف المحقق يجوز له التدين بدين اليهود والنصارى وبأي دين شاء، وأنه لا يجب عليه الاعتصام بالكتاب والسنة، وأمثال هؤلاء الطوائف المارقين من الدين، لأن هؤلاء كلهم من الملحدين الطاعنين في الدين والمارقين والمنافقين. فمن صدقت توبته وصلحت سريرته ومدحت سيرته ودلت قرائن الأحوال، على رجوعه عما كان مرتكبه من الإفك والضلال، فمقبول عند ذي المنّة والإفضال، وبالله التوفيق.

شرح ابن مانع

فصل

في ذكر من قيل بعدم قبول إسلامه من طوائف الملحدين

قوله: (وقيل) وهو المذهب فقهاً (في) طوائف (الدروز) من الحمزاوية أتباع حمزة اللباد المدعو عندهم بهادي المستجيبين، وهم

القائلون: بإلـٰهية الحاكم العبيدي، ومثلهم البابية القائلون: بإلـٰهية الباب، وغيره من طواغيتهم، وهم أربع فرق:

الأولى: البابية الخُلّص، أي: الذين اتبعوا الباب فقط، وهو محمد بن علي الشيرازي. وُلد سنة ١٢٣٥هـ ألف ومائتين وخمس وثلاثين، وكان تلميذاً لأحد تلامذة أحمد الإحسائي، وهو كاظم الرشتي الذي مزج التصوف والفلسفة بالشريعة، وجمع بين الاعتقادات الإمامية، والأصول الفلسفية على نمط جديد، ثم إن الميرزا محمد علي سمى نفسه بالباب أخذ من الحديث المشهور: «أنا مدينة العلم وعلي بابها». وأظهر التقشف فاغتر به الإغرار، فما زال أمره يظهر حتى ادّعى النبوة، ثم الألوهية، فقُتل كفراً بإفتاء علماء الفرس يتبريز سنة ١٢٦٥هـ ألف ومائتين وخمس وستين.

الثانية: البابية الأزلية القائلون: بخلافة تلميذ الباب يحيى الملقب: بصبح أزل، لقبه به الباب.

الثالثة: البابية البهائية القائلون: بإلـٰهية البهاء الميرزا حسين المازندراني، وهو أخو يحيى المتقدم، وقد نفي إلى عكا كما نفي أخوه إلى قبرص. مات سنة ١٣٠٩هـ ألف وثلاث مئة وتسع سنين.

الرابعة: البابية العباسية القائلون: بإلـٰهية عباس بن البهاء الذي قبله، وقد ولد هذا بطهران سنة ١٢٦٥هـ ألف ومائتين وخمس وستين. ورافق أباه بالنفي إلى بغداد وأدرنة وعكا، وهو الآن، أي: سنة ١٣٤٣هـ ألف وثلاثمائة وأربع وثلاثين حي، وسيقدم على مالك إن شاء الله، ومسكنه في عكا في بلاد الشام.

وقد استوفى الكلام على هذه الطوائف أحد علماء الفرس في كتابه [بابة الأبواب] وكذا في [مفتاح باب الأبواب].

وإنما ألحقت البابية بالدروز؛ لأن الحكم يدور مع علته وكلاهما قد ارتد عن الإسلام، وتأله المخلوق المربوب دون الخالق رب العباد، فحكمهم حكم الدروز.

(والزنادقة): جمع زنديق، وهو الذي يظهر الإسلام ويخفي الكفر.

(وسائر)، أي: بقية. **(الطوائف)**: جمع طائفة وهي القطعة أو الواحد فصاعداً. **(المنافقة)**: من النفاق وهو اختلاف السر والعلانية، وكان من أظهر الإسلام وأبطن خلافه يسمى منافقاً، وأما اليوم فيسمى زنديقاً، **(وكل داع)** **(لـ)**ـانتحال **(ابتداع)** مكفر، **(يقتل)** لعدم قبول توبته ظاهراً.

ذكر القاضي وأصحابه من علماء المذهب رواية عن الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ لا تقبل توبة داعية إلى بدعةٍ مضلة، والصحيح أنها تقبل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: قد بين الله تعالى أنه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع، وأما من قلد الداعية إلى البدعة، فإنه يفسق. نص على ذلك غير واحد.

قال العلامة الشيخ منصور في حاشية المنتهى، قال المجد: الصحيح إن كل بدعة كفّرنا فيها الداعية، فإنا نفسق المقلد فيها، كمن يقول: بخلق القرآن، أو بأن ألفاظنا به مخلوقة، أو أن علم الله به مخلوق، أو أن أسماء الله مخلوقة، أو أنه لا يرى في الآخرة، أو يسب الصحابة تديناً، أو أن الإيمان مجرد الاعتقاد، وما أشبه ذلك.

فمن كان عالماً بشيء من هذه البدع يدعو إليه، ويناظر عليه، فهو محكوم بكفره، نص أحمد على ذلك صريحاً في مواضع، واختلف عنه في تكفير القدرية بنفي خلق المعاصي على روايتين، وله في الخوارج كلام يقتضي في تكفيرهم روايتين، نقل حرب لا تجوز شهادة صاحب بدعة. انتهى.

قلت: وإنما قيد نفي القدرية بالمعاصي جرياً على المشهور لدى الجمهور.

والصحيح: «أن القدرية ينفون خلق أفعال العباد مطلقاً، بل غلّط شيخ الإسلام ابن تيمية حفيد المجد من خص النفي بالمعاصي فقط.

(كمن)، أي: كمكلف (تكرر نكثه)، أي: نقضه للإسلام بأن تكررت ردته (لا يقبل)، منه الإسلام على ظاهر المذهب لظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾.

والسبب في عدم قبول توبة نحو المنافق ذكره بقوله: (لأنه لم يبد) للعيان ظاهراً (من إيمانه) الذي زعم أنه أتى به ودخل به إلى الإسلام. (إلاّ الذي أذاع)، أي: أظهر (من لسانه) مع عدم اعتقاده للإسلام، (كـ)ـما لا يقبل إيمان (ملحد)، مأخوذ من الإلحاد وهو الميل والعدول عن الشيء. والجمع: ملاحدة، وهم الذين يسبون الله تعالى أو نبياً من أنبيائه، (و)كـ(ـساحر وساحرة) ممن يكفر بسحره من ذكر أو أنثى.

قال في فتح المجيد: قال أبو محمد المقدسي ــ يعني موفق الدين بن قدامة ــ في الكافي: السحر عزائم ورقى وعقد تؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه.

قال: واختلفوا هل يكفر الساحر أو لا ؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر. وبه قال مالك ــ رحمه الله ــ وأبو حنيفة وأحمد. قال أصحابه: إلاَّ أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر فلا يكفر.

وقال الشافعي: رحمه الله إذا تعلم السحر، قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر. انتهى. أي: كلام الموفق.

ثم ساق الشيخ عبد الرحمن بعض الآيات الدالة على أن السحر من الكفر، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾، وغيرها.

(وهم)، يعني: الدروز والزنادقة والمنافقة ونحوهم يبعثون (على نياتهم في) الدار (الآخرة)، فمن صدق منهم في التوبة قبلت باطناً ونفعه ذلك بلا خلاف، كما ذكره ابن عقيل، وموفق الدين بن قدامة. وقيل: يقبل الإسلام والتوبة من كل من ذكر حتى في الدنيا وإليه ذهب الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله سره ــ وقال في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا ﴾، أي: ثبتوا عليه حتى ماتوا.

وقد توسط الناظم في المسألة حيث قال: (قلت وإن دلت) من الشخص التائب (دلائل الهدى)، وقرائن الأحوال، (كما جرى لـ)ـحسن ا(لعيلبوني) ــ نسبة إلى عيلبون بلدة بالشام ــ كانت لطائفة من الدروز ومسكناً لهم، فتاب من إلحاده حيث أنه كان درزياً و(اهتدى) وأنقذه الله من الضلال. (فإنه) ــ أي العيلبوني ــ (أذاع) ــ أي: أظهر ــ (من أسرارهم) ــ أي: من أسرار الدروز ــ (ما)، أي: شيئاً (كان فيه)، أي:

في ذلك الشيء المذاع. **(الهتك)**، أي: الكشف **(عن أستارهم)** التي كانوا يكتمونها من الوقوع على المحارم، كالبنات، والأخوات، وأكل الخنزير، ورفض العبادات، وإنكار الشرائع، واعتقادهم أن كل ما حرمته الشريعة فهو مباح لهم.

قلت: وقد شاركهم البابية في أكثر هذه القبائح، وزادوا عليها أعظم منها قبحاً، ومن تتبع تواريخ الأمم التي اختلفت في الديانات لم يجد أكفر من هذه الطائفة الملعونة، فقد ألف كل طاغوت من طواغيتهم هذياناً يزعم أنه قرآن، وفيه من الفضائح ما يستحي الإنسان من ذكره أبعدهم الله.

(وكان) العيلبوني **(للدين القويم)**، والهدي المستقيم **(ناصراً)** باتباعه، **(فصار منا)**: أهل الحق. **(باطناً)**، أي: في الباطن، **(وظاهراً)**: فهو مسلم مقبول الإسلام.

وكان العيلبوني شاعراً لبيباً أخذ عن علماء مصر، ودمشق، وجاور بها، ثم ارتحل إلى عكا ومات بها سنة ١٠٨٥هـ ألف وخمس وثمانين رحمه الله تعالى.

(فكل زنديق): لا يتدين بدين، **(وكل مارق)**: من أهل البدع، **(و)**كل **(جاحد)**: من درزي ودهري وغيرهما، **(و)**كل **(ملحد)**: في آيات الله ومنكر لشيء مما ثبت بالضرورة من الشريعة. **(منافق)**، أي: ذي نفاق **(إذا)** تاب مما هو عليه. **(واستبان)**، أي: بان وظهر صحة إيمانه و**(نصحه للدين)** القويم، **(فإنه)**، أي: هذا التائب **(يقبل)** منه ذلك الرجوع والتوبة **(عن يقين)**، وهو الحكم الجازم المطابق للواقع، وسنده قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ الآية.

* * *

فصل

في الكلام على الإيمان

واختلاف الناس فيه وتحقيق مذهب السلف في ذلك

اعلـم وفقـك الله تعـالـى أن النـاس اختلفـوا فـي حقيقـة الإيمـان لغـةً واصطلاحاً.

والمشهور لغة: التصديق، واصطلاحاً: تصديق الرسول ﷺ، فيما جاء به عن ربه.

وهذا القدر متفق عليه، ثم وقع الاختلاف هل يشترط مع ذلك مزيد أمر من جهة إبداء هذا التصديق باللسان المعبر عما في القلب إذ التصديق مـن أفعـال القلـوب، أو مـن جهـة العمـل بمـا صـدق بـه من ذلـك كفعـل المأمورات وترك المحظورات، وهذا هو الذي اشتهر من مذهب السلف، ولذا قال:

(إيماننا) في اللغة الإقرار. وعند محققي السلف أن الإيمان وإن قلنا هو التصديق إلاَّ أنه تصديق خاص مقيد بقيود اتصل اللفظ بها، وهذا ليس نقلاً للفظ عن أصل اللغة ولا تغييراً له، فإن الله تعالى لم يأمرنا بإيمان مطلق بل بإيمان خاص وصفه وبينه وهو تصديق تام قائم بالقلب مستلزم لما وجب من الأعمال القلبية وأعمال الجوارح، فإن هذه لوازم الإيمان التام وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم، ولهذا قال:

(قول) باللسان، فمن لم يقر ويصدق بلسانه مع القدرة لا يُسمى

مصدقاً فليس بمؤمن كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

(وقصد)، أي: عقد بالجنان، فمن تكلم بكلمة التوحيد غير معتقد لها بقلبه فهو منافق وليس بمؤمن خلافاً للكرَّامية الزاعمين بأن الإيمان هو القول الظاهر.

وإذا كان مصدقاً بقلبه غير ناطق بلسانه مع القدرة فليس بمؤمن عند سلف الأمة خلافاً للجهمية ومن وافقهم من المتكلمة، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ ﴾، فنفى الله تعالى الإيمان عن المنافقين، وهذا يرد مذهب الكرَّامية.

وكذلك من قام بقلبه علم وتصديق وهو يجحد الرسول وما جاء به ويعاديه كاليهود وغيرهم ممن سماه الله كافراً ولم يسمهم مؤمنين قط فهم كفار خلافاً للجهمية في زعمهم أنه إذا كان العلم في قلوبهم فهم مؤمنون كاملو الإيمان، وفي الآيات القرآنية مما يرد هذا ما لا يحصى إلا بكلفة كقوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ الآية، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾.

(وعمل) بالأركان، وهذا هو اللفظ الوارد عن السلف.

قال البخاري في صحيحه: الإيمان قول وعمل، قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري: وهو اللفظ الوارد عن السلف الذين أطلقوا ذلك، وقد روي مرفوعاً بإسناد ضعيف، قال والمراد بالقول النطق بالشهادتين.

وأما العمل ما هو أعم من عمل القلب والجوارح ليدخل الاعتقاد والعبادات، ومراد من أدخل ذلك في تعريف الإيمان ومن نفاه إنما هو بالنظر إلى ما عند الله تعالى، فالسلف قالوا: هو اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان، وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله ومن هنا نشأ لهم القول بزيادة الإيمان ونقصه؛ والمرجئة قالوا: هو اعتقاد ونطق فقط، والكرَّامية قالوا: هو نطق فقط، والمعتزلة قالوا: هو العمل والنطق والاعتقاد، والفرق بينهم وبين السلف أنهم جعلوا للأعمال شرطاً في صحته، والسلف جعلوها شرطاً في كماله، وهذا بالنظر إلى ما عند الله تعالى.

أما بالنظر إلى ما عندنا فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقر أجريت عليه الأحكام في الدنيا ولم يحكم عليه بكفر إلا إن اقترن بإقراره فعل يدل على كفره كالسجود للصنم، فإن كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى إقراره، ومن نفى عنه الإيمان فبالنظر إلى كماله، ومن أطلق عليه الكفر فبالنظر إلى أنه فَعل فِعل الكافر، ومن نفاه عنه فبالنظر إلى حقيقته.

وأثبت المعتزلة الواسطة فقالوا لا مؤمن ولا كافر. انتهى.

وقال الحافظ ابن رجب: المشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان.

وحكى الشافعي رضي الله تعالى عنه إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم فمن أدركهم على ذلك.

وأما قول القائل أن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله فممنوع وهذا

هو الأصل الذي تفرعت منه البدع في الإيمان، فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله.

ومذهب أهل الحق من السلف ومن وافقهم أن الإيمان يتفاضل فيزيد وينقص ولهذا قال (**تزيده**)، أي: الإيمان المطلق (**التقوى**) هي لغة الحاجز بين الشيئين واصطلاحاً التحرز بطاعة الله عن مخالفته وامتثال أمره واجتناب نهيه، وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ﴾، أي: أهل أن يتقى عقابه.

(**وينقص**) الإيمان بارتكابـ(ــه **الزلل**) وتعاطيه، والاسم الزلة وهي الخطيئة والسقطة.

والحاصل أن الإيمان عند السلف ومن وافقهم من أئمة السنة والعرفان، يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان.

قال الإمام ابن عبد البر في التمهيد: أجمع أهل الحديث والفقه على أن الإيمان قول وعمل ولا عمل إلا بنية، قال: والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان إلا ما ذكر عن الإمام أبي حنيفة وأصحابه رضي الله تعالى عنهم فإنهم ذهبوا إلى أن الطاعات لا تسمى إيماناً، قالوا: إنما الإيمان التصديق والإقرار، ومنهم من زاد المعرفة. وذكر ما احتجوا به.

تنبيهان:

الأول: قال جمهور الأشاعرة والماتريدية أن الإيمان هو التصديق بالنبي ﷺ وبكل ما علم مجيئه به من الدين بالضرورة، أي: الإذعان والقبول مع الرضا والتسليم وطمأنينة النفس لذلك تفصيلاً فيما علم تفصيلاً، وإجمالاً فيما علم إجمالاً.

وحاصل ذلك أن للناس في الإيمان أقوالاً خمسة منها ثلاثة بسيطة واثنان مركب.

فأما البسيطي: فالتصديق وحده، أو القول وحده، أو العمل وحده. الأول: مذهب جهم ومن وافقه من الأشاعرة وغيرهم. والثاني: قول الكرَّامية. والثالث: عزاه الكرماني في شرح البخاري للمعتزلة ولعله لبعضهم.

وأما المركب فقسمان: ثنائي، وهو قول الحنفية ومن وافقهم فإنهم قالوا إنه مركب من التصديق والقول، وثلاثي: التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان، وهذا مذهب سلف الأمة.

الثاني: الكلام على الإيمان والإسلام، هما شيء واحد أو شيئان قد ثبت في القرآن إسلام بلا إيمان في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

فهذا الإسلام الذي نفى الله سبحانه وتعالى عن أهله دخول الإيمان في قلوبهم هل هو إسلام يثابون عليه أم من جنس إسلام المنافقين؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف.

أحدهما: أنه إسلام يثابون عليه ويخرجهم من الكفر والنفاق وهو قول الإمام أحمد وكثير من أهل الحديث والسنن والحقائق.

الثاني: أن هذا الإسلام هو الاستسلام خوف السبي والقتل مثل إسلام المنافقين، قالوا: وهؤلاء كفار فإن الإيمان لم يدخل في قلوبهم ومن لم يدخل الإيمان في قلبه فهو كافر وهذا اختيار الإمام البخاري.

قال شيخ الإسلام: والسلف مختلفون في ذلك، وحقيقة الأمر أن

من لم يكن من المؤمنين يقال فيه أنه مسلم ومعه إيمان يمنعه من الخلود في النار وهذا متفق عليه بين أهل السنة، لكن هل يطلق عليه اسم الإيمان؟ هذا هو الذي تنازعوا فيه.

فقيل: يقال إنه مسلم ولا يقال مؤمن، وقيل: بل يقال مؤمن، والتحقيق أنه يقال مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ولا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم.

وعلى هذا فالخطاب بالإيمان يدخل فيه ثلاث طوائف: المؤمن حقاً، والمنافق في أحكامه الظاهرة وإن كان المنافق في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، وهو في الباطن ينفى عنه الإسلام والإيمان وفي الظاهر يثبتان له ظاهراً، ويدخل فيه الذين أسلموا ولم تدخل حقيقة الإيمان في قلوبهم لكن معهم جزء منه، وإسلام يثابون عليه ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم وليس معهم من الكبائر ما يعاقبون على ترك المفروضات وهؤلاء كالأعراب المذكورين في الآية وغيرهم فإنهم قالوا آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطناً وظاهراً، فلا دخلت حقيقة الإيمان في قلوبهم ولا جاهدوا، وقد كان دعاهم النبي ﷺ إلى الجهاد.

وقد يكونون من أهل الكبائر وهؤلاء لا يخرجون عن الإسلام بل هم مسلمون ولكن بين السلف فيهم نزاع لفظي هل يقال إنهم مؤمنون.

قال الشالنجي: سألت الإمام أحمد عن الإيمان والإسلام فقال: الإيمان قول وعمل، والإسلام إقرار.

قال أبو طالب المكي: مثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى في المعنى والحكم، فشهادة الرسول غير شهادة الوحدانية فهما شيئان في الأعيان وإحديهما مرتبطة بالأخرى في المعنى

والحكم كشيء واحد، كذلك الإيمان والإسلام أحدهما مرتبط بالآخر فهما كشيء واحد، لا إيمان لمن لا إسلام له ولا إسلام لمن لا إيمان له. إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه، ولا يخلو المؤمن من إسلام به يحقق إيمانه، وقد أجمع أهل القبلة على أن كل مؤمن مسلم وكل مسلم مؤمن بالله وكتبه.

وقال الحافظ ابن رجب: إذا أفرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذٍ، وإن قرن بين الاسمين كان بينهما فرق.

والتحقيق في الفرق بينهما أن الإيمان هو تصديق القلب وإقراره ومعرفته، والإسلام هو الاستسلام لله والخضوع والانقياد له، وذلك يكون بالعمل وهو الدين كما سمى الله تعالى الإسلام في كتابه ديناً، وفي حديث جبريل سمى النبي ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان ديناً.

فالإيمان والإسلام كاسم الفقير والمسكين إذا اجتمعا، افترقا وإذا افترقا اجتمعا فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإذا قرن بينهما احتاج كل واحد منهما إلى تعريف يخصه، فإذا قرن بين الإيمان والإسلام فالمراد بالإيمان جنس تصديق القلب وبالإسلام جنس العمل.

شرح ابن مانع

فصل

في الكلام على الإيمان

وهو لغة: التصديق، واصطلاحاً: تصديق الرسول ﷺ فيما جاء به عن ربه. وهو تصديق تام قائم بالقلب مستلزم لما وجب من الأعمال وأعمال الجوارح، فإن هذه لوازم الإيمان التام. وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم.

ولهذا قال:

(إيماننا)، أي: أهل السنة أتباع الأثر **(قول)** باللسان، فمن لم يقر ويصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى مصدقاً، فليس بمؤمن.

(وقصد)، أي: عقد بالجنان، فمن تكلم بكلمة التوحيد غير معتقد لها بقلبه، فهو منافق وليس بمؤمن.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾، فنفى الله الإيمان عن المنافقين. **(وعمل)**: بالأركان. وهذا هو اللفظ الوارد عن السلف.

قال البخاري في صحيحه: «الإيمان قول وعمل»، قال الحافظ في فتح الباري: وهذا اللفظ الوارد عن السلف الذين أطلقوا ذلك. قال: والمراد بالقول: النطق بالشهادتين. وأما العمل فالمراد به: ما هو أعم من عمل القلب والجوارح ليدخل الاعتقاد والعبادات.

(تزيده)، أي: الإيمان. **(التقوى)**: وهي التحرز بطاعة الله عن مخالفته، وامتثال أمره، واجتناب نهيه. وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب الحرمات، كما قال الشاعر:

خل الذنوب صغيرها ... وكبيرها فهو التُقى

واصنع كماش فوق أر ... ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

(وينقص) الإيمان بارتكاب**(ـه الزلل)** وتعاطيه، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾.

وَنَحْـنُ فـي إيمـانِنَـا نَسْتَثْنِـي مِن غيرِ شَكٍّ فاستَمِع واستبْنِ

شرح ابن شطي

(ونحن) معشر الأثرية ومن وافقنا من الأشعرية وغيرهم (في إيماننا) الذي تقدم تعريفه (نستثني) فيقول أحدنا أنا مؤمن إن شاء الله تعالى (من غير شك) في ذلك، والشك التردد بين طرفين لا مزية لأحدهما على الآخر. والمراد هنا ما يعم الظن وكل ما ليس بجزم موافقة للسلف الصالح في ذلك.

(فاستمع)، أي: اطلب سماع ذلك منا واستقباله (واستبن)، أي: اطلب بيانه وإظهاره بأدلته النقلية والعقلية تظهر لك فيه عين الحقيقة.

واعلـم أن الناس في ذلك على ثلاثة أقوال: منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم يجوز الأمرين باعتبارين، وهذا الأخير أصح الأقوال.

فالذين يحرمونه هم المرجئة والجهمية ومن وافقهم ممن يجعل الإيمان شيئاً واحداً يعلمه الإنسان من نفسه كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه، فيقول أحدهم: أنا أعلم أني مؤمن كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين، فقولي أنا مؤمن كقولي أنا مسلم ونحو ذلك من الأمور الحاضرة التي أنا أعلمها وأقطع بها، وكما أنه لا يجوز أن يقال أنا قرأت الفاتحة إن شاء الله تعالى، كذلك لا يقول أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، قالوا فمن استثنى في إيمانه فهو شاك وسموهم الشاكة.

والذين أوجبوا الاستثناء لهم مأخذان. أحدهما: أن الإيمان هو ما مات عليه الإنسان، والإنسان إنما يكون عند الله مؤمناً وكافراً باعتبار

الموافاة وما سبق في علم الله تعالى أنه يكون عليه، وما قبل ذلك لا عبرة به.

قالوا: والإيمان الذي يتعقبه الكفر فيموت صاحبه كافراً ليس بإيمان؛ كالصلاة التي يفسدها صاحبها قبل الكمال فصاحب هذا هو عند الله كافر بعلمه بما يموت عليه وكذلك قالوا في الكفر، وهذا المأخذ لكثير من المتأخرين من الكلابية وغيرهم، وبهذا قال كثير من المتكلمين ومن أتباع المذاهب من الحنابلة والشافعية والمالكية وغيرهم.

قالوا: يجب في أزله من كان كافراً إذا علم أنه يموت مؤمناً ما زالوا محبوبين لله وإن كان قد عبدوا الأصنام مدة من الدهر، وإبليس ما زال يبغضه وإن كان لم يكفر بعد يعني ما زال الله يريد أن يثيب هؤلاء بعد إيمانهم ويعاقب إبليس بعد كفره وهذا معنى صحيح، فإن الله تعالى يريد أن يخلق كل ما علم أن سيخلقه، وعند هؤلاء لا يرضى عن أحد بعد أن كان ساخطاً عليه، فمن علم أنه يموت كافراً لم يزل مريداً لعقوبته والإيمان الذي كان معه باطل لا فائدة فيه، وإذا علم أنه يموت مؤمناً مسلماً لم يزل مريداً لإثابته والكفر الذي فعله وجوده كعدمه فلم يكن هذا كافراً عندهم أصلاً، فهؤلاء يستثنون في الإيمان بناءً على المأخذ[1] وكذلك بعض محققيهم يستثنون في الكفر مثل أبي منصور الماتريدي.

نعم جماهير الأئمة لا يستثنون في الكفر، والاستثناء فيه بدعة لم يعرف عن أحد من السلف، ومن هؤلاء لازم لهم والذين فرقوا من هؤلاء

(١) أي المتقدم. (د).

قالوا يستثنى في الإيمان رغبة إلى الله في أن يثبينا عليه إلى الموت، والكفر لا يرغب فيه أحد.

قال شيخ الإسلام: وعند هؤلاء لا يعلم أحد أحداً مؤمناً إلا إذا علم أنه يموت عليه، لكن ليس هذا قول أحد من السلف والأئمة الأربعة ولا غيرهم، ولا كان أحد من السلف الذين يستثنون في الإيمان يعللون بهذا.

ومأخذ هذا القول طرد طائفة[1] ممن كانوا في الأصل يستثنون في الإيمان اتباعاً للسلف الصالح، واستثنوا أيضاً في الأعمال الصالحة كقول الرجل صليت إن شاء الله تعالى ونحو ذلك، يعني القبول لما في ذلك من الآثار عن السلف، ثم صار كثير من هؤلاء يستثنون في كل شيء، فيقول هذا ثوبي إن شاء الله تعالى، فإذا قيل لأحدهم هذا لا شك فيه قال نعم لكن إذا شاء الله تعالى أن يغيره غيره، فيريدون بقولهم إن شاء الله تعالى جواز تغييره في المستقبل وإن كان في الحال لا شك فيه، كأن الحقيقة عندهم التي لا يستثنى فيها ما لم تبدل، كما يقوله أولئك في الإيمان، أن الإيمان ما علم الله أنه لا يتبدل حتى يموت صاحبه عليه، وهؤلاء ظنوا أن ما هم عليه هو قول السلف وليس كذلك، مع أن هذا لم يقله أحد من السلف وإنما حكاه هؤلاء عنهم بحسب ظنهم، والذين قالوا بالموافاة جعلوا الثبات على الإيمان إلى العاقبة والوفاء به في المآل شرطاً في الإيمان شرعاً لا لغة ولا عقلاً.

ومذهب أصحاب الحديث كابن مسعود وأصحابه والإمام أحمد وغيره من أئمة السنة كانوا يستثنون في الإيمان وهذا متواتر عنهم، لكن

---

(١) أي: جعلهم له مطرداً. (د).

ليس في هؤلاء من قال إنما أستثني لأجل الموافاة وأن الإيمان اسم لما يوافي به، بل بأنّ الاستثناء إنما هو لأن الإيمان يتضمن فعل جميع الواجبات فلا يشهدون لأنفسهم بذلك كما لا يشهدون لها بالبر والتقوى، فإن ذلك مما لا يعلمونه وهو تزكية لأنفسهم بلا علم.

فمأخذ سلف الأمة في الاستثناء أن الإيمان المطلق فعل جميع المأمورات وترك جميع المحظورات، فإذا قال الرجل أنا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به وترك كل ما نهوا عنه فيكون من أولياء الله تعالى، وهذا تزكية الإنسان لنفسه وشهادته لها بما لا يعلم، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لساغ أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذا الحال ولا أحد يسوغ له ذلك، فهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون وإن جوزوا ترك الاستثناء.

قال الخلال في كتاب السنة: حدثنا سليمان بن الأشعث، يعني الحافظ أبا داود صاحب السنن قال: سمعت أبا عبد الله، يعني الإمام أحمد قال له رجل: قيل لي أمؤمن أنت؟ قلت: نعم، هل عليّ في ذلك شيء هل الناس إلا مؤمن أو كافر؟ فغضب الإمام وقال: هذا كلام الإرجاء قال الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾. من هؤلاء، ثم قال: أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قال له الرجل: بلى، قال: فجئنا بالقول، قال: نعم، قال: فجئنا بالعمل، قال: لا، قال: فكيف تعيب أن يقول إن شاء الله ويستثني.

ومثل هذا كثير في كلام الإمام أحمد وفي كلام أمثاله من أئمة

السلف، وهذا مطابق لما تقدم من أن المؤمن المطلق هو القائم بالواجبات المستحقة للجنة إذا مات على ذلك، وأن المفرط بترك المأمور أو فعل المحظور لا يطلق عليه أنه مؤمن مطلق، وأن المؤمن المطلق هو البر التقي ولي الله تعالى، فإذا قال: أنا مؤمن قطعاً كان كقوله أنا برٌّ تقي ولي الله تعالى قطعاً.

فعلم أن الإمام أحمد وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون في وجود ما في القلوب من الإيمان في هذا الحال ويجعلون الاستثناء عائداً إلى الإيمان المطلق المتضمن فعل المأمور ويحتجون أيضاً بجواز الاستثناء فيما يعلم وجوده مما قد جاءت به السنة لما فيه من الحكمة، قال تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وقال ﷺ لأصحابه: «إني لأرجو أن أكون أتقاكم لله»، وقال في الميت «وعليه يبعث إن شاء الله»، فإذا قال إن شاء الله لم يشك في طلبه وإرادته بل لتحقيق الله ذلك له، إذ الأمور لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى فإذا تألى العبد على الله تعالى من غير تعليق بمشيئته لم يحصل مراده، فإنه من يتألى على الله يكذبه ولهذا يروى: لا أتممت لمقدر أمراً.

وفي شرح مختصر التحرير: يجوز الاستثناء في الإيمان بأن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، نص على ذلك الإمام أحمد، والإمام الشافعي، وقال ابن عقيل: يستحب ولا يقطع لنفسه، ومنع ذلك الإمام أبو حنيفة وأصحابه والأكثرون.

تنبيه: هل الإسلام مثل الإيمان تدخله الزيادة والنقصان ويدخله الاستثناء أم لا؟ فيه خلاف مشهور.

قال في شرح مختصر التحرير: وأما الإسلام فلا يجوز الاستثناء فيه بأن يقول: أنا مسلم إن شاء الله، بل يجزم به. قال ابن حمدان في نهاية المبتدئين، وقيل: يجوز إن شرطنا فيه العمل. انتهى.

واعلم أن الناس في الإسلام والإيمان على ثلاثة أقوال:

فالمرجئة يقولون: الإسلام أفضل من الإيمان، قالوا لأنه يدخل فيه الإيمان.

وآخرون يقولون: الإيمان والإسلام سواء، وهم المعتزلة والخوارج وطائفة من أهل الحديث والسنة، بل حكاه محمد بن نصر عن جمهورهم.

والقول الثالث: أن الإيمان أكمل وأفضل، وهذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة في غير موضع، وهو المأثور عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان كما في شرح الإيمان والإسلام لشيخ الإسلام، وقال: الصحيح أن الإسلام هو الأعمال الظاهرة كلها، والإمام أحمد إنما منع الاستثناء فيه على قول الزهري هو الكلمة، وأما جوابه الآخر الذي لم يختر فيه قول من قال الإسلام الكلمة فيستثنى في الإسلام كما يستثنى في الإيمان، فإن الإنسان لا يجزم بأنه قد فعل كل ما أمر به من الإسلام.

وتعليل الإمام أحمد وغيره من السلف في اسم الإيمان يجيء في اسم الإسلام، فإذا أريد بالإسلام الكلمة فلا استثناء فيه كما نص عليه الإمام أحمد وغيره، وإذا أريد به فعل الواجبات الظاهرة فالاستثناء فيه كالاستثناء في الإيمان.

ولما كان كل من أتى بالشهادتين صار مسلماً متميزاً عن اليهود والنصارى تجري عليه أحكام الإسلام التي تجري على المسلمين كان هذا مما يجزم به بلا استثناء فيه.

قلت: والزيادة والنقصان يترتبان على ذلك.

شرح ابن مانع

قوله: **(ونحن)**، أي: أهل السنة أتباع الأثر **(في إيماننا)** الذي سبق تعريفه **(نستثني)** فيقول أحدنا: أنا مؤمن إن شاء الله **(من غير شك)** منا في ذلك، والشك: التردد بين طرفين لا مزية لأحدهما على الآخر.

(فاستمع)، أي: اطلب سماع أدلة ذلك. **(واستبن)** ــ سكون الباء لإقامة الوزن ــ ، أي: اطلب بيانه بالأدلة النقلية والعقلية المفصلة في ذلك.

وأحسن كتاب في ذلك وأجمعه ــ فيما علمت ــ كتاب **الإيمان** للإمام شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله سره ــ قال رحمه الله فيه: وأما الاستثناء في الإيمان بقول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، فالناس فيه على ثلاثة أقوال: منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجوّز الأمرين باعتبارين. وهذا أصح الأقوال، فالذين يحرمونه هم: المرجئة والجهمية ونحوهم، ممن يجعل الإيمان شيئاً واحداً يعلمه الإنسان من نفسه، ثم أطال الكلام بما يملأ القلب نوراً وإيماناً.

* * *

نُتابِعُ الأخيارَ من أهْلِ الأثرِ　　وَنَقْتَفِي الآثارَ لا أهلَ الأشرِ
وَلا تَقُلْ إيمَانُنَا مَخلُوقُ　　وَلا قَدِيمُ هَكَذا مَطلُوقُ
فإنَّهُ يَشْمَلُ للصَّلاةِ　　وَنَحْوَهَا مِن سائرِ الطَّاعاتِ
ففِعْلُنا نَحوَ الرُكُوعِ مُحْدَثُ　　وَكُلُّ قُرآنٍ قديمُ فَابْحَثُوا

شرح ابن شطي

وقد علمت ما عليه السلف وأئمة الدين ولهذا قال:

(**نتابع**) في اعتقادنا الجازم (**الأخيار من**) الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة (**أهل الأثر**) على نهج سيد ولد عدنان على مقتضى محكم القرآن.

(**ونقتفي**)، أي: نتبع (**الآثار**) المأثورة عن الكتاب المنزل والنبي المرسل والصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الدين بالنقل الصحيح والمعنى الصريح، (**لا**) نتابع ونقتدي في سيرنا (**أهل الأشر**) بفتح الهمزة وسكون المعجمة، الفرح والمرح من كل متحذلق ومتعمق من فروخ الجهمية وشيوخ المرجئة وأتباع الكرامية فهم في طرف ونحن في طرف.

ولما انتهى الكلام على الإيمان وما يتعلق به ختم الكلام عليه بذكر مسألة عظيمة فقال: (**ولا تقل**) أيها الأثري (**إيماننا**) الذي هو قول باللسان وعقد بالجنان وعمل بالأركان (**مخلوق**) لدخول الأعمال فيه التي من جملتها الصلاة المشتملة على فاتحة الكتاب القديم، ولدخول الأقوال التي من جملتها لا إله إلاَّ الله، كلمة الإخلاص التي هي من كلام الله تعالى؛ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

(ولا) تقل أيضاً إيماناً (قديم هكذا مطلوق) عن القيود لدخول أفعالنا فيه من الركوع والسجود وأعمال القلوب ونحو ذلك.

(فإنه)، أي: الإيمان (يشمل للصلاة ونحوها)، أي: نحو الصلاة (من سائر) أي: بقية (الطاعات) التي يتقرب العبد بها إلى ربه وسائر العبادات التي يأتي بها لغفران ذنبه.

والطاعات جمع طاعة، من طاع يطوع إذا انقاد، وهي في اصطلاح الفقهاء عبادة غير واجبة، والمراد هنا كل عبادة، والعبادة ما أمر به شرعاً من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي وحينئذٍ يجب التفصيل وهو ما أشير إليه بقوله:

(ففعلنا) معشر الخلق (نحو الركوع) والسجود وسائر أفعال الخلق (محدث) لأنه مسند إليه ومنسوب ومضاف إلى فعله، والله تعالى خالق لأفعال العباد، وللعبد فعل ينسب إليه كما تقدم.

(وكل) ما كان من (قرآن) فهو (قديم) غير مخلوق لأن كلام الله قديم (فابحثوا) أتى به لتتمة البيت، والبحث: التفتيش والتقصي عن دقائق المعاني، فكل من أدخل الأعمال في الإيمان فلا يسوغ له إطلاق اسم الحدث ولا القدم على الإيمان بل لا بد من هذا التفصيل.

وأما من لم يدخل الأعمال فيه كالأشاعرة، فيقولون الإيمان مخلوق، وهذا لا يتمشى على أصولنا.

قال سيدنا الإمام أحمد: من قال الإيمان مخلوق فقد كفر، ومن قال غير مخلوق ابتدع. فقيل بالوقف مطلقاً. وقيل أقواله قديمة وأفعاله مخلوقة.

قال ابن حمدان: وهو أصح.

قال الحافظ عبد الغني: وإنما كفر من قال بخلقه لأن الصلاة من الإيمان وهي تشتمل على قراءة، ومن قال بخلق ذلك فقد كفر، وتشتمل على قيام وقعود وحركة وسكون ومن قال بقدم ذلك ابتدع. انتهى.

تتمة: ألحق علماؤنا في هذا الباب ذكر الملكين الموكلين بالعبد يكتبان أفعاله، وكأنهم نظروا لمناسبة ذلك للأحكام وكونه مما يجب الإيمان به وإلا فكان الأنسب ذكر ذلك في الباب الآتي في السمعيات لأنه منها فلهذا قال:

شرح ابن مانع

قوله: (**نتابع**)، أي: في اعتقادنا الجازم. (**الأخيار: من**) الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة [(**أهل**)[1]] (**الأثر**) على نهج رسول الله ﷺ. (**ونقتفي**)، أي: نتبع (**الآثار**) المأثورة عن الله، وعن رسوله ﷺ. (**لا**) نتابع (**أهل الأشر**)، أي: البطر من كل متحذلق من الجهمية، والمرجئة، والكرامية، وسائر المبتدعة، فبيننا وبينهم من الفرق، كما بين الحركة والسكون.

قوله: (**ولا تقل**)، أي: أيها الأثري، (**إيماننا**) الذي هو قول اللسان، وعقد الجنان، وعمل الأركان (**مخلوق**) لدخول الأعمال فيه التي من جملتها: الصلاة المشتملة على فاتحة الكتاب القديم، ولدخول الأقوال التي من جملتها: لا إله إلاَّ الله، كلمة الإخلاص التي هي من كلام الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

---

(١) ما بين المعكوفتين ليست في (هـ)، ووضعت لتكملة المتن.

(**ولا**) تقل إيماننا (**قديم**) لدخول أفعالنا فيه من الركوع، والسجود، والقيام، والقعود، بل (**هكذا مطلوق**) عن القيود، (**فإنه**)، أي: الإيمان (**يشمل للصلاة**) المشروعة (و)يشمل لـ(**ـنحوها**)، أي: نحو الصلاة (**من سائر**)، أي: بقية (**الطاعات**) جمع طاعة، والمراد بها هنا: كل عبادة. وفي اصطلاح الفقهاء: كل عبادة غير واجبة، وحينئذٍ فلا بد من التفصيل.

ويرحم الله الإمام ابن القيم حيث قال:

فعليك بالتفصيل والتمييز فالـ أطلاق والإجمال دون بيان

قد أفسدا هذا الوجود وخبطا الـ أذهان والآراء كل زمان

قوله: (**ففعلنا**)، أي: معشر الخلق (**نحو الركوع**) والسجود في الصلاة وسائر أفعال الخلق (**محدث**)؛ لأنه مسند إلى العبد ومضاف إليه، والله خالق العباد وأفعالهم، (**وكل**) ما كان من (**قرآن**) فهو (**قديم**) غير مخلوق إذ هو كلام الله، وكلامه تعالى قديم، والكلام صفة من صفات كماله، فهو سبحانه تكلم ويكلم من أطاعه، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه.

قال العلامة الشيخ عبد الرحمن في فتح المجيد: وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله تعالى، وإن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً، ولم يزل متصفاً به، فهو حادث الآحاد قديم النوع، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وسائر الطوائف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال، والأفعال الدالة على الحال والاستقبال أيضاً، وذلك في القرآن كثير.

إلى أن قال: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإذا قالوا لنا ــ يعني النفاة ــ فهذا يلزم أن تكون الحوادث قائمة به. قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة، ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل، ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأمراض والنقائص، والله تعالى منزه عن ذلك، ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة. والقول الصحيح: هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون: لم يزل الله متكلماً إذا شاء. كما قال عبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل، وغيرها من أئمة السنة. انتهى.

قال العلامة الشيخ عبد الرحمن: ومعنى قيام الحوادث به تعالى قدرته عليها وإيجاده لها بمشيئته وأمره. والله أعلم.

وقوله: (فابحثوا). تمم به البيت. والبحث: التفتيش عن دقائق المعاني.

قال الإمام أحمد رحمه الله: من قال الإيمان مخلوق كفر، ومن قال غير مخلوق ابتدع.

قال الحافظ عبد الغني: وإنما كفر من قال: بخلقه، لأن الصلاة من الإيمان، وهي تشتمل على قراءة وتسبيح، وذكر الله عز وجل، ومن قال: بخلق ذلك كفر. وتشتمل على قيام وقعود وحركة وسكون، ومن قال بقدم ذلك ابتدع.

* * *

ووكَّـلَ اللَّـهُ مِـن الكـرَامِ اثنَيـنِ حَـافِظِيـنَ لـلأنَـامِ
فَيَكْتُبـان كُـلَّ أفعـالِ الـوَرَى كَما أَتَى فِي النَّصِ مِنْ غَيْرِ امتِرا

شرح ابن شطي

(ووكل الله) سبحانه وتعالى (من) الملائكة عليهم السلام (الكرام)، وصفهم بالكرم لما جاء في الكتاب والسنة.

والحق أن الملائكة عليهم السلام ذواتٌ قائمة بأنفسها قادرة على التشكل بالقدرة الإلـٰهية كما ثبت في الأحاديث.

قال العلامة ابن حمدان: وتغير صور الملائكة والجن والشياطين إلى الله تعالى لا إليهم.

وقد حكى غير واحد من محققي العلماء الاتفاق على أن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

(اثنين) مفعول وكل (حافظين للأنام) كسحاب، الخلق. والمراد هنا من الإنس.

(فيكتبان). يعني: الملكين الحافظين (كل أفعال الورى) كفتى، الخلق (كما أتى في النص) القرآني كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾، وقال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾[١].

(من غير امترا)، أي: من غير شك، المراء الجدال.

قال علماؤنا: الرقيب والعتيد ملكان موكلان بالعبد يجب أن نؤمن بهما

---

(١) الرقيب: المراقب، والعتيد: الحاضر. قال الخطيب الشربيني في تفسيره: واللفظان بمعنى المثنى، أي: رقيبان عتيدان. (د).

ونصدق بأنهما يكتبان أفعاله ولا يفارقان العبد بحال، وقيل بل عند الخلاء.

وقال الحسن: إن الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين: عند غائطه وعند جماعه، ومفارقتهما للمكلف حينئذٍ لا يمنع من كتبهما ما يصدر منه في تلك الحال كالاعتقاد القلبي لجعل الله تعالى لهما أمارة على ذلك.

قال سيدنا الإمام أحمد: للعبد ملائكة يحفظونه من أمر الله تعالى يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾، أي: بأمر الله، فإذا جاء القدر خلوا عنه.

قال العلامة الشيخ مرعي في بهجته: وأما الملائكة الكاتبون فقيل أربعة: اثنان بالليل واثنان بالنهار، وقيل خمسة: واحد لا يفارق في ليل ولا نهار. انتهى.

والمشهور أنهما اثنان لكل واحد، قال الضحاك: مجلس الملكين نتحت الشعر على الحنك. والمشهور على عاتق الإنسان الأيمن وهو كاتب الحسنات والآخر على عاتقه الأيسر. وإن كاتب الحسنات له إمارة على كاتب السيئات فلا يمكنه من كتبها إلاَّ بعد مضي ست ساعات من غير توبة المكلف، أو استغفار، أو فعل مكفر لها مع مبادرته يكتب الحسنات فوراً.

فائدتان:

الأولى: اختلف فيما يكتبه الملكان، وظاهر النص إنهما يكتبان أفعال العباد من خير أو شر أو غيرهما قولاً كانت أو عملاً أو اعتقاداً، وهماً كانت أو عزماً أو تقريراً، فلا يهملان من أفعال العباد شيئاً في كل حال وعلى كل حال.

قال الإمام مالك: يكتبان على العبد كل شيء حتى أنينه في مرضه. ويدخل في العبد الكافر لأنه تضبط عليه أعماله وأنفاسه.

قال الإمام النووي: الصواب الذي عليه المحققون بل نقل فيه بعضهم الإجماع أن الكافر إذا فعل أفعالاً جميلة كالصدقة وصلة الرحم ثم أسلم ومات على الإسلام أن ثواب ذلك يكتب له، ودعوى كونه مخالفاً للقواعد غير مسلم. انتهى.

قال بعضهم: وضابط ذلك الطاعات التي لا تتوقف صحتها على نية، وقد سلم ذلك له ابن حجر وابن المنير وابن بطال وغيرهم.

وممن نص على أن للكافر حفظة بعض المالكية، قال بعضهم: وهو الذي لا يصح غيره وهو الجاري على القول بتكليفهم بفروع الشريعة وهو معتمد الثلاثة خلافاً لأبي حنيفة.

والصحيح من مذهبنا كالمالكية كتب حسنات الصبي فيكون عليه حفظة بخلاف المجنون لأنه لا يكتب له ولا عليه، والصحيح كتبهم للصغائر المغفورة وإن غفرت باجتناب الكبائر.

قال: الحسن في العبد يذنب ثم يتوب ويستغفر يغفر له ولكن لا يمحاه من كتابه دون أن يُقِفَه عليه ثم يسأله عنه ثم بكى الحسن بكاء شديداً، وقال: لو لم نبك إلا للحياء من ذلك المقام لكان ينبغي أن نبكي.

الثانية: جاء في الأحاديث أن الحافظين يقيمان على قبر المؤمن يسبحان الله تعالى ويهللانه ويكبرانه ويكتب ثوابه للميت إلى يوم القيامة وأنهما يلعنان الكافر.

شرح ابن مانع

قوله: (**ووكل الله**) سبحانه وتعالى، أي: ومما يجب الإيمان به أن الله تعالى وكّل (من) الملائكة (**الكرام**) ــ وصفهم بالكرم لما جاء بالكتاب والسنة من وصفهم بذلك ــ وهم ذواتٌ قائمة بأنفسها، قادرة على التشكل

بالقدرة الإلٰهية، كما ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة.

وقد حكى غير واحد من المحققين: الاتفاق على أن الملائكة لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينكحون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

(اثنين): مفعول، وكل **(حافظين للأنام)**، كسحاب الخلق من جميع ما على وجه الأرض، والمراد هنا من الإنس.

(فيكتبان). يعني: الملكين الحافظين. **(كل أفعال الورى)**: كفتى الخلق، **(كما أتى في النص)** القرآني. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١﴾، وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾.

(من غير امترا)، أي: شك.

قال المحققون: ــ منهم ابن حمدان ــ في نهاية المبتدئين: الرقيب، والعتيد: مَلَكان موكلان بالعبد، يجب أن نؤمن بهما ونصدق بأنهما يكتبان أفعاله، ولا يفارقان العبد بحال. وقيل: بل عند الخلاء.

وقال الحسن: إن الملائكة يجتنبون الإنسان على حالين: عند غائطه، وعند جماعه. ومفارقتهما للمكلف حينئذٍ لا يمنع من كتبهما ما يصدر منه في تلك الحال، كالاعتقاد القلبي يجعل الله لهما أمارة على ذلك. والصحيح من مذهبنا كالمالكية، كتب حسنات الصبي.

قال علماؤنا: يكتب له ولا يكتب عليه. واختلف العلماء، هل للكافر حفظة أو لا؟ الأكثر: نعم.

قال بعض المالكية: ولا يصح غيره، وصوبه النووي، وللعلماء فيه كلام طويل لا يليق ذكره بهذا المختصر.

* * *

الباب الرابع
ذكر البرزخ والقبور والبعث والنشور(١)

وكُـلُّ مـا صـحَّ مِـن الأخبـارِ أو جَاءَ في التّنزيلِ والآثَارِ
مِـنْ فِتنَـة البَـرزخِ وَالقُبُـورِ وَمَـا أتَـى فِـي ذَا الأمُـورِ

شرح ابن شطي

الباب الرابع

في ذكر بعض السمعيات

من ذكر البرزخ والقبور وأشراط الساعة والحشر والنشر

اعلم أن المراد بالسمعيات ما كان طريق العلم به السمع الوارد في الكتاب والسنة والآثار مما ليس للعقل فيه مجال، ويقابله ما يثبت بالعقل وإن وافقه النقل. فما كان طريق وصول العلم به العقل يسمى العقليات والنظريات، ولهذا يقال لعلماء هذا الشأن النظار، وقد أشار إلى ذكر المقصود من ذلك بقوله:

(وكل ما)، أي: حكم من الأحكام، أو خبر عن خير الأنام ﷺ، ولهذا قال: (صح)، أي: ثبت (من الأخبار) النبوية وقدمه لمزيد الاهتمام

(١) كذا في (أ)، وما في الشرحين المعنى متقارب.

به ولئلا يظن ظان أن ما لم يثبت في التنزيل، ليس عليه مزيد تعويل، (**أو جاء في التنزيل**)، أي: القرآن المنزل (**و**) كل ما صح في (**الآثار**) عن الصحابة الكرام، مما ليس للعقل فيه مرام، فإنه يشعر بأنهم إنما تلقوه عن النبي عليه الصلاة والسلام.

(**من فتنة**) الفتنة الامتحان والاختبار (**البرزخ**) الحاجز بين الشيئين من وقت الموت إلى القيامة من مات دخله. ووجه تسمية ما هنا برزخاً لكونه يحجز ما بين الدنيا والآخرة.

(**و**) فتنة (**القبور**) جمع قبر من عطف الخاص على العام لأن أحوال البرزخ تشتمل على ذلك فالقبور يقال لمدفن الموتى (**وما**)، أي: وفي الذي أو الأشياء الذي (**أتى**) عن الصادق المصدوق (**في ذا**) اسم إشارة يرجع إلى ما تقدم من فتنة البرزخ والقبور (**من الأمور**) المهولة العجيبة، والأشياء الصعبة الغريبة، فإنه حق لا يرد.

منها: سؤال الملكين، فالإيمان بذلك واجب شرعاً لثبوته عن النبي ﷺ في عدة أخبار يبلغ مجموعها عدد التواتر، وقد استنبط ذلك واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾.

وأخرج الشيخان من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾، نزلت في عذاب القبر، زاد مسلم: «يقال له من ربك؟ فيقول الله ربي ونبيي محمد فذلك قوله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت»، وعند أبي داود: «يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربي الله، فيقولان

له ما دينك فيقول ديني الإسلام، فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول هو رسول ﷺ، فيقولان له وما يدريك، فيقول قرأت كتاب الله تعالى فآمنت به وصدقت، فينادي منادٍ من السَّماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة وألبسوه من الجنة، ويفسح له فيه مد بصره. وقال في الكافر: فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدري، إلى أن قال فينادي منادٍ من السماء أن كذب عبدي فافرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، قال فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه حتى تختلف فيه أضلاعه».

تنبيهات:

الأول: جاء في روايةٍ سؤال ملكين وفي أخرى سؤال ملك واحد، قال القرطبي: لا تعارض بل ذلك بالنسبة إلى الأشخاص، فرب شخص يأتيه اثنان معاً فيسألانه معاً عند انصراف الناس عنه ليكون أهول في حقه وأشد بحسب ما اقترف من الآثام، وآخر يأتيانه قبل انصراف الناس عنه تخفيفاً عليه لحصول أنسه بهم، وآخر يأتيه ملك واحد فيكون أخف عليه وأقل في المراجعة لما قدمه من العمل الصالح، ويحتمل أن يأتي اثنان ويكون السائل أحدهما، وإن اشتركا في الإتيان فتحمل رواية الواحد على هذا وصوّبه السيوطي في شرح الصدور، فإن ذكر الملكين هو الموجود في غالب الأحاديث.

وقد ذكر بعض العلماء أن الملائكة الذين ينزلون على الميت في قبره أربعة: منكر، ونكير، وناكور، ورومان.

الثاني: الملكان اسمهما منكر ونكير، نص على ذلك الإمام أحمد.

قال الحكيم الترمذي: وإنما سميا فتَّانَيْ القبر لأن في سؤالهما انتهاراً وفي خلقهما صعوبة. وسميا منكراً ونكيراً لأن خلقهما لا يشبه خلق الآدميين ولا الملائكة ولا البهائم ولا الهوام بل هما خلق بديع وليس في خلقهما أنس للناظرين إليهما جعلهما الله تعالى تكرمة للمؤمن لتثبته وتبصره وهتكاً لستر المنافق في البرزخ من قبل أن يبعث.

قال السيوطي: وهذا يدل على أن الاسم منكر بفتح الكاف وهو المجزوم به في القاموس، وذكر ابن يونس من الشافعية أن اسم ملكي المؤمن مبشّر وبشير، قلت وهذا يحتاج إلى دليل مأثور وأنّى به، فإن الأحاديث ليس فيها سوى منكر ونكير.

الثالث: قال القرطبي: اختلفت الأحاديث في كيفية السؤال، والجواب عن ذلك أنه يختلف باختلاف الأشخاص. فمنهم من يُسئل عن بعض اعتقاداته، ومنهم من يُسئل عن كلها، ويحتمل أن يكون الاقتصار على بعضها من بعض الرواة، وأتى به غيره تاماً، وصوبه السيوطي لاتفاق أكثر الأحاديث عليه.

نعم يؤخذ منها خصوصاً من رواية أبي داود المارة، فما يُسئل عن شيء بعدها، أنه لا يُسئل عن شيء من التكليفات غير الاعتقاد خاصة، وصرح به في رواية البيهقي. وقد ذكر السيوطي أنه ورد في رواية عن أنس رضي الله تعالى عنه أن الميت يُسئل في المجلس الواحد ثلاث مرات، وباقي الروايات ساكتة عن ذلك فتحمل على ذلك أو يختلف الحال بالنسبة إلى الأشخاص.

وعن طاوس أن الموتى يسألون سبعة أيام، قلت: وعن مجاهد أن الموتى يفتنون في قبورهم سبعاً وأنهم كانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك

الأيام، رواه الإمام أحمد في الزهد وكذا أبو نعيم في الحلية بإسناد صحيح إلاَّ أنه مرسل، وروي من وجه متصل وحكمه الرفع لأنه ليس للرأي فيه مجال.

الرابع: من لم يدفن من مصلوب ونحوه يناله نصيبه من فتنة السؤال وضغطة القبر.

قال المحقق في كتابه الروح: مما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قُبر أم لم يُقبر، فلو أكلته السباع أو حرق حتى صار رماداً أو نسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل من المقبور.

الخامس: قال ابن عبد البر: لا يكون السؤال إلاَّ لمؤمن أو منافق كان منسوباً إلى دين الإسلام بظاهر الشهادة بخلاف الكافر، كذا قال وخالفه في ذلك الجمهور. قال المحقق في الروح: القرآن والسنة تدل على خلاف هذا القول بل السؤال للكافر والمسلم، فإن في الأحاديث الكافر والفاجر واسم الفاجر في عرف القرآن والسنة يتناول الكافر قطعاً، ونحو هذا في كتاب العاقبة للحافظ عبد الحق الإشبيلي وصوبه القرطبي، وانتصر السيوطي لابن عبد البر وفيما قاله نظر، ومثل هذا ما اختاره المحقق والحافظ الإشبيلي وغيرهما من أن سؤال القبر ليس بخاص بهذه الأمة بل غيرها تساويها في ذلك، وجزم به القرطبي في التذكرة.

وقال الحكيم الترمذي: إنه خاص بهذه الأمة وتوقف ابن عبد البر وانتصر السيوطي للترمذي.

قال المحقق في الروح بعد ذكره للأقوال الثلاثة: والظاهر والله أعلم أن كل نبي مع أمته كذلك، يسئل عنه كنبينا ﷺ مع أمته، وإنهم يعذبون في قبورهم بعد السؤال وإقامة الحجة عليهم كما يعذبون في الآخرة بعد السؤال وإقامة الحجة.

السادس: ذكر الحافظ السيوطي أنه وقع في فتاوى شيخه البلقيني أن الميت يجيب السؤال باللغة السريانية، قال: ولم أقف لذلك على مستند، انتهى.

قال في التذكرة: إن قيل كيف يخاطب الملكان جميع الموتى في الأماكن المتباعدة في الوقت الواحد؟ فالجواب: أن عظم خلقهما يقتضي ذلك فيخاطبان الخلق الكثير في الجملة الواحدة في المرة الواحدة مخاطبة واحدة بحيث يخيل لكل واحد من المخاطبين أنه المخاطب دون من سواه ويمنعه الله تعالى من سماع جواب بقية الموتى، وقال السيوطي: ويحتمل تعدد الملائكة لذلك كما في الحفظة ونحوهم، وقاله الحليمي من الشافعية ولا يخفى ما في هذا.

تتمة: ورد في صحيح الأخبار أن بعض الناس من الموتى لا تنالهم فتنة القبر ولا يأتيهم الفتانان وذلك على ثلاثة أنحاء: مضاف إلى عمل، ومضاف إلى حال ابتلاء نزل بالميت، ومضاف إلى زمان كالشهداء[1] ومن لقي العدو فصبر حتى يقتل أو يغلب[2] والمرابطين في سبيل الله والمراد أن من مات مرابطاً لم يفتن في قبره.

---

(١) هذا مثال المضاف إلى العمل، ثم العمل إما أن يكون فعلياً كالشهداء والمرابطين وإما أن يكون قولياً كمن قرأ سورة تبارك على ما سيأتي. (د).

(٢) هذا مثال المضاف إلى حال ابتلاء. (د).

وروي أن سورة تبارك الملك من قرأها كل ليلة عصم من فتنة القبر، ومن مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقي فتنة القبر. وأما الجن فالأدلة تعمهم فيسئلون لأنهم مكلفون في الجملة كما نص عليه علماؤنا وغيرهم، وممن لا يسئل الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ومنها، أي: من الأمور التي يجب الإيمان بها وإنها حق لا ترد عذاب القبر، قال السيوطي: قد ذكر الله تعالى عذاب القبر في القرآن في عدة أماكن كما بينته في الإكليل، وقال المحقق في الروح: قول السائل ما الحكمة في أن عذاب القبر لم يذكر، يعني صريحاً في القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟

فأجاب عن ذلك أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين فأوجب على العباد الإيمان بهما والعمل بما فيهما وهما الكتاب والحكمة قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، والحكمة هي السنة باتفاق السلف وما أخبر به الرسول عن الله تعالى فهو في وجوب تصديقه والإيمان به كما أخبر به الرب على لسان رسوله، فهذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلاَّ من ليس منهم، وأن نعيم الروح وعذابه مذكور في القرآن في مواضع، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ . . .﴾ الآية. وهذا خطاب لهم عند الموت قطعاً وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذٍ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ

﴿سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾، إلى قوله: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، الآية. فذكر عذاب الدار صريحاً لا يحتمل غيره، انتهى.

قال الحافظ ابن رجب: وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ في عذاب القبر، ففي الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر قال: نعم عذاب القبر حق».

الأمر الثالث: ما ورد في ضغطة القبر وضمته لكل أحد، أخرج الإمام أحمد في المسند والحكيم الترمذي في نوادر الأصول والبيهقي في كتاب عذاب القبر عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ في جنازة فلما انتهينا إلى القبر قعد على شفتيه فجعل يردد بصره فيه ثم قال يضغط فيه المؤمن ضغطة تزول منه حمائله».

قال في النهاية: الحمائل هنا عروق الأنثيين، ويحتمل أن يراد موضع حمائل السيف، أي: عواتقه وصدره وأضلاعه والأحاديث في هذا كثيرة شهيرة.

قال أبو القاسم السعدي في كتابه الروح: لا ينجو من ضغطة القبر صالح ولا طالح، والفرق بين المسلم والكافر في ضمة القبر دوامها للكافر وحصول هذه الحالة للمؤمن في أول نزوله إلى قبره ثم يعود إلى الانفساح له فيه.

والمراد بضغطة القبر التقاء جانبيه على جسد الميت.

قال الحكيم الترمذي: سبب هذه الضغطة أنه ما من أحد إلاّ وقد ألمّ بخطيئة ما وإن كان صالحاً فجعلت هذه الضغطة جزاءً لها ثم تدركه الرحمة

قال: وأما الأنبياء فلا نعلم أن لهم في القبور ضمة ولا سؤالاً لعصمتهم، أي: لأن السؤال عن الأنبياء وما جاؤوا به فكيف يسئلون عن أنفسهم.

فـوائـد:

الأولى: ذكر الديلمي في الفردوس عن علي رضي الله عنه رفعه: أول عدل الآخرة القبور فلا يعرف شريف من وضيع. وأخرج عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أرحم ما يكون الله بالعبد إذا وضع في حفرته.

الثانية: قال بعضهم: من فعل سيئة فإن عقوبتها تدفع عنه بأحد عشرة أسباب، أن يتوب فيتاب عليه، أو يستغفر فيغفر له، أو يعمل حسنات فتمحوها، أو يبتلى في الدنيا بمصائب فيكفر عنه، أو في البرزخ بالضغطة والفتنة فيكفر عنه، أو يبتلي في عرصات القيامة بأهوال تكفر عنه، أو تدركه شفاعة نبيّه ﷺ، أو رحمة ربه تبارك وتعالى وتقدم في التوبة طرف صالح من هذا.

الثالثة: الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين: مجمل ومفصل.

أما المجمل فيعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم معاصيه، فلا يعذب الله تعالى روحاً عرفته وأحبته وامتثلت أمره واجتنبت نهيه ولا بدناً كانت فيه أبداً، فإن عذاب القبر بل وعذاب الآخرة أثر غضب الله تعالى وسخطه على عبده.

وأما المفصل فتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به في النهار، وتعذيب الزناة، فالزواني وآكل الربا والذين يأكلون الزقوم

والضريع لتركهم الزكاة والجبارون والمتكبرون والمراؤون والهمّازون واللمّازون والطاعنون على السلف والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فكل هؤلاء وأمثالهم يعذبون في قبورهم بهذه الجرم.

الرابعة: الأسباب المنجية من عذاب القبر من أنفعها أن يجلس عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه ثم يجدد له توبة نصوحاً.

تنبيهان:

الأول: أنكر الملاحدة والزنادقة عذاب القبر وسعته وضيقه وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة، وأنكروا جلوس الميت في قبره وقال إخوانهم من أهل البدع والضلال كل حديث يخالف مقتضى العقول نقطع بتخطئة ناقله وأكثروا من هذا الهذيان، وأجاب عن ذلك أئمة الحق من علماء السنة بما يقمع المفترين ويقلع عين الشاكين.

الثاني: الحق عند أهل السنة أن عذاب القبر على النفس والبدن. قال شيخ الإسلام: وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح؟ فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام. وفي المسألة أقوال شاذة ليست من أقوال أهل السنة والحديث، أحدها قول من يقول: إن النعيم والعذاب لا يكون إلاَّ على الروح وإن البدن لا ينعم ولا يعذب، وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين، ويقوله كثير من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم الذين يقرون بمعاد الأبدان لكن يقولون لا يكون ذلك في البرزخ وإنما يكون عند القيام من القبور، وهؤلاء ينكرون عذاب البدن في البرزخ فقط ويقولون إن

الأرواح هي المنعمة والمعذبة في البرزخ، فإذا كان يوم القيامة عذبت الروح والبدن معاً.

قال: وهذا قاله طوائف من المسلمين من أهل الكلام والحديث وهو اختيار ابن حزم، وهذا ليس من الأقوال الشاذة بل هو مضاف إلى قول من يقر بعذاب القبر وبالقيامة ويثبت معاد الأبدان والأرواح، ولكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال، على الروح فقط، عليها وعلى البدن بواسطتها، على البدن فقط.

فإذا جعلت الأقوال الشاذة ثلاثة فالقول الثاني الشاذ قول من يقول إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب وإنما الروح هي الحياة، وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام وينكرون أن الروح تبقى بعد فراق البدن وهو قول باطل بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأمة أن الروح تبقى بعد فراق البدن وإنها منعمة أو معذبة.

القول الثالث: من الشواذ قول من يقول إن البرزخ ليس فيه من نعيم ولا عذاب بل لا يكون ذلك حتى تقوم الساعة الكبرى كما يقول ذلك بعض المعتزلة وغيرهم ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه بناء على أن الروح لا تبقى بعد فراق البدن، وإن البدن لا ينعم ولا يعذب، انتهى.

إذا علمت هذه الأقوال وعرفت بطلانها فاعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الإنسان إذا مات يكون في نعيم أو عذاب وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً فيحصل له معها النعيم والعذاب ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم إلى رب المعاد.

الباب الرابع
في ذكر السمعيات

وهي التي طريق العلم بها الكتاب أو السنة والآثار مما ليس للعقل فيه مجال، ويقابله ما يثبت بالعقل وإن وافق النقل، فما كان طريق العلم به العقل يسمى العقليات والنظريات، ولهذا يقال لعلماء هذا الشأن، النظّار، وقد أشار إلى ذكر المقصود بقوله:

(**وكل ما**)، أي: حكم (**صح**) عن رسول الله ﷺ من الأحكام، أو خبر (**من الأخبار**) النبوية. (**أو جاء في التنزيل**)، أي: القرآن (**و**)ما صح في (**الآثار**) السلفية عن الصحابة مما ليس للعقل فيه مجال، فإنه يشعر بأنهم إنما تلقوه عن رسول الله ﷺ. (**من فتنة البرزخ**): الفتنة الامتحان (و) الاختبار، وفي حديث (الـ)ـكسوف: «إنكم تفتنون في قبوركم» يريد مسألة منكر ونكير.

وقال عليه الصلاة والسلام: «عني تفتنون، وعني تسألون»، أي: تمتحنون بي في (**قبور**)كم، ويتعرف إيمانكم بنبوّتي.

والبرزخ: قال في القاموس: البرزخ الحاجز بين الشيئين من وقت الموت إلى القيامة، من مات دخله. وسمي برزخاً: لكونه حاجزاً بين الدنيا والآخرة. (**وما أتى**)، أي: والهول الذي أتى عن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه. (**في ذا**): اسم الإشارة راجع إلى ما تقدم من فتنة البرزخ والقبور. (**من الأمور**) العجيبة والأشياء الغريبة التي منها: سؤال الملكين، فالإيمان بذلك واجب لثبوته عن النبي ﷺ في عدة أخبار

يبلغ مجموعها التواتر. وقد أخرج الشيخان من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾، نزلت في عذاب القبر، زاد مسلم يقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله ونبيّي محمد. فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾.

وفي رواية للبخاري: «إذا أقعد المؤمن في قبره أتي ثم شهد أن لا إلـه إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله»، فذلك قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ... ﴾ الآية.

* * *

وأنّ أرواحَ الـوَرَى لَـمْ تَعـدَم مَع كَونِهَا مَخْلُوقَةً فَاسْتَفهِم

شرح ابن شطي

فصل

في ذكر الروح والكلام عليها

وقد أشار إلى قطرة من بحر لجي من متعلقاتها فقال:

(و) ممـا ينبغـي العلـم بـه (أن أرواح) بنـي آدم ــ جمـع روح ــ قـد اختلف في حقيقتها وهل هي النفس أو غيرها؟ وهل هي جزء من البدن أو عرض من أعراضه؟ أو جسم مُساكن له مودع فيه أو جوهر مجرد؟

قد تكلم الناس في هذه المسائل من سائر الطوائف واضطربت فيها أقوالهم وكثر فيها خطأهم، ومن الناس من أمسك عن الكلام والخوض فيها لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ الآية.

وهدى الله تعالى أتباع الرسول وسلف الأمة وأهل السنة ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

قال الإمام ابن القيم بعد ما ساق أقوال الناس في حقيقة الروح على اختلاف مذاهبهم وتباين آرائهم وذكر عدة مذاهب وزيفها ثم قال: والصحيح أن الروح جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد، والدهنَ في الزيتون، والنار في الفحم، فما دامت هذه الأعضاء الصالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي هذا الجسم اللطيف متشابكاً بهذه الأعضاء وأفادت هذه الآثار من الحس والحركة والإرادة، وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء

الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح.

وهذا القول هو الصواب في المسألة وهو الذي لا يصح غيره وكل الأقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة، وذكر له مائة دليل وخمسة عشر دليلاً وأجاد وأفاد وزيف كلام ابن سينا وابن حزم وأمثالهما ونحوهما.

فائدة:

ذكر بعض المتكلمين أن محل الروح القلب واستدل له، وأما اختلاف الناس في الروح هل هي النفس أو غيرها فمن الناس من قال: هما اسمان لمسمى واحد وهذا قول الجمهور، وقيل بل هما متغايران.

قال المحقق في الروح: النفس تطلق على أمور أحدها، الروح. قال الجوهري: النفس الروح، يقال خرجت نفسه. والنفس الدم، يقال سالت نفسه. والنفس الجسد. والنفس العين يقال: أصابت فلاناً نفسٌ، أي: عين. قال ابن القيم: ليس كما قال، فالنفس ها هنا الروح، وتطلق النفس على الذات كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾. وتطلق النفس على الروح وحدها كقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾.

وأما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس، وتطلق الروح على القرآن كقوله تعالى: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، وعلى الوحي كقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾.

وإنما سمي ذلك روحاً لما يحصل به من الحياة النافعة، فإن الحياة

بدونه لا تنفع صاحبها البتة، وسميت الروح روحاً لأن بها حياة البدن وكذلك سميت الريح لما يحصل بها من الحياة ومنها الرَوح والروحان والاستراحة، فسميت النفس روحاً لحصول الحياة بها، وسميت نفساً إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها وإما من تنفس الشيء إذا خرج، فكثر خروجها ودخولها في البدن سميت نفساً، ومنه النَّفَس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجاً كلياً، فإذا دفن عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا بالذات، وإنما سمي الدم نفساً لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، وإن الحياة لا تتم إلاَّ به كما لا تتم إلاَّ بالنفس.

وقالت فرقة من أهل الحديث والفقه والتصوف: الروح غير النفس. قال مقاتل بن سليمان: للإنسان حياة وروح ونفس فإذا نام خرجت نفسه التي يعقل بها الأشياء ولم تفارق الجسد بل تخرج كحبل ممتد له شعاع فيرى الرؤيا بالنفس التي خرجت منه وتبقى الحياة والروح في الجسد فبه يتقلب ويتنفس فإذا حرك رجعت إليه أسرع من طرفة عين، فإذا أراد الله تعالى أن يميته في المنام أمسك تلك النفس التي خرجت.

وقال ابن منده من علمائنا: ثم اختلفوا في معرفة الروح والنفس، فالنفس طينة نارية والروح نورية روحانية.

وقالت طائفة من أهل الأثر: إن الروح غير النفس والنفس غير الروح، وقوام النفس بالروح، والنفس صورة العبد والهوى والشهوة

والبلاء معجون فيها ولا عدوّ أعدى لابن آدم منها، فالنفس لا تريد إلاَّ الدنيا والروح تدعو إلى الآخرة وتؤثرها، وجعل الهوى، تبعاً للنفس والشيطان مع النفس والهوى وجعل الملك مع الروح والعقل والله سبحانه وتعالى يمدها بإلهامه وتوفيقه.

وقال بعضهم: الأرواح من أمر الله أخفى حقيقتها وعلمها عن الخلق، وذكر هذا ابن القيم في كتابه الروح ثم قال: قلت الروح التي تتوفى وتقبض روح واحدة وهي النفس.

وقوله: **(الورى)** محله الجر بالإضافة إلى الأرواح، أي: أرواح الورى والمراد بنو آدم ومثلهم الجن فيما يظهر لأن التكليف والمعاد والحساب شملهم **(لم تعدم)** بموت الأبدان التي كانت فيها ولا تموت ولا تفنى، وزعمت طائفة أنها تموت وتذوق الموت لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت.

قالوا: ودلت الأدلة على أنه لا يبقى إلاَّ الله وحده كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾. وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى والدليل على عدمها عدم قدمها، ولهذا قال: الصواب عدم عدمها **(مع كونها)**، أي: الأرواح **(مخلوقة)** لله تعالى ومحدثة أوجدها بعد أن لم تكن.

(فاستفهم)، أي: اطلب علم ذلك من مظانه. يقال: فهم كفرح علم الشيء وعرفه بالقلب، فالفهم قوة من شأنها أن تُعد النفس لاكتساب الآراء، والذكاء جودة صورت تلك القوة، والذهن قيل يرادف الفهم وقدّمه في القاموس، وقال غيره: الذهن هو نفس القوة والفهم استعمالها، وإنما

حث على طلب الفهم في ذلك لاختلاف مقالات الناس في هذا المقام ولأنه مزلة أقدام.

وحاصل ذلك أنه ذكر مسألتين عظيمتين: الأولى أن الروح مخلوقة محدثة، والثانية العدم لا يدركها.

ولنذكر أدلة كل من المسألتين فنقول: اعلم رحمك الله أن هذه المسألة زل فيها عالم وضل فيها طوائف وهدى الله تعالى أتباع رسله فيها للحق المبين، فأجمعت الرسل صلوات الله تعالى عليهم على أن روح الإنسان محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة وهذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل صلوات الله وسلامه عليهم كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث وأن معاد الأبدان واقع وأن الله تعالى هو الخالق وحده وكل ما سواه مخلوق له.

وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة حتى نبعت نابعة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة وتوقف آخرون فقالوا لا نقول مخلوقة ولا غير مخلوقة وقد تكلم في هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة.

المسألة الثانية مما ذكر في أصل العقيدة بقاء الأرواح وأنه لا يلحقها عدم ولا فناء ولا اضمحلال لأنها خلقت للبقاء وإنما تموت الأبدان، وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد مفارقتها لأبدانها إلى أن يرجعها الله تعالى إليها، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا

بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت.

قال المحقق: الصواب أن موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدماً محضاً فإنها لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو عذاب.

فإن قيل: فبعد النفخ في الصور هل تبقى الأرواح حية كما هي أو تموت ثم تحيا؟

فالجواب: قد قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾. فقد استثناء الله سبحانه بعض من في السموات ومن في الأرض من هذا الصعق فقيل هم الشهداء وقيل هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وقيل هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم[١] ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها. وقد أخبرنا سبحانه وتعالى أن أهل الجنة لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى، فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان.

وأما قول أهل النار ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين، فتفسير هذه الآية الآية التي في البقرة وهو قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾، فكانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب

(١) أي: من الغلمان والطيور وغير ذلك. (د).

آبائهم وأرحام أمهاتهم ثم أحياهم بعد ذلك ثم أماتهم ثم يحييهم يوم النشور، وليس في ذلك إماتة قبل يوم القيامة وإلاَّ كانت ثلاث موتات.

وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها ففي الحديث الصحيح: «إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور»[1] فهذا صعق في موقف القيامة كما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾. ولو كان هذا الصعق موتاً لكانت موتة أخرى.

تـتـمـة: في مسائل مما نحن بصدده من أمر الأرواح.

الأولى: اختلف في خلق الأرواح هل كان قبل الأجساد أو تأخر عنها؟ فللناس فيه قولان معروفان، وممن ذهب إلى تقدم خلق الأرواح على الأجساد محمد بن نصر المروزي وأبو محمد بن حزم بل حكاه إجماعاً.

واحتج من قال بذلك بحجج منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾. وثم للترتيب والمهلة فقد تضمنت الآية الكريمة أن خلقنا مقدم على أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، ومن المعلوم قطعاً أن أبداننا حادثة بعد ذلك فعلم أنها الأرواح.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾، وهذا الاستنطاق والاستشهاد إنما كان لأرواحنا إذ لم تكن الأبدان حينئذٍ موجودة.

وقال الآخرون: بل خلقت الأجساد قبل الأرواح، واحتجوا بحجج

---

(١) أي: يوم طلبه أن يرى ربه حيث قال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ (د).

منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾، وهذا خطاب للإنسان الذي هو روح وبدن، فدل أن جملته مخلوقة بعد خلق الأبوين، واختار ابن القيم تبعاً لشيخه وجموع أن خلق الأجساد مقدم على خلق الروح وزيف كلام ابن حزم وغيره بما يطول ذكره.

المسألة الثانية: أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة؟ هل في السماء أم في الأرض؟ وهل هي في الجنة والنار أم لا؟ وهل تودع في أجساد أم تكون مجردة؟ اختلفوا في ذلك، وهي إنما تتلقى من السمع فقط. فقال قوم: أرواح المؤمنين عند الله تعالى في الجنة شهداء كانوا أو غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دَيْن وتلقاهم ربهم بالقبول والرحمة لهم، وقالت طائفة: بفناء الجنة على بابها يأتيهم من رَوحها ونعيمها ورزقها، وقالت طائفة: الأرواح على أفنية قبورها، وقال الإمام مالك: بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت، وقال الإمام أحمد: أرواح الكفار في النار وأرواح المؤمنين في الجنة.

قال المحقق: قد ذكرتم أقوال الناس في مستقر الأرواح فما الراجح من هذه الأقوال حتى يعتقد؟ أجاب: بأن الأرواح متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت، فمنها أرواح في أعلى عليين وهم أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومنها أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهم أرواح الشهداء، ومنهم من يكون محبوساً على باب الجنة، ومنهم من يكون محبوساً في قبره، ومنهم من يكون محبوساً في الأرض لم تعل روحه إلى الملأ الأعلى، ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم، فليس للأرواح شقيها وسعيدها مستقر واحد.

ومن تأمل السنن والآثار في هذا الباب وكان له فضل اعتناء عرف صحة ذلك، فكل الآثار الصحيحة حق وصدق وإنها مع كونها في الجنة فهي في السماء وتتصل بفناء القبر وبالبدن فيه وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً وصعوداً وهبوطاً، وتنقسم إلى مرسلة ومحبوسة وعلوية وسفلية، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ولذة ونعيم وألم وعذاب أعظم مما كان لها حال اتصالها بالبدن بكثير.

المسألة الثالثة: هل تتلاقى أرواح الموتى وتتزاور وتتذاكر، وتتلاقى أرواح الأحياء والأموات أيضاً؟ وهذا يعلم مما مر من حيث الجملة، لأن الأرواح قسمان معذبة ومنعمة، فالمعذبة في شغل شاغل لها بما هي فيه عن التزاور والتلاقي، وأما الأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة فهذه تتزاور وتتلاقى وتتذاكر ما كان منها في الدنيا، وقد جاءت سنة صحيحة بتلاقي الأرواح وتعارفها، وفي مثل ذلك حكايات كثيرة.

شرح ابن مانع

قوله: (**وإن أرواح الورى**)، أي: مما ينبغي أن يعلم: أن أرواح الورى، أي: الخلق، والمراد به بنو آدم والجن؛ لأن التكليف يشملهم، فهو من إطلاق الكل مراد به البعض، فيكون مجازاً مرسلاً. (**لم تعدم**): بموت الأبدان التي كانت فيها.

والأرواح: جمع روح، وهي جسم ممتزج بالبدن امتزاج الماء بالعود الأخضر. (**مع كونها**)، أي: الأرواح (**مخلوقة**): لله تعالى ومحدثة.

(**فاستفهم**): أي اطلب علم ذلك من مظانه، وحاصل ذلك أنه ذكر مسألتين عظيمتين:

الأولى: أن الروح مخلوقة، وقد اتفقت الأمة وأئمتها على ذلك، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

الثانية: أنه لا يلحقها فناء ولا عدم؛ لأنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان، وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد مفارقتها لأبدانها إلى أن يرجعها الله إليها، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب، وإلى هذا الاختلاف أشار المتنبي بقوله:

تنازع الناس حتى لا اتفاق لهم   إلاَّ على شجب والخلف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء سالمة   وقيل تشرك جسم المرء في العطب

والمستثنى من الهلاك ثمانية ذكرها بعضهم في قوله:

ثمانية حكم البقاء يعمها   من الخلق والباقون في حيز العدم
هي العرش والكرسي نار وجنة   وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

وقد نص الإمام أحمد: أن العرش لا يبيد ولا يفنى؛ لأنه سقف الجنة، والله سبحانه وتعالى عليه فلا يهلك ولا يبيد.

والعجب ـ بالفتح ـ أصل الذنب ومؤخر كل شيء، كما في القاموس، ودلائل بقاء هذه الأشياء مفصلة في محالها.

أما قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾. فالمراد: كل شيء كتب الله عليه الهلاك والفناء، لا ما خلقه الله للبقاء.

* * *

فَكُلُّ ما عَنْ سيّد الخَلقِ وَرَد مِن أمرِ هذا البابِ حقٌّ لا يُرَد

شرح ابن شطي

(**فكل ما**)، أي: شيء أو الذي (**عن سيد الخلق**) نبينا ﷺ. قال في المطلع: السيد الذي يفوق في الخير قومه، وقيل التقي، وقيل الحليم، وقيل الذي لا يغلبه غضبه، وجميع ذلك في نبينا ﷺ.

(**ورد**) بالأسانيد المقبولة (**من أمر**)، أي: من أمور (**هذا الباب**) الذي مناطه السمع من الكتاب والسنة وإجماع السلف فكل ذلك (**حق**) يجب اعتقاده والإيمان به لأنه صحت به النقول ولم ترده العقول وإن عجزت عن إدراكه، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تأتي بمحارات العقول لا بمحالاتها، والفرق بينهما لا يخفى على ذي تبصر.

(**لا يرد**) من ذلك شيء لثبوته عن المعصوم، فمن تصدى لرد شيء من هذا الباب، فقد أخطأ الصواب، وضل وخاب.

شرح ابن مانع

قوله: (**فكل ما**)، أي: أي شيء (**عن سيد الخلق**) ـ أي: أجلّهم ـ وهو نبينا محمد ﷺ. (**ورد**)، أي: بالأسانيد المقبولة. (**من أمر**)، أي: أمور (**هذا الباب**) الذي مناطه السمع من الكتاب والسنة وإجماع السلف، فكل ذلك (**حق**) يجب اعتقاده والإيمان به لصحة النقول به، فـ(**لا يرد**) شيء من ذلك لثبوته عن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه.

* * *

وَمَا أتى فِي النَّصِّ مِن أشراطِ فَكُلُّـهُ حَـقٌّ بِـلا شَطَـاطِ
مِنْها الإِمَامِ الخَاتمِ الفَصِيحِ مُحَمَّد المَهْدِي وَالمَسِيحِ[1]

شرح ابن شطي

فصل

في أشراط الساعة وعلاماتها الدالة على اقترابها ومجيئها

قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾. والآيات في ذلك كثيرة، وأما الأحاديث فلا تكاد تحصى.

فإن قيل كيف يوصف بالاقتراب ما قد مضى قبل وقوعه ألف ومائة ونيف وسبعون عاماً؟ فالجواب أن الأجل إذا مضى أكثره وبقي أقله حسن أن يقال فيه اقترب الأجل، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

وروى الترمذي وصححه من حديث أنس مرفوعاً: بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى.

ولما كان أمر الساعة شديداً وهولها مزيداً وأمرها بعيداً، كان الاهتمام بشأنها أكثر من غيرها، ولهذا أكثر النبي ﷺ من بيان أشراطها وأماراتها.

ثم اعلم أن وقت مجيء الساعة مما تفرد الله تعالى بعلمه، وإنما أخفاه الله تعالى لأنه أصلح للعباد لئلا يتباطؤا عن التأهب والاستعداد، كما أن خفاء وقت الموت أصلح لهم وأنفع.

---

(١) أي: للأئمة إحكام بعده، قال شيخنا محمد الجراح رحمه الله أن الشيخ ابن بدران اعترض على ذكر المهدي هنا لأنه قد يدعي بذلك الضالون.
انظر: كتاب العقود الياقوتية في جيد الأسئلة الكويتية ص ٦٣.

وقد انتدب جماعة من العلماء على تعيين قربها واستدلوا بأحاديث غير صحيحة، وما صح منها فدلالتها غير صريحة، وذكر الحافظ السيوطي ذلك في جزء سماه الكشف، وذكر هو تقريباً أنها تقوم على رأس الخمسمائة بعد الألف أو أزيد.

ثم اعلم أن أشراط الساعة وأماراتها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم ظهر وانقضى وهي الأمارات البعيدة، وقسم ظهر ولم ينقض بل لا يزال في ازدياد حتى إذا بلغ الغاية ظهر، القسم الثالث وهي الأمارات القريبة الكبيرة التي تعقبها الساعة وأنها تتابع كنظام خرز انقطع سلكها.

فالأولى: أعني التي ظهرت ومضت منها بعث النبي ﷺ وموته وفتح بيت المقدس، وقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، ومنها وقعة الجمل ووقعة صفين ووقعة النهروان، ومنها نزول أمير المؤمنين سيدنا الحسن رضي الله عنه، ومنها ملك بني أمية وما جرى على أهل البيت في أيامهم من الأذية كقتل الحسين بعد ما سم الحسن، ووقعة الحرة وما جرى فيها من المحن، ومنها ملك بني العباس وما جرى في أيامهم من المحن والبأس، ومنها نار الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل ببصرى، ومنها ظهور الرفض واستبداد الرافضة بالملك وإظهار الطعن واللعن على السلف الصالح من الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم، ومنها خروج دجالين كذابين كل منهما يدعي أنه نبي، ومنها زوال ملك العرب، ومنها كثرة المال، ومنها كثرة الزلازل والمسخ والقذف وغير ذلك مما أخبر عنه النبي ﷺ، أنه من أمارات الساعة فظهر ومضى.

الثانية: الأمارات المتوسطة وهي التي ظهرت ولم تنقض بل تتزايد وتكثر، وهي كثيرة جداً.

منها ما أخرجه أبو نعيم في الحلية عن أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: (من اقتراب الساعة اثنان وسبعون خصلة: إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة، وأضاعوا الأمانة، وأكلوا الربا، واستحلوا الكذب، واستخفوا بالدماء، واستعلوا البناء، وباعوا الدين بالدنيا، وتقطعت الأرحام، ويكون الحكم صفقاً، والكذب صدقاً، والحرير لباساً، وظهر الجور، وكثر الطلاق، وموت الفجأة، وائتمن الخائن، وخون الأمين، وصُدق الكاذب، وكُذب الصادق، وكثر القذف، وكان المطر قيظاً والولد غيظاً، وفاض اللئام فيضاً، وغاض الكرام غيضاً، وكان الأمراء والوزراء والأمناء خونة، والعرفاء ظلمة، والقرّاء فسقة، إذا لبسوا مسوك الضانة قلوبهم أنتن من الجيفة وأمر من الصبر، يغشيهم الله فتنة يتهاوكون فيها تهاوك اليهود والظلمة، وتظهر الصفراء، وتطلب البيضاء ــ يعني الذهب والفضة ــ وتكثر الخطباء، ويقل الأمر بالمعروف، وحليت المصاحف، وصورت المساجد، وطولت المنابر، وخربت القلوب، وشربت الخمور، وعطلت الحدود، وولدت الأمة ربتها، وترى الحفاة العراة صاروا ملوكاً، وشاركت المرأة زوجها في التجارة، وتشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، وحلف بغير الله، ويشهد المرء من غير أن يستشهد، وسلم للمعرفة، وتفقه لغير الله، وطلبت الدنيا بعمل الآخرة، واتخذ المغنم دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً، وكان زعيم القوم أرذلهم، وعق الرجل أباه، وجفا أمه، وبر صديقه، وأطاع امرأته، وعلت أصوات الفسقة في المساجد، واتخذت القينات والمعازف، وشربت الخمور في الطرق، واتخذ الظلم فخراً، وبيع الحكم، وكثرت الشُرَط، واتخذ القرآن مزامير، وجلود السباع صفافاً، ولعن آخر هذه الأمة أولها، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً

حمراء وخسفاً ومسخاً وقذفاً وآيات).

الأشراط والأمارات **الثالثة**: العلامات العظام التي تعقبها الساعة وهي المقصودة في النظم والتي تكلم عليها أهل العلم وإليها الإشارة بقوله:

(**وما**)، ومما ورد عن سيد الخلق وهو حق يجب اعتقاده ولا يسوغ رده الذي (**أتى**)، أي: ورد وجاء (**في النص**) القرآني والحديث النبوي (**من أشراط**) الساعة بأقسامها الثلاثة مما ذكرنا ومما لم نذكر، والمراد بالساعة يوم القيامة، وسميت الساعة لقربها أو لأنها تأتي بغتة في ساعة.

(**فكله**)، أي: الذي في النص من أشراط الساعة (**حق**) واقع (**بلا شطاط**) كسحاب وكتاب، أي: من غير طول وبعد.

ثم أخذ في تعداد ذلك فقال: (**منها**)، أي: من أشراط الساعة العظمى وهي أولها أن يظهر:

(**الإمام**) المقتدى بأقواله وأفعاله (**الخاتم**) للأئمة فلا إمام بعده (**الفصيح**) اللسان لأنه من صميم العرب وقوله (**محمد المهدي**) هذا اسمه وأشهر أوصافه، فأما اسمه فمحمد جاء ذلك في عدة أخبار وفي بعضها أن اسمه أحمد واسم أبيه عبد الله.

وروى أبو نعيم من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ولفظه أنه ﷺ قال: «لو لم يبق من الدنيا إلاَّ يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً»، وروى نحوه الترمذي وأبو داود والنسائي والبيهقي من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

وأما زعم الشيعة أن اسمه محمد بن الحسن وأنه محمد بن الحسن العسكري ويعرف بالحجة، وهو الذي تزعم الشيعة أنه المنتظر والمهدي، وهو صاحب السرداب عندهم وأقاويلهم فيه كثيرة وهم ينتظرون ظهوره في آخر الزمان من السرداب بسُرَّ مَن رَأَى[1]، كانت ولادته في منتصف شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين، وأنه دخل السرداب في دار أبيه وأمه تنظر إليه فلم يعد يخرج إليها وذلك في سنة خمس وستين ومائتين وعمره يومئذٍ تسع سنين وكل ذلك ضرب من الجنون والهذيان، وأما ذاك فقد مات رضوان الله تعالى عنه وعلى آبائه.

وأما تسميته ووصفه بالمهدي فقد ثبت له هذه الصفة في عدة أخبار. وعن كعب الأحبار قال: إنما سمي المهدي لأنه يهدي إلى أمر خفي، وفي بعض رواياته عن كعب: لأنه يهدي إلى أسفار التوراة فيستخرجها من جبال الشام يدعو إليها اليهود فيسْلم على تلك الكتب جماعة كثيرة.

وأما لقبه فالجابر لأنه يجبر قلوب أمة محمد ﷺ، ولأنه يجبر أي يقهر الجبارين والظالمين ويقصمهم، وأما كنيته فأبو عبد الله، وأما نسبه فإنه من أهل بيت رسول الله ﷺ. ثم أن الروايات الكثيرة ناطقة أنه من ولد فاطمة البتول، وجاء في بعض الأحاديث أنه من ولد العباس والأول أصح.

قال بعض حفاظ الأمة وأعيان الأئمة: إن كون المهدي من ذريته ﷺ مما تواتر عنه ذلك فلا يسوغ العدول ولا الالتفات إلى غيره، وقال ابن حجر: يمكن أن يكون من ذريته ﷺ، وللعباس فيه ولادة من جهة أن في

(١) سُرَّ مَن رَأَى: بلدة في عراق العجم (د). قلت: ولعلها سامراء.

أمهاته عباسية، والحاصل أن للحسن في المهدي الولادة العظمى وللحسين فيه ولادة ولا مانع من اجتماع ولادات متعددات في شخص واحد من جهات مختلفة.

فوائد: منها حليته وصفته عن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي رجل من ولدي وجهه كالكوكب الدري، اللون لون عربي والجسم جسم إسرائيلي، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، يرضي في خلافته أهل الأرض وأهل السماء والطير في الجو، يملك عشرين سنة». أخرجه أبو نعيم في مناقب المهدي والطبراني في معجمه.

وفي مرفوع عمران بن حصين أنه حين ذكره رسول الله ﷺ، قال يا رسول الله كيف بهذا حتى نعرفه فقال: «هو رجل من ولدي كأنه من رجال بني إسرائيل عليه عباءتان قطوانيتان كأن وجهه الكوكب الدري في اللون في خده الأيمن خال أسود ابن أربعين سنة». أخرجه الإمام أبو عمرو الداني في سننه.

وعن أبي جعفر محمد بن الباقر قدس الله سره قال: سئل أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه عن صفة المهدي قال: هو شاب مربوع حسن الوجه يسيل شعره على منكبيه يعلو نور وجهه سواد شعره ولحيته ورأسه، وفي رواية أخرى عن علي رضي الله تعالى عنه أن المهدي كث اللحية أكحل العينين براق الثنايا في وجهه خال، أقنى أجلى في كتفه علامة النبي ﷺ.

الفائدة الثانية: في سيرته.

قال أهل العلم: يعمل بسنة النبـي ﷺ، لا يوقظ نائماً ويقاتل على السنة لا يترك سنة إلاَّ أقامها ولا بدعة إلاَّ رفعها، يقوم بالدين آخر الزمان كما قام به النبـي ﷺ، أوله يملك الدنيا كلها يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويرد إلى المسلمين ألفتهم ونعمتهم، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، يحثو المال حثواً حتى أنه يأمر منادياً ينادي ألا من له حاجة في المال فلا يأتيه إلاَّ رجل واحد فيقول: أنا، فيقول: إيت السادن، أي: الخازن، فقل له المهدي يأمرك أن تعطيني مالاً، فيقول له احث حتى إذا جعلـه فـي حجـره وأبـرزه نـدم فيقـول كنـت أجشـع، أي: أحـرص أمـة محمد ﷺ، أعجز عني ما وسعهم؟ قال: فيرده فلا يقبل منه. تجري على يديه الملاحم، يستخرج الكنوز ويفتح المدائن ما بين الخافقين ويرفع الربا والزنا وشرب الخمر وتطول الأعمار.

الثالثة: في علامات ظهوره.

فمن علامات ظهوره كسوف القمر والشمس ونجم الذنب والظلمة وسماع الصوت برمضان وتحارب القبائل بذي القعدة وظهور الخسف والفتن، ومعه قميص رسول الله ﷺ، وسيفه ورايته من مرط مخملة معلمة سوداء فيها حجر لم تنشر منذ توفي رسول الله ﷺ، ولا تنشر حتى يخرج المهدي، مكتوب على رأسها البيعة لله. كذا في الإشاعة، وينادي منادٍ من السماء: أيها الناس إن الله قطع عنكم الجبارين والمنافقين وأشياعهم وولاكم خير أمة محمد ﷺ، فالحقوه بمكة فإنه المهدي واسمه محمد بن عبد الله.

الرابعة: في الإشارة إلى بعض الفتن الواقعة قبل خروج المهدي.

قال جعفر الصادق: لا يظهر المهدي إلاَّ على خوف شديد من الناس وزلازل وفتن وبلاء يصيب الناس والطاعون قبل ذلك وسيف قاطع بين العرب واختلاف شديد في الناس وتشتت في دينهم وتغيير في حالهم حتى يتمنى المتمني الموت صباحاً ومساءً من عظم ما يرى من كلبِ[1] الناس وأكل بعضهم بعضاً فحينئذٍ يخرج، فيا طوبى لمن أدركه وكان من أنصاره والويل كل الويل لمن خالفه وخالف أمره.

وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: تكون بالشام رجفة يهلك فيها أكثر من مائة ألف يجعلها الله رحمة للمؤمنين وعذاباً على المنافقين، فإذا كان كذلك فانظروا إلى أصحاب البراذين الشهب والرايات الصفر تقبل من المغرب حتى تحل بالشام وذلك عند الجوع الأكبر والموت الأحمر، فإذا كان كذلك فانظروا خسف قرية من قرى دمشق يقال لها حرستا، فإذا كان ذلك خرج ابن أكلة الأكباد من الوادي اليابس حتى يستوي على منبر دمشق، فإذا كان كذلك فانظروا خروج المهدي.

ومن أقوى علامات خروج المهدي خروج من يتقدمه من الخوارج: السفياني، والأبقع، والأصهب، والأعرج الكندي.

أما السفياني فاسمه عروة وكنيته أبو عتبة ملعون في السماء والأرض، وهو أكثر خلق الله ظلماً. قال علي رضي الله عنه: يخرج من ناحية دمشق وعامة من يتبعه من كلبٍ فيقتل حتى يبقر بطون النساء ويقتل الصبيان، والأبقع يخرج من مصر، والأصهب يخرج من بلاد الجزيرة، ثم يخرج الجرهمي من الشام، ويخرج القحطاني من بلاد اليمن، ويخرج

---

(١) بفتحتين، شدة الحرص على المحاربة. (د).

الأعرج الكندي بالمغرب ويدوم القتال بينهم سنة كاملة.

الخامسة: في مولده وبيعته ومدة ملكه.

أخرج نعيم بن حماد عن علي رضي الله تعالى عنه قال: المهدي مولده بالمدينة ومهاجره بيت المقدس، وأما بيعته فيبايع بمكة المشرفة بين الركن والمقام ليلة عاشوراء، وإذا هاجر المهدي من المدينة إلى بيت المقدس تخرب المدينة.

وقد اختلفت الروايات في مدة ملك المهدي، ففي بعضها يملك خمساً أو سبعاً أو ستاً بالترديد، وفي بعضها تسعة عشر سنة وأشهراً، وفي بعضها عشرين، وفي بعضها ثلاثين، وفي بعضها أربعين. ويمكن الجمع على تقدير صحة الكل بأن ملكه متفاوت الظهور والقوة فيحمل الأكثر باعتبار مدة الملك منذ البيعة، والأقل على غاية الظهور، والأوسط على الأوسط.

تنبيه: قد كثرت الأقوال في المهدي حتى قيل لا مهدي إلاّ عيسى، والصواب الذي عليه أهل الحق أن المهدي غير عيسى وأنه يخرج قبل نزول عيسى عليه السلام. وقد كثرت بخروجه الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي وشاع ذلك بين علماء السنة حتى عد من معتقداتهم.

وقد روى الإمام الحافظ ابن الإسكاف بسند مرضي إلى جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «من كذب بالدجال فقد كفر، ومن كذب بالمهدي فقد كفر».

وزعمت الكيسانية أن المهدي هو محمد بن الحنفية وأنه حي مقيم بجبل رضوى، وهؤلاء الكيسانية أحد فرق الضلال كما مر في تعداد الفرق.

تـتـمـة: عن ابن سيرين أن المهدي خير من أبـي بكر وعمر، قد كاد يفضل الأنبياء. وجاء عنه أيضاً: لا يفضل عليه أبو بكر وعمر وليس بصحيح، فإن الأمة مجمعة على أفضليتهما عليه بل وعلى جميع الصحابة خلافاً للرافضة خذلهم الله تعالى، بل غيرهما من الصحابة أفضل من المهدي. ثم يستمر سيدنا المهدي حتى يسلم الأمر لروح الله تعالى عيسى بن مريم عليه السلام.

العلامة الثانية: خروج الدجال، قد أنذرت به الأنبياء قومها وحذرت منه أممها وحذر منه المصطفى وأنذر، وقد قيل: أنه صافي ابن صياد وقيل بل هو شيطان موثق في بعض الجزائر أو أنه من أولاد شق الكاهن أو هو شق نفسه وأن أمه كانت جنية عشقت أباه فأولدها إياه، وكانت الشياطين تعمل له العجائب فحبسه سليمان بن داود عليهما السلام وهذا القول ليس بصائب.

وقال كعب الأحبار: تلده أمة بقوص من أرض مصر وبين مولده وخروجه أربعون سنة، وفي الترمذي: «أنه يخرج من خراسان».

وفي صحيح مسلم عن أنس مرفوعاً: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة»، وفي مستدرك الحاكم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً: «يخرج الدجال من يهودية أصبهان لم يخلق له عين والأخرى كأنها كوكب ممزوجة بدم يشوي في الشمس سمكاً ويتناول الطير من الجو، له ثلاث صيحات يسمعها أهل المشرق والمغرب».

ومن حليته أنه شاب، وفي رواية شيخ وسندهما صحيح جسيم أحمر، وفي رواية أبيض أمهق أعور العين اليمنى كأنها عنبة طافئة، وفي

رواية أعور العين اليسرى، وجاء في رواية أنه أعور العين مطموسة وليست جحراً وهذا معنى طافئة مهموزاً.

ثم جمع القاضي عياض بين الروايات بأن عينه اليمنى طافية بغير همز وممسوحة، أي: ذهب ضوؤها، وعلى هذا[١] فهو أعور العينين معاً فكل واحدة من عينيه عوراء، وذلك أن العور عيب وكلا عيني الدجال معيبة إحداهما بذهاب نورها والأخرى بنتوئها وخضرتها[٢].

(و)من أوصاف الدجال أنه قصير أفجج كما في سنن أبي داود، وعنه ﷺ أنه قال: أن (المسيح) الدجال قصير أفجج جعد أعور مطموس العين ــ أي: متباعد ما بين الساقين ــ مكتوب بين عينيه [ك ف ر] حروفاً مقطعة يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب ولا يقرؤها الكافر، ولا يدخل المدينة ولا مكة، تتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة وسبعون ألفاً من يهود أصبهان عليهم التيجان وكلهم ذو سيف محلى. ومن صفاته أنه تنام عيناه ولا ينام قلبه، له حمار أهلب: وهو المشعر الغليظ. يعني: كثير الشعر ما بين أذنيه أربعون ذراعاً يضع خطوه عند منتهى طرفه.

واعلم أن العلماء قد اختلفوا في الدجال فقيل أنه ليس بإنسان وإنما هو شيطان موثق بسبعين حلقة في بعض جزائر اليمن لا يعلم من أوثقه أهو سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام أو غيره، فإذا أراد الله ظهوره فك عن كل عام حلقة، وإذا برز أتته أتان عرض ما بين أذنيها أربعون ذراعاً فيضع على ظهرها منبراً من نحاس فيقعد عليه وتتبعه قبائل الجن بخزائن

---

(١) أي: اختلاف الروايتين المتقدمتين. (د).

(٢) يقال عين خضراء إذا كانت تشبه النخاعة في الحائط. (د).

الأرض. وأول خروجه يدعي الإيمان والصلاح ويدعو إلى الدين فيتبع ويظهر فلا يزال حتى يقدم الكوفة فيظهر الدين ويعمل به فيتبع ويحب على ذلك، ثم يدعي الإلـهية فتغشى عينه وتقطع أذناه ويكتب بين عينيه كافر فلا يخفى على مسلم فيفارقه كل أحد من الخلق في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، هكذا رواه الطبراني.

وفي الحديث: «أن قبل خروجه بثلاث سنين أول سنة تمسك السماء ثلث قطرها والأرض ثلث نباتها، والسنة الثانية تمسك ثلثي قطرها والأرض ثلثي نباتها، والسنة الثالثة تمسك السماء ما فيها ويهلك كل ذي ضرس وظلف، ويسير ومعه جبلان أحدهما فيه أشجار وأثمار وماء وأحدهما فيه دخان يقول هذه الجنة وهذه النار». رواه الحاكم عن ابن عمر مرفوعاً.

واتفق البخاري ومسلم من حديث حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ على هذه الرواية وهي قوله: «إن الدجال يخرج وإن معه ماءً وناراً، فأما الذي يراه الناس ماء فنار تحرق، وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً فإنه ماء عذب طيب».

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن الذي معه من صورة الجنة والنار ونحوهما على طريق التخييل لا الحقيقة، وقال جماعة منهم ابن العربي بل هي على ظاهرها امتحاناً من الله تعالى لعباده. وقال في الإشاعة للعلامة الشيخ مرعي والتحقيق الأول.

ومنها، أي: من علامات الساعة العظمى:

العلامة الثالثة: أن ينزل من السماء السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ونزوله ثابت في الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، أي ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وذلك عند نزوله من السماء آخر الزمان حتى تكون الملة واحدة ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً.

وأما السنة ففي الصحيحين وغيرهما عن أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية» الحديث. وأما الإجماع فقد، أجمعت الأمة على أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية وليس ينزل بشريعة مستقلة عند نزوله من السماء وإن كانت النبوة قائمة به، متصف بها ويتسلم الأمر من المهدي ويكون المهدي من أصحابه وأتباعه كسائر أصحاب المهدي حتى أصحاب الكهف الذين هم من أتباع المهدي.

فـوائـد: في متعلقات السيد المسيح عليه الصلاة والسلام.

الأولى: في حليته وسيرته.

أما حليته فعند البخاري من حديث عقيل بن خالد أنه أحمر عريض الصدر أجعد وفي رواية: آدم كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال، سبط ينطف، أي: يقطر، زاد في رواية: له لمة أحسن ما أنت راء من اللمم قد رجلها، أي: سرحها، وفي رواية: لمته بين منكبيه، رجل الشعر يقطر رأسه ماء.

وأما سيرته، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلاَّ الإسلام، ويتخذ الدين فلا يعبد إلاَّ اللَّه تعالى، ويترك الصدقة، أي: الزكاة لعدم من يقبلها، وتظهر الكنوز في زمنه ويرفع الشحناء والتباغض ويرعى الذئب مع الشاة، ويملأ الأرض سلماً وينعدم القتال وتنبت الأرض نبتها كعهد آدم، وترخص الخيل ويغلو الثور ويكون مقرراً لشريعة نبينا ﷺ كما مر، ويكون قد علم أحكام هذه الشريعة بأمر الله تعالى وهو في السماء قبل أن ينزل.

الثانية: في وقت نزوله ومحله وما يجري على يديه من الملاحم.

أما محل نزوله فعند المنارة البيضاء شرقي دمشق واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، ويكون نزول سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام لست ساعات مضت من النهار حتى يأتي مسجد دمشق ويقعد على المنبر فيدخل المسلمون المسجد وكذا النصارى واليهود وكلهم يرجونه حتى لو أُلقي شيء لم يصب إلاَّ رأس إنسان من كثرتهم، ويأتي مؤذن المسلمين وصاحب بوق اليهود وناقوس النصارى فيقترعون فلا يخرج إلا سهم المسلمين، وحينئذٍ يؤذن مؤذنهم ويخرج اليهود والنصارى من المسجد ويصلي بالمسلمين صلاة العصر، ثم يخرج بمن معه من أهل دمشق في طلب الدجال.

الثالثة: في مقدار مدته ووفاته.

أما مدته ووفاته فقد ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الطبراني وابن عساكر أنه ﷺ قال: «ينزل عيسى بن مريم فيمكث في الناس أربعين سنة». وعند الإمام أحمد أنه يمكث أربعين ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه عند نبينا محمد ﷺ.

قوله: (**وما أتى في النص**)، أي: القرآن أو الحديث النبوي. (**من أشراط**): جمع شرط، وهي أمارات الساعة وعلاماتها. (**فكله**)، أي: كل الذي أتى في النص من الأشراط والعلامات (**حق**) واقع، ويقين ليس له مدافع.

(**بلا شطاط**): كسحاب وكتاب، أي: من غير بعد. والمعنى: أن كل ما ثبت بالنصوص من أشراط الساعة حق لا بعد فيه ولا عقل ينافيه.

وقوله (**منها**): أي: أشراط الساعة التي وردت بها الأخبار. (**الإمام**): المقتدى به (**الخاتم**) للأئمة (**الفصيح**) اللسان؛ لأنه من صميم العرب.

(**محمد المهدي**): هذا اسمه واسم أبيه عبد الله، لما روى أبو نعيم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «لو لم يبق من الدنيا إلاَّ يوم واحد، لطول الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملؤها ــ أي: الأرض ــ قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً».

وقد ورد في هذا الباب أحاديث كثيرة لم يثبت منها حديث واحد، والمصنف إنما ذكر المهدي لبيان أنه قد جاءت بذكره أحاديث تنبىء بمجيئه لا أنه مما يجب اعتقاده، فلا نعتقد بمجيء هذا المهدي، ولا ندين الله به، إذ مبنى الاعتقاد اليقين، ومن أراد تحقيق هذه المسألة، فليراجع مقدمة ابن خلدون، فقد أفاد فيها وأجاد.

(و)منها (**المسيح**) عيسى عليه الصلاة والسلام، وهو أن ينزل من

السماء، إذ هو لم يمت حتى الآن، وذلك مستنبط من القرآن، وجاءت به السنة.

أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، أي: ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك عند نزوله من السماء آخر الزمان.

وأما السنة: فأخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية»، الحديث. وأما تسمية المسيح، فقيل: لأن زكريا مسحه. وقيل: لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برأ، فهو مسيح الهدى. وورد في رواية أنه إنما يمكث سبع سنين.

* * *

وَإِنَّهُ يَقتُلُ لِلدَّجَّالِ بِبابِ لُدٍّ خَلِّ عَن جِدالِي
وَأَمرُ يأجُوْجَ وَمَأجُوجَ أثْبِت فَإِنَّهُ حَقٌّ كَهَدمِ الكَعْبَة

شرح ابن شطي

وإلى قتل سيدنا عيسى للدجال أشار بقوله:

(وإنه)، أي: المسيح عيسى بن مريم عليه السلام **(يقتل)** بأمر الله له ومعونته **(للدجال)**، أي: الكذاب.

تنبيه: إنما سمي الدجال مسيحاً لأن إحدى عينيه ممسوحة لا يبصر بها، وأما تسمية سيدنا عيسى عليه السلام مسيحاً فقيل لأنه كان يمسح ذا العاهة فيبرأ، وقيل المسيح الصديق.

تقدم أن سيدنا عيسى يصلي بالمسلمين صلاة العصر بمسجد دمشق ثم يخرج بمن معه من أهلها في طلب الدجال، ويمشي وعليه السكينة والأرض تقبض له وما أدرك نفسُه من كافر إلاَّ وقتله ويدرك حيث ما أدرك بصره، إلى أن يأتي بيت المقدس فيجده مغلقاً قد حصره الدجال فيصادف ذلك صلاة الصبح فيدركه **(بباب)** متعلق بيقتل، أي: يقتله بباب **(لُدٍّ)** بضم اللام بوزن مُد بلد مشهورة فيقتله هناك فيضربه بمقرعته، وفي رواية بحربته التي نزل بها من السماء.

(خل)، أي: اترك وتنح **(عن جدالي)** في ذلك فإنه أمر سمعي أخبر عنه المعصوم.

تنبيهات:

الأول: إذا قتل سيدنا عيسى عليه السلام الدجال انهزم جنوده الذين

هم اليهود ومن معه فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلاَّ أنطق الله ذلك الشيء، لا شجر ولا حجر إلاَّ قال يا عبد الله هذا يهودي، وفي لفظ: هذا دجالي فتعال فاقتله، إلاَّ الغرقد فإنه من شجر اليهود لا ينطق.

الثاني: في قدر لبثه في الأرض وكيفية النجاة منه.

أما قدر لبثه ففي خبر النواس بن سمعان عند مسلم والترمذي: «أنه يمكث أربعين يوماً: قدر يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامة كأيامكم».

وأما كيفية النجاة منه فقد صح عن النبي ﷺ أنه من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال، وفي رواية من آخر الكهف.

الثالث: اسم الدجال عند اليهود المسيخ بن داود، قالوا يخرج آخر الزمان فيبلغ سلطانه البر والبحر فيرد الملك إلينا وقد كذبوا في زعمهم.

واعلم أن الكلام على المهدي والدجال والمسيح ابن مريم طويل شهير، أفردت في ذلك الكتب المبسوطة، وذكرنا في كتابنا البحور الزاخرة من ذلك طرفاً صالحاً.

العلامة الرابعة: خروج يأجوج ومأجوج وإليها الإشارة بقوله:

(وأمر **يأجوج ومأجوج**) يهمزان ولا يهمزان، سموا بذلك لكثرتهم وشدتهم.

قال مقاتل: هم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وقال الضحاك:

هم من الترك، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هم عشرة أجزاء وولد آدم كلهم جزء لأنهم لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه يحملون السلاح، فمنهم من طوله مائة وعشرون ذراعاً أو خمسون، ومنهم من طوله وعرضه كذلك، ومنهم من يلتحف بإحدى أذنيه ويفترش الأخرى.

والمراد بأمرهم خروجهم وهو ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، فلهذا قال: (أثبت)، أي: اعتقد ثبوته. أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1].

وأما السنة ففي صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يوحي إلى عيسى بن مريم عليه السلام بعد قتله الدجال أني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه ماء ويحصرون عيسى عليه السلام وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار»، الحديث.

(فإنه)، أي: أمر يأجوج ومأجوج، يعني: خروجهم من وراء السد على الناس **(حق)** ثابت لوروده في الذكر ولم يحِلْه عقل فوجب اعتقاده.

وفي مسلم: ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس فيقولون لقد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء،

---

(١) حَدَب، أي: مرتفع من الأرض، وينسلون، أي: يسرعون. اهـ. جلالين. (د).

فيرمون بنشابهم فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً، فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله تعالى فيرسل الله تعالى عليهم النَغَف، بفتح النون والغين المعجمة فاء، وفي رواية أبي داود: كالنغف في أعناقهم، وهو دود يكون في أنوف الابل والغنم، فيصبحون موتى كموت نفس واحدة.

العلامة الخامسة: من العلامات العظمى هدم الكعبة المشرفة، وإليها أشار بقوله:

(كـ) ـما أن أمر يأجوج ومأجوج حق ثابت يجب اعتقاد وقوعه فكذا يجب اعتقاد وقوع (**هدم الكعبة**) المعظمة وسلبها حليها وإخراج كنزها، لما أخرجه مسلم والبخاري والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»، قوله: ذو السويقتين، أي: صاحبهما وهما تصغير ساقين، أي: دقيق الساقين.

قال العلامة الشيخ مرعي في بهجة الناظرين: جاء عن الثقات الحفاظ يمكث الناس ما شاء الله تعالى في الخصب والدعة بعد هلاك يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس وخروج الدابة، ثم يخرج الحبشة وعليهم ذو السويقتين فيخربون مكة ويهدمون الكعبة، ثم لا تعمر بعدها أبداً وهم الذين يستخرجون كنوز مصر، ثم يجتمع بقايا المسلمين فيقاتلونهم فيقتلونهم ويسبونهم حتى يباع الحبشي بعباءة.

فتبين أن هدم الكعبة بعد الآيات كلها وإن كان لا يخلو من تأمّل، والله تعالى أعلم.

ويقتل مسيح الضلال كما قال: (وإنه)، أي: مسيح المهدي (يقتل) بأمر الله تعالى. (للدجال)، أي: الكذاب، وسمي دجالاً لتمويهه على الناس وتلبيسه. ويخرج بخراسان ــ كما في سنن الترمذي ــ ويتبعه سبعون ألفاً من يهود أصفهان ــ كما في صحيح مسلم ــ .

وإنما سمي مسيحاً؛ لأن أحد عينيه ممسوحة لا يبصر بها، ويقتله سيدنا عيسى عليه السلام (بباب لُدٍّ) ــ بضم اللام ــ قال ياقوت: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين ببابها يدرك عيسى ابن مريم فيقتله، وقد دل على ذلك حديث في مسند الإمام أحمد رحمه الله تعالى (خل عن جدالي): في أمر الدجال، فلا تجادل في مجيئه وقتل المسيح إياه لورود ذلك في الأحاديث، والواجب علينا قبول ما صح منها، وإن لم تبلغه عقولنا.

قوله: (وأمر)، مفعول مقدم لقوله: أثبت وهو مضاف، و (يأجوج): مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة للعلمية والعجمة، و (مأجوج): معطوف عليه مجرور بالفتحة أيضاً نيابة عن الكسرة. (أثبت)، أي: اعتقد ثبوته، (فإنه)، أي: أمر يأجوج ومأجوج، يعني: خروج (حق) ثابت. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾، فمجيئهم قطعي يجب الإيمان به.

قال المؤرخون: أولاد نوح ثلاثة: سام، وهو أبو العرب والعجم والروم، وحام: أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافث: أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج.

فخروجهم ثابت (كـ)ثبوت (هدم الكعبة)، كما روى البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»، وقوله: ذو السويقتين، أي: صاحبها، وهما تصغير ساقين، أي: دقيق الساقين. واختلف العلماء متى يكون ذلك؟ فقيل: بعد خروج الدابة. وقيل: بعد الآيات كلها قرب قيام الساعة حين ينقطع الحاج ولا يبقى في الأرض من يقول الله الله.

* * *

وإنَّ منهَـا آيـةَ الـدُّخَـانِ   وَأَنَّـهُ يُـذْهَـبُ بِـالقُـرآنِ

شرح ابن شطي

العلامة السادسة من علامات الساعة وأشراطها العظمى: ما أشار إليها بقوله:

(**وإن منها**)، أي: من أشراط الساعة التي ورد النص بها وإنها حق يجب الإيمان به (**آية**)، أي: علامة (**الدخان**) كرمان وغراب لغتان. قال العلماء آية الدخان ثابتة بالكتاب والسنة.

أما الكتاب فقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ ﴾، قال ابن عباس وابن عمر رضي الله تعالى عنهم: هو دخان قبل قيام الساعة يدخل في أسماع الكفار والمنافقين ويعتري المؤمن منه كهيئة الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ولم يأتِ بعد وهو آت.

وأما السنة فأخرج مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله تعالى عنه قال: طلع علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر فقال: ما تذكرون؟ قالوا: الساعة يا رسول الله، قال: إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات، فذكر منها الدخان. ورواه الترمذي وابن ماجه وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً.

العلامة السابعة: رفع القرآن العظيم وإليه الإشارة بقوله: (**وأنه**)، أي: الشأن والأمر (**يذهب**) بضم التحتية مبنياً لما لم يسم فاعله، أي: يذهب الله تعالى (**بالقرآن**) العظيم من المصاحف والصدور وهي من أشد معضلات الأمور فأخرج الديلمي من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله

تعالى عنهما مرفوعاً: «يُسرى على كتاب الله ليلاً فيصبح الناس وليس منه آية ولا حرف في جوف إلاَّ نسخت».

وأخرج ابن ماجه من حديث حذيفة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «يدرس الإسلام حتى ما يدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، ويسرى على كتاب الله في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية.

شرح ابن مانع

قوله: **(وإن منها)**، أي: من أشراط الساعة التي ورد النص بها **(آية الدخان)**، وهي ثابتة بالكتاب والسنة.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ ﴾، قال ابن عباس وغيره: هو دخان قبل قيام الساعة يدخل في أسماع الكفار والمنافقين، ويعتري المؤمن كهيئة الزكام، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه، ولم يأتِ بعد وهو آتٍ.

وأما السنة: ففي صحيح مسلم من حديث حذيفة مرفوعاً «إنها ـ أي الساعة ـ لن تقوم حتى تروا عشر آيات»، فذكر منها الدخان.

(وأنه): الضمير اللشان. و **(يذهب)**: بالبناء للمفعول. **(بالقرآن)** العظيم: يعني: أن من أشراط الساعة: أنه يرفع القرآن فلا يبقى في المصاحف ولا الصدور منه حرف واحد. وقد تقدم ذكر ما حكاه الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية عن السلف: من أن القرآن كلام الله منزّل غير مخلوق.

منه بدا وإليه يعود، وأن معنى وإليه يعود، ما جاء في الآثار: أن القرآن يسرى به حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف، ولا في القلوب منه آية.

العلامة الثامنة: أشار إليها بقوله، ومنها:

(**طلوع شمس الأفق**) والأفق بالضم وبضمتين، الناحية. والأفق أيضاً ما ظهر من نواحي الفلك وهو المراد هنا.

(**من دبور**) بفتح الدال وضم الموحدة مخففة، جهة المغرب لأنها تدابر باب الكعبة.

قال العلماء: طلوع الشمس من مغربها ثابت بالسنة الصحيحة والأخبار الصريحة بل وبالكتاب المنزّل، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، الآية.

أجمع المفسرون أو جمهورهم على أنها طلوع الشمس من مغربها، وحاصل ذلك المقصود من الآية الكريمة أن من لم يكن إيمانه متحققاً إذا طلعت الشمس من مغربها لم ينفعه تجديد الإيمان ولم ينفعه فعل بر من جميع الأعمال لأنه فقد الإيمان الذي هو الأساس.

ومن ذلك ما أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها»، الآية.

وأخرج ابن مردويه من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً: «خلق الله باباً للتوبة، وفيه، فذلك الباب مفتوح منذ خلقه الله إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغربهما، إلى أن قال،

فإذا أغلق باب التوبة لم تقبل لعبد بعد ذلك توبة ولم تنفعه حسنة يعملها بعد ذلك إلاَّ ما كانت قبل ذلك، فإنه يجري لهم وعليهم بعد ذلك، ما كان يجري لهم قبل ذلك فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، إلى قوله: خيراً، الحديث بطوله.

قال بعضهم والحكمة في طلوع الشمس من مغربها أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لما قال للنمرود ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ وإن السحرة والمنجمين عن آخرهم ينكرون ذلك ويقولون هو غير كائن، أطلعها الله تعالى يوماً من المغرب ليُري المنكرين عظيم قدرته وباهر حكمته، وأن الشمس في ملكه إن شاء أطلعها من المشرق أو المغرب أو لا ولا.

والذي يظهر والله تعالى أعلم أن أول الآيات خروج المهدي، ثم الدجال، ثم نزول عيسى، ثم خروج يأجوج ومأجوج، ثم هدم الكعبة، ثم الدخان، ثم ارتفاع القرآن ثم طلوع الشمس. ويحتمل أن طلوع الشمس متقدم على رفع القرآن، وخروج الدابة عقب طلوع الشمس من مغربها في يومها أو قريباً منها، وهذا هو النسق الذي مشينا عليه واخترناه.

العلامة التاسعة: خروج دابة الأرض وإليها الإشارة بقوله: (**كذات**)، أي: صاحبة (**أجياد**)، وأجياد اسم أرض بمكة أو جبل بها، وقوله: (**على**) القول (**المشهور**) من إضافتها إلى أجياد لكونها تخرج منه.

والحاصل إن في المحل الذي تخرج منه الدابة أقوالاً من أشهرها أجياد كما أشرنا إليه. وقد جمع بعضهم بين الروايات بأن للدابة ثلاث خرجات، ففي بعض خرجاتها تخرج من مدينة قوم لوط، وفي بعضها

تخرج من بعض أودية تهامة، والمرة الثالثة تخرج من مكة. وهي من كبرها وعظم جثتها وطولها يمكن أن تخرج من بين المروة والصفا وأجياد فإنها تمتد مقدار ثلاثة أيام وأكثر، ويصدق عليها أنها خرجت من المروة ومن الصفا ومن أجياد ومن المسجد ومن البادية التي بقرب مكة.

وجمع بعضهم بأنها تخرج من جميع تلك الأماكن في آن واحد خرقاً للعادة في صور متباينة ومعها عصى موسى وخاتم سليمان عليهما السلام لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب.

إذا علمت ذلك فخروج الدابة المذكورة ثابت بالكتاب والسنة.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ ۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وأما السنة فكثيرة منها ما أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تخرج الدابة ومعها خاتم سليمان وعصى موسى، فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتختم أنف الكافر بالخاتم حتى إن أهل الخوان[1] ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر».

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن لها عنقاً مشرقاً، أي: طويلاً يراها من بالمشرق كما يراها من بالمغرب، ولها وجه كوجه الإنسان ومنقار كمنقار الطير ذات وبر وزغب فيها من ألوان الدواب كلها، وفيها من كل أمة سيمة، وسيماها من هذه الأمة إنها تكلم الناس بلسان عربي مبين وتكلمهم بكلامهم.

---

(١) الخوان بالكسر هو الذي يؤكل عليه، والضم لغة فيه. (د).

قوله: (**طلوع**)، أي: ومن أشراط الساعة طلوع (**شمس الأفق**): هو الناحية، والجمع: آفاق. والأفق: ما ظهر من نواحي الفلك وهو المراد هنا.

(**من دبور**) ـ بفتح الدال المهملة ـ جهة المغرب؛ لأنها تدابر باب الكعبة، وتسمى الريح التي تهب من جهة المغرب دبوراً، وفي الحديث عنه ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» رواه الشيخان عن ابن عباس.

قال العلماء: طلوع الشمس من مغربها ثابت بالسنة الصحيحة، ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾، الآية. وقال جمهور المفسرين في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، إنها طلوع الشمس من مغربها.

(**كذات أجياد**)، يعني: أن طلوع الشمس من مغربها من أشراط الساعة وعلاماتها كذات أجياد: وهي الدابة التي تخرج منه. وذات: بمعنى صاحبة، وأجياد: أرض بمكة أو جبل بها. ويقال فيه: جياد ـ بلا همزة ـ ولما كان موضع خروجها مختلفاً فيه قال (**على المشهور**)، أي: من الأقوال. والمقصود بيان أن خروج الدابة من علامات الساعة التي يجب الإيمان بها. قال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿۞وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾، اختلف في معنى هذا الوقوع. فقال قتادة: وجب الغضب عليهم. وقيل: وقع القول بموت العلماء، وذهاب العلم، ورفع القرآن. وذلك إذا لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، قاله ابن عمر.

وجواب الشرط قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾، قيل: تكلم الموحدين ببطلان سوى دين الإسلام. وقيل: تكلمهم بما يسوؤهم. وقيل: تكلمهم بقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾، قال ابن عباس، أي: بخروجها؛ لأن خروجها من الآيات.

* * *

وآخـرُ الآيـاتِ حَشْـرُ النَّـارِ كما أتَى في مُحكَمِ الأخبْارِ
فكلُّهـا صحَّـت بِهـا الأخبـار وسَطَّـرَتْ آثـارَهَـا الأخيَـارُ

شرح ابن شطي

العلامة العاشرة: خروج النار التي تخرج من قعر عدن تحشر الناس إلى محشرهم وأشار إليها بقوله:

(وآخر الآيات) العظام (حشر النار) للناس من المشرق إلى المغرب ومن اليمن إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام وهو أرض الشام (كما أتى) ذلك مصرحاً به (في محكم الأخبار).

أخرج الإمام أحمد والترمذي وقال حسن صحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً: «ستخرج نار من حضرموت أو من بحر حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس، قالوا يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: عليكم بالشام».

وأخرج الطبراني وابن عساكر عن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً: «لتقصدنكم نار هي اليوم خامدة في وادٍ يقال له برهوت يغشى الناس فيها عذاب أليم، تأكل الأنفس والأموال، تدور الدنيا كلها في ثمانية أيام تطير طير الريح والسحاب، حرها بالليل أشد من حرها بالنهار، ولها بين السماء والأرض دوي كدوي الرعد القاصف، هي من رؤوس الخلائق أدنى من العُرُش، قيل: يا رسول الله أسليمة يومئذٍ على المؤمنين والمؤمنات؟ قال: وأين المؤمنون والمؤمنات يومئذٍ شر من الحمر يتسافدون كما تتسافد البهائم وليس فيهم رجل يقول مه مه».

تنبيه: ثبت بالسنة الصحيحة أن أهل الأرض يكفرون ويعبدون الأوثان ولا تقوم الساعة إلاَّ على شرار الناس.

فقد أخرج الإمام أحمد ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «تجيء بعد موت عيسى عليه السلام ريح باردة من قبل الشام فلا تبقي على وجه الأرض أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلاَّ قبضته حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل دخلت عليه حتى تقبضه، فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع ولا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقولون ما تأمرنا فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها وهم في ذلك دارٌّ رزقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور».

قال القرطبي في تذكرته عن بعض العلماء: إذا أراد الله تعالى انقراض الدنيا وتمام لياليها وقربت النفخة خرجت نار من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر تبيت معهم وتقيل حتى يجتمع الخلق بالمحشر، الإنس والجن والدواب والوحش والسباع والطير والهوام وخشاش الأرض وكل ذي روح، ثم ذكر النفخة.

(**فكلها**)، أي: أشراط الساعة المذكورة (**صحت بها الأخبار**) عن النبي المختار وأصحابه الأبرار صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ما تعاقب الليل والنهار.

(و) كلها قد (**سطرت**)، أي: كتبت (**آثارها**) مفعول سطرت، أي: الآثار الدالة عليها والمتضمنة لإثباتها ومجيئها (**الأخيار**) فاعل سطرت.

شرح ابن مانع

قوله: (**وآخر الآيات**)، أي: آيات الساعة وعلاماتها الدالة على قربها (**حشر النار**) للناس من المشرق إلى المغرب، ومن اليمن إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام، (**كما أتى**) ذلك مصرحاً به (**في محكم الأخبار**).

ففي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري أنه ﷺ أخبر ببعض أشراط الساعة وقال: «وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم». وهذا لا يعارض ما في البخاري عن أنس مرفوعاً: «أما أول أشراط الساعة: فنار تخرج من المشرق، فتحشر الناس إلى المغرب»، فقد قال غير واحد من العلماء: إنهما ناران:

إحداهما: تحشر الناس من المشرق إلى المغرب.

والثانية: تخرج من اليمن فتطرد الناس إلى المحشر الذي هو أرض الشام، فلعل إحدى النارين في أول الآيات والأخرى في آخرها، ومع هذا فقد اختلف العلماء في حشر الناس من المشرق إلى المغرب، هل يوم القيامة أو قبله؟

فقال القرطبي والخطابي، وصوبه القاضي عياض: إن هذا الحشر يكون قبل يوم القيامة. وقال الحكيم الترمذي وأبو حامد الغزالي: هو يوم القيامة، والله أعلم.

قوله: (**فكلها**)، أي: الأشراط المذكورة، (**صحت بها الأخبار**)، أي: بأكثرها، فإن الأحاديث التي فيها ذكر المهدي لم تصح عند علماء الحديث، (**و**) كلها قد (**سطرت**)، أي: كتبت.

(**آثارها**)، أي: الآثار الدالة عليها. (**الأخيار**): جمع خير. وهم ضد الأشرار، والمراد بهم علماء الأمة من التابعين وتابعيهم، رحمة الله تعالى عليهم أجمعين.

* * *

فصل
في أمر المعاد

اعلم أن المعاد الجسماني حق واقع دل عليه النقل الصحيح ولم يمنعه العقل فوجب الإيمان والتصديق بموجبه، وهو أن يبعث الله تعالى الموتى من القبور بأن يجمع أجزاءهم الأصلية ويعيد الأرواح إليها لقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ إلى غير ذلك من النصوص القرآنية القطعية والأحاديث النبوية.

وقد أنكره الطَّبايعيون والدهرية والملحدة، وفيه تكذيب للنقل الصحيح والعقل الصريح.

وأنكرت الفلاسفة المعاد الجسماني بناءً على امتناع إعادة المعدوم بعينه ووافق المعتزلة أهل الحق على المعاد الجسماني.

وللمتكلمين في جواز إعادة الأعرض قولان: جواز إعادتها وهو الحق لأنه تعالى على كل شيء قدير، والثاني: قول الفلاسفة ومن وافقهم من المعتزلة، قال:

(**واجزم**) جزم إيقان وإذعان واعتقاد (**بأمر البعث**) بعد الموت (**والنشور**) من القبور (**والحشر**) لأجل الجزاء وفصل القضاء (**جزماً**) مصدر مؤكد وذلك كله واقع (**بعد نفخ الصور**) المراد نفخة البعث.

وحاصل ما ذكر في هذا البيت أربعة أشياء: البعث، والنشور، والحشر، والنفخ في الصور.

أما البعث فالمراد به: المعاد الجسماني، فإنه المتبادر عند الإطلاق إذ هو الذي يجب اعتقاده ويكفر منكره. قال الجلال الدواني: هو بإجماع أهل الملل وبشهادة نصوص القرآن بحيث لا يقبل التأويل.

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو حاتم والإسماعيلي في معجمه، والحافظ الضياء في المختارة، وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بيده فقال: يا محمد يحيـي الله هذا بعد ما أرِم[1]؟ قال: «نعم يبعث الله هذا ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم». فنزلت الآيات من آخر يس أولم ير الإنسان إلى آخر السورة.

وهذا نص صريح في الحشر الجسماني يقلع عرق التأويل بالكلية.

وأما النشور فهو يرادف البعث في المعنى، يقال: نُشِر الميتُ إذا عاش وأنشره، الله إذا أحياه.

وأما الحشر فهو في اللغة الجمع، والمراد به جمع أجزاء الإنسان بعد التفريق ثم إحياء الأبدان بعد موتها.

واعلم أنه يجب الجزم شرعاً أن الله تعالى يبعث جميع العباد ويعيدهم بعد إيجادهم بجميع أجزائهم الأصلية وهي التي من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره، ويسوقهم إلى محشرهم لفصل القضاء، فإن هذا حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

فمن زعم عدم إعادة المعدوم ألزم بالمبدأ فإن المعاد مثل المبدأ بل هو عينه أو أيسر كما لا يخفى لأنه إما إيجاد ما انعدم أو جمع ما تفرق

---

(١) قوله أرم، أي: بلي. (د).

أو حيـي بعد ما أُميت، وهذه كلها ممكنة لا إحالة في شيء في ذلك أصلاً مع ما تواتر من أخبار الأنبياء والكتب السماوية ولا سيما في القرآن العظيم ما لا مزيد عليه.

تـنـبـيهـان:

الأول: اختلف الناس هل البعث إعادة بعد تفريق أو إيجاد معدوم؟.

قال العلامة الشيخ مرعي: قال العلماء: إن الله تعالى يجمع ما تفرق من أجساد الناس من بطون السباع وحيوانات الماء وبطن الأرض وما أصاب النيران منها بالحرق والمياه بالغرق، وما أبلته الشمس وذرّته الرياح، فإذا جمعها وأكمل كل بدن منها ولم يبق إلاَّ الأرواح نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور فأرسلها بنفخة من ثقب الصور فترجع كل روح إلى جسدها فإذا هم قيام ينظرون.

والحاصل أن إعادة الأجسام حق يجب الإيمان به، ثم هذه الإعادة هل هي للعدم المحض؟ أو التفريق المحض والمشهور أنه جمع متفرق والأصح أنه إيجاد بعد عدم ونص عليه علماء السنة وكذا المعتزلة وهو مذهب المحققين.

الثاني: اختلف في إعادة الأعراض التي كانت قائمة بالأجساد في الدنيا، فمذهب الأكثرين أنها تعاد بأشخاصها التي كانت قائمة بالجسم حال الحياة وإليه ميل الأشعري من غير فرق فيها بين الأعراض التي يطول بقاء نوعها كالبياض وبين غيرها كالأصوات، وسواء كان مقدوراً للعبد كالضرب أو لا كالعلم والجهل، لأن نسبتها إلى قدرته تعالى كنسبة الأعيان، وقد قام الدليل على إعادتها فكذا أعراضها.

وقيل تمنع إعادة الأعراض مطلقاً كما ذهب إليه بعض الأشاعرة، وذهب

أكثر المعتزلة إلى امتناع الأعراض التي لا تبقى كالأصوات والإرادات، وقد نقل الإجماع غير واحد من العلماء آخرهم العلامة الشيخ مرعي وغيره من أهل السنة أن الأجساد الدنيوية تعاد بأعيانها وأعراضها والله تعالى أعلم.

وأما النفخ في الصور فالمراد به نفخة البعث والنشور.

واعلم أن النفخ في الصور ثلاث نفخات:

الأولى: نفخة الفزع وهي التي يتغير بها هذا العالم ويفسد نظامه، وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وإنما يحصل الفزع لشدة ما يقع من هول تلك النفخة، فقد أخرج ابن جرير والطبراني في المطولات وأبو يعلى في مسنده والبيهقي في البعث وأبو موسى المديني في المطولات وأبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ: «أن الله تعالى لما فرغ من خلق السماوات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصاً ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر، قلت يا رسول الله وما الصور؟ قال: القرن، قلت: أي شيء هو؟ قال: عظيم إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين، فيأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع فينفخ فيفزع أهل السماء والأرض إلاَّ من شاء الله فيأمره فيمدها ويطيلها ولا يفتر، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ۝١٥﴾، فيسيّر الله الجبال فتمر مر السحاب فتكون سراباً وترتج الأرض بأهلها رجاً فتكون كالسفينة الموقرة في البحر تضربها الأمواج أو كالقنديل المعلق

بالعرش ترجحه الأرواح[1]، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝ ﴾، فتميل الأرض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع وتضع الحوامل وتشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتي الأقطار فتتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع، ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً، وهو الذي يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾، فبينما هم على ذلك إذ تصدعت الأرض فانصدعت من قطر إلى قطر فرأوا أمراً عظيماً، ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم انشقت فانتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها، والأموات يومئذٍ لا يعلمون بشيء من ذلك قلت، يا رسول الله من استثنى الله في قوله: ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾، قال: أولئك الشهداء وإنما يتصل الفزع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون وقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم منه»، الحديث.

النفخة الثانية: نفخة الصعق وفيها هلاك كل شيء، قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

وقد فسر الصعق بالموت، وفي الحديث المتقدم الذي رواه ابن جرير ومن عطف عليه من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ ثم يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السماوات والأرض إلاَّ من شاء الله، فيقول ملك الموت قد مات أهل السماء والأرض إلاَّ من شاء الله، فيقول الله وهو أعلم فمن بقي؟ فيقول: إي رب، بقيت أنت الحي القيوم الذي لا يموت وبقيت حملة العرش وبقي جبريل وميكائيل وبقيت أنا، فيقول الله تعالى: فليمت جبريل وميكائيل

(١) ترجحه أي: تمرجحه، والأرواح جمع ريح. (د).

فيموتان، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار فيقول: قد مات جبريل وميكائيل فيقول الله تعالى: فليمت حملة العرش فيموتون، ويأمر الله العرش أن يقبض الصور من إسرافيل ثم يقول: ليمت إسرافيل فيموت، ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار فيقول: رب قد مات حملة العرش فيقول وهو أعلم: فمن بقي؟ فيقول: بقيت أنت الحي القيوم الذي لا يموت وبقيت أنا، فيقول: أنت خلق من خلقي خلقتك لما رأيت فمت فيموت فإذا لم يبق إلاَّ الله الواحد القهار طوى السماء والأرض كطي السجل للكتاب وقال: أنا الجبار، لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات فلم يجبه أحد، ثم يقول لنفسه: لله الواحد القهار. وتبدل الأرض غير الأرض والسموات فيبسطها ويسطحها ويمدها مد الأديم لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً[1]»، الحديث.

النفخة الثالثة: نفخة البعث والنشور، وقد جاء في الكتاب العزيز آيات تدل عليها كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية.

قال المفسرون: المنادي هو إسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور وينادي أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

وقيل: ينفخ إسرافيل وينادي جبريل والمكان القريب صخرة بيت المقدس وبين النفختين أربعون عاماً. وفي تفسير الثعلبي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «إن الله تعالى يرسل مطراً على الأرض فينزل عليها أربعين يوماً حتى يكون فوقهم اثني عشر ذراعاً فيأمر الله تعالى

(١) أي: انخفاضاً ولا ارتفاعاً. (د).

الأجساد أن تنبت كنبات البقل حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت قال الله تعالى: ليحيى حملة العرش، ليحيي جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ثم يدعو الأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نوراً والأخرى ظلمة فيقبضها جميعاً، ثم يلقيها في الصور، ثم يأمره أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح كلها كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض، ثم يقول الله تعالى: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها، فتدخل، الأرواح من الخياشيم ثم تمشي مشي السم في اللديغ، ثم تشقق الأرض عنهم سراعاً فأنا أول من تنشق عنه الأرض، فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون».

وروى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلاَّ عَجْب ذنبه، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: مثل حبة خردل منه تنبتون».

شرح ابن مانع

قوله: **(واجزم)**، أي: جزم إيقان وإذعان **(بأمر البعث)** بعد الموت **(والنشور)** من القبور، **(والحشر)** لأجل الجزاء، وفصل القضاء. **(جزماً)**: مصدر مؤكد لعامله الذي هو أجزم. **(بعد)**: ظرف زمان. **(نفخ الصور)**: المراد نفخة البعث، وفي الترمذي وحسنه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه».

وحاصل ما ذكر في هذا البيت أربعة أشياء: البعث، والنشور، والحشر، والنفخ في الصور.

أما البعث فالمراد به: المعاد الجسماني. فإنه المتبادر عند الإطلاق، ويجب الإيمان به واعتقاده ويكفر منكره.

وأما النشور: فهو يرادف البعث في المعنى. يقال: نشر الميت ينشر نشوراً إذا عاش بعد الموت. وأنشره الله، أي: أحياه. ومنه قوله: ﴿يوم البعث والنشور﴾.

وأما الحشر: فهو في اللغة: الجمع. تقول: حشرت الناس إذا جمعتهم، والمراد به: جمع أجزاء الإنسان بعد التفرقة، ثم إحياء الأبدان بعد موتها.

وأما النفخ في الصور: فهو ثلاث نفخات: نفخة الفزع، وهي التي يتغير بها العالم ويفسد نظامه. وهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

يقول تعالى: وما ينظر، أي: ما ينتظر هؤلاء؟ أي: كفار مكة. إلاَّ صيحة واحدة: وهي النفخة الكائنة عند قيام الساعة. ما لها من فواق: في محل نصب صفة لصيحة.

قال الزجاج: فواق ـ بفتح الفاء وضمها ـ لغتان بمعنى واحد، وهو الزمان الذي بين حلبتي الحالب، ورضعتي الراضع.

وقال السدي: ما لها من إفاقة، ونفخة الصعق وفيها هلاك العالم. قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ﴾. وقد فسر الصعق بالموت ونفخة البعث، وقد دل عليها قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

* * *

كذا وُقُوفُ الخَلْقِ للحِسَابِ والصُّحُفُ والمِيزَانُ للثَّواب

شرح ابن شطي

(كذا)، أي: كما يجب الجزم بالبعث والنشور والحشر بعد النفخ في الصور يجب أن نجزم بأمر (وقوف الخلق) من الإنس والجن والدواب والطير وغيرهم، قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾.

والحاصل أن الله تعالى يجمع في ذلك اليوم الأولين والآخرين حتى لا يدري الشخص أين يضع قدمه لشدة الزحام.

واعلم أن ليوم الوقوف أهوالاً عظيمة وشدائد جسيمة تذيب الأكباد، وتذهل المراضع وتشيب الأولاد، وهو حق ثابت ورد به الكتاب والسنة وانعقد عليه الإجماع وهو يوم القيامة.

روى أبو يعلى بإسناد صحيح وابن حبان في صحيحه عن أبـي هريرة رضي الله عنه عن النبـي ﷺ قال: «يوم يقوم الناس لرب العالمين مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة فيهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب».

قيل إنما سمي يوم القيامة لقيام الملائكة والروح فيه صفاً.

وأخرج الشيخان عن أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً يلجمهم حتى يبلغ آذانهم».

وأخرج مسلم عن المقداد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون

قدر ميل أو ميلين، قال فتصهرهم[1] الشمس فيكونون في العرق كقدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عقبيه ومنهم من يأخذه إلى حقويه[2]، ومنهم من يلجمه إلجاماً.

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «الأرض كلها نار يوم القيامة والجنة من ورائها كواعبها وأكوابها»[3].

قال الحفاظ: قد صح أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام فيكون قد سلموا من تلك الأهوال.

وهذا الوقوف مع ما مرّ (**للحساب**) الثابت بالكتاب والسنَّة وإجماع أهل الحق، قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٣ ﴾، وقال في حق أعدائه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾.

والحساب اصطلاحاً: توقيف الله تعالى عباده قبل الانصراف من المحشر على أعمالهم خيراً كانت أو شراً تفصيلاً بالوزن إلاَّ من استثنى منهم.

أخرج الترمذي من حديث أبي برزة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه: وعن علمه ما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه».

---

(١) الصهر: الإذابة، من باب فتح. (د).

(٢) تثنية حقو وهو موضع الإزار. (د).

(٣) الكواعب: الجواري جمع كاعب، والأكواب: أقداح لا عرى لها، جمع كوب. (د).

تـنـبـيـهـات:

الأولى: كيفيات الحساب مختلفة وأحواله متباينة. فمنه العسير، ومنه اليسير، ومنه العدل والجهد، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ والتبكيت، ومنه الفضل والصفح، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

الثاني: أول ما يحاسب العلماء والغازون وأرباب الأموال والسعة، وأول ما يحاسب عليه الصلاة. أخرج النسائي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما يحاسب عليه العبد صلاته وأول ما يقضى بين الناس في الدماء».

الثالث: اختلف في المسؤول عنه والسؤال، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: عن لا إلـه إلاَّ الله، وقال الضحاك: عن خطاياهم، وقال القرطبي: عن جميع أقوالهم وأفعالهم: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

قال النسفي في بحر الكلام: الأنبياء لا حساب عليهم، وكذلك أطفال المؤمنين، وكذلك العشرة المبشرون بالجنة، هذا حساب المناقشة، وعموم الآيات الكريمة مخصوص بأحاديث من يدخل الجنة بغير حساب.

ولهذا قال علماؤنا في عقائدهم: ويحاسب المسلمون المكلفون إلاَّ من شاء الله تعالى أن يدخل الجنة بغير حساب وكل مكلف مسؤول، ويسأل من شاء من الرسل عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب الرسل.

قال البلباني: فالكفار لا يحاسبون بمعنى أن صحائف أعمالهم لا توزن، وإن فعل كافر قربة من نحو عتق أو صدقة أو ظلمه مسلم رجونا

له أن يخفف عنه العذاب. انتهى، ولعل مراده غير عذاب الكفر.

الرابع: ثبت في عدة أخبار عن النبـي المختار ﷺ ما كر الليل والنهار أن طائفة من هذه الأمة بلا ارتياب يدخلون الجنة بلا حساب، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «عرضت علي الأمم، يمر النبـي معه الرجل والنبـي معه الرجلان والنبـي ليس معه أحد والنبـي معه الرهط، فرأيت سواداً كثيراً فرجوت أن تكون أمتي فقيل لي هذا موسى وقومه، ثم قيل لي انظر فرأيت سواداً كثيراً قد سد الأفق فقيل هكذا وهكذا فرأيت سواداً كثيراً فقيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب». فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله ﷺ. فتذاكر ذلك أصحابه فقالوا: أما نحن فولدنا على شرك ولكن قد آمنا بالله ورسوله هؤلاء أبناؤنا. فقال رسول الله ﷺ: «هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن فقال: أنا منهم وفي لفظ: أدع الله أن أكون منهم يا رسول الله، قال: نعم، ثم قام آخر فقال أنا منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة».

وأخرج الإمام أحمد وأبو يعلى عن أبـي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالقمر ليلة البدر وقلوبهم على قلب رجل واحد فاستزدت ربـي فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً».

قال أبو بكر فرأيت أن ذلك يأتي على أهل القرى ويصيب من حافات البوادي.

ولما أنهينا الكلام على الحساب ثنينا بالعطف على شرح الصحف والميزان المشار إلى ذلك في قوله (و) كذا وقوف الخلق لأخذ (**الصحف**) جمع صحيفة وهي الكتب التي كتبها الملائكة وأحصوا ما فعله كل إنسان من سائر أعماله في الدنيا القولية والفعلية.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾، وإنما يؤتى بالصحف إلزاماً للعباد ورفعاً للجدل والعناد.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾.

والحاصل أن نشر الصحف وأخذها باليمين والشمال مما يجب الإيمان به وعقد القلب بأنه حق لثبوته بالكتاب والسنة والإجماع، فقد أخرج العقيلي عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «الكتب كلها تحت العرش فإذا كان يوم القيامة يبعث الله ريحاً فتطيرها بالإيمان والشمائل، أول خط فيها: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾.

قال قتادة: سيقرأ يومئذٍ من لم يكن قارئاً في الدنيا.

(و) كذا وقوف الخلق لأجل (**الميزان**).

اعلم أن مراتب المعاد البعث والنشور، ثم الحشر، ثم القيام لرب العالمين، ثم العرض، ثم تطاير الصحف، ثم السؤال والحساب، ثم الميزان (**للثواب**)، أي: ثواب الأعمال الصالحة وغب عن[1] السيئات الفاضحة.

---

(١) أي: عاقبة. (د).

قال علماؤنا كغيرهم: نؤمن بأن الميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات حق، قالوا: وله لسان وكفتان توزن به صحائف الأعمال، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: توزن الحسنات في أحسن صورة والسيئات في أقبح صورة.

قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة فإن المحاسبة لتقرير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها، قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

والحق أن الكفار لا يقيم الله تعالى لهم وزناً لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾.

ومن قال: توزن أعمالهم لوروده في ظواهر عموم الآيات والأحاديث يجيب عن الآية الكريمة بأنه تعالى لا يقيم لهم وزناً نافعاً، والحق أن مؤمني الجن كالإنس في الوزن وكافرهم ككافرهم، وقد دلت الآثار على أنه ميزان حقيقي ذو كفتين ولسان وصرح بذلك علماؤنا والأشعرية وغيرهم وقد بلغت أحاديثه مبلغ التواتر وانعقد إجماع أهل الحق من المسلمين عليه.

تنبيهات:

الأول: اختلف في الميزان هل هو واحد أو أكثر؟

فالأشهر أنه ميزان واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال كفتاه كأطباق السماوات والأرض، وقيل: أنه لكل أمة ميزان، وقال الحسن البصري:

لكل واحد من المكلفين ميزان، قال بعضهم: الأظهر إثبات موازين يوم القيامة لا ميزان واحد لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾.

وقال بعضهم: إنما جمع الموازين في الآية الكريمة لكثرة من توزن أعمالهم وهو حسن.

الثاني: اختلف في الموزون، قيل: يوزن العبد مع عمله، وقيل: توزن نفس الأعمال فتصور الأعمال الحسنة بصورة حسنة نورانية ثم تطرح في كفة النور وهي اليمين المعدة للحسنات فتثقل بفضل الله سبحانه وتعالى، وتصور الأعمال السيئة بصورة قبيحة ظلمانية ثم تطرح في الكفة المظلمة وهي الشمال المعدة للسيئات فتخفف بعدل الله سبحانه وتعالى كما جاء به الحديث، والحق ما قدمناه أن الموزون صحف الأعمال وصححه ابن عبد البر والقرطبي وغيرهما، وصوبه الشيخ مرعي في بهجته وذهب إليه جمهور المفسرين.

الثالث: إن قيل ما الحكمة في الوزن مع أن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء؟ أجاب الثعلبي بأن الحكمة في ذلك تعريف الله تعالى عباده ما لهم عنده من الجزاء من خير أو شر، وقال العلامة الشيخ مرعي: بل الحكمة فيه إظهار العدل وبيان الفضل حيث أنه يزن مثاقيل الذر من خير أو شر ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

الرابع: ظواهر الآثار وأقوال العلماء أن كيفية الوزن في الآخرة خفة وثقلاً مثل كيفيته في الدنيا، ما ثقل نزل إلى أسفل ثم يرفع إلى عليين، وما خف طاش إلى أعلى ثم نزل إلى سجين، وبه صرح جموع.

وذكر بعضهم في صفة الوزن أن تجعل جميع أعمال العباد في

الميزان في مرة واحدة الحسنات في كفة النور وهي عن يمين العرش جهة الجنة، والسيئات في كفة الظلمة وهي عن يساره جهة النار، ويخلق الله تعالى لكل إنسان علماً ضرورياً يدرك به خفة أعماله وثقلها.

شرح ابن مانع

قوله: **(كذا)**، أي: كما يجب الإيمان بالبعث، وما عطف عليه يجب الجزم، والإيمان بأمر **(وقوف الخلق)** من الإنس، والجن، والدواب، والطير.

قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾. والضمير المنصوب في قوله تعالى: «وحشرناهم». مراد به الخلائق **(للحساب)** الثابت بالكتاب والسنة، وإجماع أهل الحق بلا ارتياب. قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾. وقال تعالى في حق أعدائه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾.

قال الثعلبي: الحساب: تعريف الله عز وجل الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك. يدل على هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ۚ﴾. أحصاه الله ونسوه. (و) كذا وقوف الخلق لأخذ **(الصحف)**، جمع: صحيفة وهي التي كتبتها الملائكة، وأحصوا ما فعله كل إنسان من سائر أعماله في الدنيا القولية والفعلية.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾﴾. أي: فتحت وبسطت للحساب؛ لأنها تطوى عند الموت وتنشر عند الحساب، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها، فيقول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾.

ويجوز أن يراد: نشرت بين أصحابها، أي: فرقت بينهم، وكذا (و)قوف الخلق لأجل (**الميزان للثواب**)، أي: ثواب الأعمال الصالحة، وبيان السيئات الفاضحة.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

والحق أن الكفار لا يقيم الله تعالى لهم وزناً لقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾. ومن قال: توزن أعمالهم لوروده في ظواهر الآيات. قال مجيباً الآية الكريمة: بأنه تعالى لا يقيم لهم وزناً نافعاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾. أي: كالهباء في عدم نفعه وحصول فائدة.

والحق أن مؤمني الجن كالإنس في الوزن، وكافرهم ككافرهم.

قال العلامة الشيخ مرعي: أن المراد بالميزان: الميزان الحقيقي لا مجرد العدل خلافاً لبعضهم.

قال العلماء: له لسان وكفتان توزن به صحائف الأعمال.

قال ابن عباس: توزن الحسنات في أحسن صورة، والسيئات في أقبح صورة.

* * *

كذا الصراطُ ثُمَّ حَوْضُ المصطفَى فَيَا هَنَا لمن بِهِ نَالَ الشِّفَا

ولما انتهى الكلام على الوقوف والحساب وتطاير الصحف والميزان للثواب أعقب ذلك بذكر الصراط فقال:

و (**كذا**) أجزم بثبوت (**الصراط**) فإنه حق ثابت وهو في الشرع جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون، فهو قنطرة جهنم بين الجنة والنار، وخلق من حين خلقت جهنم.

قال العلماء: الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف وأحمى من الجمرة.

فقد أخرج الطبراني بإسناد حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: يوضع الصراط على سواء جهنم مثل حد السيف المرهف مدحضة، أي: مزلقة مزلة، أي: لا تثبت عليه قدم بل تزل عنه إلاَّ من يثبته الله تعالى، عليه كلاليب من نار تخطف أهلها فتمسك بهواديها[1] ويستبقون عليه بأعمالهم فمنهم من شده[2] كالبرق، ومنهم من شده كالريح، ومنهم من شده كالفرس الجواد، ومنهم من شده كهرولة الرجل ثم كرمَل الرجل، ثم كمشي الرجل، وآخر من يدخل الجنة رجل قد لوحته[3] النار فيقول الله له، سل وتمن، فإذا فرغ قال: لك ما سألت ومثله معه.

وأخرج ابن عساكر عن الفضل بن عياض قال: بلغنا أن الصراط

(١) الهوادي: هي الجوانب. (د).

(٢) الشد: هو العدو. (د).

(٣) أي: غيرته. (د).

مسيرة خمس عشرة ألف سنة، خمسة آلاف صعود وخمسة آلاف هبوط وخمسة آلاف مستوي.

(**ثم**) اجزم بثبوت (**حوض**) النبي (**المصطفى**) ﷺ فإنه حق ثابت بإجماع أهل الحق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾، قال السيوطي: ورد ذكر الحوض من رواية بضعة وخمسين صحابياً منهم الخلفاء الأربعة الراشدون وحفاظ الصحابة المكثرون وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ثم ذكر الأحاديث عنهم واحداً واحداً.

قال القرطبي: ذهب صاحب القوت إلى أن الحوض بعد الصراط، قال: والصحيح أنه قبله وكذا قال الغزالي.

وقال القرطبي في التذكرة: الصحيح أن للنبي ﷺ حوضين أحدهما في الموقف قبل الصراط والثاني في الجنة وكلاهما يسمى كوثراً، ولا يخطر ببالك أن هذا الحوض يكون على وجه هذه الأرض وإنما يكون وجوده على الأرض المبدلة على مسافات هذه الأقطار، وفي المواضع التي تكون بدلاً من هذه المواضع في هذه الأرض. وهي أرض بيضاء كالفضة لم يسفك عليها دم ولم يظلم على ظهرها أحد قط.

أخرج الشيخان وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبداً.

ومن ثم قال: (**فيا هنا**) قال في القاموس: الهناء والمهنأ ما أتاك بلا مشقة وهو هنيء سائغ، كأنه يقول: أيها الشارب السائغ الهنيء الآتي بلا مشقة أقبل (**لمن**)، أي: على شخص من ذكر وأنثى (**به**)، أي: بسبب

الشرب منه (نال)، أي: أعطي (الشفا) من ظمأ ذلك اليوم، والشفاء هو الدواء.

شرح ابن مانع

قوله: **(كذا الصراط)**، أي: يجب الإيمان به؛ لأنه حق ثابت، وهو لغة: الطريق الواضح، ومنه قول جرير:

أميـر المـؤمنيـن علـى صـراط إذا اعـوج المـوارد مستقيـم

وفي الشرع: جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون، فهو قنطرة بين الجنة والنار، وخلق من حين خلقت جهنم.

ونقل في كنز الأسرار عن بعض أهل العلم: أنه يجوز أن يخلقه الله تعالى حين يضرب على متن جهنم، والله أعلم.

(ثم) اجزم بعد البعث، والنشور، وأخذ الصحف والمرور بثبوت **(حوض المصطفى)**، وهو نبينا محمد ﷺ، فإنه حق بإجماع أهل الحق، وقد ورد في الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه عدد نجوم السماء، من شرب منه لا يظمأ أبداً».

(فيا هنا): الهنيء ما أتاك بلا مشقة، كأنه يقول: أيها الشراب السائغ الهنيء الآتي بلا مشقة أقبل. **(لمن)**، أي: على أي شخص من ذكر أو أنثى. **(به)**، أي: سبب الشرب منه. **(نال)**، أي: أصاب، ومراده أعطى **(الشفا)** من ظمأ ذلك اليوم.

* * *

عنه يُذادُ المُفْتَرى كَمَا وَرَدْ وَمَنْ نَحَا سُبْلَ السَّلاَمَ لَم يُرَدْ

(عنه)، أي: عن حوض النبي ﷺ وعن الشرب منه (يذاد) بضم التحتية وفتح الذال المعجمة مبني لما لم يسم فاعله، أي: يطرد (المفتري) نائب الفاعل من الفرية، يقال افترى إذا كذب.

أخرج الحكيم في نوادر الأصول عن عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «يا عثمان لا ترغب عن سنتي فمن رغب عن سنتي ثم مات قبل أن يتوب ضربت الملائكة وجهه عن حوضي يوم القيامة».

وأخرج الطبراني من حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «ليرفعن لي رجال من أصحابي حتى إذا رأيتهم اختلجوا دوني فأقول أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»، فهذا معنى قوله: (كما ورد) ذلك في الأحاديث مما ذكرنا ومما لم نذكر.

قال القرطبي: قال علماؤنا: كل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذنه به فهو من المطرودين عن الحوض، وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين كالخوارج والروافض والمعتزلة، وكذا الظلمة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وإذلال أهله، والمعلنون لكبائر الذنوب المستخفون بالمعاصي وجماعة أهل الزيغ والبدع. ثم الطرد قد يكون في حال ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد.

(ومن)، أي: وأي شخص من هذه الأمة (نحا)، أي: قصد (سبل)

بضم السين المهملة جمع سبيل وهو الطريق **(السلامة)** من الكلمات الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، قال في القاموس: السلامة البراءة من العيوب، يعني: أن من نهج منهج الحق وسلك طريق السنة وسلم من البدع وكبائر الذنوب فإنه يرد على حوض النبي ﷺ ويشرب منه، **(لم يرد)** عن الشرب منه ولم يطرد.

تنبيهان:

الأول: خالفت المعتزلة فلم تقل بإثبات الحوض مع ثبوته بالسنة الصريحة الصحيحة، فكل من خالف في إثباته فهو مبتدع، وأما ثبوته بالقرآن فاحتمال وليس بصريح. فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾، ففيه اختلاف هل هو الحوض أو الخير الكثير أو النهر الذي في الجنة؟ لكن الحوض ثابت بالسنة المتواترة وظاهر الكتاب.

الثاني: جاء في الأخبار أن لكل نبي حوضاً فأخرج الترمذي من حديث سمرة بن جندب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن لكل نبي حوضاً ترده أمته وإنهم يتباهون أيهم أكثر وارده، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة.

شرح ابن مانع

قوله **(عنه)**، أي: عن حوض المصطفى ﷺ. **(يذاد)**، أي: يطرد **(المفترى)** من الفرية ــ بكسر الفاء ــ أي: الكذب، فالمطرود عن حوضه ﷺ من كذب على الله ورسوله، وأحدث في الدين ما لم يأذن به الله ولا رسوله **(كما ورد)** ذلك في أحاديث، منها ما أخرجه الشيخان عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن

إلي رجال منكم إذا أهويت لأناولهم، اختلجوا دوني فأقول: أي رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

قال في جامع الأصول: اختلجوا إذا استلبوا وأخذوا بسرعة.

قال القرطبي: قال علماؤنا: كل من ارتد عن دين الله، أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله، ولم يأذن به، فهو من المطرودين عن الحوض، وأشدهم طراد من خالف جماعة المسلمين، كالخوارج، والروافض، والمعتزلة. (**ومن**)، أي: أي شخص (**نحا**)، أي: قصد. (**سبل**): جمع سبيل وهو الطريق. (**السلامة**)، أي: البراءة من عيوب البدع المضلة وكبائر الذنوب، فإنه يرد الحوض و (**لم يرد**) عنه لكونه متبعاً لا مبتدعاً سالكاً سبيل النجاة، وأما من خالف رسول الله ﷺ قولاً أو فعلاً، وإن خدعته نفسه بأنه معظم لرسول الله، ومحب له، فهذا جاهل مغرور يقال له غداً عند الورود بعداً وسحقاً.



فَكُنْ مُطِيعاً واقْفُ أَهْلَ الطَّاعَةِ   فِي الحَوْضِ وَالكَوْثَرِ وَالشَّفَاعَةِ

شرح ابن شطي

(فكن) أيها الناظر لنظامي السامع لكلامي (مطيعاً) لما جاءت به الأخبار (واقف) أمر من قفوته تبعته، أي: اتبع في اعتقادك (أهل الطاعة) من فرقة أهل السنة والجماعة (في) اعتقاد إثبات (الحوض) الذي تقدم ذكره، (و) اقف أهل الطاعة في إثبات (الكوثر).

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، قال: فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر.

(و)اقف أهل الطاعة واتبع أهل السنة والجماعة في (الشفاعة) وهي لغة: الوسيلة والطلب، وعرفاً سؤال الخير للغير.

واعلم أن للنبي ﷺ شفاعات، الأولى العظمى التي يشفع بها لأهل الموقف حتى يقضى بينهم بعد أن يتدافعها الأنبياء أصحاب الشرائع آدم إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وهي المقام المحمود. وقد وردت من حديث الصديق الأعظم وأنس وأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وحذيفة وعقبة بن عامر وأبي سعيد الخدري وسلمان الفارسي، هؤلاء ورد أمر الشفاعة في أحاديثهم مطولاً، وورد مختصراً من حديث أبي بن كعب وعبادة بن الصامت وجابر بن عبد الله وعبد الله بن سلام وغيرهم رضي الله تعالى عنهم.

فـائـدتـان:

الأولى: هذه الشفاعة العامة التي خص بها النبـي ﷺ من بين سائر الأنبياء هي المراد بقوله ﷺ: «لكل نبـي دعوة مستجابة فتعجل كل نبـي دعوته وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي». وهذه الشفاعة لأهل الموقف إنما هي لأجل حسابهم ويراحوا من الموقف. قال السيوطي: وحديث لكل نبـي دعوة إلى آخره متواتر.

الثانية: شفاعة النبـي ﷺ نوع من السمعيات وردت بها الآثار حتى بلغت مبلغ التواتر المعنوي وانعقد عليها إجماع أهل الحق من السلف الصالح قبل ظهور المبتدعة، لكن هذه الشفاعة العظمى مجمع عليها لم ينكرها أحد ممن يقول بالحشر إذ هي للإراحة من طول الوقوف حين يتمنون الانصراف من موقفهم ذلك ولو إلى النار.

شرح ابن مانع

قوله: (**فكن**) أيها الناظر السامع (**مطيعاً**) لما جاءت به الأخبار وصحت بمقتضاه الآثار من صريح المنقول، وصحيح المعقول. (**واقف**)، أي: اتبع (**أهـل الطـاعـة**) مـن أهـل السنـة والجمـاعـة (**فـي**) اعتقـاد ثبـوت (**الحوض**) الذي تقدم ذكره، (و)اقف أهل السنة أيضاً في اعتقاد ثبوت (**الكوثر**) لنبينا محمد ﷺ، وهو نهر في الجنة كما فسره بذلك أكثر العلماء.

وفـي صحيـح البخـاري عـن أنـس رضـي الله عنـه قـال: لمـا عـرج النبـي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفاً. فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر». والذي عليه المحققون أن الكوثر غير الحوض، وأن الحوض قبل الصراط.

قال القرطبي: والمعنى يقتضي ذلك، فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً فناسب تقديمه لحاجة الناس. ورجح القاضي عياض أن الحوض بعد الصراط، وأن الشرب منه يقع بعد الحساب، والنجاة من النار.

وقال ابن حمدان: يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة، وبعد جواز الصراط، والله أعلم.

(و)اقف أهل الحق بثبوت (**الشفاعة**) لنبينا ﷺ، ولغيره ممن يأتي ذكرهم، وهي لغة: الوسيلة والطلب. وعرفاً: سؤال الخير للغير. كذا عرفها بعضهم، والحق أنها مشتقة من الشفع الذي هو ضد الوتر، فكان الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له، والمشفع ــ بكسر الفاء ــ الذي يقبل الشفاعة، والمشفع الذي تقبل شفاعته، فنبينا محمد ﷺ هو الشافع المشفع، ولكن شفاعته ما تكون إلاَّ للمخلصين الموحدين، ولما قال له ﷺ أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إلـه إلاَّ الله خالصاً من قلبه».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»، فهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً.

وأما من ابتدع في الدين وأشرك مخلوقاً في عبادة رب العالمين سواء كان مَلَكاً، أو نبياً، أو ولياً، أو ادعى أن الأموات ينفعون مَن دعاهم والتجأ إليهم، وأنهم وسائل بينه وبين الله، فهذا لا تناله شفاعة رسول الله ﷺ، إذ هي لأهل الإخلاص، وهذا ليس بمخلص، بل هو

مشرك وافق باعتقاده اعتقاد المشركين القائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، والشفاعة ما تكون إلاّ بعد الإذن والرضى.

قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

وأصل شرك العالم طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم، ولم يعلم الجاهلون أن الأموات قد انقطع عملهم، فلا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فضلاً عمن استغاث بهم وجعلهم وسائل وشفعاء بينه وبين الله.

* * *

فَـإِنَّهـا ثَـابِتَـةٌ لِلمُصطَفـى كَغَيرِهِ مِن كُل أرباب الوَفَا
مِـن عـالـم كـالرُّسـلِ والأبرارِ سِوَى الَّتي خُصت بِذي الأنْوارِ

شرح ابن شطي

(فإنها)، أي: الشفاعة العظمى وغيرها من الشفاعات الآتي ذكرها (ثابتة للمصطفى) ﷺ (كغيره)، أي: غير نبينا محمد ﷺ (من كل أرباب)، أي: أصحاب (الوفا) بامتثال الأوامر والانتهاء عن الزواجر.

ثم أخذ في بيان ما أجمل من أرباب الوفا بقوله (من عالم) عامل بعلمه معلم لغيره وهم الربانيون، وهؤلاء ورثة الأنبياء كما نفعوا الناس في الدنيا بالدلالة والتعليم، كذلك ينفعونهم بالشفاعة لهم عند المولى الكريم، فيقبل شفاعاتهم، ويعلي درجاتهم، (كالرسل) جمع رسول وكذا الأنبياء (والأبرار) جمع بار وهم الأتقياء الأخيار.

والحاصل إنه يجب أن يعتقد أن غير النبي ﷺ من سائر الرسل والأنبياء والملائكة والصحابة والشهداء والصديقين والأولياء على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم عند ربهم يشفعون وبقدر جاههم ووجاهتهم يشفّعون لثبوت الأخبار بذلك، وهو أمر جائز لا مستحيل فيجب تصديقه والقول بموجبه لثبوت الدليل، فقد قال ﷺ: «أنا أول شافع وأول مشفع» أخرجه مسلم.

وأخرج البيهقي وابن ماجه عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»، وأخرج البزار في آخره: ثم المؤذنون[1].

---

(١) أي: المحتسبون، لأن الأخبار التي وردت في فضلهم إنما يُراد بها من أذن محتسباً. (د).

والحاصل أن للناس شفاعات والقرآن يشفع لأهله والإسلام يشفع لأهله والحجر الأسود يشفع لمستلمه ولكن لا يشفعون إلاَّ لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾.

(سوى) الشفاعات **(التي خصت بذي)**، أي: صاحب **(الأنوار)** نبينا محمد ﷺ ما دارت الأدوار وتعاقب الليل والنهار، فلا يشاركه فيها نبي مرسل ولا ملك مقرّب لأنها مختصة بجنابه الرفيع.

والشفاعات المختصة به عدة:

أولها: لفصل القضاء وهي أعظمها.

ثانيها: يشفع عند ربه في إدخال قوم من أمته الجنة بغير حساب. فإن هذه أيضاً خاصة به ﷺ كما قال القاضي عياض والنووي، وتردد ابن دقيق العيد في الاختصاص وتبعه الحافظ ابن حجر. وقد روى حديث هذه الشفاعة مسلم في صحيحه، وجزم بالاختصاص السيوطي.

ثالثها: شفاعته ﷺ في قوم استوجبوا النار بأعمالهم فيشفع فيهم فلا يدخلونها، وهذه جزم القاضي وابن السبكي بعدم اختصاصها به ﷺ وتردد النووي في ذلك، وجزم السيوطي بأنها من خصائصه ﷺ.

رابعها: في رفع درجات ناس في الجنة وهذه لا تنكرها المعتزلة كالأولى إلاَّ أن النووي جوز اختصاصها به عليه الصلاة والسلام، وجزم في كتاب الانتقاد له باختصاصها به.

خامسها: الشفاعة في إخراج عموم أمته من النار حتى لا يبقى منهم أحد، ذكره السبكي. وبالشفاعة لجماعة من صلحاء المسلمين ليتجاوز عنهم في تقصيرهم في الطاعات، ذكره القزويني.

تـنـبـيـه: الشفاعة التي تنكرها المعتزلة هي فيمن استحق النار من المؤمنين أن لا يدخلها وفيمن دخلها منهم أن يخرج منها فكذبت بها المبتدعة ونفتها مع ثبوت أدلتها.

شرح ابن مانع

قوله: (**فإنها**)، أي: الشفاعة العظمى وغيرها من الشفاعات الآتي ذكرها (**ثابتة**) بالنقل الصحيح، بل المتواتر (**لـ**)نبي ا(**لمصطفى**) محمد ﷺ، (**كـ**)ما أنها ثابتة لـ(**غيره**)، أي: غير نبينا عليه الصلاة والسلام.

(**من كل أرباب**)، أي: أصحاب (**الوفا**) بامتثال الأوامر واجتناب النواهي (**من عالم**) عامل بعلمه، كما روى البيهقي عن جابر مرفوعاً: «يبعث العالم والعابد فيقال للعابد: أدخل الجنة، ويقال للعالم: أثبت حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم» (**كالرسل**) والأنبياء عليهم السلام.

وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «أنا أول شافع وأول مشفع» أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

وأخرج ابن ماجه والبيهقي عن عثمان بن عفان مرفوعاً: «يشفع يوم القيامة الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء».

(**والأبرار**): جمع بار. وهم الأتقياء الأخيار. فروى البيهقي وغيره عن أنس مرفوعاً: «أن الرجل يشفع في الرجل، والرجلين، والثلاثة يوم القيامة».

والحاصل أن للناس شفاعات بقدر أعمالهم وعلو مراتبهم، ولكن لا يشفعون إلاَّ لمن ارتضى، وهم من خشيته مشفقون من ذا الذي يشفع عنده إلاَّ بإذنه، (**سوى**) الشفاعات (**التي خصت بذي**)، أي: بصاحب

(الأنوار) نبينا محمد ﷺ، فلا يشاركه فيها نبي مرسل، ولا ملك مقرب.

وذكر الإمام ابن القيم أن الشفاعة ستة أنواع:

الأول: الشفاعة الكبرى، التي يتأخر عنها أولو العزم عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول: «أنا لها»، وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في المواقف، وهذه شفاعة يختص بها لا يشاركه فيها أحد.

الثاني: شفاعته لأهل الجنة في دخولها. وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه.

الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون بذنوبهم، والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ، وقد أجمع عليه الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدعوا من أنكرها وصاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضلال.

الخامس: شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم، وهذه مما لم ينازع فيها أحد، وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شفيعاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

السادس: شفاعته في بعض الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه، وهذه خاصة بأبي طالب وحده.

* * *

وَكُــلُّ إنســان وكُــلُّ جِنَّــةِ فِــي دارِ نــارٍ أو نَعيــمِ جَنَّــةِ

هما مصيرَ الخلقِ من كل الوَرَى فالنَّارُ دارُ من تَعدَّى وافْتَرى

وَمَــن عَصَــى بِــذَنْبِــهِ لــم يُخْلَــدِ

وإن دخلهــا يَــا بَــوارِ المُعتَــدِي[١]

شرح ابن شطي

فصل

في الكلام على الجنة والنار

ولما انتهى الكلام على الشفاعة أعقب ذلك بذكر العظيمتين وهما الجنة والنار فقال:

(وكل إنسان) من بني آدم **(وكل جنة)** بكسر الجيم وتشديد النون طائفة الجن، والجان اسم جمع للجن، أي: كل واحد من الثقلين اللذين هما الإنس والجن لا بد أن يكون **(في)** إحدى الدارين، إما في **(دار نار)** وهي دار البوار ومقر الكفار وهي جسم لطيف محرق يطلب العلو.

والنار سبع طباق: أعلاها جهنم، فلظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وباب كل واحدة منها من داخل الأخرى على الاستواء كما قاله ابن عطية وغيره.

(أو) في دار **(نعيم)** مقيم، **(جنة)** المولى الكريم.

---

(١) ما في (أ) كما في (ج) و (د)، (هـ).

فكل واحدة من الجنة والنار حق ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وكل ما هو كذلك فالإيمان به واجب واعتقاد وجوده حق. والمراد من الجنة دار الثواب ومن النار دار العقاب.

(**هما**)، أي: الجنة والنار (**مصير الخلق**) من الإنس والجن بل ومن الملائكة فإنهم يكونون في الجنة (**من كل الورى**) الخلق.

(**فالنار**) التي هي دار الهوان والبوار فهي (**دار من**)، أي: كل شخص من إنس وجن (**تعدى**) طوره وخالف مولاه فكفر به أو بأحد من رسله أو بكتاب من كتبه أو بشرع من شرعه على لسان نبي بعثه ولم ينسخه (**وافترى**) فيما عبد واجترى فيما قصد.

فكل من حكم الشرع بكفره من كافر أصلي من أهل الشرك وعبدة الأوثان، والكواكب والنيران، وأهل الشرائع المنسوخة بعد النسخ والتبديل، من أهل التوراة والإنجيل فهم خالدون مخلدون في النار.

(**ومن**)، أي: وكل عبد مؤمن بالله تعالى ورسوله ولو مبتدعاً لم يحكم الشرع بكفره (**عصى**) بمخالفة ربه وتعدى حدوده (**بذنبه**) ولو كان ذنبه من أكبر الكبائر كالقتل والزنا وأكل الربا ومات على الإيمان ولو لم يتب (**لم يخلد**) في النار (**وإن دخلها**) ليتطهر من الأوزار فإنه يخرج منها إما بشفاعة الشافعين أو رحمة أرحم الراحمين.

(**يا بوار**)، أي: يا هلاك (**المعتدي**) إشارة إلى تقبيح ما ذهبت إليه المعتزلة من زعمهم أن من دخل النار فهو خالد فيها لأنه إما كافر أو صاحب كبيرة مات بلا توبة، على ما سبق من أصولهم وتقدم الكلام على ذلك ما فيه كفاية.

قوله: (**وكل إنسان**). من بني آدم، فالإنس والإنسان من البشر، والواحد: إنس وإنسي، الجمع: أناسِيّ، والمرأة إنسان وبالهاء عامية كما في القاموس.

(**وكل جِنّة**) ــ بكسر الجيم وتشديد النون المفتوحة ــ طائفة الجن. والجان: اسم للجن، أي: كل واحد من الثقلين اللذين هما الإنس والجن لا بد أن يكون في إحدى الدارين: إما (**في دار نار**)، وهي دار البوار ومقر الكفار، (**أو**) في دار (**نعيم**) مقيم في (**جنة**) المولى الكريم الرؤوف الرحيم.

فكل واحدة من الجنة والنار، حق ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، وكل ما هو كذلك: فالإيمان به واجب.

والمراد من الجنة دار الثواب، ومن النار دار العقاب، ولقد أحسن القائل:

الموت باب وكل الناس داخله ... ياليت شعري بعد الموت ما الدار

الدار جنة خلد إن عملت بما ... يرضي الإلٰه وإن خالفت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما ... فانظر لنفسك أي الدار تختار

وفي البيت الناظم جناس محرف كقولهم: جبة البُرد جنة البَرد، والمراد لفظ البُرد ــ بالضم ــ والبرد ــ بالفتح ــ ، وأما لفظ الجبة والجنة فمن الجناس اللاحق، وسمي محرفاً لانحراف هيئة أحد اللفظين عن الآخر.

(**هما**)، أي: الجنة والنار. (**مصير**)، أي: مرجع ومآب (**الخلق**) بعد البعث (**من**) الإنس، والجن، أي: لا بد لـ(**كل**) واحد من (**الورى**)

كفتي الخلق من الإنس والجن، بل ومن الملائكة، فإنهم يكونون في الجنة.

(فالنار) التي هي **(دار)** البوار. دار **(من)**، أي: كل شخص **(تعدى)** طوره وخالف مولاه، فكفر به أو بأحد من رسله، أو بكتاب من كتبه، **(وافترى)** فيما عبد فلم يقف عند حدود الله بل تجاوز.

(ومن)، أي: أي شخص مؤمن بالله ورسوله ولو مبتدعاً لم يحكم الشرع بكفره. **(عصى)** ربه **(بذنبه)**، أي: بارتكاب ذنب غير مكفر، كالقتل، والزنا، وأكل الربا وغير ذلك من الذنوب، ومات على الإيمان ولم يتب مما ارتكبه **(لم يخلد)** في النار، **(وإن دخلها)** ليتطهر من الأوزار، فإنه يخرج منها إما بشفاعة الشافعين، أو برحمة أرحم الراحمين.

(يا بوار المعتدي)، أي: يا هلاكه. وفيه إشارة إلى تقبيح ما ذهبت إليه الخوارج والمعتزلة من زعمهم خلود المؤمن المصر في النار. والحق مذهب أهل الحق.

* * *

وَجَنَّـةُ النَّعِيـمِ لـلأَبْـرَارِ مَصُونَـةٌ عَـن سَائِـرِ الكُفَّـارِ
وَاجزمْ بأَنَّ النَّارَ كالجنَّةِ فِي وُجُـودِهـا وَأَنَّهَـا لَـمْ تتْلَـف

شرح ابن شطي

(وجنة النعيم) اعلم أن للجنة عدة أسماء باعتبار صفاتها ومسماها واحد باعتبار الذات، فهي مترادفة من هذا الوجه، وتختلف باعتبار الصفات فهي متباينة من هذا الوجه. فالاسم العام: الجنة، المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من النعيم، ومن أسماء الجنة: جنات النعيم.

وقوله: (للأبرار) إشارة إلى أن هذه اللام لام الاختصاص والاستحقاق فلا يدخلها ويسكنها غيرهم. والأبرار جمع بار وهو كثير، البر، والبر اسم جامع للخير. وقد ذكر الله تعالى في كتابه عدة آيات يخص الجنة بأهل الإيمان والتقوى كقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

وهذا في القرآن كثير ومداره على ثلاثة قواعد: إيمان، وتقوى، وعمل خالص لله عز وجل على موافقة السنة. فأهل هذه الثلاثة هم الأبرار وهم أهل البشرى دون من عداهم من سائر الخلق.

(مصونة)، أي: جنة النعيم محفوظة ومحمية (عن سائر)، أي: جميع (الكفار)، فالجنة لا تدخلها إلاَّ نفس مؤمنة بإجماع أهل الحق.

(واجزم بأن النار) وما فيها من أنواع العذاب موجود الآن ومن قبل الآن (كالجنة) وما فيها من النعيم (في وجودها) الآن فهما موجودتان.

قال المحقق: لم يزل أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم،

والتابعون وتابعوهم وأهل السنة قاطبة على اعتقاد ذلك وإثباته مستندين إلى نصوص الكتاب والسنة وما علم بالضرورة من أخبار الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم، فإنهم دعوا الأمم إليها وأخبروا بها إلى أن نبعت نابعة من القدرية والمعتزلة فأنكرت أن تكون الجنة كالنار الآن مخلوقة وقالوا: بل الله تعالى ينشئهما يوم المعاد، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد وقالوا خلق الجنة والنار قبل الجزاء عبث فحجروا على الرب تعالى بعقولهم الفاسدة، ولهذا صار السلف الصالح ومن نحا نحوهم يذكرون في عقائدهم أن الجنة والنار مخلوقتان.

وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى ورأى عندها الجنة كما في الصحيحين في صفة الإسراء وفي آخره قال: ثم دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك. وقد رأى النبي ﷺ الجنة في صلاة الكسوف حتى همّ أن يتناول عنقوداً من عنبها، ورأى النار فلم ير منظراً أفظع من ذلك وهذا في الصحيحين أيضاً.

(و)اجزم أيضاً بـ**(ـأنها)**، أي: النار **(لم تتلف)**، أي: لم تهلك وتبيد. يعني أن النار لا تفنى ولا يفتر ما فيها كالجنة وما فيها، قال المحقق: أما أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد فمما يعلم بالاضطرار أن رسول الله ﷺ أخبر به قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾. أي: غير مقطوع، ولا تنافي بين هذا وبين قوله إلاّ ما شاء ربك.

نعم اختلف السلف في هذا الاستثناء فقال الضحاك: هو في الذين يخرجون من النار فيدخلون الجنة يقول سبحانه أنهم خالدون في الجنة ما

دامت السماوات والأرض إلا مدة لبثهم في النار، وقالت فرقة أخرى: المراد بالسماوات والأرض سماء الجنة وأرضها فهما باقيتان أبداً وقيل غير ذلك.

وفي الصحيحين من حديث أبـي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبـي ﷺ أنه قال: «يجاء بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يقال: يا أهل الجنة فيطلعون مشفقين، ويقال: يا أهل النار فيطلعون فرحين، فيقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت، فيذبح بين الجنة والنار ويقال: يا أهل الجنة خلود ولا موت فيها ويا أهل النار خلود ولا موت فيها. ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وأشار بيده إلى الدنيا».

وفي هذا عدة أحاديث، وعلى هذا إجماع أهل السنة والجماعة، فأجمعوا على أن عذاب الكفار لا ينقطع كما أن نعيم أهل الجنة لا ينقطع ودليل ذلك الكتاب والسنة، وزعمت الجهمية أن الجنة والنار يفنيان وقال هذا إمامهم وليس له في ذلك سلف قط. نعم حكى بعض العلماء في أبدية النار قولين.

وقد ألف العلامة الشيخ مرعي الحنبلي رسالة توقيف الفريقين على خلود أهل الدارين.

تـنـبـيـه: ذهب جماعة إلى أن الموت عرض ومعنى، والأعراض لا تنقلب أجساماً، بل زعم بعضهم أن الموت عدم محض وأجابوا عن قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، بأن الخلق في هذه الآية التقدير، فإن قيل فعلى هذا كيف يأتي الموت في صورة كبش فيذبح؟ فالجواب نقل الحكيم

الترمذي أن مذهب السلف في هذا الحديث الوقوف عن الخوض في معناه فنؤمن به ونكل علمه إلى الله تعالى.

وذهب جماعة إلى أن الموت جسم لا عرض وأنه مخلوق في صورة كبش والحياة في صورة فرس. قال الأشعري: الموت أمر وجودي لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، والعدم لا يخلق انتهى.

وقال مقاتل والكلبي: خلق الموت في صورة كبش لا يمر على أحد إلاَّ مات وخلق الحياة في صورة فرس لا يمر على شيء إلاَّ حيـي.

قلت: الذي نذهب إليه أن الموت أمر وجودي وأنه جسم لا عرض وأنه مخلوق في صورة كبش أملح، وأن الحياة في صورة فرس كما صحت بذلك الأخبار، على أن كثيراً من العلماء أشار إلى أن جميع المعاني المعقولة عندنا مصورة عند الله تعالى بصورة الأجسام ومشخصة بهيئة الأشخاص وإن كنا لا نحس ذلك لكوننا محجوبين عنه، والأحاديث النبوية ناطقة بذلك فإنه قد ورد في عدة أخبار أن الأعمال تعرض في صورة أشخاص، الإسلام والصلاة والصيام والمعروف والذكر، فهذا كله يدل على ما ذكرنا.

تـتـمـة: في ذكر مكان الجنة والنار وأين هما.

اعلم أن الجنة فوق السماء السابعة وسقفها عرش الرحمٰن كما قال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾.

وقد ثبت أن سدرة المنتهى عندها جنة المأوى فوق السماء السابعة، وسميت بذلك لأنها ينتهي إليها ما ينزل من عند الله تعالى فيقبض منها وما يصعد إليه فيقبض منها.

وقد أخرج أبو نعيم عن عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال: قال أكرم خليقة الله أبو القاسم ﷺ: «إن الجنة في السماء».

وقال مجاهد: قلت لابن عباس رضي الله تعالى عنهما أين الجنة؟ قال: فوق سبع سموات، قلت: فأين النار؟ قال: تحت سبعة أبحر مطبقة. رواه ابن منده.

وفي الصحيحين أنه ﷺ قال: «الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» وهذا يدل على أنها في غاية العلو والارتفاع.

قال في حادي الأرواح: والجنة مقببة أعلاها أوسعها ووسطها الفردوس وسقفه العرش. وأخرج أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن جهنم محيطة بالدنيا، وإن الجنة وراءها»، فلذا كان الصراط على جهنم طريقاً إلى الجنة.

وأخرج جويبر في تفسيره عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله ﷺ من أين يجاء بجهنم يوم القيامة؟ قال: يجاء بها من الأرض السابعة لها سبعون ألف زمام معلق بكل زمام سبعون ألف ملك، تصيح إليّ أهلي إليّ أهلي، فإذا كانت من العباد على مسيرة مائة سنة زفرت زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلاَّ جثى على ركبتيه يقول: رب رب نفسي نفسي. وقيل إن النار في السماء كالجنة.

والحاصل أن الجنة فوق السماء السابعة وسقفها العرش، وأن النار في الأرض السابعة على الصحيح المعتمد وبالله تعالى التوفيق.

قوله: **(وجنة النعيم)**. اعلم أن للجنة عدة أسماء باعتبار صفاتها ومسماها واحد باعتبار الذات، فمن جملة تلك الأسماء: جنة النعيم، سميت بذلك لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول، والمشروب، والملبوس، وغير ذلك من أنواع النعيم الثابتة.

(للأبرار): جمع بار. وهو كثير البر الذي هو اسم جامع للخير.

(مصونة) تلك الجنة، أي: محفوظة. **(عن سائر الكفار)**، أي: جميعهم فلا يدخلونها؛ لأن الله تعالى أعدَّ لهم النار، كما قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ الآية.

قوله: **(واجزم)**، أي: جزم إيقان وإذعان **(بأن النار)** وما فيها من أصناف العذاب موجودة الآن ومن قبل الآن، **(كـ)**ـما أن **(الجنة)** وما فيها من النعيم المقيم موجودة الآن ومن قبله، فالنار **(في وجودها)** الآن، كالجنة فهما موجودتان، ولا تفنيان، ولذا قال: **(و)** اجزم أيضاً بـ **(أنها)**، أي: النار **(لم تتلف)**، أي: ولن تتلف وتبيد.

* * *

فَنَسْـأَلُ اللّٰـهَ النَّعِيـمَ والنَّظَـرَ ... لِرَبِّنَا مِن غَيْرِ ما شيْنٍ غبرَ
فَــإِنَّــهُ يُنظَــرُ بِــالأَبْصَــارِ ... كَمَا أَتَى فِي النَّصِ وَالأَخْبَارِ
لأَنَّــهُ سُبْحَـانَـهُ لَـمْ يُحْجَـبِ ... إِلاَّ عَـنِ الكَـافِـرِ وَالمُكَـذِّبِ

شرح ابن شطي

ولما أنهى الكلام على الجنة والنار أعقب ذلك بقوله:

(فنسأل الله) العظيم (النعيم) المقيم في جنات النعيم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(و) نسأل الله العظيم (النظر لربنا) مع أهل الطاعة والنجاة يوم القيامة (من غير ما) زائدة لمزيد النفي، أي: من غير (شين)، أي: عذاب ومناقشة حساب وتوبيخ وعتاب. والشين ضد الزين والمشاين المعايب.

(غبر)، ذهب، والمراد سبق يعني من غير سابق عذاب. وأما النظر إلى مولانا الكريم فهو من أصول أهل الحق خلافاً لأهل الضلال.

ومن ثم قال: (فإنه) سبحانه وتعالى (ينظر بالأبصار) في دار المقامة والقرار باتفاق أئمة الدين وسلف الأمة (كما أتى)، أي: جاء (في النص) القرآني، أصل النص أقصى الشيء وغايته ومنه قول الفقهاء نص القرآن ونص السنة، أي: ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام، (و) كما أتى في (الأخبار) النبوية والآثار السلفية وأجمع عليه أهل الحق.

ورؤية الله رب العالمين أعظم وأجل وأشرف وأنعم نعيم الجنة قدراً، وهي الغاية القصوى التي شمر لها السابقون وتنافس فيها المتنافسون، واتفق الأنبياء والمرسلون والصحابة والتابعون وأئمة السلف والدين على ثبوتها في دار القرار من غير شك ولا إنكار، قال الله تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾، وقال في حق أهل الكفر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾.

وأخرج مسلم والترمذي وابن ماجه عن صهيب رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ثم تلا هذه الآية: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. يعني: أنه يرفع الموانع عن الإدراك عن أبصارهم حتى يروه على ما هو عليه من نعوت العظمة والجلال.

فذكر الحجاب إنما هو في حق الخلق لا الخالق، كذا قال القرطبي في تذكرته. وأخرج اللالكائي في السنة من طريق مفضل بن عسال قال: سمعت يحيى بن معين يقول: عندي سبعة عشر حديثاً في الرؤية كلها صحاح.

ولهذه الأخبار أشار بقوله: (**لأنه**)، أي: الرب (**سبحانه**) وتعالى (**لم يحجب**) بضم التحتية مبنياً لما لم يسم فاعله، أي: لم يمتنع سبحانه وتعالى من أن يمكن عباده من رؤيته في دار القرار (**إلاّ عن الكافر**) بالله سبحانه وتعالى، فكل من حكم الشرع بكفره فهو محجوب عن رؤية ربه، (و) يحجب أيضاً تعالى عن (**المكذب**) برؤيته وبتكليمه لعباده المتقين كما أشار إليه عبد الله بن المبارك في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾، قال بالرؤية كما ذكره ابن أبـي الدنيا.

قال سيدنا الإمام أحمد: من لم يقل بالرؤية فهو جهمي.

فـوائـد:

الأولى: قال العلامة ابن حمدان كسائر علماء السنة: ونجزم بأن المؤمنين يرون ربهم تعالى يوم القيامة بالأبصار ويكلمهم على ما يليق به فيهما، ولا يراه الكفار ولا يكلمهم، ومن أنكر الرؤية كفر نص عليه الإمام أحمد انتهى.

وفي حادي الأرواح: الرب سبحانه وتعالى يُرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحاط به وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة رضي الله تعالى عنهم من قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾.

الثانية: ذهب جماعة من العلماء إلى أن النساء لا يرين الله تعالى في الآخرة، وذهب جماعة إلى أن الملائكة لا يرون الله تعالى أيضاً في الجنة، وهذا خلاف التحقيق، فإن النص الصريح الصحيح يرد هذا ويبعده، فعند الدارقطني مرفوعاً: «إذا كان يوم القيامة رأى المؤمنون ربهم عز وجل فأحدثهم عهداً بالنظر إليه في كل جمعة، ويراه المؤمنات يوم الفطر ويوم الأضحى»، أي: في مثل يوم الفطر والأضحى. وعموم الأحاديث الصحيحة شاملة للنساء من غير توقف.

وقد نص البيهقي فقال في كتاب الرؤية: ذكر ما جاء في رؤية الملائكة ربهم، فأخرج عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال: خلق الله لعبادته أصنافاً وأن منهم لملائكة قياماً صافين من يوم خلقهم إلى يوم القيامة، وملائكة ركوعاً خشوعاً من يوم خلقهم إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة تجلى لهم تبارك وتعالى فإذا نظروا إلى وجهه الكريم قالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. والحق الذي لا مرية فيه

أنهم يرونه تعالى بل ومؤمنو الجن يرونه، أما في الموقف فجزماً مع سائر المؤمنين وأما في الجنة ففي بعض الأوقات على ما يظهر، بل الظاهر أنهم يرونه إلا أنهم دون مؤمني الإنس في الرؤية في كل جمعة.

والحاصل أن رؤية الرب جل جلاله في الموقف حاصلة حتى لمنافقي هذه الأمة على الأصح، وأما الرؤية في الجنة فأجمع أهل السنة على أنها حاصلة للأنبياء والرسل والصديقين من كل أمة، ورجال المؤمنين من البشر من هذه الأمة واختلف في غيرهم.

الثالثة: اختلف العلماء في رؤية خاتم الأنبياء لربه في ليلة المعراج، فأثبتها ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ورجحه النووي، وقال القاضي عياض: وأما في الدنيا فقال مالك إنما لم ير سبحانه في الدنيا لأنه باقٍ والباقي لا يرى بالفاني فإذا كان في الآخرة رزقوا أبصاراً باقية فرأوا الباقي بالباقي.

قال القاضي: وليس في الكلام استحالة الرؤية إلاَّ من حيث القدرة فإذا أقدر الله من يشاء من عباده عليها لم يمتنع.

وقد وقع في صحيح مسلم ما يؤيد هذه التفرقة في حديث مرفوع فيه: واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا. لكن من أثبتها للنبي ﷺ له أن يقول: المتكلم لا يدخل في عموم كلامه.

والحاصل أن في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

أحدها: ثبوت رؤية النبـي ﷺ لربه وهو قول ابن عباس وأتباعه، وهو ظاهر ما ذهب إليه الإمام أحمد.

والثاني: منع ذلك في الدنيا وهو قول أم المؤمنين عائشة الصديقة

بنت الصديق رضي الله تعالى عنهما، ووافق عائشة رضي الله تعالى عنها جماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

الثالث: الوقف عن القطع بالنفي أو الإثبات في هذه المسألة. وقد رجح هذا جماعة منهم القرطبي في شرح مسلم فإنه قال: الوقف أرجح وعزاه لجماعة من المحققين وقواه بأنه ليس في الباب دليل قاطع وليست المسألة من العمليات وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفى فيها إلاَّ بالدليل القطعي.

شرح ابن مانع

قوله: (**فنسأل الله**) العظيم. (**النعيم**): المقيم في جنات النعيم، (**و**) نسأله سبحانه (**النظر لـ**)ـوجه (**ربنا**) مع أهل الطاعة.

(**من غير ما شين** [**غبر**][1]). ما: زائدة لتأكيد النفي. والشين: ضد الزين. والمراد به العذاب، (**فإنه**) سبحانه (**يُنظر**) ـ بالبناء للمفعول ـ (**بالأبصار**) في دار القرار. (**كما أتى**)، أي: جاء ذكر الرؤية (**في النص**) القرآني، وأصل النص أقصى الشيء وغايته، وقول الفقهاء نص القرآن، ونص السنة، أي: ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام، (**و**)كما أتى في (**الأخبار**) النبوية الثابتة. ففي الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنا جلوساً مع النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة أربعة عشر فقال: «إنكم سترون ربكم عياناً، كما ترون هذا لا تضارون في رؤيته» والتشبيه للرؤية بالرؤية لا للمرى بالمُرى، كما قاله الأئمة، والمعنى: ترون ربكم

---

(١) هذه الكلمة ساقطة من النظم وليست موجودة في شرح ابن مانع فلذا زدتها وجعلتها بين معكوفتين.

رؤية حقيقية ينزاح معها الشك، وتنتفي معها الريبة، كرؤيتكم القمر لا ترتابون ولا تمترون، وفي لفظ: لا تضامون، وروي ـ بتخفيف الميم وضم أوله ـ من الضيم، أي: لا يلحقكم في رؤيته ضيم، ولا مشقة ـ وبتشديدها والفتح ـ على حذف إحدى التاءين. والأصل لا تتضامون، أي: لا يضام بعضكم بعضاً، كما يفعل الناس في طلب الشيء الخفي الذي لا يسهل إدراكه، فيتزاحمون عند ذلك ينظرون إلى جهة يضام بعضهم بعضاً، يريد أنكم ترونه وكل واحد في مكانه.

قوله: **(لأنه)**، أي: الرب **(سبحانه)** وتعالى **(لم يحجب)** ـ بالبناء للمفعول ـ ، أي: لم يمتنع سبحانه من أن يمكن عباده من رؤيته في دار القرار، **(إلَّا عن الكافر)** بالله تعالى، وبكل مكفر اتصف به، فكل من حكم الشرع بكفره فهو محجوب عن رؤية ربه. وقد قال بعض الأئمة: ما حجب الله عز وجل أحداً عنه إلا عذبه، ثم قرأ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾، قال: الرؤية.

(و)يحجب أيضاً عن **(المكذب)** برؤيته وبتكليمه لعباده المتقين.

قال الإمام أحمد رحمه الله: من لم يقل بالرؤية فهو جهمي، ومن قال: إن الله لا يُرى في الآخرة فهو كافر، أو فقد كفر عليه لعنة الله وغضبه، كائناً من كان من الناس أليس الله عز وجل يقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

* * *

الباب الخامس

ومِـن عَظيـمِ مِنَّـةِ السَّـلام   وَلطفِـهِ بِسَـائِـرِ الأنَـام
أنْ أرشَد الخَلقَ إلَى الوُصُولِ   مُبيِّنـاً لِلحَـقِّ بـالـرَّسُـولِ

شرح ابن شطي

الباب الخامس

في ذكر النبوة وذكر نبينا محمد صلَّى الله تعالى عليه وسلم
وذكر بعض الأنبياء وفضل أصحابه وأمته صلَّى الله تعالى
عليه وسلَّم وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وسلم وعظم وكرم

اعلم أن حاجة الخلق إلى إرسال الرسل وبعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ضرورية لا ينتظم لهم حال ولا يصلح دين ولا بال إلَّا بذلك، فهم أشد احتياجاً إلى ذلك من إرسال المطر والهواء ومن النفَس الذي لا بد لهم منه. وزعمت البراهمة وهم طائفة من المجوس أن إرسال الرسل عبث لإغناء العقل عن الرسل، وقالت المعتزلة بوجوب ذلك على الله تعالى بالنظر إلى ذاته.

والحق أنه جائز عقلاً في حقه تعالى واجب سمعاً وشرعاً وإلى ذلك أشار بقوله:

(ومن عظيم منة) الرب (السلام) المنة مأخوذة من المن وهو الإحسان إلى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه. ومن أسماء الله تعالى المنان وهو المنعم المعطي، من المن وهو العطاء، والسلام من أسمائه تعالى ومعناه ذو السلامة من كل عيب ونقيصة.

(و) من عظيم (لطفه) تعالى، أي: رفقه (بسائر)، أي: جميع (الإنام) كسحاب الخلق (أن) بفتح الهمزة وسكون النون حرف مصدري تسبك مع ما بعدها بمصدر (أرشد)، أي: هدى ودل ودعا والرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلّب فيه. وإن وما بعدها في تأويل مصدر مبتدأ والخبر قوله في البيت قبله ومن عظيم إلى آخره، والتقدير رشد الخلق إلى الوصول كائن من عظيم منة السلام.

(الخلق) من الثقلين الإنس والجن (إلى الوصول) إلى معرفة الله تعالى وعبادته والقيامه بما شرعه من التكليف الذي ثمرته الفوز بالسلامة الأبدية (مبيناً)، أي: مظهراً وموضحاً (للحق) وهو الحكم المطابق للواقع، ويطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك ويقابله الباطل.

وأما الصدق فقد شاع في الأقوال ويُقابله الكذب، ويفرق بين الحق والصدق بأن المطابقة تعتبر في الحق من جانب الواقع والصدق من جانب الحكم، فعلى هذا معنى صدق الحكم مطابقته الواقع، ومعنى حقيقته مطابقة الواقع إياه، والمشهور فيهما مطابقة كل منهما للواقع.

(بالرسول) متعلق بمبين، سئل نبينا محمد ﷺ كما في صحيح ابن حبان عن عدد الأنبياء فقال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر وفي رواية وأربعة عشر، والأولى عدم حصرهم في

عدد معين لأن الحديث ضعيف وأولوا العزم منهم خمسة: محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم الصلاة والسلام.

تنبيهات:

الأول: في قوله: ومن عظيم منة السلام إلى آخر البيتين، إشارة إلى أن إرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع منة من الله تعالى وفضل لا واجب عليه ذلك وإنما هو على سبيل اللطف بالخلق ليبلغوهم عنه تعالى أمره ونهيه ووعده ووعيده ويبينوا لهم عنه سبحانه ما يحتاجون إليه من أمور المعاش والمعاد حتى تقوم الحجة عليهم بالبينات وينقطع عنهم سائر التعللات كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾، وقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، فلولا إنذاره تعالى إليهم على ألسنة الرسل وإقامة الحجة عليهم ببعثه أهل خيرته من ذوي النبوة والفضل لتوهموا أن لهم حجة سائغة ومعذرة بالغة لوجوه:

أحدها: أن يقولوا إنما خلقنا ربنا لعبادته وما بين لنا العبادة التي يريدها منا ما هي ولا كيف هي؟

ثانيها: أن يقولوا قد ركبنا ربنا في هياكل وأجسام تقبل السهو والغفلة وسلط علينا الشيطان والشهوة والهوى، فكان ينبغي أن يؤيدنا بمن إذا سهونا نبهنا وإذا مال بنا الهوى ردنا.

ثالثها: أن يقولوا: هب أنّا نعلم بعقولنا حسن الإيمان وقبح الكفر والعصيان لكنا لم يصل إدراك عقولنا إلى أن من فعل القبيح عذب.

التنبيه الثاني: أن الرسالة ضرورية للعباد، فإن الرسالة، روح العالم ونوره وحياته والدنيا مظلمة ملعونة إلاَّ ما طلعت عليه شمس الرسالة فمن أعظم نعم الله تعالى على عباده أن أرسل إليهم رسله ولولا ذلك لكانوا بمنزلة الأنعام وشر حالاً منها، فمن قبل رسالة الله تعالى واستقام عليها فهو من خير البرية، ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية، ولا بقاء لأهل الأرض إلاَّ ما دامت آثار الرسالة موجودة فيهم فإذا درست أخرب الله العالم وأقام القيامة.

الثالث: اعلم أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى وملائكته وكتبه ورسله مما اتفقت على وجوبه جميع الأنبياء والمرسلين، فيجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وتصديقهم في كل ما أخبروا به من الغيب وطاعتهم في كل ما أمروا به ونهوا عنه، ولهذا أوجب سبحانه الإيمان بكل ما أتوا به، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾، فاتفق علماء الملة على كفر من كذّب نبياً معلوم النبوّة لأن الإيمان واجب بجميع الأنبياء وأن لا يفرق بين أحد منهم.

شرح ابن مانع

الباب الخامس

في ذكر النبوّة

قوله: (**ومن عظيم منة**): الرب (**السلام**)، المنة: مأخوذة من المن، وهو الإحسان إلى من لا يستثيبه، ولا يطلب الجزاء عليه. ومن أسمائه تعالى: المنان، والسلام، ومعناه: ذو السلامة من كل عيب ونقيصة. (و)من عظيم (**لطفه**)، أي: رفقه. (**بسائر**)، أي: جميع. (**الأنام**)، أي:

الخلق، أو الإنس والجن. (**أن أرشد**)، أي: هدى ودل (**الخلق**) من الثقلين (**إلى الوصول**) إلى معرفته تعالى وعبادته، والقيام بما شرعه من التكليف الذي ثمرته الفوز بالسعادة الأبدية.

(**مبيناً**)، أي: مظهر النهج (**للحق**) وهو الحكم المطابق للواقع، ويطلق على الأقوال، والعقائد، والأديان، والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك. ويقابله الباطل. ومن أسمائه تعالى: الحق، أو من صفاته بحسب الاعتبار (**بالرسول**) متعلق بمبيناً، والرسول كما تقدم إنسان أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه، فإن لم يؤمر بتبليغه فنبيٌّ فقط، والأولى عدم حصرهم في عدد معين؛ لأن الحديث الوارد في ذلك ضعيف، وربما خالف قوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

* * *

وَشَـرْطُ مَـن أُكـرِمَ بـالنُّبُـوَّةِ　　　حُـــرِيَّــةٌ ذُكُـــورَةٌ كقُـــوَّةِ

(وشرط) مبتدأ (من)، أي: كل إنسان (أكرم) بضم الهمزة مبنياً لما لم يسم فاعله، أي: أكرمه الله تعالى (بالنبوّة) بضم النون والباء يجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفه، إما مشتق من النبأ، أي: الخبر لأنه ينبىء عن الله تعالى، أي: يخبر، وإما من النبوة وهي الشيء المرتفع لأن النبـي مرتفع الرتبة على سائر الخلق.

(حرية) خبر المبتدأ وذلك لأن الرق وصف نقص لا يليق بمقام النبوة، والنبـي داعياً للناس آناء الليل وأطراف النهار والرقيق لا يتيسر له ذلك، وأيضاً الرقية وصف نقص يأنف الناس ويستنكفون من اتباع من اتصف بها وأن يكون إماماً لهم وقدوة، وهي أثر الكفر والأنبياء منزهون عن ذلك.

وشرط من أكرمه الله تعالى بالنبوة أيضاً (ذكورة)، أي: أن يتصف بالذكورية لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾، فأثبت الرسالة للرجال الموحى إليهم وأشعر بنفي ذلك عن غيرهم فلا تكون أنثى نبية خلافاً لأهل التوراة الزاعمين نبوّة مريم ابنة عمران أخت موسى بن عمران وهارون عليهما السلام، وقد خالف في اشتراط الذكورية الأشعري ثم القرطبـي وتبعهما على ذلك أناس من العلماء، والحق اعتبار الذكورية لأن الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة والأنوثة تقتضي التستر وتنافي الاشتهار، وقد حكى ابن الملقن خلافاً في نبوة مريم وآسية وسارة وهاجر وأم موسى عليه السلام.

وقوله: (**كقوة**)، أي: كما يعتبر فيمن أكرمه الله تعالى بالنبوة أن يكون قوياً بأعباء ما حُمّل من ثقل النبوة، والقوّة الطاقة، ذا عقل صحيح وفهم رجيح وعلم بالأمور الدينية، حسن الخلق والخلق ليسهل عليه تحمل الخلق في مخالطتهم وتعليمهم لأمور الديانة، فإن الأنبياء منزهون عن جميع الرذائل من البخل والجبن واللهو واللغو وسائر الأخلاق الذميمة، كما أنهم مبرؤون من لؤم النسب وشره القلب وحرص النفس على الدنيا، ولهذا لم يبعث الله تعالى نبياً إلاّ في أشرف نسب أمته، فلم يبعث نبياً من ذي نسب مبذول كما لم يبعث نبياً عبداً ولا لئيماً ولا امرأة لعلو مرتبة الذكورة على الأنوثة.

والحاصل اختصاص النبوة بأشراف أفراد النوع الإنساني من كمال العقل والذكاء والفطنة وقوة الرأي ولو في الصبي كعيسى ويحيى عليهما السلام، والسلامة عن كل ما ينفر عن الاتباع كدناءة الآباء وعهر الأمهات والغلظة والفظاظة، والعيوب المنفرة للطباع كالبرص والجذام، والأمور المخلة بالمروءة كالأكل على الطريق، والحرف الدنيئة كالحجامة وكل ما يخل بحكمة البعثة ونحو ذلك وبالله تعالى التوفيق.

شرح ابن مانع

قوله: (**وشرط من**)، أي: كل إنسان. (**أكرم**) ــ بالبناء للمفعول ــ أي: أكرمه الله تعالى (**بالنبوة**). من النبأ، أي: الخبر، لأن النبي ينبىء عن الله، أي: يخبر. وقيل: من النبوّة، وهي الشيء المرتفع؛ لأن النبي مرتفع الرتبة على سائر الخلق.

و (**حرية**): خبر المبتدأ الذي هو شرط، وذلك لأن الرق، وصف

نقص لا يليق بمقام النبوّة، و (ذكورة)، لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾، فأثبت الرسالة للرجال الموحى إليهم، وأشعر بنفي ذلك عن غيرهم، فلا تكون أنثى نبيّة، خلافاً لأهل التوراة الزاعمين نبوّة مريم بنت عمران أخت موسى وهارون، وخالف في اشتراط الذكورة أبو الحسن الأشعري، وتبعه على ذلك أناس، والحق اعتبار الذكورية.

(كقوة)، أي: كما يعتبر فيمن أكرمه الله بالنبوّة أن يكون قوياً بأعباء ما حمل من ثقل النبوّة، والقوة: الطاقة. والجمع: قوى ــ بالضم وبالكسر ــ قال في القاموس: القوة ضد الضعف.

* * *

وَلا تَنــــالُ رُتْبَـــةُ النُّبــــوَّةَ بالكَسْبِ والتَّهذِيبِ والفُتُوَّة
لكنَّها فَضلٌ من المولَى الأجَلّ لِمن يشَأ مِن خَلْقِهِ إلى الأجَلْ

شرح ابن شطي

ولما ذكر ما أشعر بانفراد كمل النوع الإنساني بالنبوّة خشي أن يتوهم متوهّم بأن ذلك يدرك بالرياضة والتهذيب والجد والاجتهاد فنفى ذلك الوهم بقوله:

(ولا تنال) بضم التاء مبنياً لما لم يسم فاعله، أي: لم تعط **(رتبة)** بالرفع نائب الفاعل والرتبة المنزلة **(النبوّة)** بالجر لإضافتها إلى الرتبة وهي عبارة عن صفة عالية ينكشف بها من الغيوب التي هي مطلوبات الله تعالى من عباده وأحكامه التي يكلفهم بها انكشافاً يناسب انكشاف النار للذهن برؤية الدخان، والمراد بها ما يعم الرسالة كما لا يخفى.

(بالكسب) متعلق بلا تنال **(والتهذيب)**، أي: تنقية البدن وتصفية الأخلاق وخلوص البنية من الأخلاق الرذيلة وتبقية الأوصاف الجميلة، **(والفتوّة)**، أي: كرم النفس وتخليصها من الأوصاف المذمومة إلى الأوصاف المحمودة، فمذهب أهل الحق أن النبوّة لا تنال بمجرد الكسب بالجد والاجتهاد ورياضة نفسه وبدنه وتهذيب ذلك.

(لكنها)، أي: النبوّة والرسالة **(فضل من المولى الأجل)** سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء من عباده ممن سبق علمه وإرادته الأزليان باصطفائه لها. فالله أعلم حيث يجعل رسالته وهذا خلاف قول الفلاسفة المشائين المجوزين اكتساب النبوّة بزعمهم إن مَن لازم الخلوة والعبادة وداوم المراقبة وتناول الحلال انصقلت مرآة باطنه وفتحت بصيرة لبه وتهيأ لما

لا يتهيأ له غيره من التحلي بالنبوّة، وعندهم القرآن كلام النبـي وهذا من أعظم الكفر.

والحاصل أن النبوّة فضل من الله تعالى وموهبة ونعمة يمن بها سبحانه ويعطيها (**لمن يشاء**) أن يكرمه بالنبوّة فلا يبلغها أحد بعمله بل يخص بها من يشاء (**من خلقه**) ومن زعم إنها مكتسبة فهو زنديق يجب قتله لأنه يقتضي كلامه واعتقاده أن النبوّة لا تنقطع وهو مخالف للنص القرآني والأحاديث المتواترة بأن نبيّنا ﷺ خاتم النبيين عليهم السلام، ولهذا قال: (**إلى الأجل**)، يعني: أن النبوة فضل من الله تعالى يمن بها على من يشاء، وكان ذلك ممتداً من عهد آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن بعث الخاتم النبـي محمد ﷺ:

شرح ابن مانع

(**ولا تنال**) ـ بضم أوله ـ أي: لم تعطِ (**رتبة**): نائب الفاعل. والرتبة، والمرتبة المنزّلة، (**النبوة**) وكذا الرسالة (**بالكسب**) والجد والاجتهاد وتكلف أنواع العبادات، وتهذيب النفوس.

(و)لا تنال بـ(**ـالتهذيب**)، أي: تنقية البدن وتصفية الأخلاق من الرذائل والاتصاف بالفضائل، (و)لا تنال بـ(**ـالفتوّة**) التي هي كرم النفس وتخليصها من الأوصاف المذمومة إلى الأوصاف الممدوحة.

(**لكنها**)، أي: النبوة، وكذا الرسالة (**فضل**) وإنعام (**من**) الله (**المولى الأجل**) يؤتيه من يشاء ممن سبق علمه وإرادته الأزليان باصطفائه لها، فالله أعلم حيث يجعل رسالته (**لمن يشاء**) أن يكرمه بالنبوّة، فلا يبلغها أحد بعلمه ولا يستحقها بكسبه، ولا ينالها عن استعداد ولايته، بل

يخص بها من يشاء (**من خلقه**)، ومن زعم أنها مكتسبة، فهو زنديق يجب قتله؛ لأن كلامه يقتضي أن النبوّة لا تنقطع، وهو مخالف لنص القرآن، إذ نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين.

وقوله (**إلى الأجل**): مراده به أن النبوّة فضل من الله ونعمة يمنّ بها على من يشاء من عباده من عهد آدم عليه السلام، إلى أن بعث خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، وهذا خلاف للفلاسفة المشائين المجوزين اكتساب النبوّة بزعمهم أن من لازم الخلوة والعبادة ودوام المراقبة، وتناول الحلال وإخلاء نفسه من الشواغل العائقة عن المشاهدة بعد كمال ظاهره وباطنه بالتهذيب والرياضة، انصقلت مرآة باطنه، وفتحت بصيرة لبه لما لا يتهيأ له غيره من التحلّي بالنبوّة.

قال شيخ الإسلام: وهؤلاء عندهم النبوّة مكتسبة، وكان جماعة من زنادقة الإسلام يطلبون أن يصيروا أنبياء ــ أبعدهم الله ــ حيث كذبوا كتابه وخالفوه.

* * *

ولم تَزَل فيمَا مضى الأنباءُ　　مِـن فَضلِه تـأتِـي لمَـن يشَـآءُ
حتَّى أتَى بالخَاتم الّذي خَتَم　　بِهِ وَإعلاناً عَلَى كُلِّ الأُمَم

شرح ابن شطي

ولهذا قال (ولم تزل فيما)، أي: في الزمن الذي (مضى الأنباء)[1] جمع نبي (من فضله) تعالى (تأتي) بإبلاغ الشرائع (لمن)، أي: لكل أهل زمن من الأمم الماضية (يشاء) الله سبحانه وتعالى، فلم تخل الأرض من داعٍ يدعو إلى الله تعالى من لدن آدم إلى أن بعث نبينا محمداً ﷺ، وكان مجيء الرسل والأنبياء مستمراً من لدن الأب الأول الصفي عليه السلام (حتى)، إلى أن (أتى بالخاتم) نبينا محمد ﷺ (الذي ختم) الله (به) النبيين والمرسلين، وأكمل بدينه كل دين.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، أي: ختمهم وخُتموا به فلا نبـي بعده.

وأخرج الإمام أحمد من حديث العرباض بن سارية السلمي رضي الله تعالى عنه عن النبـي ﷺ أنه قال: «إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته»، الحديث.

(وإعلاناً) معشر أمة هذا النبـي الكريم الربُ الرحيم (على كل الأمم) الماضية بشاهد قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

وروى البخاري من حديث أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»، قال: خير الناس للناس يأتون بهم

---

(١) الأنباء بإسقاط الياء لضرورة البيت جمع نبـي وليست جمع نبأ. (د).

في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام.

وأخرج أبو داود من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أمتي أمة مرحومة ليس عليها عذاب في الآخرة، عذابها في الفتن والزلازل والقتل» ورواه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك والبيهقي في الشعب.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم»، وفي رواية لمسلم نحن الآخرون والأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة، وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أنس رضي الله تعالى عنه: أنتم شهداء الله تعالى في الأرض.

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ فكبّر ثم قال: أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قال: فكبر ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود أو شعرة سوداء في ثور أبيض» هذا لفظ مسلم.

وروى الإمام أحمد والترمذي بإسناد على شرط الصحيح من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف هذه الأمة منها ثمانون صفاً» ورواه الطبراني في معجمه.

وروى الدارقطني من حديث عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخُلها، وحرمت على الأمم حتى تدخُلها أمتي».

قال المحقق: فهذه الأمة أسبق الأمم خروجاً من الأرض، وأسبقهم إلى أعلى مكان في الموقف، وأسبقهم إلى ظل العرش، وأسبقهم إلى الفصل والقضاء بينهم وأسبقهم إلى الجواز على الصراط، وأسبقهم إلى دخول الجنة. وكل هذا إنما هو بسبب كرامة نبيّنا على الله وجزيل فضله عند الله وقربه من الله، والحمد لله على ما أنعم وفضل. وكرم والله تعالى أعلم.

شرح ابن مانع

قوله: (**ولم تزل فيما**)، أي: في الزمن الذي (**مضى**) من الأزمان. (**الأنباء**): جمع نبأ كالأنبياء والنبيين. (**من فضله**)، أي: من فضل الله تعالى، ولطفه، لا من حيث أن ذلك واجب عليه تعالى (**تأتي**) بإبلاغ الشرائع وبيان الحق، وإيضاح السبيل (**لمن يشاء**) سبحانه من الأمم الماضية، والقرون الخالية، فلم تخل الأرض من داع يدعو إلى الله تعالى من لدن آدم إلى أن بعث محمد صلوات الله وسلامه عليهما، فيجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى إجمالاً فيما لم يعينوا، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ الآية. فدلت على الاكتفاء بذلك في الإيمان لهم من غير تفصيل إلاَّ من ثبتت تسميته، فيجب الإيمان به على التعيين.

(**حتى**)، أي: إلى أن (**أتى بـ**)ـالنبي (**الخاتم الذي ختم**) الله (**به**) النبيين والمرسلين، وأكمل بدينه كل دين.

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾. أي: الذي ختمهم وختموا به فلا نبي بعده. وأخرج الإمام أحمد

ـ رحمه الله ـ من حديث العرباض بن سارية السلمي عن النبي ﷺ أنه قال: «إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمُنْجَدِل في طينته».

واستدل الإمام أحمد بهذا الحديث على أن نبينا ﷺ لم يزل على التوحيد منذ نشأ.

قال الحافظ ابن رجب: بل يستدل به على أنه ﷺ ولد نبياً، فإن نبوته وجبت له من حين أخذ الميثاق حيث استخرج من صلب آدم فكان نبياً قبل خروجه إلى الدنيا.

قال ابن عقيل: لم يكن ﷺ على دين سوى الإسلام، ولا كان على دين قومه قط. (وإعلاناً) معشر أمته (على كل الأمم) الماضية. لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. أي: عدولاً خياراً، وفضيلة هذه الأمة على الأمم المتقدمة، وإن كان ذلك باختيار الله إلاَّ أنه قد جعل له سبباً هو الفطنة، والفهم، واليقين، وتسليم النفوس، فاعتبر حالهم بمن قبلهم، فإن قوم موسى رأوا قدرة الباري في شق البحر. ثم قالوا: اجعل لنا إلـٰهاً، ثم مال كثير منهم إلى عبادة العجل، وعرضت لهم غزاة فقالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولم يقبلوا التوراة حتى نتق عليهم الجبل، إلى غير ذلك مما هو مذكور في الكتاب العزيز.

وكذلك النصارى اعتقدوا أن الله جوهر، والجواهر تتماثل ولا مثل للخالق، ومقالاتهم في عيسى وتثليثهم ودعواهم فيه الإلـٰهية وأنه ابن الله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

* * *

وَخَصَّـهُ بِـذَاكَ كـالمقـامِ ... وَبَعْثِـهِ لِسَـآئِـرِ الأنـامِ
وَمُعجَـزُ القُـرآنِ كـالمِعْـرَاجِ ... حقّاً بلا مَيْلٍ[1] وَلا اعْوِجاجِ

شرح ابن شطي

فصل

في بعض خصائص النبي الكريم

وأشار إلى أولها بقوله: (وخصه)، أي: خص الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً ﷺ دون سائر الأنبياء (بذاك)، أي: بكونه ختم به النبوة والرسالة. ومعنى ختم النبوة بنبوته عليه الصلاة والسلام أنه لا تبتدأ نبوة ولا تشرع شريعة بعد نبوته وشريعته.

وأما نزول عيسى عليه السلام وكونه متصفاً بنبوته السابقة فلا ينافي ذلك، على أن عيسى إذا نزل إنما يتعبد بشريعة نبينا ﷺ دون شريعته المتقدمة لأنها منسوخة فلا يتعبد إلاَّ بهذه الشريعة أصولاً وفروعاً فيكون خليفة لنبينا ﷺ وحاكماً من حكام ملته بين أمته بما علمه الله تعالى في السماء قبل نزوله وبنظره في كتاب الله تعالى الذي هو القرآن وسنة رسول الله ﷺ، وهو لا يقصر عن رتبة الاجتهاد المؤدي إلى استنباط ما يحتاج إليه أيام مكثه في الأرض من الأحكام وكسر الصلبان وقتل الخنزير ووضع الجزية وعدم قبولها مما علم من شريعتنا.

لا يقال هذا نسخ لشريعة محمد ﷺ، لأنا نقول بل هذا من شرعة

(١) كذا في (أ)، وما في (ج) و (هـ) بلا مين ومعناها الكذب، والميل الانحراف ومنه الكذب فكلاهما بنفس الفهم.

نبينا ﷺ مُغيباً[1] إلى نزول عيسى عليه السلام فإذا نزل انتهى ذلك.

والثانية ما أشار إليها بقوله: **(كالمقام)** المحمود وهو الشفاعة العظمى كما تقدم.

(و)الثالثة أنه سبحانه وتعالى خص نبيه محمداً ﷺ بـ**(ـبعثه)** نبياً ورسولاً **(لسائر)**، أي: جميع **(الأنام)** الخلق من الإنس والجن بالإجماع، واختلف في إرساله إلى الملائكة على قولين: أحدهما أنه لم يكن مرسلاً إليهم وبهذا جزم جمع محققون وهو ظاهر كلام علمائنا، والقول الثاني: أنه ﷺ مبعوث إلى الملائكة أيضاً ورجحه السيوطي في الخصائص والسبكي قبله وزاد أنه ﷺ: مرسل إلى جميع الأنبياء والأمم السابقة، وأن قوله ﷺ: «بعثت للناس كافة» شامل لهم من لدن آدم إلى قيام الساعة.

ورجح هذا القول البارزي وزاد أنه مرسل إلى جميع الحيوانات واستدل على ذلك بشهادة الضب له بالرسالة وبشهادة الحجر والشجر له أيضاً، كذلك قال السيوطي.

وأزيد إلى ذلك أنه مرسل إلى نفسه، فإن قلت: قد علم يقيناً أن قوم نوح بعد الطوفان كانوا جميع أهل الأرض ورسالة نوح عامة لهم، فالجواب أن عمومها أمر اتفاقي إذ لم يسلم من الهلاك إلاَّ من كان معه في السفينة، فالعموم صار ثالثاً[2] وبالعرض على أنه لم يبعث للجن.

(و)الرابعة المشار إليها بقوله وخصه بـ **(معجز القرآن)** الذي أذعن لإعجازه الثقلان كما تقدم الكلام على ذلك.

---

(١) كذا في (ج)، وفي (د) مُغيَّب.

(٢) كذا في (ج)، وفي (د) ثانياً.

والخامسة من خصائصه ﷺ ما أشار إليها بقوله (كـ) ما اختصه الله سبحانه وتعالى بـ (**المعراج**) إلى السماوات العلى.

قال الواقدى عن رجاله كان المسرى والمعراج في ليلة السبت لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان في السنة الثانية عشر من البعثة قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً.

قال ابن الجوزي: سمعت شيخنا أبا الفضل يقول، قال قوم: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة، وقال آخرون بثمانية أشهر، وقال آخرون بستة أشهر، فمن قال بسنة فيكون ذلك في ربيع الأول ومن قال بثمانية أشهر فيكون ذلك في رجب ومن قال بستة فيكون ذلك في رمضان، وقد قيل إنه كان في ليلة سبع وعشرين من رجب.

قلت: واختار هذا القول الحافظ عبد الغني المقدسي وعليه عمل الناس.

وكان المعراج إلى السماء بجسده الشريف وروحه المقدسة، كالإسراء من مكة المشرفة إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به من بيت المقدس إلى السماء.

حق هذا (**حقاً**) ثابتاً (**بلا مين**)، أي: بلا امتراء ولا كذب (**ولا اعوجاج**) يقال: اعوج إذا كان غير مستقيم.

واعلم أن الإسراء لا خلاف فيه إذ هو نص القرآن على سبيل الإجمال، وجاءت السنة الثابتة بتفصيله، فورد عن عدة من الصحابة الكرام نحو الثلاثين رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وأما ليلة المعراج فاختلف فيها، فقيل ليلة الجمعة وقيل السبت كما

تقدم، وقال ابن دحية: تسفر تلك الليلة عن يوم الاثنين إن شاء الله تعالى ليوافق المولد والمبعث والهجرة والوفاة، فإنه ﷺ ولد يوم الاثنين وبعث يوم الاثنين وهاجر من مكة يوم الاثنين ودخل المدينة يوم الاثنين ومات يوم الاثنين.

وقد أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن مالك بن صعصعة رضي الله تعالى عنه حدثه أن نبي الله ﷺ، حدثهم عن ليلة الإسراء قال: «بينا أنا نائم في الحطيم، وربما قال قتادة فيه بالحجر، مضطجع إذ أتاني آتٍ فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة، قال: فأتاني فقدّ، وقال مرة فشق، ما بين هذه وهذه، قال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبي ما يعني، قال من ثغرة نحره إلى شعرته، وقد سمعته يقول من قصه إلى شعرته، قال فاستخرج قلبي، قال فأتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً وحكمة فغسل قلبي ثم حشي ثم أعيد، وفي لفظ: فأفرغه في صدري وملأه علماً وحلماً ويقيناً وإسلاماً ثم أطبقه.

ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، قال فقال الجارود أهو البراق يا أبا حمزة؟ قال نعم، يقع خطوه عند أقصى طرفه، قال فحملت عليه».

ولما أراد ﷺ العروج إلى السماء بعد وصوله إلى بيت المقدس وصلاته بالأنبياء عليهم الصلاة السلام أتي بالمعراج التي تعرج عليه أرواح الأتقياء من بني آدم فلم تر الخلائق أحسن منه، له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب، وهو من جنة الفردوس منضد باللؤلؤ عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة، فارتقى عليه هو وجبريل عليهما الصلاة والسلام من عند القبة التي يقال لها قبة المعراج عن يمين الصخرة.

قال بعض أهل العلم أنه لم يختلف أنه عرج من ثم، وظاهر صنيع الحافظ ابن الجوزي في الوفا أن البراق ترقى به النبي ﷺ كما قال: «ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار يقع خطوه عند أقصى طرفه، قال فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى بي السماء الدنيا فاستفتح الحديث بطوله»، وهو في الصحيحين وغيرهما.

وقال بعضهم: قد صحت الأحاديث بأنه استمر على البراق إلى بيت المقدس ثم نصب له المعراج فارتقى فيه، وظاهره أنه لم يركب البراق إلاَّ من مكة إلى بيت المقدس.

وجمع بعضهم بأن الراوي اختصر فلم يذكر بيت المقدس. وبعضهم أنه لما وصل في العروج إلى السماء الدنيا ركب البراق واخترق به السماوات وما فوقها إلى أن وصل إلى سدرة المنتهى، ثم بعد سؤاله ﷺ ربه ومراجعته له في التخفيف عن أمته حتى انتهى ذلك من الخمسين إلى الخمس صلوات وسماع النداء من العلي الأعلى قد أمضيت فريضتي وشفعت نبيي وخففت عن عبادي هنّ خمس صلوات كل يوم وليلة وهن خمسون في الأجر لأن الحسنة بعشر أمثالها، وسمع قوله تعالى ما يبدل القول لدي ولا ينسخ كتابي، وكانت المراجعة ما بين الحق جل جلاله وبين موسى الكليم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فإنه الذي حث النبي الكريم على مراجعة الرب الرحيم وسؤاله التخفيف عن هذا الخلق الضعيف، ولهذا قال النبي ﷺ في موسى عليه الصلاة والسلام «ونعم الصاحب كان لكم» أي: معشر الأمة، ثم قال له موسى عليه السلام: اهبط بسم الله. ولما دنا المصطفى من العلي الأعلى وحل في مستوى سمع صريف الأقلام وكلمه الجليل جل جلاله فقال له: «يا محمد قال لبيك يا

رب، قال سل، قال إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وأعطيته ملكاً عظيماً وكلمت موسى تكليماً، وأعطيت داود ملكاً عظيماً وألنت له الحديد وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الرياح وأعطيته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل وجعلته يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذنك وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان عليهما سبيل، فقال الله سبحانه وتعالى: وقد اتخذتك حبيباً، قال الراوي وهو مكتوب في التوراة حبيب الله، وأرسلتك للناس كافة بشيراً ونذيراً وشرحت لك صدرك ووضعت عنك وزرك ورفعت لك ذكرك، لا أذكر ألا تذكر معي، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً وأول من يقضى له، وأعطيتك سبعاً من المثاني لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والصدقة، والصلاة، وصوم رمضان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإني يوم خلقت السماوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة».
كل هذا الخطاب في حال قربه من رب العالمين.

ثم إن الله تعالى خفف عن عباده الفعل من خمسين إلى خمس وأبقى لهم ثواب الخمسين تفضلاً منه تعالى وتكرماً على نبيه المصطفى وعلى أمته ببركته.

وكان ﷺ، لما وصل إلى سدرة المنتهى غشيته سحابة فيها من كل لون فتأخر جبريل، ثم عرج بالنبي الكريم ﷺحتى وصل لمستوى سمع فيه صريف الأقلام فدنا من الحضرة الإلـٰهية حتى كان كقاب قوسين أو أدنى، أو أقرب، أي: بل أقرب من ذلك، ثم انجلت عنه السحابة فأخذ جبريل بيده فانصرف سريعاً، فمر على إبراهيم فلم يقل شيئاً، ثم أتى على موسى، قال النبي ﷺ: ونعم الصاحب كان لكم، فقال ما صنعت يا محمد ما فرض عليك ربك وعلى أمتك؟ قال النبي ﷺ: «فرض عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة كل يوم وليلة»، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف عنك وعن أمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك فإني خبرت الناس قبلك وبلوت بني إسرائيل وعالجتهم أشد المعالجة على أدنى من هذا فضعفوا وتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وأبداناً وقلوباً وأبصاراً وأسماعاً، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل يستشيره، فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت فرجع سريعاً حتى انتهى إلى الشجرة فغشيته السحابة وخر ساجداً، وقال رب خفف عن أمتي فإنها أضعف الأمم، قال: وضعت عنكم خمساً وهكذا إلى أن بقيت الخمس. وهذا في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله تعالى عنه.

والذي في المسند والصحيحين وغيرهما عن أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله تعالى عنهما أنه تعالى حط عنه عشراً ثم عاد فحط عنه عشراً ثم عاد فحط عنه عشراً، وكذلك هو في الصحيحين من حديث أنس رضي الله تعالى عنه.

تنبيهات:

الأول: تقدم الكلام، على رؤية النبي ﷺ لذي العزة والجبروت والإنعام، واختلاف الصحابة والتابعين فمن بعدهم في ذلك. ومما ينبغي

أن يعلم أن الخلاف المذكور إنما هو في وقوعها لا في إمكانها وجوازها إذ هي جائزة عقلاً ونقلاً، أما العقل! فواضح، وأما النقل! فما كان كليم الرحمن أن يسأل المستحيل، هذا مما لا يظنه من عرف منصب النبوة فضلاً عن الرسول فضلاً عن أحد أولي العزم من الرسل، ثم إن رؤية الباري جل شأنه واقعة للمؤمنين في الآخرة قطعاً كما مر، وأما من ادعاها في الدنيا يقظة لغير نبينا ﷺ، على ما في ذلك من الخلاف فهو ضال، بل قال الكواشي في تفسيره فزنديق فلو قال إني أرى الله تعالى عياناً في الدنيا ويكلمني شفاهاً كفر انتهى.

ونقل عن المهدي المقنس أنه كفر مدعي الرؤية هنا، وقد نقل جماعة الإجماع على أنها لا تحصل للأولياء في الدنيا.

الثاني: اختلف في المراد من قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾. أي: حيث الوتر من القوس قاله مجاهد. وقال أبو عبيدة: قاب قوسين، أي: دار قوسين أو أدنى أو أقرب، والقاب ما بين القبضة والسيئة[1] من القوس.

قال الواحدي: هذا قول الجمهور من المفسرين أن المراد بالقوس التي يرمى بها، وقيل المراد بها الذراع لأنه يقاس بها الشيء، وسيئة القوس هي الفرضة التي يوضع فيها الوتر والمراد به جبريل عليه السلام.

قال ابن كثير: هذا هو الصحيح في التفسير كما دل عليه كلام الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وقد روى الشعبي عن مسروق قال: قلت لعائشة رضي الله تعالى عنها: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾، قالت: ذاك جبريل.

(١) السيئة بالكسر موضع الوتر من رأس القوس. اهـ. من تاج الأسماء في اللغة. (د).

قال المحقق: لأن جبريل هو الموصوف بما ذكر من أول السورة إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾. هكذا فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح لعائشة.

قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «ذلك جبريل لم أره في صورته التي خلق عليها مرتين» رواه مسلم.

وأما ما وقع في البخاري من رواية شريك عن أنس: ودنى الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى فقد تكلم الناس وقالوا أن شريكاً غلط فيه وذكر فيه أموراً منكرة، لكن إن الدنو والتدلي الذي في حديث شريك غير هذا، وجزم ابن كثير بأن الدنو والتدلي في حديث شريك غير الذي في الآية.

الثالث: المستوى الذي سمع ﷺ فيه صريف الأقلام هو المصعد، وقيل المكان المستوي. وصريف الأقلام بفتح الصاد المهملة وكسر الراء وبالفاء هو صوت حركة الأقلام وجريانها على المكتوب فيه من الأقضية الإلـٰهية والوحي وما ينسخونه من اللوح المحفوظ أو ما شاء الله من ذلك أن يكتب ويرفع لما أراده الله تعالى من أوامره وتدبيره، وهو تعالى يعلم جنسها وكيفيتها ومن أطلعه الله تعالى على شيء من ذلك من الملائكة والمرسلين.

شرح ابن مانع

قوله: (**وخصه**)، أي: خص الله تعالى نبينا محمداً ﷺ دون سائر الأنبياء. (**بذاك**)، أي: بكونه ختم به النبوة والرسالة فلا نبي بعده لقوله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾. وختم الأعم يستلزم ختم الأخص بلا عكس، والنبوة أعم من الرسالة.

(كـ)ـما خصه بـ(ـالمقام) المحمود الذي هو الشفاعة العظمى، (و)خصه بـ(ـبعثه) نبياً رسولاً (لسائر الأنام) إلى جميع الخلق من الإنس والجن، (و)خصه بـ(معجز القرآن) الذي أذعن لإعجازه واعترف بالعجز عن الإتيان بأقصر سورة من مثله أهل الفصاحة والبلاغة من سائر الأديان، (كـ)ـما خصه بـ(ـالمعراج) إلى السماوات العلى، إلى سدرة المنتهى، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، فكان قاب قوسين أو أدنى.

واختلف العلماء متى كان المعراج؟

فقيل: في رمضان في السنة الثالثة عشرة من المبعث قبل الهجرة بثمانية أشهر، وقيل: في ربيع الأول قبل الهجرة بسنة، وهذا قول ابن عباس وعائشة، وادعى ابن حزم الإجماع فيه.

وقيل: إنه ليلة سبعة وعشرين من شهر رجب، واختاره الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي.

وكان المعراج إلى السماء بجسده الشريف، وروحه المقدسة، كالإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به من بيت المقدس إلى السماء حُقّ هذا (حقاً) ثابتاً.

(بلا مين)، أي: بلا كذب (ولا) ريب، وبلا (اعوجاج). يقال: اعوج اعوجاجاً إذا كان غير مستقيم، أي: لا تخرج عن الحق والاستقامة في إثبات المعراج لرسول الله ﷺ. والصحيح: أن الإسراء والمعراج، كانا في ليلة واحدة، وأنهما كانا يقظة بالروح والجسد.

* * *

فَكَـمْ[1] حَبَـاهُ رَبُّـهُ وَفَضّلَـهُ وَخَصَّـهُ سُبْحَـانَـهُ وَخـوّلـه

شرح ابن شطي

(وكم حباه ربه) سبحانه وتعالى بمكرمة (و)كم (فضله) على غيره بمزية من المزايا التي لا تحصى. فإن كم هذه خبرية بمعنى كثير فهي تفيد كثرة ما حباه ربه من المكرمات والحباء بمعنى الإعطاء.

(و)كم (خصه) الله (سبحانه) وتعالى بخصوصية (وخوله) بمعنى إعطاء، والمعنى أنه جل وعلا خص نبيه المصطفى بخصائص كثيرة ومزايا جليلة غير ما ذكرنا.

وبعض متأخري الحفاظ أوصلها إلى ثلاثمائة، وقال بعض الحفاظ: الحق عدم حصرها، غير أنه لم يتعرض في النظم إلاَّ لبعض المبهم[2] منها.

شرح ابن مانع

قوله: (فكم حباه)، أي: أعطاه. والحباء: العطاء. (ربه) سبحانه وتعالى من مكرمة (و)كم (فضّله) على غيره بمزية من المزايا التي لا تحصى، (و)كم (خصه [سبحانه][3]) بخصوصية. (وخوله)، أي: ملكه. والمعنى: أنه سبحانه خص نبيه بخصائص كثيرة، أوصلها بعضهم إلى ثلاثمائة.

وقال بعض الحفاظ: الحق عدم حصرها وهو الصواب.

* * *

(١) كذا في (أ)، وما في (ج) و (هـ) وكم.

(٢) كذا في (ج)، وما في (د) المهم.

(٣) ما بين المعكوفتين ساقط من (هـ)، وأثبته في (أ).

وَمُعْجِزات خَاتَم الأَنْبِيَاءِ[1] كَثِيـرةٌ تَجُـلّ عـن إحصـآء

مِنْهـا كـلامُ اللّـهِ مُعجـزُ الـوَرَى

كَـذَا انشقَـاقُ البَـدْر مِـنْ غَيْـرِ امتـرا[2]

شرح ابن شطي

فصل

في التنبيه على بعض معجزاته ﷺ

وهي كثيرة جداً، وتعريف المعجزة: هي اسم فاعل مأخوذة من العجز المقابل للقدرة، وقال ابن حمدان: المعجزة هي ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدّي ابتداءً بحيث لا يقدر أحد عليها وعلى مثلها ولا على ما يقاربها.

وقال الفخر الرازي: المعجزة عرفاً أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم المعارضة، واحترزوا بقيد المقارنة للتحدّي عن كرامات الأولياء والعلامات الإرهاصية التي تتقدم بعثة النبوة، وبقيد عدم المعارضة عن السحر والشعبذة، وقول ابن حمدان وطابقها ليخرج ما إذا قال معجزتي نطق هذا الحجر فينطق بأنه كذاب مفتر، وكما تفل مسيلمة في بئر فغار ماؤها، إذا عرفت هذا فقد أشار إلى التنبيه على أن معجزات نبينا محمد ﷺ، كثيرة شهيرة فلا يمكن استقصاء عدها بقوله:

(**ومعجزات خاتم الأنبياء**): يعني: نبينا محمداً ﷺ (**كثيرة تجل**)،

---

(١) كذا في (ج) و (هـ)، وما في (أ) الأنباء جمع نبي وهي قراءة لبعض القراء بهمز النبيء بدل الياء.

(٢) كذا في جميع النسخ، وما في (أ) افترا.

أي: تعظم وتكبر **(عن إحصائي)**، أي: عن عدي لكثرة أفرادها وتنوعها من الأقوال والأفعال التي ما سبقت لمثله من الأنبياء ولم يبلغ أحد من الأنبياء من كثرة المعجزات ما بلغه نبينا ﷺ، وهو دليل على مزيد التشريف والتكريم وشدة الاعتناء والاهتمام بشأنه.

قال بعض العلماء: معجزات نبينا كثيرة لا تحصى وفي كلام بعضهم أنه ﷺ أعطي ثلاثة آلاف معجزة. يعني: غير القرآن، فإن فيه ستين أو سبعين ألف معجزة تقريباً، ولهذا قال: **(منها)** أي من معجزات نبينا بل أعظمها **(كلام الله)** المنزل **(معجز الورى)** الخلق كما تقدم موضحاً.

و**(كذا)** من غرر معجزاته ﷺ **(انشقاق البدر)**، أي: القمر ثابت **(من غير امترا)**، أي: من غير شك ولا جدل.

وقصة ذلك كما في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ، أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما.

وقال شيبان عن قتادة: فأراهم انشقاق القمر مرتين.

قلت: قد ثبت انشقاق القمر بنص القرآن العظيم وبالسنة الصحيحة الصريحة، وقد بلغت الأحاديث بذلك مبلغ التواتر وأجمع على ذلك أهل الحق، وهذا الانشقاق الواقع للقمر من خصائص نبينا محمد ﷺ التي اختص بها عن سائر النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلا يشركه في ذلك غيره، ولم يقع لأحد سواه، وهو من أمهات معجزاته التي لا يكاد يعدلها بعد القرآن شيء ولا يعدلها آية من آيات الأنبياء عليهم السلام لظهور ذلك في ملكوت السماوات وخارجاً عن جملة طباع ما في

هذا العالم المركب من الطبائع فهو آية عظيمة، ولهذا قرنها بمعجزة القرآن واقتصر عليهما لأن فيهما كفاية عما سواهما.

تنبيهات:

الأول: الثابت من قصة انشقاق القمر ما ذكرناه، وأما ما قيل أن القمر دخل في جيبه ﷺ وخرج من كمه فلا أصل.

الثاني: قال شيخ الإسلام: آياته ﷺ المتعلقة بالقدرة والفعل والتأثير أنواع، منها ما هو في العالم العلوي كانشقاق القمر وحراسة السماء، بالشهب الحراسة التامة ومعراجه إلى السماء وإنما جعل في انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم، وكأن الانشقاق فيه دون أجزاء الفلك لأنه جسم مستنير فيظهر فيه الانشقاق لكل من يراه ظهوراً لا يتمارى فيه، وإذا قبل الانشقاق فقبول محله أولى بذلك، وفيه حكمتان عظيمتان: **إحداهما**: كونه من آيات النبوة، **والثانية**: أن فيه دلالة على جواز انشقاق الفلك وأن ذلك دليل واضح على ما أخبرت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من انشقاق السماوات خلافاً للفلاسفة في زعمهم أن الفلك لا يقبل الخرق والالتئام.

ومنها ما هو في الجو كاستسقائه واستصحائه ﷺ وطاعة السحاب في حصوله وذهابه، ومنها تصرفه في الحيوان الإنس والجن والبهائم، ومنها تصرفه في الأشجار والخشب والأحجار، ومنها تأييده بملائكة السماء، ومنها كفاية الله تعالى له أعداءه وعصمته من الناس، ومنها إجابة دعائه ﷺ، ومنها إعلامه بالمغيبات الماضية والمستقبلة، ومنها تأثيره في تكثير الماء والطعام والثمار وغير ذلك.

الثالث: أن نفس صورة النبي ﷺ الشريفة الباهرة، وهيئته وطلعته الظاهرة، وسمته ودَلّه[1] يدل العقلاء على صدقه، ومن سمع كلامه ورأى آدابه لم يدخله شك في نبوته.

فصل

في التنبيه على بعض معجزاته ﷺ

قوله: (**ومعجزات**): جمع معجزة مأخوذة من العجز الذي هو ضد القدرة. قال في القاموس: ومعجزة النبي ما أعجز به الخصم عند التحدّي والهاء للمبالغة. انتهى. والتحدي المنازعة في الغلبة.

وقال ابن أحمد: إن المعجزة هي ما خرق العادة من قول أو فعل إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها على جهة التحدّي ابتداء، بحيث لا يقدر أحد عليها، ولا على مثلها، وعلى ما يقاربها، فمعجزات (**خاتم الأنبياء**). يعني: نبينا محمد ﷺ، والأنبياء: جمع نبي كما تقدم.

(**كثيرة**) جداً.

(**تجل**) ـ بالكسر ـ أي: تعظيم. (**عن إحصائي**)، أي: عدي وحفظي لكثرة أفرادها وتنوعها من الأقوال والأعمال.

(**منها**)، أي: من معجزات خاتم النبيين والمرسلين (**كلام الله**) الذي سمعه منه جبريل، وسمعه نبينا محمد ﷺ من جبريل عليه السلام.

---

(١) الدل قريب من الهدي وهما من السكينة والوقار في الهيئة. اهـ. «تاج الأسماء في اللغة». (د).

(معجز الورى): الخلق إنسهم وجنهم، وأولهم وآخرهم، فهو معجز بنفسه ليس في وسع البشر الإتيان بسورة من مثله، خلافاً لمن يقول بالصرفة، فهو قول ضعيف كما سبق.

(كذا)، أي: من معجزاته ﷺ **(انشقاق البدر)**، أي: القمر. **(من غير امترا)**، أي: شك، لوروده بالنص. ففي سنن أبي داود عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾. قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ، أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حَراءً بينهما. وفيهما من حديث ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه. فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا.

❊ ❊ ❊

وَأفضَلُ العالَمِ مِن غَيرِ امْتِرا نَبِيُّنا المبعُوثُ في أُمِّ القُرى
وبَعْدُ فالأفضَلَ أهلُ العَزمِ فَالرُّسُل ثُمَّ الأنبيا[1] بالجَزمِ

شرح ابن شطي

فصل

في ذكر فضيلة نبينا وأولي العزم وغيرهم من النبيين والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين

(**وأفضل العالم**) العلوي والسفلي من ملك وبشر وجني في الدنيا والآخرة (**من غير امترا**)، أي: من غير شك ولا ريب، قال في القاموس: العالم الخلق كله، (**نبينا**) خبر المبتدأ الذي هو أفضل العالم محمد (**المبعوث**) رسولاً لكافة الناس (**في أم القرى**) مكة المعظمة، وإنما كان أفضل خلق الله تعالى لأن الله تعالى أيده بأبهر المعجزات، وأمته أزكى الأمم وشريعته أتم الشرائع وأشهرها، وصفاته أكمل الصفات وأشرفها، ومن أعظم ما يدل على تعظيم نبيّنا وفضله على سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أن الله سبحانه وتعالى أقسم بحياته، وإنما يقع القسم بالمعظم وبالمحبوب قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وأخرج الترمذي وغيره من حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهم، قال: ما خلق الله وما ذرأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعته أقسم بحياة أحد غيره.

وفي صحيح مسلم من حديث أبـي هريرة رضي الله تعالى عنه عن

(١) ما في (ج) و (هـ) (الأنبياء) بالهمزة، أما في (أ) بحذف الهمزة وهو أحسن للوزن.

النبي ﷺ أنه قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول مشفع».

فالنبي ﷺ أفضل الخلق جميعاً بلا خفاً، **(وبعد)**، أي بعد النبي ﷺ **(فالأفضل)** من سائر الخلق هم **(أهل العزم)**، أي: أهل الثبات والجد من الرسل وهم على المشهور إبراهيم الخليل، وموسى الكليم، وعيسى الروح، ونوح النجي، فيكونون خمسة بنبيّنا محمد ﷺ، وهؤلاء الذين اجتهدوا في تأسيس الشرائع وتقريرها وصبروا على تحمل المشاق من قومهم.

وقد اختلف العلماء فيمن يلي النبي محمداً ﷺ في الفضيلة منهم، والمشهور واختاره الحافظ ابن حجر في شرح البخاري أنه إبراهيم خليل الرحمن فيكون أفضل من موسى وعيسى ونوح عليهم السلام، والثلاثة بعد إبراهيم أفضل من سائر الأنبياء والمرسلين.

قال الحافظ ابن حجر: لم أقف على نقل أيهم أفضل، والذي ينقدح في النفس تفضيل موسى فعيسى فنوح عليهم الصلاة والسلام.

قال بعض العلماء: لعل تقديم موسى عليه السلام لأنه كليم الله تعالى ثم عيسى لأنه كلمة الله تعالى.

ثم بعد أولي العزم، **(فالرسل)** المكرمين بالرسالة فهم أفضل من الأنبياء عليهم السلام غير الرسل، وبه يعلم أن الرسالة أفضل من النبوّة ولو في شخص واحد.

(ثم) الأفضل بعد الرسل الكرام **(الأنبياء)** عليهم أفضل الصلاة والسلام وهم متفاوتون في الفضيلة فبعضهم أفضل من بعض كما قال

تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۢ﴾، كما أن بعض الرسل أفضل من بعض كما قال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ﴾، فهذا واجب الاعتقاد تفضيلاً فيمن علم منهم وعلم حكمه تفصيلاً ولو بدليل ظني صحيح، وإجمالاً فيمن علم منهم وعلم حكمه إجمالاً، ولهذا قال: (**بالجزم**) السديد والقطع المفيد للحكم المذكور من غير شك ولا ترديد حسبما تقدم.

وعلم مما ذكر ولا سيما من قوله بالجزم رد زعم من زعم أن الولي قد يبلغ درجة النبي كما يحكى عن الكرامية، بل زعم بعض الصوفية إن الولاية أفضل من النبوّة، قال لأنها تنبىء عن القرب والكرامة والنبوّة عن الإنباء والتبليغ، إلاَّ أن الولي لا يبلغ درجة النبـي بخلاف العكس لأن نبوّة النبـي لا تكون بدون الولاية.

وقد شنع شيخ الإسلام على من يزعم ذلك في محلات من كتبه. ولا يخفى على أحد من أهل الملة أن أفضل الخلق الرسل، فالأنبياء، فالصحابة، فالأولياء، وإن دخل بعضهم في بعض في الجملة، والله تعالى الموفق.

فصل

في ذكر فضيلة نبيّنا محمد ﷺ وأولي العزم وغيرهم من الأنبياء والمرسلين

قوله: (**وأفضل العالم**): العلوي والسفلي من مَلَك، وبشر، وجن، في الدنيا والآخرة. (**من غير امترا**)، أي: شك، (**نبينا**) محمد (**المبعوث**) رسولاً لكافة الناس. (**في أم القرى**)، أي: مكة المعظمة، وفي تسميتها

بذلك أقوال أقواها قول ابن عباس. سميت بذلك، لأن الأرض دحيت من تحتها.

وقال ابن قتيبة: لأنها أقدمها، وقد سماها الله تعالى بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وتسميتها بذلك دليل على فضلها على سائر البلاد، ومن شرفها: أنها كانت لقاحاً، أي: لا تدين لدين الملوك، ولا ملكها ملك قط من سائر البلدان، وكان أهلها آمنين يغزون ولا يغزون، ويسبون ولا يُسبون، ولم تسب قرشية قط فتوطأ قهراً ولا تجال عليها السهام، وقد ذكر عزهم وفضلهم الشعراء فقال بعضهم:

أبَــواديــنَ المُلُــوكِ فَهُــمْ لِقَــاحٌ إِذَا هِيْجُــوا إِلَــى حَــرْبٍ أَجَــابُــوا

وفضائل سيدنا رسول الله وبيان فضيلته على سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر.

ورضي الله عن حسان فلقد أحسن إذ قال:

أغــرّ عليــه للنبــوّة خــاتــم مــن الله مشهــود يلــوح ويشهــد
وضم الإلـه اسم النبـي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشــق لــه مــن اسمــه ليجلــه فذو العرش محمود وهذا محمد

وقد روى الحاكم في صحيحه عنا عائشة رضي الله عنها، ما يدل على أنه ﷺ ولد وخاتم النبوّة بين كتفيه، وقيل: إنه على كتفه الأيسر، وهو شامة دالة على نبوّته يعرفه بها أهل الكتاب، ويسألون عنها ويطلبونها ليقفوا عليها، لإخبار الأنبياء الأولين بها.

قوله: (**وبعده**)، أي: بعد نبينا محمد ﷺ (**فالأفضل**) من سائر الخلق. (**أهل العزم**)، أي: الثبات والجد. وهم على المشهور: إبراهيم،

وموسى، وعيسى، ونوح، وخاتم النبيين نبيّنا محمد عليهم الصلاة والسلام، وقد نظم أسماءهم بعض الفضلاء بقوله:

محمد إبراهيم موسى كليمه فعيسى فنوح أولو العزم فاعلم

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، ذوو الحزم.

وقال الضحاك: ذوو الجد والصبر.

قال ابن زيد: كل الرسل كانوا أولي العزم، لم يبعث الله نبياً إلاَّ كان ذا عزم وحزم، ورأي، وكمال عقل، وإنما دخلت من للتجنيس لا للتبعيض ثم بعد أولي العزم (فـ)ـالواجب اعتقاده أن يليهم في الأفضلية سائر **(الرسل)** المكرمين بالرسالة، **(ثم)** الأفضل بعد الرسل **(الأنبياء)** عليهم أفضل الصلاة والسلام، وهم متفاوتون في الفضيلة فبعضهم أفضل من بعض، كما قال تعالى: ﴿۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، فهذا واجب الاعتقاد تفصيلاً فيمن علم منهم وعلم حكمه تفصيلاً وإجمالاً فيمن علم منهم وعلم حكمه إجمالاً، ولهذا قال **(بالجزم)** السديد والقطع المفيد للحكم المذكور، وعلم من ذلك رد زعم من زعم أن الولي قد يبلغ درجة النبي كما يقوله بعض الجاهلين.

* * *

وإن كـل واحـدٍ مِنهـم سلِـم مِن كل ما نَقص ومِنْ كُفر عُصم
كَذَاك مِن إفْكٍ وَمِنْ خِيانة لِوَصْفِهِم بِالصِّدْقِ وَالأمَانَة

شرح ابن شطي

فـصـل
فيما يجب للأنبياء عليهم الصلاة والسلام
ومـا يجوز عليهم ومـا يستحيل في حقهم

قد تقدم أول الباب شروط من يكرمه الله تعالى بالنبوّة، وذكر هنا ما يجب اعتقاده في حقهم:

(و) هو أن يعرف كل مسلم (أن كل واحد منهم)، أي: من الأنبياء الكرام والرسل العظام (سلم) وتنزّه (من كل ما) زائدة لإقامة الوزن ومزيد التأكيد عما سلموا منه وتنزهوا عنه (نقص) يؤدي إلى إزالة الحشمة وإسقاط المروءة وألحقت بفاعلها! الإزراء والخسة كسرقة لقمة وتطفيف بحبة لقيام الإجماع على عصمتهم من كل ما يؤدي إلى الإزراء والدناءة، لأن الله تعالى يقول: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، ومن المعلوم عموم ذلك وليس في شيء من فعل ما يزري ما يوجب حب الله تعالى ولا حسن التأسي والاقتداء في ذلك فوجب تنزيههم عنه وعن كل عيب، وسلامتهم من كل ما يوجب الريب.

(و) إن كل واحد منهم (من كفر) بجميع أنواعه (عصم) قبل النبوة وبعدها والعصمة المنعة، قال ابن حمدان: وأنهم معصومون فيما يؤدون عن الله تعالى وليسوا معصومين في غير ذلك من الخطأ والنسيان والسهو والصغائر في الأشهر، لكن لا يقرون على ذلك.

وقال الحافظ العراقي: النبي ﷺ معصوم من تعمّد الذنب بعد النبوّة بالإجماع، ولا يعتد بخلاف بعض الخوارج ولا بقول من قال من الروافض بجوازها تقية، وإنما اختلفوا في جواز وقوع الصغيرة سهواً فمنعه الإسفرائيني والقاضي عياض واختاره السبكي وهو الذي ندين الله تعالى به.

تنبيه: لم يكن نبينا محمد ﷺ قبل البعثة على دين قومه بل ولد مسلماً مؤمناً كما قال ابن عقيل وغيره، وقد صرح فيه بنص الإمام.

(**كذاك**) كل واحد من الأنبياء والمرسلين قد عصم (**من إفك**)، أي: من كذب (**و**) معصومون (**من خيانة**) ولو قلّت (**لوصفهم**) عليهم الصلاة والسلام (**بالصدق**) الذي هو ضد الكذب (**والأمانة**) التي هي ضد الخيانة. فالصدق واجب في حقهم عقلاً وشرعاً إذا لو جاز عليهم الكذب الذي هو عدم مطابقة الخبر الواقع لجاز الكذب في خبره تعالى لتصديقه إياهم بالمعجزات المنزلة منزلة قوله تعالى صدق عبدي في كل ما يبلغ عني، وتصديق الكاذب من العالم بكذبه محض الكذب، والكذب على الله تعالى محال فلزومه كذلك.

وقد أجمعت الأمة على أن ما كان طريقه الإبلاغ فالأنبياء والرسل معصومون فيه من الإخبار عن شيء منه بخلاف الواقع لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً.

وقوله: والأمانة، أي: يجب لهم الأمانة وهي ضد الخيانة، والمراد بها في حق رسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام اتصافهم بحفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبّس بمنهي عنه ولو نهي كراهة عند بعض العلماء، أي: كونهم لا يتصور أن يكونوا إلاّ كذلك، إذ لو جاز عليهم أن

يخونوا الله تعالى بفعل محرم أو مكروه على قول لجاز أن يكون ذلك المنهي عنه من حيث أنه منهي عنه مأموراً به لأن الله تعالى أمرنا باتباعهم في أقوالهم وأفعالهم من غير تفصيل، وهو تعالى لا يأمر بمحرم ولا مكروه فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، والمراد ما لم تقم قرينة على الخصوصية كنكاح أزيد من أربع فتختص بهم دون أممهم.

وقد فهم مما تقدم الواجب في حقهم والمستحيل عليهم مما عصموا منه.

فصل

فيما يجب للأنبياء وما يجوز عليهم وما يستحيل في حقهم

قد تقدم في أول الباب شروط من يكرمه الله بالنبوّة من الذكورة والحرية والقوّة على أعباء ما حملوا، وذكر هنا ما يمتنع في حقهم وما يجوز قال:

(**وإن كل واحد منهم**) ــ أي: من الأنبياء والرسل ــ (**سلم**) وتنزّه (**من كل ما نقص**) يؤدي إلى إزالة الحشمة وإسقاط المروءة. وما: زائدة للتأكيد.

(و)إن كل واحد منهم (**من كفر**) بجميع أنواعه (**عصم**)، أي: منع قبل النبوّة وبعدها. (**كذاك**): كل واحد من الأنبياء والرسل، قد عصم (**من إفك**)، أي: كذب (و)عصم (**من خيانة**)، ولو قلت (لـ)ـوجوب (**وصفهم**) عليهم السلام (**بالصدق**) الذي هو ضد الكذب، (**والأمانة**) التي هي ضد الخيانة، والضدان لا يجتمعان، فالصدق واجب في حقهم عقلاً وشرعاً وهو مطابقة أخبارهم للواقع.

* * *

وَجَائزٌ فِي حَقِّ كُلِّ الرُّسلِ   النَّـومُ والنِّكـاحُ مِثـلُ الأكْـلِ

وأشار إلى الجائز في حقهم بقوله:

(وجائز) عقلاً وشرعاً (في حق كل) الأنبياء و (الرسل) عليهم الصلاة والسلام. وهذا القسم وإن فهم من ذكر ما يجب لهم وما يستحيل عليهم فإن ما لم يكن واجب الثبوت لهم ولا واجب النفي عنهم فوجوده وعدمه جائز في حقهم، لكن نبّه بما ذكره لإيضاح قسم الجائز عليهم صلوات الله وسلامه عليهم.

(النوم) وهو رحمة من الله تعالى على عباده لتستريح أبدانهم عند نصبهم، وهو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع المعرفة بالأشياء، لكن نبيّنا ﷺ كانت تنام عينه ولا ينام قلبه، بل قلبه ﷺ كان أبداً مستيقظاً متهيّأ لإدراك ما يلقى إليه من ربه.

ومثل النوم مما هو جائز في حق الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الجلوس والمشي والبكاء والضحك وكل ما هو من الخواص البشرية المباحة على ما هو الحق من جواز وقوع المباح منهم.

(والنكـاح) والتسـري وجمـاع النسـاء، فيجـوز عليهـم وطء النسـاء بالملك بشرط كونهن مسلمات أو مطلقاً على المعتمد ونحو ذلك (مثل الأكل) والشرب للحلال، وكذا يجوز عليهم كل عرض بشري ليس بمحرم ولا مكروه ولا مباح مزرٍ ولا مزمن، ولا مما تعافة الأنفس، ولا مما يؤدي إلى النفرة، حتى أنه لا يجوز عليهم الاحتلام.

والحاصل أنهم عليهم الصلاة والسلام من البشر وأرسلوا إلى البشر فظواهرهم خالصة للبشر يجوز عليها من الآفات والتغييرات والآلام والأسقام وتجرّع كأس الحمام ما يجوز على البشر مما لا نقيصة فيه.

شرح ابن مانع

قوله: (وجائز)، أي: عقلاً وشرعاً (في حق كل) الأنبياء و(الرسل) عليهم السلام (النوم)، وهو رحمة من الله على عباده لتستريح أبدانهم عند تعبهم، وهو غشية ثقلية تقع على القلب تمنع معرفة الأشياء، لكن نبيّنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، كان تنام عينه، ولا ينام قلبه.

ومثل النوم مما هو جائز في حق الأنبياء والمرسلين. الجلوس، والمشي، والبكاء، والضحك، (والنكاح)، والتسري، وكل ما هو من خواص البشرية المباحة (مثل الأكل) والشرب للحلال.

❊ ❊ ❊

وَلَيْــسَ فِــي الأُمَّــةِ بِــالتَّحْقِيــقِ
فِــي الفَضْــلِ وَالمَعْــرُوفِ كَــالصِّــدِيــقِ

فصل

في ذكر الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم

اعلم أنه لما كان أفضلَ خلق الله تعالى نبينا محمد ﷺ ثم بقية أولي العزم ثم الرسل ثم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم بعد الأنبياء أفضل البشر الصحابة رضي الله تعالى عنهم ويأتي ذكر الخلاف في التفاضل بينهم وبين الملائكة.

أعقب ذكر الأنبياء بالصحابة حسب اصطلاح أصحابنا ومن وافقهم، وبدأ بأفضلهم الإمام على التحقيق، وخليفة رسول الله ﷺ بالتصديق، الصديق الأعظم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فقال:

(**وليس في الأمة**)، أي: أمة الإسلام وهم أمة نبينا محمد ﷺ، فأل فيه للعهد الذهني وتقدم أنها أفضل الأمم فيكون الصديق أفضل البشر بعد سائر الأنبياء، (**بالتحقيق**) الثابت المنصوص (**في الفضل**) بجميع أنواع الفضائل (و) بذل (**المعروف**) من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم (كـ) أبـي بكر. وكان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة فسماه النبـي ﷺ وسلم عبد الله ولقبه بـ (**الصديق**) وكان علي بن أبـي طالب رضي الله تعالى عنه يحلف بالله تعالى أن الله تعالى أنزل اسم أبـي بكر رضي الله تعالى عنه من السماء الصديق، فهو أبو بكر عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب يجتمع نسبه مع نسب النبـي ﷺ، في مرة بن كعب.

وأم الصديق أم الخير سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بنت عم أبيه ماتت هي وأبوه أبو قحافة عثمان مسلمين رضوان الله تعالى عليهم.

وهو أول الناس إيماناً بالنبي ﷺ على قول جمع من أهل العلم، ويروى عن أبي حنيفة الإمام رضي الله تعالى عنه أنه قال: الأورع أن يقال أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن الصبيان علي، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد، ومن العبيد بلال، وهذا من أحسن ما قيل لجمعه الأقوال.

ومناقبه رضي الله تعالى عنه لا تحصى.

وهو أفضل الصحابة وخيرهم بإجماع أهل السنة والجماعة، على أن أفضل الصحابة والناس بعد الأنبياء أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ثم سائر العشرة، ثم باقي أهل بدر، ثم باقي أهل أحد، ثم باقي أهل بيعة الرضوان، ثم باقي الصحابة، هكذا إجماع أهل الحق.

وقد أخرج الإمام أحمد وغيره عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر، قال الذهبي: هذا متواتر عن علي رضي الله تعالى عنه، فلعن الله تعالى الرافضة ما أجهلهم.

وقد أخرج ابن عساكر من طرق عن عائشة رضي الله تعالى عنها وعروة بن الزبير أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه أسلم يوم أسلم وله أربعون ألف دينار فأنفقها على رسول الله ﷺ.

وفي صحيح البخاري عن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما قال: قلت لأبي، أي: الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال:

أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول عثمان، قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلاَّ رجل من المسلمين.

وفي الصحيحين من حديث أبـي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربـي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام» فهو من الأحاديث المتواترة.

والأحاديث في فضائله كثيرة شهيرة يعسر استقصاؤها. وقد أفردت مناقبه بالتصنيف، قال ابن الجوزي وهو من ذريته: كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه أبيض نحيفاً خفيف العارضين، وله من الولد عبد الله وأسماء وأمهما قتيلة، وعبد الرحمن وعائشة وأمهما أم رومان، ومحمد وأمه أسماء بنت عميس وأم كلثوم وأمها حبيبة بنت خارجة.

وتوفي الصديق وهو ابن ثلاث وستين سنة، وكانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلاَّ عشر ليال، وغسلته زوجته أسماء بنت عميس بوصية منه رضـي الله تعـالـى عنهمـا، وصلـى عليـه عمـر بـن الخطـاب وروي لـه عـن رسول الله ﷺ مائة حديث واثنان وأربعون حديثاً، وروى عنه من الصحابة والتابعين خلائق، ودفن رضي الله عنه في الحجرة الشريفة إلى جانب النبـي ﷺ، وكان رضي الله عنه قد اغتسل في يوم بارد فحم خمسة عشر يوماً وقيل سبب موته غير ذلك.

فصل

في الصحابة الكرام رضي الله عنهم

قوله: (**وليس في الأمة**)، أي: المحمدية أمة الإسلام، (**بالتحقيق**) الثابت المنصوص (**في الفضل**) بجميع أنواعه، (و)بذل (**المعروف**) من

مكـارم الأخـلاق، ومحـاسـن الشيـم، (كـ)ـأبـي بكـر، وكـان اسمـه فـي الجاهلية عبد الكعبة، فسماه النبـي ﷺ عبد الله ولقبه بـ(ـالصديق).

قال ابن قتيبة: ولقبه النبـي ﷺ، عتيقاً لجمال وجهه، فهو أبو بكر عبد الله بن عثمان يجتمع نسبه مع النبـي ﷺ في مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، وهو أول من أسلم وآمن بالنبـي ﷺ، على قول أكثر أهل العلم. ولهذا قال أبو محجن:

وسميـت صـديقـاً وكـل مهـاجـر سـواك يسمـى بـاسمـه غيـر منكـر
سبقـت إلـى الإسـلام والله شـاهـد وكنت جليساً في العريش المشهر

وقيل: أول من آمن عليّ ــ رضي الله عنه ــ وقيل: خديجة، ويروى عن الإمام أبـي حنيفة أنه قال: الأورع أن يقال: أول من أسلم من الرجال أبو بكر، ومن الصبيان علي، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد، ومن العبيد بلال، وهذا من أحسن ما قيل لجمعه الأقوال وهو أفضل الصحابة بإجماع أهل السنة.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى المصرية: قد نقل عن علي من نحو ثمانين وجهاً خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وعمر.

وهو أول ومن ولّي الخلافة بعد النبـي ﷺ، ومدة خلافته سنتان وأربعة أشهر إلاَّ عشر ليال، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة، وغسلته زوجته أسماء بنت عميس، وصلى عليه الخليفة بعده بعهده عمر بن الخطاب، وهو الذي يليه في الفضيلة.

* * *

وَبَعَدَه الفَارُوقُ مِن غير افْتَرا   وَبَعْـدَهُ عُثمـانُ فـاتـرُكِ المِـرا

شرح ابن شطي

(وبعده)، أي: بعد أبـي بكر في الفضيلة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (الفاروق)، سماه بهذا رسول الله ﷺ لما أسلم لأن الله تعالى فرق به بين الحق والباطل.

فهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح القرشي العدوي، وأمه حنتمة بنت هشام وهي أخت أبـي جهل. كنيته أبو حفص كناه بذلك رسول الله ﷺ، يوم بدر لما نهى عن قتل رجال بني هاشم والحفص في اللغة ولد الأسد.

أخرج ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما أسلم عمر نزل جبريل فقال: يا محمد لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر، وأخرج البزار والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما أسلم عمر قال المشركون قد انتصف القوم اليوم منا وأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

وكان إسلام أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه في السنة السادسة من البعثة وعمره يومئذٍ سبع وعشرون سنة، وكان إسلامه بعد تسعة وثلاثين رجلاً أو أربعين أو خمسة وأربعين وإحدى عشرة امرأة، ففرح المسلمون بإسلامه وظهر الإسلام بمكة عقب إسلامه.

وقد وردت الأحاديث الكثيرة بفضائله، ففي الصحيحين عن سعد بن أبـي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلاَّ سلك فجاً غير فجك»

وعلى كل حال فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بعد الصديق الأعظم أفضل هذه الأمة **(من غير افترا)**، أي: من غير كذب، ولما كان الحكم بأفضلية أبي بكر ثم عمر رضي الله تعالى عنهما بالنص والإجماع صرح بقوله من غير افترا إشارة لرد قول الخطابية الزاعمين بأن عمر رضي الله تعالى عنه أفضل الخلفاء، وهذا الزعم بالنسبة للصديق زورٌ وافتراء، نعم بالنسبة إلى من بعد الصديق حق لا مرية فيه، وكذلك فيه إشارة إلى قول الراوندية في زعمهم أن أفضل الصحابة العباس رضي الله تعالى عنه، والرد على الشيعة في زعمهم أن أفضلهم علي رضي الله تعالى عنه.

وقد أخرج الحاكم والخطيب عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أبو بكر وعمر خير الأولين والآخرين، وخير أهل السماوات وخير أهل الأرض إلاَّ النبيين والمرسلين».

شهد المَشاهد كلها وكان شديداً على الكفار والمنافقين، ومناقبه كثيرة وفضائله شهيرة.

ولي الخلافة بعهد من خليفة رسول الله ﷺ، الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه يوم توفي وذلك يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة، فقام بالأمر أتم قيام وكثرت الفتوحات في أيامه وكانت إصابته يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ودفن يوم الأحد.

وصح أن الشمس كسفت يوم موته وناحت الجن عليه، فلما توفي رضي الله تعالى عنه صلى عليه صهيب في المسجد وخرج الناس يمشون

وعبد الله أمامهم فسلم عبد الله وقال عمر يستأذن فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها أدخلوه فأدخل فوضع هناك مع صاحبيه، روي لأمير المؤمنين من الأحاديث عن رسول الله ﷺ، خمسمائة وسبعة وثلاثون حديثاً.

تنبيه: اعلم أن خلافة سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه مرتبة ولازمةٍ لحقية خلافة الصديق الأعظم أبـي بكر رضي الله تعالى عنه. فقد قام الإجماع وإشارات الكتاب والسنة على حقية خلافته، فما ثبت للأصل الذي هو الصديق من حقية الخلافة يثبت لفرعه الذي هو عمر رضي الله تعالى عنه فلا مطمع لأحد من فرق الضلال في الطعن والنزاع في حقية خلافته وقد علم علماً باتا ضرورياً أن الصحابة الكرام أجمعوا على تولية الصديق الخلافة ومن شذ لا يقدح في ذلك من غير مرية.

روى البيهقي عن الزعفراني قال: سمعت الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: أجمع الناس على خلافة أبـي بكر رضي الله تعالى عنه وذلك أنه اضطرب الناس بعد رسول الله ﷺ، فلم يجدوا تحت أديم السماء خيراً من أبـي بكر فولوه رقابهم.

وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما مما بلغ التواتر وعلم من الدين بالضرورة أن أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب رضي الله تعالى عنه بايعه واعتذر إليه عن تأخره لعدم مشورته وأن له حقاً في الشورى، حتى أن سيدنا علياً رضي الله تعالى عنه بايع أبا بكر على المنبر لإزالة شبهة الخلق وفرح الناس بذلك، والنصوص المشيرة إلى خلافة الصديق كثيرة.

ومن أعظم فضائل الصديق وأتم فراسته على التحقيق وأكمل نصحه لهذا الدين القويم استخلافه أمير المؤمنين عمر الفاروق لما حصل به من

عموم النفع وفتح البلاد وظهور الإسلام الظهور التام وقمع أهل الكفر وعبدة الأصنام.

أخرج ابن عساكر عن يسار بن حمزة قال: لما ثقل أبو بكر أشرف على الناس من كوة فقال: أيها الناس إني قد عهدت عهداً أفترضون به؟ فقال الناس رضينا يا خليفة رسول الله، فقام علي رضي الله تعالى عنه فقال: لا نرضى إلاَّ أن يكون عمر، قال فإنه عمر رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

(وبعده)، أي: بعد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، أي: يليه في الأفضلية أمير المؤمنين أبو عمرو وأبو عبد الله ذو النورين **(عثمان)** بن عفان القرشي الأموي، أمه أروى وأمها أم حكيم البيضاء عمة رسول الله ﷺ.

ولد عثمان رضي الله تعالى عنه في السنة السادسة من الفيل وأسلم قديماً على يد الصديق الأعظم وهاجر الهجرتين إلى الحبشة، وتزوج رقية بنت رسول الله ﷺ قبل البعثة، فماتت عنده في الثانية من الهجرة عند رجوع النبي ﷺ من غزوة بدر العظمى، ولم يشهد عثمان رضي الله تعالى عنه بدراً لتخلفه بإذن رسول الله ﷺ ليمرض رقية رضي الله تعالى عنها فجاء البشير بنصر المؤمنين عند دفنها، فضرب له رسول الله ﷺ، بسهمه وأجره، ولما ماتت رقية زوّجه رسول الله ﷺ أختها أم كلثوم، وتوفيت عنده أيضاً سنة تسع من الهجرة.

قال العلماء: ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره ولذلك سمي بذي النورين، فهو من السابقين الأولين وأول المهاجرين وأحد العشرة المشهود

لهم بالجنة، وأحد الصحابة الذين جمعوا القرآن، والصديق جمعه أيضاً وإنما تميز عثمان بجمعه في المصحف على هذا الترتيب اليوم.

وكان رضي الله تعالى عنه ذا جمال مفرط، روي له عن رسول الله ﷺ مائة حديث وستة وأربعون حديثاً، وروى عنه بعض الصحابة وخلائق من التابعين.

أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ، جمع ثيابه حين دخل عثمان وقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة».

وأما ذكر خلافته رضي الله تعالى عنه فتقدم أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه جعلها شورى بين الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فلما فرغ الناس من دفن عمر اجتمع هؤلاء الستة فبايعوه جميعاً فثبتت بيعة عثمان بإجماع الصحابة، ولهذا قال: (فاترك المرا)، أي: الجدال والشك، فإن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه من جملة من بايعه وقد غزا معه وكان يقيم الحد بين يديه كما أخبر بذلك عن نفسه.

واستشهد عثمان رضي الله تعالى عنه في داره سنة خمس وثلاثين في أوسط أيام التشريق، وصلى عليه الزبير وكان أوصى إليه ودفن بالبقيع وولي الخلافة إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وثلاثة عشر يوماً.

واختلف فيمن باشر قتله فقيل لا يعرف، وقيل الأسود والتجيبي من أهل مصر، وقيل جبلة بن الأيهم من مصر أيضاً، وله يومئذٍ من العمر اثنان وثمانون سنة، وقيل: ثمان وثمانون وقيل تسعون.

ومناقبه كثيرة ومآثره غزيرة وأياديه شهيرة، فرضوان الله تعالى عليه وعلى جميع أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم.

فلهذا قال:

قوله: **(وبعده)**، أي: بعد أبـي بكر الصديق الذي يليه في الفضيلة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. **(الفاروق)**: لقبه بذلك رسول الله ﷺ، لأن الله فرق به بين الحق والباطل، فهو عمر بن الخطاب القرشي العدوي، وكنيته أبو حفص، كناه بذلك النبـي ﷺ.

أسلم ـــ رضي الله عنه ـــ في السنة السادسة من البعثة، ففرح المسلمون بإسلامه، وظهر الإسلام بعد ذلك بمكة.

بويع ـــ رضي الله عنه ـــ بالخلافة في اليوم الذي توفي فيه أبو بكر الصديق، وذلك يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة. فقام بالأمر أتم القيام، وكثرت الفتوح في أيامه، فأزال دولة الروم من الشام، وأسقط دولة الفرس المجوس من العراق وفارس حتى انقرضت، فلذا طعنه مجوسي يقال له أبو لؤلؤة حنقاً لما حل بقومه من الدمار والبوار، وذلك يوم الأربعاء؛ لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، ودفن يوم الأحد.

ولما طعن قال ـــ رضي الله عنه ـــ الحمد لله الذي جعل منيتي بيد رجل لا يدعي الإسلام، فعمر ـــ رضي الله عنه ـــ أفضل هذه الأمة بعد أبـي بكر الصديق. **(من غير افترا)**، أي: كذب، بل هو حق ثابت وصدق واضح.

(وبعده)، أي: بعد أمير المؤمنين في الفضيلة أمير المؤمنين (عثمان) بن عفان الأموي.

أسلم قديماً على يد أبي بكر ــ رضي الله عنهما ــ وهاجر الهجرتين إلى الحبشة، وتزوج رقية بنت رسول الله ﷺ قبل البعثة، وماتت عنده في السنة الثانية من الهجرة، فزوجه النبي ﷺ أختها أم كلثوم، وتوفيت عنده أيضاً، فلذا سمي ذا النورين.

ولي الخلافة بعد عمر ــ رضي الله عنهما ــ باتفاق أهل الشورى من الصحابة، واستشهد سنة خمس وثلاثين في داره، وذلك في ذي الحجة، وهو يومئذٍ صائم تجمعت عليه الأسافل والأنذال من العراق، والشام، ومصر، ونهى ــ رضي الله عنه ــ عن قتالهم اتقاء لسفك الدماء واحتساباً، فرضي الله عنه وأرضاه.

وأخرج الحاكم عن الشعبي قال: ما سمعت من مراثي عثمان أحسن من قول كعب بن مالك رضي الله عنه:

فكف يديه ثم أغلق بابه ... وأيقن أن الله ليس بغافل

وقال لأهل الدار لا تقتلوهم ... عفا الله عن كل امرىء لم يقاتل

فكيف رأيت الله صب عليهم ... العداوة والبغضاء بعد التواصل

وكيف رأيت الخير أدبر بعده ... عن الناس إدبار الرياح الجوافل

فهو ــ رضي الله عنه ــ أفضل الأمة المحمدية بعد أبي بكر وعمر، باتفاق أهل السنة. ولهذا قال: (فاترك المرا) في الجدال والشك في فضيلته، فإن علياً ــ رضي الله عنه ــ من جملة من بايعه وقد غزا معه، وكان يقيم الحد بين يديه.

* * *

وَبعدُ فَالفَضْلُ حقيقاً فاسمعِ		منـي نِظـامـي للبطيـن الأنـزعِ
مُجَدِلِ الأبْطالِ مَاضي العَزمِ		مُفرِّجِ الأوجالِ وافِي الحَزمِ
وَافي النَّدى مُبْدِي الهُدَى مردْي العدى
مُجـلِ الصَّـدا يـا ويـل مَـن فيـه اعتَـدى

شرح ابن شطي

(**وبعد**) بنائها على الضم، أي: وبعد عثمان رضي الله تعالى عنه على القول الرجيح والمذهب الصحيح (**فالفضل**) الشامخ (**حقيقاً**)، أي: في حقيقة الأمر.

(**فاسمع**) فعل أمر مبني على السكون وحرك بالكسرة للقافية (**مني نظامي**)، أي: منظومي هذا (لـ)ـلإمام الهمام أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب ا(**لبطين الأنزع**). قال ابن الأثير في نهايته وفي صفة علي رضي الله تعالى عنه البطين الأنزع، أي: العظيم البطن والمراد بكونه بطيناً أن باطنه عظيم لتضلعه من العلوم والمعارف، والمراد بالأنزع المنحسر شعر رأسه مما فوق الجبين، والنزعتان عن جانبـي الرأس مما لا شعر عليه وقيل معناه: الأنزع من الشرك المملوء البطن من الإيمان والعلم.

(**مجدل الأبطال**) قال في القاموس: جدله صرعه، والأبطال جمع بطل بفتح الموحدة والطاء المهملة الرجل الشجاع، ولا شك أن علياً رضي الله تعالى عنه قتل من الأبطال عدة، وقوله: (**ماضي العزم**) إشارة إلى شدة قوته، والماضي من مضى في الأمر نفذ، والعزم الجد والصبر.

وقوله (**مفرج**)، أي: كاشف (**الأوجال**) جمع وجل الخوف، إشارة إلى ما كان عليه من كشف الغموم وتفريج الهموم والإقدام في المواقف

الصعبة والبروز إلى الأقران المستصعبة.

وقوله (**وافي الحزم**) إشارة إلى وفور عقله، والحزم ضبط الرجل أمره والحذر من فواته.

وقوله (**وافي**)، أي: كثير (**الندى**) أي السخاء والكرم، إشارة إلى غزارة كرمه.

(**مبدي**) أي مظهر (**الهدى**) أعني العلوم الغامضة.

(**مردي العدى**) اسم فاعل من أراده أهلكه.

(**مجلِ**) أي مزيل (**الصدى**)، أي: العطش والظمأ، والمراد به كاشف الكرب ومجلي النوب.

(**يا ويل**) هذه يراد بها الدعاء بالحزن والهلاك، ومعنى النداء فيه، أي: يا حزن، ويا هلاك احضر فهذا وقتك لـ(**ـمن**)، أي: إنسان مكلف (**فيه**)، أي: في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (**اعتدى**) بانتقاصه وانحطاطه عن منزلته الشامخة أو غلا فيه غلواً خارجاً عن طوره ونسب إليه ما ليس له من نحو ألوهية كغلاة أهل الرفض، أو نبوة، أو أفضلية على من هو نفسه اعترف بأنه أفضل منه.

إذا علمت هذا فاعلم أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، واسمه عبد مناف وقيل اسمه كنيته بن عبد المطلب وهو ابن هاشم. فعلي رضي الله تعالى عنه ابن عم النبي ﷺ وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وقد أسلمت وهاجرت.

وأمير المؤمنين علي رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأخو رسول الله ﷺ بالمواخاة، وصهره على سيدة النساء فاطمة الزهراء

عليها السلام، وأحد السابقين إلى الإسلام، واحد العلماء الربانيين والشجعان المشهورين والزهاد المذكورين، وأحد الخلفاء الراشدين، أسلم رضي الله تعالى عنه قديماً.

واعلم أن مناقب أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه كثيرة وفضائله شهيرة حتى قال سيدنا أحمد: ما جاء لأحد من الفضائل ما جاء لعلي رضوان الله تعالى عليه. ولي الخلافة ووقعت له المبايعة نهار الغد من قتل عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه بالمدينة.

تنبيه: علم مما تقدم أن أحق الناس بالخلافة بعد الثلاثة المتقدمة أعني أبا بكر وعمر وعثمان علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم باتفاق أهل الحل والعقد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ولما قتل علي رضي الله تعالى عنه الخوارجَ بالنهروان انتدب من بقاياهم ابن ملجم وضربه على رأسه ثم مات أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه ليلة الأحد لتسع عشرة مضت من رمضان سنة أربعين وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنهم، وصلى عليه الحسن ودفن بدار الإمارة بالكوفة، وكان عمر أمير المؤمنين لما مات ثلاثاً وستين سنة.

واعلم أن مناقب علي رضي الله تعالى عنه كثيرة ومآثره شهيرة، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن، يعني: علياً رضي الله تعالى عنه. روي له عن رسول الله ﷺ خمسمائة وسبعة وثلاثون حديثاً.

قوله: (وبعد) ــ ببنائها على الضم لحذف المضاف إليه ونية ثبوت معناه ــ ، أي: وبعد عثمان بن عفان (**فالفضل**) الشامخ (**حقيقاً**)، أي: في حقيقة الأمر من غير شك. (**فاسمع** [مني][1] **نظامي**)، أي: منظومي هذا الذي أدرجته في هذه العقيدة المفيدة ثابت (لـ)ـلإمام الهمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. الـ(ـبطين)، أي: عظيم البطن. (**الأنزع**)، أي: المنحسر شعر رأسه مما فوق الجبين.

(**مجدل الأبطال**): قال في القاموس: جدله فانجدل وتجدل صرعه على الجدالة، كسحابة الأرض مطلقاً، أو ذات رمل دقيق. والأبطال: جمع بطل. الرجل الشجاع؛ سمي بذلك لأنه تبطل عنده دماء القرآن، أو لأنه يبطل جراحته فلا يكترث بها، ولا شك أن علياً ــ رضي الله عنه ــ قتل من الأبطال عدة.

وقوله: (**ماضي العزم**). إشارة إلى شدة قوته، ووفور شدته. والماضي: من مضى في الأمر مضاء نفذ ومضى السيف، أي: قطع. والعزم: الجد والصبر.

(**مفرج**)، أي: كاشف (**الأوجال**). جمع وجل: الخوف. (**وافي**)، أي: تام. (**الحزم**): الذي هو ضبط الأمور، والحذر من فواتها. (**وافي**)، أي: كثير (**الندى**)، أي: السخاء والكرم. (**مبدي**)، أي: مظهر (**الهدى**). مراده العلوم الغامضة والفهوم الرائضة. (**مردي**)، أي: مهلك

---

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من (هـ) وأثبته كما في (أ).

(العدى) جمع عدو. وضد الولي، وهو جمع لا نظير له. **(مجلٍ)**، أي: مزيل. **(الصدى)**، أي: العطش، والمراد به كاشف الكرب، ومجلي النوب.

(يا ويل): هذه الكلمة مثل ويح، إلاَّ أنها كلمة عذاب. وتنصب على إضمار الفعل، وترفع على الابتداء إذا لم تضف، فأما إذا أضيفت فليس إلاَّ النصب؛ لأنك لو رفعتها لم يكن لها خبر.

قال عطاء بن يسار: الويل: واد في جهنم لو أرسلت فيه الجبال لماعت من حره، ومعنى النداء هنا: يا ويل احضر فهذا وقتك وأوانك. لمن، أي: إنسان مكلف **(من)** ذكر وأنثى. **(فيه)**، أي: في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. **(اعتدى)**، أي: تجاوز حده بالغلو فيه كفعل الروافض، أو بانتقاصه كما فعلت الخوارج، فهو ــ رضي الله عنه ــ ابن عم رسول الله ﷺ، ورابع الخلفاء، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وصهر النبي ﷺ على فاطمة الزهراء، وأحد السابقين إلى الإسلام.

قال ابن عباس وغيره: إنه أول من أسلم، وقد تقدم ما يجمع الأقوال.

بويع ــ رضي الله عنه ــ بالخلافة يوم قتل عثمان، وقتله ابن ملجم الخارجي ليلة الأحد لتسع عشرة مضت من رمضان سنة أربعين، وغسله الحسن والحسين، وعبد الله بن جعفر، وصلى عليه الحسن، ودفن بدار الإمارة بالكوفة.

ومما نسب إلى الإمام علي رضي الله عنه:

محمّد النبي أخي وصهري ... وحمزة سيد الشهداء عمي
وجعفر الذي يمسي ويضحى ... يطير مع الملائكة ابن أمي
وبنت محمد سكني وعرسي ... مسوط لحمها بدمي ولحمي
وسبطا أحمد ابناي منها ... فأيكم له سهم كسهمي
سبقتكم إلى الإسلام طراً ... غلاماً ما بلغت أوان حلمي

* * *

فحبُّـهُ كحبِّهـم حتمـاً وَجَـب   وَمَن تَعدَّى أوقَلا فقد كَذَب
وبعدُ فالأفضَلُ باقِي العَشَرة   فَأهلُ بدرٍ ثُمّ أهلُ الشّجَرَة

ثم قال في نظمه:

(فحبه)، أي: حب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه **(كحبهم)**، أي: الخلفاء الراشدين **(حتماً)**، أي: خالصاً محكم الأمر **(وجب)** على جميع الأمة باتفاق الأئمة.

(ومن)، أي: أي مكلف **(تعدى)** في حبه أو لم يقل بفضل الخلفاء الراشدين على ترتيب الخلافة **(أو قلا)**هم أو أحداً منهم، أي: أبغضهم أو واحداً منهم **(فقد)** الفاء في جواب من **(كذب)** في كل واحدة من الخصلتين، من تعديه في الحب أو بغضه لهم أو لأحد منهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

تـنـبـيـهـات:

الأول: اعلم أن الواجب اعتقاده أن أفضل هذه الأمة نبيّها ﷺ ثم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم فهم الذين وُليوا الخلافة التي هي النيابة عن النبي ﷺ في عموم مصالح المؤمنين. وقد بيّن ﷺ مدة الخلافة بعده بأنها ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً عضوضاً فكانت خلافتهم، فثبت بالنص أن مدة الخلفاء الأربعة خلافة ورحمة وكذا مدة سيدنا الحسن رضي الله تعالى عنه وكانت ستة أشهر وأياماً.

الثاني: ترتيبهم في الأفضلية على ترتيبهم في الخلافة وهذا قول

عامة أهل السنة من الأثرية والأشعرية والماتريدية وغيرهم.

الثالث: الذي أطبق عليه علماء الأمة ورؤساء الأئمة أن أفضل هذه الأمة بعد نبيّها ﷺ الصديق الأعظم أبو بكر ثم عمر رضي الله تعالى عنهما ثم اختلفوا، فالأكثرون ومنهم الإمام أحمد والإمام الشافعي وهو المشهور عن الإمام مالك رضي الله تعالى عنهم أن الأفضل بعد أبي بكر وعمر وعثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، وجزم الكوفيون ومنهم الثوري بتفضيل علي على عثمان، وقيل بالوقوف عن التفضيل بينهم، لكن التفضيل في طرف أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما قطعي على المعتمد، وقيل ظني كما عند الباقلاني وغيره.

(وبعد)، أي: بعد الخلفاء الأربعة الراشدين **(فالأفضل)** من سائر الصحابة المكرمين **(باقي العشرة)** المشهود لهم بالجنة على لسان سيد العالم وخاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهم الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

أحدهم: أبو محمد طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي، وأمه الصعبة بنت عبد الله الحضرمي. أسلمت وأسلم طلحة قديماً على يد أبي بكر الصديق وشهد المشاهد كلها غير بدر، وثبت مع النبي ﷺ يوم أحد ووقاه بيده فشلت إصبعه وجرح يومئذٍ أربعة وعشرين جراحة، وسماه النبي ﷺ يوم أحد طلحة الخير. قتل رضي الله تعالى عنه يوم وقعة الجمل يوم الخميس لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ودفن بالبصرة وله أربع وستون سنة، وروي له عن رسول الله ﷺ ثمانية وثلاثون حديثاً.

الثاني: أبو عبد الله الزبير بن العوام القرشي الأسدي، وأمه صفية عمة رسول الله ﷺ أسلمت وأسلم هو قديماً على يد الصديق رضي الله

تعالى عنهم وهو ابن ستة عشرة سنة، وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين وشهد مع النبي ﷺ المشاهد كلها، وهو أول من سل السيف في سبيل الله تعالى. قتله عمير بن جرموز بسَفَوانْ من أرض البصرة في وقعة الجمل سنة ست وثلاثين وله أربع وستون سنة. حول[1] إلى البصرة وقبره بها مشهور.

روي له عن رسول الله ﷺ ثمانية وثلاثون حديثاً، روى عنه ابناه عبد الله وعروة وغيرهما، وهو أحد الشجعان المشهورة وحواري رسول الله ﷺ.

الثالث: أبو إسحاق سعد بن أبي وقاص القرشي الزهري، أسلم قديماً على يد الصديق رضي الله تعالى عنهما وهو ابن سبع عشرة سنة وقال كنت ثالثاً في الإسلام وأول من رمى بسهم في سبيل الله تعالى.

شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وفداه النبي ﷺ يوم أحد بأبويه، أي: قال له ارم فداك أبي وأمي.

مات رضي الله تعالى عنه بالعقيق فحمل إلى المدينة وصلى عليه مروان وهو يومئذٍ والي المدينة من قبل معاوية ودفن بالبقيع وذلك سنة خمس وخمسين وقيل سبع وخمسين وله بضع وسبعون سنة وقيل اثنتان وثمانون. وهو آخر العشرة موتاً وكان قد اعتزل الفتنة وكف بصره في آخر عمره رضي الله تعالى عنه، وروي له عن رسول الله ﷺ مئتان وسبعون حديثاً.

الرابع: أبو عمر سعيد بن زيد القرشي العدوي. أسلم قديماً، شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ غير بدر فإنه كان مع طلحة بن عبيد الله يطلبان خبر عير قريش، وضرب لهما النبي ﷺ بسهميهما في الغنيمة والأجر.

---

(١) أي: حُوِل من سفوان إلى البصرة لأجل دفنه. (د).

مات بالعقيق قريباً من المدينة فحمل إليها ودفن بها سنة إحدى وخمسين وقيل اثنتين وخمسين وله بضع وسبعون سنة. روي له عن رسول الله ﷺ ثمانية وأربعون حديثاً.

الخامس: أبو محمد عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري، وأمه الشفاء بنت عوف بن زهرة، أسلمت وهاجرت، وأسلم هو قديماً على يد الصديق رضي الله تعالى عنهما وهاجر إلى الحبشة الهجرتين وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وصلى النبي ﷺ خلفه في غزوة تبوك. ولد بعد الفيل بعشر سنين ومات سنة اثنتين وثلاثين ودفن في البقيع وله اثنتان وسبعون سنة وقيل خمس وسبعون، روي له عن رسول الله ﷺ خمسة وستون حديثاً.

السادس: أمين الأمة أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري. أسلم مع عثمان بن مظعون وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. مات في طاعون عمواس بالأردن سنة ثماني عشرة ودفن هناك وقبره مشهور يزار ويتبرّك به، روي له عن رسول الله ﷺ خمسة عشر حديثاً.

فهؤلاء العشرة المذكورون في حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة» رواه الترمذي.

وبعد العشرة، أي: الذين يلونهم في الأفضلية (فأهل) غزوة (بدر) العظمى وهي البطشة الكبرى ويقال لها بدر القتال ويوم الفرقان لأن الله

تعالى فرق فيه بين الحق والباطل، وهي التي أعز الله بها الإسلام وقمع بها عبدة الأصنام. وبدر قرية مشهورة ولم تزل من يومئذٍ بأهل الإسلام معمورة.

وكانت وقعة بدر نهار الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وكان عدة المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر.

روى الإمام أحمد وابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي وأبو عوانة وابن حبان من حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر، ولفظ مسلم تسعة عشر، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، الحديث. واستشهد من المسلمين في وقعة بدر أربعة عشر نفساً ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وقتل من الكفار يومئذٍ سبعون وأسر سبعون.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح على شرط مسلم عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لن يدخل النار رجل شهد بدراً والحديبية.

وروى أبو داود وابن ماجه والطبراني بسند جيد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلع الله على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». المراد عدم المؤاخذة بما يصدر عنهم وأنهم خصوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيمة التي اقتضت محو ذنوبهم السالفة وتأهّلوا لأن يغفر لهم الذنوب اللاحقة إن وقعت، أي: كل ما عملتموه بعد هذه الوقعة من أي عمل كان فهو مغفور.

وقيل المراد أن ذنوبهم تقع إذا وقعت مغفورة.

واتفق العلماء على أن البشارة المذكورة فيما يتعلق بأحكام الآخرة

لا فيما يتعلق بأحكام الدنيا من إقامة الحدود ونحوها والله تعالى أعلم.

(ثم) بعد أهل بدر فالأفضلية لـ **(أهل)** بيعة الرضوان تحت **(الشجرة)** المعهودة، وتسمى شجرة البيعة وشجرة الرضوان.

شرح ابن مانع

قوله: **(فحبه)**، أي: حب أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب. **(كحبهم)**، أي: كحب الخلفاء الراشدين. **(حتماً وجب)** على جميع الأمة باتفاق الأئمة، **(ومن تعدى)** في حبه، وغلا فيه وجعل له تصرفاً بالأحياء ينفعهم أو يضرهم، أو لم يقل بفضل الخلفاء الراشدين على ترتيب الخلافة. **(أو قلا)**هم، أي: أبغضهم، أو أبغض واحداً منهم، **(فقد كذب)** في كل واحدة من هاتين الخصلتين المذمومتين. خصلتي الإفراط، أي: تجاوز الحد، والتفريط، أي: التقصير في حقهم وبغضهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

قوله **(وبعد)**، أي: بعد الخلفاء الراشدين، **(فالأفضل)** من سائر الصحابة **(باقي العشرة)** المشهود لهم بالجنة والمبشّرين بها بما رواه الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف، وابن ماجه عن سعيد بن زيد أن النبـي ﷺ قال: «أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد بن أبـي وقاص في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة، وأبو عبيدة في الجنة».

فهؤلاء هم العشرة المبشرون بالجنة رضوان الله تعالى عنهم أجمعين، ونذكر شيئاً من مآثر الستة الباقين من العشرة لمزيد الإيضاح والتبيين فنقول:

أحدهم: أبو محمد طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي، أسلم قديماً على يد أبـي بكر الصديق، وشهد المشاهد كلها غير بدر؛ لأن النبـي ﷺ أنفذه مع سعيد بن زيد يتعرفان خبر العير التي كانت لقريش مع أبـي سفيان بن حرب، فعادا يوم اللقاء ببدر، وثبت مع النبـي ﷺ يوم أُحد ووقاه بيده فشلت أصبعه، وجرح يومئذٍ أربعة وعشرين جراحة، وسماه النبـي عليه السلام طلحة الخير، قتل رضي الله عنه يوم وقعة الجمل يوم الخميس لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين.

وثانيهم أبو عبد الله: الزبير بن العوام القرشي الأسدي، وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، أسلم قديماً على يد أبـي بكر الصديق، وهاجر الهجرتين، وشهد المشاهد كلها. وهو أول من سل السيف في سبيل الله، وثبت مع النبـي ﷺ يوم أحد. قتل في وقعة الجمل سنة ست وثلاثين.

وثالثهم: **أبو إسحاق**: سعد بن أبـي وقاص واسم أبـي وقاص مالك القرشي الزهري، أسلم قديماً على يد أبـي بكر. وقال: كنت ثالثاً في الإسلام، وأنا أول من رمى بسهم في سبيل الله. شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، مات رضي الله عنه بالعقيق قريباً من المدينة، فحمل على رقاب الرجال إلى المدينة، وصلى عليه مروان بن الحكم، وهو يومئذٍ والي المدينة من قبل معاوية، ودفن بالبقيع، وذلك سنة خمس وخمسين، وقيل: سنة سبع وخمسين.

ورابعهم: **أبو الأعور**: سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، قال: ابن عبد البر هو: ابن عم عمر بن الخطاب، أسلم قديماً وشهد المشاهد كلها

غير بدر كما تقدم. مات بالعقيق فحمل إلى المدينة، ودفن بها سنة إحدى وخمسين، وقيل: سنة اثنتين وخمسين.

وخامسهم: **أبو محمد**: عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري، أسلم قديماً على يد أبي بكر، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين، وشهد المشاهد كلها وثبت مع النبي ﷺ يوم أحد، وصلّى رسول الله ﷺ خلفه يوماً في غزوة تبوك وأتم ما فاته. مات سنة اثنتين وثلاثين، ودفن بالبقيع.

وسادسهم: **أمين الأمة أبو عبيدة**: عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري، أسلم مع عثمان بن مظعون، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وشهد المشاهد كلها وثبت مع رسول الله ﷺ يوم أُحد، ونزع الحلقتين اللتين دخلتا في وجه رسول الله ﷺ يوم أُحد من حلق المغفر بغية فوقعت ثنيتاه، فكان أحسن الناس همة. مات في طاعون عمواس بالأردن سنة ثماني عشرة، ودفن هناك رضي الله عنه.

ثم ذكر من يلي العشرة في الفضيلة بقوله: (**فأهل**) غزوة (**بدر**) التي أعز الله بها الإسلام، وأذل بها عبدة الأصنام.

وبدر: قرية كانت مشهورة على نحو أربع مراحل من المدينة، وكانت وقعة بدر نهار الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وكان عدة المسلمين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، واستشهد من المسلمين في وقعة بدر أربعة عشر رجلاً: ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، وقتل من الكفار سبعون وأسر سبعون.

(**ثم**) بعد (**أهل**) بدر فالأفضلية ثابتة لأهل بيعة الرضوان تحت

(الشجرة) المعهودة، وهي من شجر الطلح، وأهل بيعة الرضوان هم أصحاب الحديبية.

قال ياقوت: اختلفوا فيها. فمنهم من شددها، ومنهم من خففها، فروي عن الشافعي رحمه الله أنه قال: الصواب تشديد الحديبية، وتخفيف الجعرانة، وخطأ من نص على تخفيفها، وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها، وبين الحديبية ومكة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل، وفي الحديث أنها بئر، وبعض الحديبية في الحل، وبعضها في الحرم، وهو أبعد الحل من البيت، انتهى ملخصاً.

وسببها: أن قريشاً لما منعت النبي ﷺ والمسلمين من دخول المسجد الحرام بعث عليه الصلاة والسلام عثمان بن عفان إلى قريش ليخبرهم أنهم لم يأتوا لقتال، وإنما جاؤوا عماراً، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام، ثم بلغه عليه السلام أن عثمان قتلته قريش، فدعا الناس إلى البيعة، وقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم» فبايعوه.

وضرب عليه الصلاة والسلام بإحدى يديه على الأخرى عن عثمان، وقال: «اللهم إن عثمان في حاجتك وحاجة رسولك» ثم تبين كذب الخبر بقتل عثمان، فقدم على النبي ﷺ هو ومن معه بعد البيعة وكانوا عشرة، ثم كانت الهدنة بينه عليه الصلاة والسلام وبين قريش، ووقع الصلح على أن يرجع ويعتمر من العام المقبل، فرجع عليه السلام. وذلك سنة ست من الهجرة، ثم اعتمر عمرة القضية ــ وتسمى عمرة القضاء ــ سنة سبع من الهجرة، والله أعلم.

* * *

وَقِيـــلَ أهـــلُ أحـــدٍ المُقَـــدِّمَـــة
والأوَّل أولـــى للنُّصُـــوصِ المُحْكَمـــة

شرح ابن شطي

وقـولـه: (وقيـل أهـل) غـزوة (أحـد المقـدمـة)، أي: فـي الـزمـن والأفضلية إشارة إلى أن الأصح الأفضل أهل بدر فأهل أحد فأهل البيعة.

وقوله: (والأول): وهو تقديم أهل البيعة في الأفضلية على أهل غزوة أحد (أولى) وأحق بذلك وذلك (للنصوص المحكمة) من الكتاب والسنة، وكانت غزوة أحد في نصف شوال سنة ثلاث. وأحد هو جبل أحمر بينه وبين المدينة أقل من فرسخ.

إذا علمت هذا فظاهر كلام متكلمي الأشاعرة أن أهل غزوة أحد يلون أهل بدر في الأفضلية، وكان عدة أهل غزوة أحد بعد انخزال ابن أُبـي سبعمائة وكان المشركون ثلاثة آلاف، وعدد من استشهد يومئذٍ من المسلمين سبعون رجلاً منهم أربعة من المهاجرين وسائرهم من الأنصار، وكان ﷺ يزور شهداء أحد فإذا بلغ الشِعب يقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبـى الدار» والأحاديث في ذلك كثيرة جداً.

وأما أهل الشجرة وهم أصحاب الحديبية فقد وردت النصوص في فضلهم.

والحديبية بينها وبين مكة مرحلة وكانت في ذي القعدة من السنة السادسة، وكان عدة المسلمين الذين مع رسول الله ﷺ ورضي عنهم أربعة عشر مائة وأكثر من ذلك، وكان سبب البيعة أن قريشاً لما صدت النبـي ﷺ والمسلمين عن المسجد الحرام فبعث عثمان بن عفان رضي الله عنه وقال

له: اذهب إلى قريش وأخبرهم إنّا لم نأتِ لقتال وإنما جئنا عُماراً وادعُهم إلى الإسلام، ثم بلغه أن عثمان رضي الله تعالى عنه قد قتلته قريش فدعا الناس إلى البيعة وقال: لا نبرح حتى نناجز[1] القوم، ثم تبين كذب الخبر بقتل عثمان رضي الله عنه، فقدم عثمان على النبي ﷺ هو ومن معه ثم كانت الهدنة بين النبي ﷺ وبين قريش.

روى الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة».

تنبيه: ظاهر كلام علمائنا أن أفضل الصحابة بعد العشرة أهل بدر من المهاجرين ثم الأنصار على قدر الهجرة أولاً فأولاً، ثم سائر أصحاب رسول الله ﷺ ولهم رتب. والمراد بالأفضلية من حيث الجملة ولا يلزم تفضيل كل فرد مثلاً من المهاجرين على كل فرد من الأنصار.

شرح ابن مانع

قوله: (وقيل أهل) غزوة جبل (أحد) ــ سمي بذلك لتوحده وانقطاعه عن جبال أخر هناك ــ وهو الذي قال فيه ﷺ: «أُحد جبل يحبنا ونحبه».

وكانت هذه الوقعة يوم السبت في شوال سنة ثلاث من الهجرة وسيما أنه لما قتل الله من قتل من الكفار يوم بدر، ورجع من بقي منهم إلى مكة، وجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان من الشام سالمة موقوفة في دار الندوة، فمشت أشراف قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم إلى

(١) المناجزة: المقابلة. (د).

أبـي سفيان فقالوا: نحن طيبوا الأنفس بأن نجهز بربح هذه العير جيشاً إلى محمد. فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك، وبنو عبد المطلب معي ففعلوا ذلك، وكانت العير ألف بعير والمال خمسين ألف دينار، فسلم إلى أهل العير رؤوس أموالهم، وعزلت الأرباح، وكانوا يربحون في تجارتهم الدينار ديناراً، وجهزوا الجيش وفيهم نزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾.

وخرجت قريش ومن تابعها من القبائل فساروا حتى وصلوا إلى أحـد، وخـرج عـليهـم رسـول الله ﷺ، واقتتـل الفـريقـان، فقتـل مـن المسلمين سبعون رجـلاً، وقـتـل من المشركين ثلاثة وعشرون رجلاً، وقتل رسول الله ﷺ بيده الكريمة أُبـيّ بـن خلف، وانهزم المسلمون في هذه الوقعة إلاَّ رسـول الله ﷺ وبعض الصحابـة فـلـم ينهزمـوا، وسبب هــذا الانكسـار مخـالفـة أمـر رسـول الله ﷺ، وقـد عفـا الله عنـهــم بنـص القرآن.

وإذا تدبرنا ما حل بالمسلمين في هذه الأزمان من تغلب الكفار عليهم، وجدنا ذلك بسبب مخالفته أمر الله، فلا عز للمسلمين إلاَّ بالتمسك بكتابهم، وبما جاء به نبيهم من السنة الصحيحة، ولنا في قصة أُحد أعظم عبـرة، فـأهـل هـذه الغـزوة قيـل: هـم (**المقـدمـة**) فـي الـزمـن والأفضليـة (**والأول**)، وهو تقديم أهل البيعة في الأفضلية على أهل غزوة أحد (**أولى**) وأحق بذلك؛ (لـ)ـورود ا(**لنصوص المحكمة**) من الكتاب والسنة، فقد رضي الله عنهم كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾، ﴿ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾.

وروى الترمذي وغيره عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ليدخلن الجنة من بايع تحت الشجرة إلاَّ صاحب الجمل الأحمر»، ومن ثم قال ابن عبد البر: ليس في غزواته ﷺ ما يعدل بدراً أو يقرب منها إلاَّ غزوة الحديبية.

وصاحب الجمل الأحمر رجل أضل بعير له فدخل في العسكر يتطلبه ـ ولم يكن من المسلمين ـ فبلغه ما قال رسول الله ﷺ فقيل له: اذهب يستغفر لك رسول الله ﷺ، فقال: لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي، فبينما هو سائر إذ زلقت به نعله فتردى فمات، فما علم به حتى أكلته السباع، والرجل من بني ضبة من أهل سيف البحر[1].



(١) وقيل هو الجد بن قيس الأنصاري وكان منافقاً. كذا في (هـ).

وعـائِـشٌ[1] فـي العلْـمِ مـع خَـدِيجـة
فـي السَّبـقِ فـافهـم نُكْتَـةَ النَّتيجَـة

شرح ابن شطي

(وعـائشـة) الصـدّيقـة بنـت الصـدّيـق رضـي الله عنهـا أم عبـد الله أم المؤمنين وحبيبة رسول رب العالمين، عقد عليها وهي بنت ست سنين قبل الهجرة بسنتين وقيل بثلاث، وبنى بها بالمدينة أول مقدمه في السنة الأولى وهي بنت تسع ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة، وتوفيت بالمدينة ودفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلي عليها أبو هريرة رضي الله تعالى عنه سنة ثمان وخمسين.

فهي رضي الله تعالى عنها وعن أبيها أفضل نسائه ﷺ (في العلم) النافع، فلها من الفضل في ذلك ما ليس لغيرها من سائر أزواجه ﷺ حتى كان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم إذا أشكل عليهم أمر من الدين استفتوها فيجدون علمه عندها.

وقـد وقـع خـلاف بيـن علمـاء السلـف فـي التفـاضـل بينهـا وبيـن أم المؤمنين خديجة، فقد قال البلباني تبعاً لابن حمدان أن عائشة أفضل النساء، وقال الموفق: أفضل النساء خديجة.

قال المحقق: وقد اختلف في تفضيل خديجة على عائشة على ثلاثة أقوال ثالثها الوقف. وسألت شيخنا شيخ الإسلام فقال: اختص كل منهما بخاصة وإلى هذا أشرت بقولي (مع خديجة) بنت خويلد أم المؤمنين وأول

(١) وقد أيد شيخنا محمد الجراح رحمه الله ذلك وقال أنه موافق للنظم والوزن لقوله (وعائشة).

أزواج رسول رب العالمين، تزوجها رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة وبقيت معه إلى أن أكرمه الله تعالى برسالته فآمنت به وصدقته ونصرته وكانت له وزير صدق، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين في الأصح ولم يتزوج ﷺ عليها غيرها، وكل أولاده منها الذكور والإناث إلاَّ إبراهيم عليه السلام فإنه من سريته مارية.

فخديجة المذكورة أفضل نساء النبي ﷺ (في السبق) إلى الإسلام ومؤازرة خير الإنام، وكانت تسلي رسول الله ﷺ وتثبته وتبذل دونه ما لها فأدركت غرة الإسلام واحتملت الأذى في الله ورسوله وكانت نصرتها للرسول ﷺ في أعظم أوقات الحاجة، فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها، وعائشة رضي الله تعالى عنها تأثيرها في آخر الإسلام فلها من التفقّه في الدين وتبليغه إلى الأمة وانتفاع بنيها بما أدت إليهم من العلم ما ليس لغيرها مما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها مما تميزت به عن غيرها.

قال المحقق في كتابه بدائع الفوائد: الخلاف في كون عائشة رضي الله تعالى عنها أفضل من فاطمة عليها السلام أو فاطمة أفضل؟ إذا حرر محل التفضيل لا يستقيم، أي: الخلاف، فإن أريد بالفضل كثرة الثواب عند الله تعالى فذلك أمر لا يطلع عليه إلاَّ بالنص لأنه بحسب تفاضل أعمال القلوب لا بمجرد أعمال الجوارح، وإن أريد بالتفضيل التفضيل بالعلم فلا ريب أن عائشة أفضل وأعلم وأنفع للأمة وأدت من العلم ما لم يؤد غيرها، وإن أريد بالتفضيل شرف الأصل وجلالة النسب فلا ريب أن فاطمة أفضل فإنها بضعة من النبي ﷺ وذلك اختصاص لم يشركها فيه غير إخواتها، وأن أريد بالسيادة ففاطمة سيدة نساء الأمة.

إذا تبينت وجوه التفضيل وموارد الفضل وأسبابه صار الكلام بعلم وعدل وإلى هذا التفضيل أشرنا بقولنا: (**فافهم**) فهم تحقيق (**نكتة النتيجة**)، أي: أثر فائدة الخلاف.

شرح ابن مانع

قوله: (**وعائشة**)، أي: الصدّيقة بنت الصدّيق رضي الله عنهما أم المؤمنين عقد عليها رسول الله ﷺ وهي بنت ست سنين قبل الهجرة، ودخل بها بالمدينة في السنة الأولى وهي بنت تسع سنين، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة، وتوفيت بالمدينة سنة ثمان وخمسين، وأوصت أن يصلي عليها أبو هريرة ودفنت بالبقيع رضي الله عنها فهي أفضل نسائه ﷺ (**في العلم**) النافع حتى كان الأكابر من أصحاب النبي ﷺ إذا أشكل عليهم أمر من الدين استفتوها فيجدون علم ذلك عندها.

وقد اختلف العلماء في المفاضلة بين عائشة وخديجة.

قال ابن القيم: وسألت شيخنا عنهما فقال: اختص كل واحدة منهما بخاصة. فلهذا قال (**مع خديجة**) بنت خويلد الأسدية أم المؤمنين، تزوجها رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة، وهي أول أزواجه وبقيت معه إلى أن أكرمه الله بالرسالة، فآمنت به ونصرته، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، ولم يتزوج عليها غيرها، وكل أولاده منها إلاَّ إبراهيم فمن سريته مارية القبطية، فخديجة أفضل نسائه عليه الصلاة والسلام (**في السبق**) إلى الإسلام.

(**فافهم**): فهم تحقيق. (**نكتة النتيجة**)، أي: أثر فائدة الخلاف، فإن النكتة أثر قليل كالنقطة، والنتيجة عند المناطقة تصديق يلزم من تسليم

تصديقين لذاتهما، كقولنا في القياس الاقتراني من الشكل الأول: كل جسم مؤلف، وكل مؤلف حادث ينتج كل جسم حادث، وقولهم لذاتهما يخرج به التصديق اللازم من تسليم تصديقين لا لذاتهما بل لأمر خارج، كقولهم: زيد مساوٍ لعمرو، وعمرو مساوٍ لبكر ينتج زيد مساوٍ لبكر، فليس هذا قياساً اصطلاحاً، لعدم تكرر الحد الوسط، وعند المتكلمين ما يحصل العلم به عقب العلم بوجه الدليل.

وقد اختلف علماء المعقول في الارتباط بين الدليل والنتيجة على أقوال أشار إليها صاحب السلم بقوله:

وَفِي دَلالَةِ المُقَدِّمَاتِ عَلَىٰ النَّتِيجَةِ خِلافٌ آتِ
عَقْلِيٌّ أَوْعَادَيٌّ أَوْ تَوَلُّدِ أَوْ وَاجِبٌ والأَوَّلُ المُؤَيَّدُ

والمراد بها هنا: الحكم المتولد من القضيتين بالتفصيل في التفصيل.

* * *

وَلَيْـــسَ فِـــي الأمّـــةِ كـــالصّحـــابَـــةِ
فِـــي الفَضْـــلِ والْمَعْـــرُوفِ وَالإِصـــابَـــة

شرح ابن شطي

فصل

في ذكر الصحابة الكرام

بطريـق الإجمـال وبيـان مزايـاهم على غيرهم والتعريف بما يجب لهم من المحبـة والتبجيـل والتـرضي والتفضيـل على سائر الأمة وتقبيح من آذاهم أو شنأهم[1]، والكف عما جرى بينهم بما لعله لم يصح عنهم وما صح فله تأويلات سائغة. وإذا كـان لأحـدهم هنـا[2] تقـع مكفـرة مستهلكـة في عظيم حسناتهم وجسيم مجاهداتهم، ثم التابعين لهم بإحسان.

ولهذا قال:

(**وليس في الأمة**) المحمدية المفضلة على سآئر الأمم بأفضلية نبيها ﷺ وأفضلية ما جاء به من الذكر الحكيم والدين القويم والصراط المستقيم، فيكون الصحابة أفضل خلق الله تعالى بعد أنبيائه ورسله (**كالصحابة**) الكرام الذين فازوا بصحبة خير الأنام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

فمعتمد القول عند أئمة السنة أن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين كلهم عدول بالكتاب والسنة وإجماع أهل الحق المعتبرين، قال

(١) أي: بغضهم. (د).

(٢) قال في تاج الأسماء: الهنات جمع هنة عند من لا يردها إلى الأصل، ومن ردها قال هنوات. (د).

تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ الآيات.

فليس في سائر الأمة كالصحابة (**في الفضل**) بشاهد ما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه».

والخطاب تعريض لغيرهم، والمعنى: لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ ثوابه في ذلك نفقة أصحابي مداً ولا نصف مد لأن إنفاقهم كان في نصرته ﷺ وحمايته، وذلك معدوم بعده فتضمن ذلك أفضليتهم على غيرهم مطلقاً، وأن فضيلة نفقتهم على نفقة غيرهم باعتبار ذواتهم.

وأخرج الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول ﷺ يقول: «يبلغ الحاضر الغائب، الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله، فيوشك أن يأخذه ومن يأخذه الله فيوشك أن لا يفلته».

وأخرج الترمذي من حديث بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ما من أحد من أصحابي يموت بأرض إلا بعثه الله لهم نوراً وقائداً يوم القيامة».

وقال رسول الله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» ذكره في جامع الأصول.

(و)ليس في الأمة كالصحابة الكرام في (**المعروف**) وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله تعالى والتقرب إليه والإحسان إلى الناس وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات.

ولا يرتاب أحد من ذوي الألباب أن الصحابة الكرام هم الذين حازوا قصبات السبق واستولوا على معالي الأمور من الفضل والمعروف والصدق، فالسعيد من اتبع صراطهم المستقيم.

(و) ليس في الأمة أيضاً كالصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم في (الإصابة) للحكم المشروع والهدي المتبوع، فهم أحق الأمة بإصابة الحق والصواب.

شرح ابن مانع

فصل

في ذكر الصحابة الكرام وبيان مزاياهم على غيرهم والتعريف بما يجب لهم من المحبة والتبجيل وتقبيح من آذاهم

قوله: (**وليس في الأمة**)، أي: المحمدية المفضلة على سائر الأمم بالدلائل القطعية، كما في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (**كالصحابة**) الكرام (**في الفضل**) بشاهد قوله عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» أخرجه الشيخان عن عمران بن حصين، وقال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة. ورواه أبو داود، ولفظه: «خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم».

(**والمعروف**)، أي: وليس في الأمة كالصحابة في المعروف الذي هو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله تعالى والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع، ونهى عنه فهو أحق بالفضل (و)المعروف، (**الإصابة**) للحكم المشروع وبموافقة الكتاب والسنة من جميع الأمة.

قال عبد الله بن مسعود: من كان مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وبسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

قال في المشكاة: رواه رزين، ورواه الإمام أحمد ــ رحمه الله تعالى ــ.

* * *

فَإِنَّهُمْ قَدْ شاهَدُوا المُخْتَارا وَعَـايَنُـوا الأسـرارَ وَالأَنْـوَارا
وَجَاهَدُوا فِي اللّـٰه حتَّى بَانا دينُ الهُدَى وَقَدْ سَمَا الأديَانَا
وَقَدْ أَتَى فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ مِنْ فَضْلِهِمْ مَّا يَشْفِي للغَلِيلِ

شرح ابن شطي

(فإنهم)، أي: الصحابة الكرام (قد شاهدوا) وصحبوا (المختارا) بألف الإطلاق في المختار من سائر الأنام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام (وعاينوا) في صحبتهم للنبي المختار (الأسرار) القرآنية وعلموها من الحضرة النبوية.

(و) عاينوا (الأنوارا) القرآنية والأشعة المصطفوية (وجاهدوا في) سبيل (الله) لإعلاء كلمة الله تعالى وبذلوا نفوسهم النفيسة في مرضاة الله تعالى (حتى بانا) بألف الإطلاق، أي: ظهر ووضح (دين الهدى)، أي: دين الإسلام الذي به الهدى.

(وقد سما)، أي: علا دين الإسلام ولله الحمد (الأديانا)، أي: سائر الأديان التي كانت قبله.

(وقد أتى في محكم التنزيل) من الكتاب العظيم (من فضلهم)، أي: الصحابة الكرام (ما)، أي: الذي (يشفي)، أي: يبرىء (من غليل)[1] العطش كقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الآيات، وقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾. هم أصحاب محمد ﷺ إلى غير ذلك من الآيات.

شرح ابن مانع

قوله: (فإنهم)، أي: الصحابة الكرام (قد شاهدوا) وصحبوا النبي (المختار) من سائر الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، (وعاينوا)، أي:

(١) كذا في (ج)، وما في (أ) و(هـ) فكما في أعلى الصحيفة.

رأوا في صحبتهم النبي ﷺ **(الأسرار)** القرآنية، وعلموا التنزيل وأسبابه، والتأويل وآدابه، (و)عاينوا **(الأنوار)** المشرقة من سنة رسول الله ﷺ، **(وجاهدوا في)** سبيل (الله) لتكون كلمة الله هي العليا.

(حتى بانا) ــ بألف الإطلاق ــ، أي: ظهر **(دين الهدى)** الذي هو دين الإسلام الذي به الهدى، والدلالة الموصلة، والفوز والفلاح.

(وقد سما)، أي: علا دين الإسلام ولله الحمد. **(الأديانا)**: التي كانت قبله، فسائر الأديان غير دين الإسلام منسوخة، وكل عبادة لم يأت بها فهي باطلة ممسوخة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾. ويرحم الله القائل:

الله أكبـــر إن ديـــن محمـــد ... وكتـابـه أقـوى وأقـوم قيـلا

طلعت به شمس الهداية للورى ... وأبـى لهـا وصـف الكمـال أفـولا

والحـق أبلـج فـي شـريعتـه التـي ... جمعـت فـروعاً للهـدى وأصـولاً

لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلـع الصبـاح فـاطفـأ القنـديـلا

درسـت معـالمهـا ألا فـاستخبـروا ... عنهـا رسـومـاً قـد عفـت وطلـولا

قوله: **(وقد أتى في محكم التنزيل)** من الكتاب العظيم، والذكر الحكيم. **(من فضلهم)**، أي: الصحابة الكرام. (ما)، أي: الذي **(يشفي)**، أي: يبرىء ــ **(للغليل)** ــ بالغين المعجمة ــ العطش. والمراد: ما يطفىء حرارة الجهل بمقاماتهم العالية، كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾. وقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾. إلى غير ذلك من الآيات.

* * *

وَفِي الأَحَادِيثِ وَفِي الآثَارِ وَفِي كَلامِ القومِ وَالأشْعَارِ
مَا قَدْ رَبَا مِنْ أَنْ يُحِيطَ نَظْمِي عَنْ بَعْضِهِ فَاقْنع وَخُذْ عَنْ عِلْمِ
وَاحذَرْ مِنَ الخَوضِ الَّذِي قَدْ يُزْرِي
بِفَضْلِهِمْ مِمَّا جَرَى لَوْ تَدْرِيْ
فَإِنَّهُ عَن اجْتِهَادٍ قَدْ صَدَر فَاسْلَمْ أَذَلَّ اللّـه مَنْ لَهُمْ هَجَر

شرح ابن شطي

(و) قد أتى (في الأحاديث) النبوية (وفي الآثار) السلفية (و) قد أتى (في كلام القوم) من المحدثين والفقهاء والصوفية وأهل المعارف (والأشعار) المرضية من العرب والمولدين من مدحهم والثناء عليهم (ما)، أي: شيء (قد ربا)، أي: زاد وعلا ونما (من أن يحيط نظمي) ويضيق (عن بعضه) فضلاً عن غالبه أو كله.

(فاقنع) بما ذكرته لك (وخذ) ذلك واعتمد عليه فإنه (عن علم) ويقين (واحذر من الخوض) المفضي إلى التوسع (الذي قد يزري) وينقص (بفضلهم) المعلوم (مما)، أي: من الاختلاف والتخاصم والتشاجر الذي (جرى) بينهم (لو) كنت (تدري) غب ذلك الخوض المفضي إلى توليد الإحن والحقد على أصحاب رسول الله ﷺ، وذلك من أعظم الذنوب فإنهم خير القرون، وذلك أنه جرى بين علي ومعاوية وقبلهما وبعدهما من المنازعات والمقاتلات.

والجواب عن ذلك ما أشير إليه بقوله (فإنه)، أي: التخاصم والنزاع الذي جرى بينهم كان (عن اجتهاد قد صدر) من كل واحد من رؤساء الفريقين ومقصد سائغ لكل فرقة من الطائفتين وإن كان المصيب في ذلك للصواب واحداً وهو علي رضوان الله تعالى عليه ومن والاه، والمخطىء

هو من نازعه غير أن للمخطىء في الاجتهاد أجراً وثواباً خلافاً لأهل الجفا والعناد، فكل ما صح مما جرى بين الصحابة الكرام، وجب حمله على وجه ينفي عنهم الذنوب والآثام.

ولهذا قال علماؤنا كغيرهم من أهل السنة ومنهم ابن حمدان في نهاية المبتدئين: يجب حب كل الصحابة والكف عما جرى بينهم كتابة وقراءة وإقراءً وسماعاً وتسميعاً، ويجب ذكر محاسنهم والترضي عنهم والمحبة لهم وترك التحامل عليهم واعتقاد العذر لهم، وإنما فعلوا ما فعلوا باجتهاد سائغ لا يوجب كفراً ولا فسقاً بل ربما يثابون عليه لأنه اجتهاد سائغ، وقيل المصيب علي ومن قاتله فخطاؤه معفو عنه.

وقال بعض المحققين: البحث عن أحوال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وعما جرى بينهم من الموافقة والمخالفة ليس من العقائد الدينية وليس هو مما ينتفع به في الدين بل ربما أضر باليقين، وإنما ذكر العلماء منها نتفاً في كتبهم صوناً للقاصرين عن التأويل عن اعتقاد ظواهر حكايات الرافضة ليتجنبها من لا يصل إلى حقيقة علمها ويبينه للعوام لفرط جهلهم بالتأويل مع أن غالب أو كل ما يحكيه الرافضة موضوع وأكثره باطل مصنوع، فلا جرم السلامة في التسليم وكف اللسان عن هذا المدخل الضيق العظيم، ولهذا قال (**فاسلم**) من الخوض في تلك البحور واحذر من العثار فإن من قارن الفتنة افتتن.

ثم أن الناظم دعا على طائفة الجفا والفجور، وأهل الرفض والضلال مما حاد عن الأمر المأمور، فقال (**أذل الله**) سبحانه وتعالى وقد فعل (**من**) كل مبتدع من الرافضة ومن وافقهم (**لهم**)، أي: للصحابة الكرام أو لبعضهم (**هجر**) وعادى ولم يوال ويحب.

وقد روى الديلمي عن أنس رضي الله تعالى عنه: «إذا أراد الله تعالى برجل خيراً ألقى حب أصحابي في قلبه».

والذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة أنه يجب على كل مسلم تزكية جميع الصحابة بإثبات العدالة لهم والكف عن الطعن فيهم والثناء عليهم وقد أثنى الله سبحانه وتعالى عليهم في عدة آيات من كتابه العزيز، على أنه لو لم يرد عن الله تعالى ولا عن رسوله فيهم لوجبت لأوجبتت الحال التي كانوا عليها من الهجر والجهاد ونصرة الدين وبذل المهج والأموال وقتل الآباء والأولاد والمناصحة في الدين وقوة الإيمان واليقين، القطع بتعديلهم والاعتقاد لنزاهتهم وأنهم أفضل جميع الأمة بعد نبيهم، هذا مذهب كافة الأمة.

وأما من شذ من أهل الزيغ والابتداع ممن ضل وأضل فلا التفات إليهم، ولهذا قال الإمام أبو زرعة من أجلّ شيوخ مسلم: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وقال ابن حزم: الصحابة كلهم من أهل الجنة قطعاً، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾. فثبت أن جميعهم من أهل الجنة[1].

والحاصل أنه لا يهجر الصحابة ويعاديهم إلا عدو لله تعالى مبعود من رحمة الله تعالى خبيث زنديق.

---

(١) قلت: آية براءة صريحة في ذلك وهي قو.له تعالى: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾. (د).

قال العلامة ابن حمدان: أن من سب أحداً من الصحابة مستحلاً كفر وإن لم يستحل فسق، وعنه يكفر مطلقاً، وإن فسقهم أو طعن في دينهم أو كفرهم كفر.

شرح ابن مانع

(و)قد أتى أيضاً (في **الأحاديث**) النبوية، كقوله عليه الصلاة والسلام: «خير أمتي قرني» الحديث.

(**وفي الآثار**) السلفية الواردة عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم، (و)قد أتى (**في كلام القوم**) من المحدثين والفقهاء والصوفية، وسائر أرباب المعارف. (و)في (**الأشعار**) المرضية. (**ما**): أي شيء. (**قد ربا**): أي زاد وعلا (**من أن يحيط نظمي**) في هذه الأرجوزة، ويضيق (**عن بعضه**) فضلاً عن غالبه وكله. (**فاقنع**): من القنوع، وهو الرضا باليسير. (**وخذ**) ذلك فإنه (**عن علم**) ويقين لا عن ظن وتخمين.

قوله: (**واحذر**). أمر من الحذر الذي هو التحرز والتيقظ، أي: احذر حذر إذعان مع سلامة صدر (**من الخوض**) المفضي إلى التوسع في البحث والتنقيب (**الذي قد يزري**) مضارع: أزرى. قال في القاموس: زرى عليه. عابه وعاتبه كأزرى لكنه قليل.

وقال أبو عمر: والزاري على الإنسان الذي لا يعده شيئاً، وينكر عليه فعله، والإزراء: التهاون بالشيء. يقال: أزرى به إذا قصر به. وازدراه، أي: حقره. قاله في المختار. فقول الناظم: يزري، أي: يحط قدرهم، وينقص (**بفضلهم**)، أي: من فضلهم المعلوم من الكتاب والسنة. (**مما**)، أي: من الاختلاف الذي (**جرى**) بينهم (**لو**) كنت (**تدري**) عاقبة

الخواص، وما يفضي إليه لما خضت فيه، وسكت عنه. (**فإنه**)، أي: ما وقع بينهم من التخاصم (**عن اجتهاد قد صدر**) منهم ــ رضي الله عنهم ــ (**فاسلم**) من الخوض في تلك البحور المهلكة، واقطع لسانك عن ذكر أصحاب رسول الله ﷺ بما يحط من رتبتهم العالية، ومقاماتهم الرفيعة. (**أذل الله**) تعالى (**من**)، أي: كل مبتدع من الروافض، ومن وافقهم. (**لهم**)، أي: للصحابة الكرام (**هجر**) وعادى ولم يوال ويحب.

وقد أخرج الترمذي: من حديث عبد الله بن مغفل ــ رضي الله عنه ــ مرفوعاً: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً من بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي بغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله تعالى، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه». والذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة أنه يجب على كل أحد تزكية جميع الصحابة بإثبات العدالة لهم، والكف عن الطعن فيهم.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في آخر كتابه الصارم المسلول فصلاً في تفصيل القول فيمن سب الصحابة فقال: أما من اقترن بسبه دعوى أن علياً إله، وأنه كان هو النبي، وإنما غلط جبريل في الرسالة، فهذا لا شك في كفره، بل لا شك في كفر من توقف في كفره، وكذا من زعم منهم أن القرآن نقص منه آيات وكتمت، أو زعم أن له تأويلات باطنة تسقط الأعمال المشروعة ونحو ذلك، وهؤلاء يسمون القرامطة والباطنية.

وأما من سبهم سباً لا يقدح في عدالتهم ولا في دينهم، مثل وصف بعضهم بالبخل، أو الجبن أو قلة العلم، أو عدم الزهد ونحو ذلك، فهذا هو الذي يستحق التأديب والتعزير، ولا نحكم بكفره بمجرد ذلك، وعلى هذا يحمل كلام من لم يكفرهم من العلماء.

وأما من لعن وقبح مطلقاً، فهذا محل الخلاف فيهم لتردد الأمرين: لعن الغيظ، ولعن الاعتقاد، وأما من جاوز ذلك إلى أن زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله ﷺ، إلا نفراً قليلاً لا يبلغون بضعة عشر نفساً، أو أنهم فسقوا عامتهم، فهذا لا ريب أيضاً في كفره؛ لأنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضى عنهم والثناء عليهم، بل من يشك في كفر مثل هذا، فإن كفره متعين، فإن مضمون هذه المقالة أن نقلة الكتاب والسنة كفاراً وفساقاً، وأن هذه الآية التي هي: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وخيرها: هو القرن الأول. كان عامتهم كفاراً أو فساقاً، ومضمونها: أن هذه الأمة شر الأمم، وأن سابقي هذه الأمة شرارها، وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام.

قال: وبالجملة فمن أصناف السابة من لا ريب في كفره، ومنهم من لا يحكم بكفره، ومنهم من تردد فيه. وقد تقدم التفصيل.

* * *

وبَعْدَهُمْ فَالتَّابِعُونَ أحْرَى   بِالفَضْلِ ثُمَّ تابِعُوهُمْ طُرا[1]

شرح ابن شطي

ولما أنهى الكلام على الصحابة الكرام ذكر التابعين لهم بإحسان ثم تابعيهم فقال:

(**وبعدهم**)، أي: بعد الصحابة (**فالتابعون**) لهم بإحسان (**أحرى**)، أي: أحق (**بالفضل**) والإتقان، والتقديم على غيرهم من سائر أهل الإيمان.

وتعريف التابعي: هو كل من صحب الصحابي، ومطلقه مخصوص بالتابع بإحسان، ولا بد في التابعي من زيادة على ما تعتبر به الصحبة في الصحابي لأن الصحبة خصوصية، ولهم طبقات بالنسبة إلى من اجتمع بعشرة أو ثلاثة من الصحابة وبالعلم والزهد وغير ذلك.

وقد اختلف في أفضل التابعين، قال سيدنا أحمد وغيره سعيد بن المسيب، وقال قوم أويس القرني.

والدليل على أفضلية التابعين قول النبي ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة، رواه البخاري ومسلم والترمذي من حديث عمران بن الحصين رضي الله تعالى عنهم، وقد قال ﷺ: «لا تمس النار مسلماً رآني أو رأى من رآني». رواه الترمذي من حديث جابر.

قال المحقق: ألقى الصحابة الكرام إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة

(١) هذا البيت ليس موجود في (هـ)، وهو في باقي النسخ فلذا لم يشرح فيها.

النبوة خالصاً صافياً وكان سندهم عن نبيهم ﷺ عن جبريل عن رب العالمين سنداً صحيحاً عالياً، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وقد عهدناه إليكم، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا وهي وصيته وفرضه عليكم، فجرى التابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم وأقتفوا آثار صراطهم المستقيم ولهذا قال:

(ثم) الأفضل بعد التابعين **(تابعوهم)**، أي: أتباع التابعين لما تقدم من صحيح الأخبار **(طراً)**، أي: جميعاً لأنهم سلكوا مسلكهم الرشيد ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾.

ثم جاء الأئمة من القرن الرابع المفضل في إحدى الروايتين من قوله ﷺ: «خير الناس قرني» الحديث.

والقرن أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأمور المقصودة والأصح أنه لا يضبط بمدة، فقرنه ﷺ هم أصحابه وكانت مدتهم[1] من المبعث إلى آخر من مات من أصحابه وهو أبو الطفيل مائة وعشرين سنة، وقرن التابعين من نحو مائة إلى سبعين سنة، وقرن أتباع التابعين من ثم إلى حدود العشرين ومائتين، وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً وأطلقت المعتزلة ألسنتها وأظهرت الجهمية نحلتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها وامتحن أئمة الدين وعلماء المسلمين ليقولوا بخلق القرآن.

* * *

(١) كذا في (ج)، وما في (د) مدته.

وَكُلُّ خارِقٍ أتَى عَن صَالِحٍ مِنْ تَابِعٍ لِشَرْعِنا وَنَاصِحِ
فَإنّها مِنَ الكَراماتِ الَّتي بِهَا نَقُولُ فاقْفُ لِلأدِلَّةِ
وَمَنْ نَفَاهَا مِن ذَوي الضَّلالِ فَقَدْ أتى في ذاكَ بالمُحَالِ
لأنَّها شَهِيْرةٌ وَلَمْ تَزَل في كُلِّ عَصْرٍ يَا شَقَا أهل الزَّلَلِ

فصل

في ذكر كرامات الأولياء وإثباتها

وهذا من العقائد السنية التي يجب اعتقادها ولا يجوز نفيها وإهمالها ولهذا قال:

(وكل خارق) للعادة من الخوارق وهي ستة أنواع:

الأول: المعجزة وتقدم الكلام عليها.

الثاني: الإرهاص وهو كل خارق تقدم النبوّة.

الثالث: الكرامة وهي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوّة ولا هو مقدمة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها ذلك العبد الصالح أو لم يعلم.

الرابع: الاستدراج والمكر.

الخامس: المعونة كما يظهر بسبب بعض عوام المسلمين وضعفاء أهل الدين تخليصاً لهم من المحن والمكاره.

السادس: الإهانة والتحقير كما فعل مسيلمة من مسحه بيده على رأس غلام فانقرع، ومن الخوارق الفاسدة السحر والشعبذة ونحوهما.

والحاصل أن الكرامة لا بد أن تكون أمراً خارقاً للعادة (**أتى**) ذلك الخارق (**عن**) امرىء (**صالح**) وهو الولي العارف بالله تعالى وصفاته حسب ما يمكن المواظب للطاعات المجتنب عن المعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات من ذكر وأنثى، ولا بد أن يكون صدور ذلك الخارق في زماننا وبعده وقبله منذ بعث نبينا محمد ﷺ (**من**) إنسان (**تابع لشرعنا**) معشر المسلمين لأن سائر الشرائع سواه قد نسخت.

(**وناصح**) لله تعالى ولرسوله ولكتابه ولشريعة نبينا محمد ﷺ التي أتى بها عن الله تعالى وناصح لأئمة المسلمين وخاصتهم وعامتهم، وإذا صدرت عمن ذكر (**فإنها**) تكون (**من الكرامات التي بها نقول**) معشر أهل السنة من السلف والخلف.

قال ابن حمدان وكرامات الأولياء حق، وأنكر الإمام أحمد على من أنكرها وضلله، وقال توجد في زمن النبوة وأشراط الساعة وغيرهما.

(**فـاقـف**) فـي اعتقـادك الصـالـح، أي: اتبـع (**لـلأدلـة**) الشـرعيـة والمشاهدات الحسية فإن كرامات الأولياء ثابتة بالعيان والبرهان (**ومن**)، أي: أي إنسان (**نفاها**)، أي: كرامات الأولياء فلم يقل بجوازها فضلاً عن وقوعها (**من ذوي**)، أي: أصحاب (**الضلال**) والزيغ عن نهج أهل السنة والاعتزال، وكذا من نحا نحوهم (**فقد أتى في ذاك**) النفي (**بالمحال**) المنابذ (**لـ**)ـلبرهان والعيان وثبوتها في السنن المتواترة ومحكم القرآن (**أنها**)، أي: كرامات الأولياء كثيرة (**شهيرة**) للعيان ثابتة بالبرهان (**ولم تزل**) تظهر على يد الأولياء والصالحين (**في كل عصر**) من الأعصار الماضية وإلى الآن والعصر الدهر.

(يا شقا أهل الزلل) قال علماؤنا: إن كرامة الولي وظهور الخارق على يده من كونه من آحاد الأمة معجزة للرسول الذي ظهرت هذه الكرامة لواحد من أمته لأنه يظهر بتلك الكرامة أنه ولي ولن يكون ولياً إلاَّ وأن يكون محقاً في ديانته.

تـنـبـيـهـان:

الأول: يجوز في الكرامات أن تقع بسائر وجوه خوارق العادات على اختلاف أنواعها ولو كقلب العصا حية وكوجود ولد من غير أب، لا بمثل ما اختص به النبـي ﷺ مثل القرآن العظيم الذي هو أعظم المعجزات.

الثاني: الولاية موهبة من الله تعالى غير مكتسبة.

شرح ابن مانع

فـصـل
في ذكر كرامات الأولياء وإثباتها

قوله: **(وكل خارق)**، أي: للعادة من الخوارق، ومراده الكرامة وهي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة، ولا هو مقدمة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي تكلف شريعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، علم بها ذلك العبد الصالح أم لم يعلم بها، ولا تدل على صدق من ظهرت على يديه، ولا على ولايته لجواز سلبها، وأن تكون استدراجاً ومكراً.

وبهذا يتبين أن من ظهر على يديه شيء من الخوارق التي يسمونها كـرامـات الأولـيـاء، وهـو مصـر عـلـى دعـوة غيـر الله تعـالـى مـن الأحيـاء والأموات، معتقداً أنهم ينفعونه أو يضرون، فهو من الحيل والشعوذة

لا من الكرامات، إذ من شروط حصولها صحة الاعتقاد، وأي اعتقاد أفسد من الإشراك بالله تعالى؟

وكذا يتبين كذب من ادعى الولاية، وهو تارك للصلوات مع المسلمين في مساجدهم، ويزعم أنه يصلي بمكة جميع الصلوات، ولو كان بينه وبينها مسافة أيام. وينشد على ذلك:

وفي طندتا[1] قالوا صلاتي تركتها ولم يعلموا أني أصلي بمكة
أصلي صلاة الخمس في البيت دائماً مع السادة الأقطاب أهل الطريقة

وكذلك من سالم الحيات وسالمنه فأمسكهن، فإن ذلك ليس من الكرامات في شيء؛ لأنه معصية لأمر رسول الله ﷺ بقتلهن، كما في سنن أبي داود عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتلوا الحيات كلهن، فمن خاف ثأرهن فليس منا»، وفيها أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما سالمناهن منذ حاربناهن، ومن ترك شيئاً منهن خيفة فليس منا» فانظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام ما سالمناهن، وهؤلاء الجهال سالموهن، وادّعوا أن ذلك كرامة وولاية.

قال أهل الحق: والولي يكتمها، ـ أي: الولاية ـ ويسترها غالباً، ويسرها ولا يساكنها. وهذا دليل على كذب المشعوذين الدجالين الذين جعلوا الكرامات سلاحاً يحاربون به ضعاف العقول من العوام بالترغيب والترهيب، وهم بذلك أكذب من مسيلمة وسجاح.

وقد نقل عن بعض الدجالين أنه قال ـ قاتله الله إن صح عنه إن الله أعطاني أن أقول للشيء كن فيكون. فهذا المخدوع ادعى الإلـٰهية من حيث

(١) هي اسم لمدينة طنطا من صعيد مصر.

لا يشعر ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝ ﴾ .

فالحاصل: أن الكرامة لا بد أن تكون أمراً خارقاً للعادة، **(أتى)** ذلك الخارق **(عن)** امرىء **(صالح)** والولي العارف بالله وصفاته حسب ما يمكن المواظب على الطاعة، التارك للمعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات، **(من)** ذكر وأنثى، **(تابع لشرعنا)** معشر المسلمين لنسخ ما سواه من الشرائع به، **(وناصح)** الله والكتاب ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فإن الدين النصيحة، فإذا صدرت الخوارق عن أحد ممن اتصف بهذه الصفات، **(فإنها)** تكون **(من الكرامات التي بها)**، أي: بجوازها ووقوعها **(نقول)**، كما هو مذهب أهل السنة.

قال ابن حمدان: وكرامات الأولياء حق. وأنكر الإمام أحمد رحمه الله على من أنكرها وضلله.

(فاقف) في اعتقادك، أي: اتبع **(للأدلة)** الشرعية الدالة على كرامات الأولياء، كقصة مريم وآصف، وأصحاب الكهف، **(ومن)** أي: أي إنسان **(نفاها)**، أي: كرامات الأولياء فلم يقل بها.

(من ذوي)، أي: أصحاب **(الضلال)** والانحراف عن منهج أهل السنة إلى سلوك طريق الاعتزال، وكذا من نحا نحوهم من الأشاعرة، كأستاذ أبـي إسحاق الإسفراييني وعبد الله الحليمي، **(فقد أتى في ذاك)** النفي **(بالمحال)**، أي: الباطل المنابذ للبرهان، فإنها ثابتة بالكتاب والسنة واتفاق أهل السنة؛ **(لأنها)**، أي: كرامات الأولياء **(شهيرة)** للعيان ثابتة بالبرهان، **(ولم تزل)** تظهر **(في كل عصر)** من الأعصار الماضية وإلى الآن.

(يا شقا): هو ضد السعادة، أي: هذا أوانك احضر لـ**(ـأهل الزلل)** والزيغ عن الصراط المستقيم لابتداعهم في الدين، ومخالفتهم ما اتفق عليه جميع المؤمنين، فخالفوا المحسوس وأنكروا المنصوص، ثم إنه يجب على طالب الإنصاف مراعاة الشروط التي صرح بها العلماء فيمن يعتبر صدور الخوارق على يديه كرامات لئلا يغتر بالدجاجلة والمشعوذين، وبما يلقونه على العوام الطغام من الخوارق التي خرقت الدين، وجعلتهم يعتقدون أن غير الله يملك نفعاً وضراً.

نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

* * *

وَعِنْدَنَا تَفْضِيلُ أَعْيَانِ البَشَر عَلَى مِلاكِ رَبِّنا كَمَا اشْتَهَر
وَقَالَ مَن قَالَ سِوَى هَذا افْتَرى وَقَدْ تَعَدَّى فِي المَقَالِ وَاجْتَرَى

فصل

في المفاضلة بين البشر والملائكة

وهي مسألة عظيمة قد كثر فيها الاختلاف، ولكثرة الخلاف فيها وتباين أقوال الأئمة قلنا:

(وعندنا) معشر أهل السنة خصوصاً أهل الأثر وسلف الأمة فإنهم يقولون ويعتقدون **(تفضيل أعيان البشر)** محركة، الإنسان. والمراد بأعيانهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأولياء.

فالأنبياء أفضل من الأولياء وهما أفضل من الملائكة، وقيل كل صالح أفضل من الملائكة.

قال الإمام أبو الوفا ابن عقيل: الصحيح تفضيل الأنبياء والصالحين على الملائكة والملائكة أفضل من الفسقة، وقال تارة الأنبياء أفضل من الملائكة، وجبريل وميكائيل وإسرافيل أفضل من الأولياء.

وقال سيدنا الإمام أحمد: بنو آدم أفضل من الملائكة، ولذا قلنا **(على ملاك ربنا)** تبارك وتعالى **(كما اشتهر)** ذلك من نصوص إمامنا. والملاك هو الملك وجمعه ملائكة.

(قال) إمامنا أحمد رضي الله تعالى عنه **(ومن)**، أي: أي إنسان **(قال)** بلسانه واعتقد بجَنانه **(سوى هذا)**، أي: غير القول بتفضيل بني آدم على الملائكة **(افترى)**، أي: أتى بكلام خطأ يشعر بالافتراء **(وقد تعدى)**،

أي: تجاوز الحد (**في المقال واجترى**)، أي: افتات على الشارع بالاعتقاد الذي اعتقده، ولفظ النص يخطىء من فضل الملائكة.

وقال المحقق: سئل شيخنا شيخ الإسلام روَّح الله روحه عن صالح بني آدم والملائكة أيهما أفضل؟ فأجاب بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية والملائكة أفضل باعتبار البداية. فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهون عما يلابسه بنو آدم مستغرقون في عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فتصير حال صالحي البشر أكمل من حال الملائكة.

وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل وتتفق أدلة الفريقين ويصالح كل منهم على حقه.

تـنـبـيـهـات:

الأول: قد علمت أن هنا ثلاث صور:

الأولى: التفضيل بين الأنبياء والملائكة وفي هذه ثلاثة أقوال: **أحـدهـا**: الأنبيـاء أفضـل وعليـه جمهـور أهـل الحـق مـن أهـل السنـة وهـو الصواب، **الثاني**: الملائكة أفضل، **الثالث**: الوقف عن القول بالتفضيل لأحد النوعين، ومحل الخلاف.

على هذا القول في غير نبينا محمد ﷺ، أما هو فأفضل الخلق بلا خلاف **الصورة الثانية**: التفاضل بين خواص الملائكة وأولياء البشر وهم من عدا الأنبياء.

وهذه الصورة زعم بعضهم نفي الخلاف بأن خواص الملائكة أفضل وهذا مردود ومدخول، فقد قدمنا معتمد القول عند علمائنا ومن وافقهم.

الصورة الثالثة: التفضيل بين أولياء البشر وغير الخواص من الملائكة وفي هذا قولان:

أحدهما: تفضيل جميع الملائكة على أولياء البشر وجزم به ابن السبكي.

و **الثاني**: تفضيل أولياء البشر على الملائكة وجزم به الصفار من الحنفية وهو المختار عندهم.

وقال قوم من أهل السنة أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة.

التنبيه الثاني: في بعض أدلة مذهب أهل الحق من تفضيل صالحي البشر على الملائكة خلافاً للمعتزلة والفلاسفة ومن نحا نحوهم، منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ ﴾.

فالمسجود له أفضل من الساجدين، فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون السجود لله تعالى وآدم كالقبلة؟ فالجواب: أنه لو لم يكن السجود دالاً على منصب المسجود له على الساجد لما قال إبليس: ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ إذ لم يوجد ما يصرف هذا الكلام إليه سوى هذا السجود فدل ذلك السجود على ترجيح منصب المسجود له على الساجد.

ومنها: أن آدم عليه السلام كان أعلم والأعلم أفضل لقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. وقد قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾.

ومنها: أن طاعة البشر أشق والأشق أفضل، فإن البشر مجبولون على الشهوة والحرص والغضب والهوى ونحوها، وهذا من أكبر الموانع وهي مفقودة في الملك.

التنبيه الثالث: اختلف في تكليف الملائكة عليهم السلام وعدمه.

قال العلامة ابن مفلح في الفروع، قال ابن حامد: الجن كالإنس في التكليف والعبادات ومذاهب العلماء إخراج الملائكة من التكليف والوعد والوعيد، وفي كلام أبـي المعالي إن كشف العورة خالياً هي مسألة سترها عن الملائكة والجن، وكلام صاحب المحرر وظاهر كلامهم يجب عن الجني لأنهم مكلفون أجانب وكذا عن الملائكة مع عدم تكليفهم لأن الآدمي مكلف، ولعل مراده إخراجهم عن التكليف بما كلفنا به لا مطلقاً، وإلا فهم مكلفون قطعاً.

قلت والكتاب والسنة ظاهرهما تكليف الملائكة إذ فيه ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾، والأحاديث طافحة بمعنى ذلك.

شرح ابن مانع

فصل

في المفاضلة بين البشر والملائكة

قوله: **(وعندنا)**، أي: معشر أهل السنة **(تفضيل أعيان البشر)** محركة الإنسان ذكراً أو أنثى، والمراد بأعيانهم: الأنبياء والأولياء. فالأنبياء أفضل من الأولياء، وهما أفضل من الملائكة.

قال الإمام أحمد: بنو آدم أفضل من الملائكة، ولذا قال **(على ملاك ربنا)** تبارك وتعالى **(كما اشتهر)** ذلك من نصوص الإمام والملاك: هو المَلَك وجمعه ملائكة.

قال الفيومي في المصباح: مشتقة من لفظ الألوك. يعني: مصدر ألك من باب ضرب ألكا وألوكا أيضاً ترسل واسم الرسالة مالك ــ بضم اللام ــ ومالكة أيضاً بالهاء ولامها ــ تضم وتفتح ــ قال عدي بن زيد التميمي، وقد جسه النعمان ابن المنذر:

أبلـــغ النعمـــان عنـــى مـــالكـــاً أنني قـد طـال حسبـي وانتظـارى

قال في المصباح: وقيل من المالك الواحد مالك وأصله ملاك ووزنه مَعْفَلٌ فنقلت حركة الهمزة إلى اللام، وسقطت فوزنه مَعَلْ فإن الفاء هي الهمزة، وقد سقطت. وقيل: مأخوذ من لأك إذ أرسل فملأك مفعل فنقلت الحركة وسقطت الهمزة وهي عين، فوزنه مَفَلٌ. وقيل: غير ذلك. وقال في القاموس: وزنه يعني الملك مفعل والعين محذوفةٌ أُلْزِمَتْ التخفيف إلاَّ شاذاً.

(قال) الإمام أحمد رحمه الله **(ومن)**، أي: أيُّ إنسان **(قال)** بلسانه، أو اعتقد بجنانه **(سوى)**، أي: غير **(هذا)** القول الذي هو تفضيل بني آدم على الملائكة. فقد **(افترى)**، أي: كذب. **(وقد تعدى)**، أي: تجاوز الحد المنقول الثابت عن الرسول، وخالف السلف **(في المقال)** الذي اعتمده. **(واجتزى)**، أي: افتات على الشارع بالاعتقاد الذي اعتقده ولفظ النص يخطىء من فضل الملائكة.

قال الإمام العلامة أبو بكر عبد العزيز: من كان خيره أكثر من شره، فهو خير من الملائكة، ومن كان شره أكثر من خيره، فالبهائم خير منه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: صالح البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزهون عما يلابسه بنو آدم مستغرقون في عبادة الرب، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة، فتصير حال صالحي البشر أكمل من حال الملائكة. وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل. انتهى ملخصاً.

* * *

الباب السادس

وَلا غِنَــى لأمَّــةِ الإسْــلامِ فِي كُلِّ عَصْرٍ كانَ عَن إمامِ
يَـذُبُّ عَنْهَـا كُـلَّ ذِي جُحُـودِ وَيَعْتَنِـي بِـالغَـزْوِ وَالحُـدُودِ
وَفِعـلِ مَعـروفٍ وَتَـرِكِ نُكْـرِ وَنَصْـرِ مَظْلُـومٍ وَقَمْـعِ كُفْـرِ
وَأخْـذِ مـالِ الفَـيءِ وَالخَـراجِ وَنَحْوه والصَّرفِ فِي مِنهاجِ
وَنَصْبُـهُ بِـالنَّـصِّ وَالإجْمـاعِ وَقَهْـرُه فَحُـل عَـنِ الخِـداعِ

شرح ابن شطي

الباب السادس

في ذكر الإمامة ومتعلقاتها

قال علماؤنا كغيرهم: نصب الإمام الأعظم فرض كفاية لأن الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعوا على أن نصبه واجب بعد انقراض زمن النبوة. بل جعلوه من أهم الواجبات حيث اشتغلوا به عن دفن رسول الله ﷺ، فلهذا قلنا:

(ولا غنى) ولا مندوحة، ولا بد (لأمة) دين (الإسلام) وهي بالضم الجماعة أرسل إليهم رسول (في كل عصر) من الأعصار (كان)، أي: وجد (عن إمام) متعلق بقوله: لا غنى، بل هو فرض لازم ووجوبه عند

أهل السنة وأكثر المعتزلة بالسمع، يعني: التواتر والإجماع، وزعم جمهور المعتزلة أن وجوبه بالعقل.

ووجه وجوبه شرعاً لمسيس الحاجة إليه فإنه ﷺ أمر بإقامة الحدود وسد الثغور وتجهيز الجيوش للجهاد وحماية البيضة[1]، ولذا قال: (**يذب**) بفتح المثناة التحتية، أي: يدفع (**عنها**)، أي: عن ملة الإسلام (**كل**) ملك جبار وملحد مغوار وظلوم كفار (**ذي**)، أي: صاحب (**جحود**)، أي: إنكار. والمراد به هنا الجاحد للدين وأضرابه.

(**ويعتني**) ذلك الإمام المنصوب (**بالغزو**)، أي: غزو الكفار وقهر أهل البغي والفجار، فيقاتل من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة.

(**و**) يعتني أيضاً بإقامة (**الحدود**) جمع حد وهو لغة المنع، وحدود الله تعالى محارمه فيقيم الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك وتحفظ حقوق العباد عن الإتلاف والاستهلاك.

والحدود العقوبات المقدرة سميت بذلك لأنها تمنع من الوقوع في مثل الذنب الذي ترتبت تلك العقوبة عليه.

(**و**) يعتني أيضاً بالأمر بـ (**فعل معروف**) وقد تكرر ذكره في الأحاديث النبوية والنصوص السماوية، وهو من الصفات الغالبة، أي: أمر معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه (**وترك نكر**) معطوف على ما قبله، أي: ويعتني أيضاً بالنهي عن كل منكر وهو ضد المعروف، فكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر.

---

(١) البيضة: الجماعة، وبيضة كل شيء حوزته، وبيضة كل شيء وسطه. اهـ «تاج الأسماء في اللغة». (د).

(و) يعتني بـ (**نصر مظلوم**) من ظالمه بتخليصه من نحو سجنه ورد ظلامته عليه من ظالمه وأخذ حقه ممن هو عليه ونحو ذلك.

(**وقمع**) أهل (**كفر**)، أي: قهرهم وذلهم (**وأخذ مال الفيء**) المال الحاصل من الجهات المذكورة في كتب الفقه، سمي فيئاً لأنه راجع منها إلى أهل الإسلام كأنه في الأصل لهم ثم رجع إليهم (**والخراج**) وزكاة تغلبي وعشر مال تجارة حربي ونصفه من ذمي (**ونحوه**)، أي: نحو ما ذكر كالمال الذي تركه الكفار فزعاً.

(و) يعتني أيضاً بـ (**الصرف**) لذلك المال المذكور (**في منهاج**)، أي: طريق وجهة مصرفه المعينة له شرعاً، وكل ما ذكر وما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب. فإقامة الإمام فرض كفاية، وأما مخالفة الخوارج ونحوهم في الوجوب فلا اعتداد بها لأن مخالفتهم كسائر المبتدعة غير قادح في الإجماع، ولا يخل بما يقيده من القطع بالحكم.

(و) يثبت (**نصبه**)، أي: الإمام (**بالنص**) من الإمام على استخلاف واحد من أهلها بأن يعهد الإمام بالإمامة إلى إنسان ينص عليه بعهده ولا يحتاج في ذلك إلى موافقة أهل الحل والعقد كما عهد الصديق بالخلافة إلى عمر الفاروق رضي الله عنهما.

(و) يثبت نصبه أيضاً بـ (**الإجماع**) من أهل الحل والعقد من المسلمين كإمامة الصديق الأعظم رضي الله تعالى عنه، فإذا بايعه أهل الحل والعقد من العلماء ووجوه الناس الذين هم بصفة الشهود من العدالة وغيرها ثبتت إمامته.

وكذا يجعل الأمر شورى في عدد محصور ليتفق أهل البيعة على

أحدهم، فإذا اتفقوا على واحد منهم صار إماماً كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حيث جعل الإمامة بين ستة أنفار حتى وقع اتفاقهم على عثمان رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين.

(و) يثبت نصبه أيضاً بـ (قهره) الناس بسيفه حتى يذعنوا له ويدعوه إماماً فتثبت له الإمامة. قال الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه: ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله يبيت ولا يراه إماماً براً كان أو فاجراً انتهى.

لأن عبد الملك بن مروان خرج على ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما فقتله واستولى على البلاد وأهلها حتى بايعوه طوعاً وكرهاً ودعوه إماماً، ولما في الخروج عليه من شق عصا المسلمين وإراقة دمائهم وذهاب أموالهم ولهذا قال:

(فحل) أمر إرشاد، أي: ابعد (عن الخداع) متعلق بحل. يعني: اترك مخادعة أهل البدع وتزويق ما يظهرون من جواز الخروج على الإمام وعن طاعته وزعمهم عدم و جوب نصبه فإنهم ضالون ومن وافقهم صار منهم.

شرح ابن مانع

الباب السادس
في ذكر الإمامة ومتعلقاتها

قوله: (ولا غنى)، أي: لا بد (لأمة) دين (الإسلام) ــ وهي بالضم ــ: الجماعة أرسل إليهم رسول والجيل من كل حي، ومن هو على الحق مخالف لسائر الأديان، والرجل الجامع للخير، وفي نسخة لملة

بدل أمة ــ وهي بكسر الميم ــ الشريعة أو الدين **(في كل عصر)** من الأعصار.

(كان)، أي: وجد. **(عن إمام)**: متعلق بقوله: **لا غنى** بل هو فرض لازم وواجب عند أهل السنة، وأكثر المعتزلة.

بالسمع. يعني: التواتر والإجماع، وعند المعتزلة بالعقل **(يذب)** ذلك الإمام، أي: يدفع **(عنها)** ــ أي عن أمة الإسلام ــ **(كل)** ملك جبار، وظلوم كفار. **(ذي)**، أي: صاحب. **(جحود)**، أي: إنكار. والمراد هنا: الجاحد للدين.

(ويعتني) الإمام، أي: يهتم **(بالغزو)**، أي: غزو الكفار، وقهر البغاة، **(و)**يعتني بإقامة **(الحدود)** جمع حد. وهو لغة: المنع، وحدود الله محارمه. وشرعاً: العقوبات المقدرة. سميت بذلك؛ لأنها تمنع من الوقوع في مثل الذنب الذي رتبت تلك العقوبة عليه، أو لكونها زواجر عن المحارم التي حرمها الله، فيقيم الحدود لتصان محارم الله، وتحفظ حقوق العباد.

(و)يعتني أيضاً بالأمر بـ**(ـفعل معروف)**، وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والتقرب إليه والإحسان إلى الناس. **(وترك نكر)**، أي: ويعتني أيضاً بالنهي عن كل منكر وهو ضد المعروف، فكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه، فهو منكر، **(و)**يعتني بـ**(ـنصر مظلوم)** من ظالمه. **(وقمع)** أهل **(كفر)**، أي: قهرهم وذلهم؛ لأن ذلك من أجل المقاصد الشرعية عكس ما عليه أمراء المسلمين في هذا الزمان من إعزاز الكفار وإذلال المسلمين، حتى أن منهم من حارب أهل الإسلام مع الكفار، لنيل

الشهوات الحيوانية، والمطالب الدنيوية الفانية، ولم يمعنوا النظر بما جنوا على الإسلام والمسلمين ولست أعم أمراء المسلمين بل غالبهم.

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

(و)يعتني أيضاً بـ(**ـأخذ مال الفيء**)، وهو ما أخذ من مال كافر بسبب الكفر بلا قتال. كالجزية (**والخراج**)، وعشر مال تجارة حربـي، ونصفه من ذمي، (**ونحوه**)، أي: نحو ما ذكر كمال من مات من الكفار ولا وارث له، ومال المرتد إذا مات على ردته بقتل أو غيره، أو لحق بدار الحرب، (و)يعتني بـ(**ـالصرف**) لذلك المال.

(**في منهاج**)، أي: طريق وجهة مصرفه المعينة له شرعاً، فيصرف في مصالح أهل الإسلام، وهذا في الأزمان الماضية. وأما في هذه الأزمان الأخيرة، فقد استأثر بأموال المسلمين عامة، وفقرائهم خاصة أولو الأمر منهم، فكأنهم ورثوها من آبائهم إرثاً، ولم يعلموا أنهم يأكلونها سحتاً إلا من شاء الله وقليل ما هم.

قوله: (**ونصبه**)، أي: يثبت نصب الإمام الأعظم (**بالنص**) من الإمام الذي قبله، كما عهد أبو بكر الصديق بالخلافة إلى عمر رضي الله عنهما.

(**والإجماع**)، أي: ويثبت نصبه أيضاً بالإجماع من أهل الحل والعقد من المسلمين، كإمامة أبـي بكر الصديق رضي الله عنه.

(**وقهره**)، أي: ويثبت نصبه بقهره الناس بسيفه حتى يذعنوا له ويدعوه إماماً فتثبت له الإمامة، كإمامة عبد الملك بن مروان حيث خرج على ابن الزبير فقتله، واستولى على البلاد وأهلها حتى بايعوه طوعاً وكرهاً ودعوه إماماً، ولما في الخروج عليه من شق عصا المسلمين، وإراقة دمائهم وذهاب أموالهم.

(**فحُل**): أمر إرشاد، أي: ابعد وزل (**عن الخداع**): مصدر خادع متعلق بحل يقال: خدعه كمنعه خدعاً. أراد به المكروه من حيث لا يعلم. يعني: اترك مخادعة أهل البدع، وتحسينهم الخروج على الأئمة، وزعمهم عدم وجوب نصب الإمام، فإن في نصبه من المنافع ما لا يحصى، وفي الخروج عليهم مخالفة لما أمر به الله ورسوله ﷺ من السمع والطاعة، وشق لعصا المسلمين، وتفريق لكلمة المؤمنين.

فلو وفق الله أمراء المسلمين للصواب، واجتمعوا على إمام واحد، لارتفع شأنهم وقوي سلطانهم، ولم تتغلب عليهم دول الكفر. ولكن الأمر كما قيل:

فتفرقوا شيعاً فكل جزيرة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

نسأل الله تعالى أن يصلح ذات بينهم، ويجمع كلمتهم، إنه على كل شيء قدير سبحانه وتعالى.

* * *

وَشَـرْطُـهُ الإِسـلامُ وَالحُـرِّيَّـة عَـدالَـةُ سَمـعٌ مَـعَ الـدِّرِيَّـة
وَأَنْ يَكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَالما مُكَلفـاً ذا خِبْـرةٍ وحَـاكِمـاً
وَكُـنْ مُطِيعـاً أَمْـرَهُ فِيمَـا أَمَـر مَـا لَـمْ يَكُـنْ بِمُنْكَـرٍ فَيُحْتَـذر

شرح ابن شطي

ثم أخذ في ذكر شروط الإمام المنصوب وما يعتبر أن يكون فيه متصفاً به على سبيل الوجوب فقال:

(وشرطه الإسلام) لأن غير المسلم لا يكون له على المسلمين سبيل.

(والحرية) لأن الرقيق بجميع أنواعه عليه الولاية فلا يكون والياً على غيره فضلاً عن عامة المسلمين وخاصتهم.

وشرطه أيضاً **(عدالة)** لاشتراط ذلك في ولاية القضاء وهي دون الإمامة العظمى، نعم إن قهر الناس غير عدل فهو إمام كما تقدم.

ويعتبر فيه أيضاً **(سمع)**، أي: أن يكون سميعاً بصيراً ناطقاً لأن غير المتصف بهذه الصفات لا يصلح لسياسة الخلق **(مع الدرية)** بفتح الدال وكسر الراء وتشديد التحتية من الدراية وهي العلم والخبرة وأريد به اعتبار كونه عالماً بالأحكام المتعلقة بالسياسة والحروب ذا بصيرة قد علم بأحوال الناس ومكرهم وخبر أحوالهم لاحتياج الإمام إلى جميع ذلك بخلاف الغفل[1] فلا يصلح للإمامة العظمى.

(و) يعتبر أيضاً **(أن يكون)** الإمام **(من قريش)** وهو من كان من نسل فهر بكسر الفاء وسكون الهاء. ففهر جماع قريش وسموا قريشاً: لأنهم كانوا يقرشون عن خلة الناس بفتح الخاء، أي: حاجاتهم وفقرهم، ومعناه

(١) الغفل كقفل، الرجل الذي لم يجرب الأمور. (د).

ينقبون عنها ليغنوهم ويسدوا خَلتهم وقيل غير ذلك. وإنما اشترط كونه من قريش لقوله ﷺ: «الأئمة من قريش» رواه الإمام أحمد وأبو يعلى في مسنديهما والطبراني من حديث أبي برزة رضي الله تعالى عنه.

ويعتبر أن يكون (**عالماً**) بالأحكام الشرعية لاحتياجه إلى مراعاتها في أمره ونهيه وأن يكون (**مكلفاً**)، أي: بالغاً عاقلاً لأن غير البالغ العاقل يحتاج لمن يلي أمره فلا يكون والياً على أمر المسلمين.

وأن يكون (**ذا خبرة**) بتدبير الأمور المذكورة في البلاد والعباد.

(و)أن يكون (**حاكماً**)، أي: قادراً على إيصال الحق لمستحقه وكف الظالم المعتدي وقادراً على إقامة الحدود وقمع أهل الضلال، لا تأخذه رأفة في إقامة الحدود والذب عن الأمة. فإن عقدت لأكثر من واحد فهي للأول، فإن فسق الإمام بعد العدالة المقارنة للعدل لم ينعزل على الأصح الأشهر.

ولا تشترط عصمته في حال من الأحوال ولا كونه أفضل الأمة ولا كونه هاشمياً أو إظهار معجزة على يده يعلم بها صدقه خلافاً للرافضة وهذا من خرافاتهم.

(و)إذا عقدت له الإمامة فصار إماماً للمسلمين فـ(**كن مطيعاً**) أنت وسائر رعيته (**أمره فيما**)، أي: في الشيء الذي (**أمر**) به إن كان طاعة، والحاصل أن طاعته تجب في الطاعة وتسن في المسنون وتكره في المكروه، فإذا أمر بمعروف وجب امتثال أمره (**ما لم يكن**) أمره (**بمنكر**) ضد المعروف (**فيحتذر**) لا يطاع في ذلك فلا تجب طاعته في المعصية بل تحرم إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

قوله: (**وشرطه**)، أي: يشترط في الإمام الأعظم (**الإسلام**)؛ لأن غير المسلم لا يكون له على المسلمين سبيل. (**والحرية**): لأن الرقيق عليه الولاية لسيده، فلا يكون والياً على غيره فضلاً عن عامة المسلمين وخاصتهم.

وأما حديث أنس الذي في البخاري: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»، وما في معناه، فمحمول على نحو أمير سرية يكون من جهة إمام قريش، ويشهد لذلك ما رواه الحاكم من حديث علي مرفوعاً: «وإن أمرت قريش فيكم عبداً حبشياً مجدعاً فاسمعوا له وأطيعوا».

قال ابن رجب: إسناده جيد، ولكنه روي عن علي موقوفاً.

وقال الدارقطني: هو أشبه. وقد قيل: إن العبد الحبشي إنما ذكره على وجه ضرب المثل، وإن لم يصح وقوعه، كما قال ﷺ فيمن بنى مسجداً، ولو كمفحص قطاة. وقيل: هو مما أطلع الله عليه النبي ﷺ من أمر أمته، وولاية العبيد عليهم.

ويشرط فيه أيضاً: (**عدالة**)، لاشتراط ذلك في ولاية القضاء، وهي دون الإمامة العظمى، وإن قهر الناس غير عدل، فهو إمام كما نص على مثله الإمام أحمد رحمه الله تعالى.

ويعتبر فيه أيضاً (**سمع**)، أي: أن يكون سميعاً بصيراً ناطقاً؛ لأن المتصف بغير هذه الصفات لا يصلح لسياسة الخلق. (**مع الدرية**): من الدراية، وهي العلم والخبرة. والمراد: أن يكون عالماً بالأحكام المتعلقة

بالسياسة والحروب، ذا بصيرة قد علم بأحوال الناس، (و)يعتبر أيضاً (**أن يكون من قريش**)، وهو من كان من نسل فهر ــ بكسر الفاء ــ بن مالك بن نضر، وإنما اعتبر كونه قرشياً للأحاديث الواردة في ذلك. منها ما رواه الإمام أحمد من حديث أبي برزة «الأئمة من قريش».

وروى الإمام أحمد وغيره من حديث علي أنه قال ﷺ: «الخلافة في قريش».

ويعتبر أن يكون (**عالماً**) بالأحكام الشرعية لاحتياجه إلى مراعاتها في أمره ونهيه. (**مكلفاً [ذا خبرة]**[1])، أي: بالغاً؛ لأن غير المكلف يحتاج لمن يلي أمره، فلا يكون (و)الياً على أمر المسلمين. أن يكون (**حاكماً**)، أي: قادر على إيصال الحق إلى مستحقه وكف ظلم المتعدي، وقادراً على إقامة الحدود على وجه الشرع، حاكماً بحكم الله ورسوله لا بهوى نفسه وشيطانه، ولا تأخذه رأفة في إقامة الحدود، والذب عن الأمة.

فإن عقدت لأكثر من واحد فهي للأول، فإن فسق الإمام بعد العدالة لم ينعزل على الأصح الأشهر.

قوله: (**وكن مطيعاً**). يعني: إذا عقدت له الإمامة فصار إماماً للمسلمين، فكن سامعاً مطيعاً أنت وسائر الرعية. (**أمره فيما**)، أي: في الشيء الذي أمر به إن كان طاعة.

والحاصل أن طاعته تجب في الطاعة، وتسن في المسنون، وتكره في المكروه. فإذا أمر بمعروف وجب امتثال أمره (**ما لم يكن**) أمره (**بـ**)شيء (**منكر**)، وهو ضد المعروف، (**فـ**)لا يطاع في ذلك، بل

(١) ما بين المعكوفين ساقط من ابن مانع وأثبته كما في باقي النسخ.

(يحتذر) ويجتنب فلا تجب طاعته في المعصية بل تحرم، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

قال شيخ الإسلام: ثبت عن النبـي ﷺ من غير وجه أنه قال: «إن الله يرضى ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تنصحوا من ولاه الله أمركم». قال: وآية الأمراء في كتاب الله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾.

إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾.

قال: نزلت الآية الأولى في ولاة الأمور عليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل. ونزلت الآية الثانية في الرعية من الجيوش وغيرهم أن يطيعوا أولي الأمر الفاعلين لذلك في قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك، إلاَّ أن يأمروا بمعصية الله تعالى، فإذا أمروا بمعصية الله تعالى فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإن تنازعوا في شيء ردوه إلى كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ. وإن لم يفعل ولاة الأمور ذلك، أطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله؛ لأن ذلك من طاعة الله ورسوله، وأُديت حقوقهم إليهم، كما أمر الله ورسوله، وأُعينوا على البر والتقوى، ولا يعاونون على الإثم والعدوان.

فعلى ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل. فقد قال النبـي ﷺ: «من ولي من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً وهو يجد أصلح للمسلمين منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين» رواه الحاكم في صحيحه.

* * *

وَاعلَم بأنَّ الأمرَ والنَّهيَ معاً فرْضا كِفايةٍ عَلَى مَن قَدْ وَعَا
وإن يَكُـن ذَا واحـداً تعيَّنـا عَلَيـهِ لَكـن شـرطُـه أن يـأمَنـا
فاصبِر وزُل بِاليَدِ واللِّسانِ لِمُنكَـرٍ واحـذَرْ مِـنَ النُّقْصَـانِ

شرح ابن شطي

فصل

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ولما كان صلاح العباد في المعاش والمعاد لا يتم ولا يصلح ولا يستقيم لهم حال إلاَّ بذلك قال:

(واعلم) أيها المتبحر في علم أصول الدين (بأن الأمر)، أي: بالمعروف (والنهي) عن المنكر (معاً)، أي: كل واحد منهما منفرداً وكلاهما (فرضا كفاية) على جماعة المسلمين يخاطب به الجميع ويسقط بمن يقوم به، بخلاف فرض العين فإنه يجب على كل واحد ولا يسقط عنه بفعل غيره.

(على من)، أي: إنسان (قد وعا)، أي: قد حفظ حكمه وعلمه وذلك لأن إصلاح المعاش والمعاد إنما هو بطاعة الله تعالى ورسوله وامتثال أوامره والانتهاء عن زواجره، ولا يتم ذلك إلاَّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾، وقال عن بني إسرائيل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

وفي الحديث الثابت عن أمير المؤمنين أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه أنه خطب الناس على منبر رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» وفي لفظ من عنده، رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(**وإن يكن ذا**)، أي: الذي علم بالمنكر وتحققه وشاهده وهو عارف بما ينكر (**واحداً**) أو كانوا عدداً لا يحصل المقصود إلاّ بهم جميعاً (**تعينا**)، أي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصارا فرض عين (**عليه**) أو عليهم للزومه.

(**لكن شرطه**)، أي: شرط افتراضه على الجماعة أو الواحد سواء كانا فرض كفاية أو عين (**أن يأمنا**) بألف الإطلاق، على نفسه وأهله وماله ولم يخف سوطاً ولا عصاً ولا أذى ولا فتنة تزيد على المنكر، وقيل: إن زادت وجب الكف وإن تساويا سقط الإنكار، قال أحمد: يأمر بالرفق والخضوع فإن أسمعوه ما يكره لا يغضب.

ولهذا قال: (**فاصبر**) على الأذى ممن تأمره وتنهاه ولا تغضب لنفسك بل لله تعالى (**وزل**) المنكر وغيره (**باليد**) وهو أعلى درجات الإنكار، وإزالة المنكر كإراقة الخمر وكسر أواني الذهب والفضة والحيلولة بين الضارب والمضروب ونحوه، ورد المغصوب إلى مالكه.

(**واللسان**) حيث لم تستطع تغييره باليد بأن تعظه وتذكره بالله وأليم عقابه وتوبخه وتعنفه مع لين أو إغلاظ بحسب ما يقتضيه الحال (**لمنكر**) متعلق بزل.

(واحذر) من النزول عن أعلى المراتب حيث قدرت على أن تغيّر المنكر بيدك إلى أوسطها وهو الإنكار باللسان إلاَّ مع العجز عن ذلك، ثم أنه لا يسوغ لك العدول عن التغيير للمنكر باللسان وأنت تقدر عليه إلى الإنكار بالقلب، فإن لم تستطع تغيير المنكر لا بيدك ولا بلسانك فاعدل إلى الإنكار بقلبك وهو أضعف الإيمان، فلذا حذر (من النقصان) وأشار بذلك إلى حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»، رواه مسلم والترمذي.

وفي هذا عدة أحاديث وقد دلت كلها على وجوب إنكار المنكر بحسب القدرة عليه، وإن إنكاره بالقلب لا بد منه، فمن لم ينكر قلبه المنكر دل على ذهاب الإيمان من قلبه.

شرح ابن مانع

فصل

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قوله: (واعلم)، أي: أيها الطالب للعلم (بأن الأمر) بالمعروف، (والنهي) عن المنكر (معاً)، أي: كل واحد منهما منفرداً، وكلاهما، (فرضا كفاية) على جماعة المسلمين يخاطب به الجميع، ويسقط بمن يقوم به بخلاف فرض العين، فإنه يجب على كل واحد، ولا يسقط عنه بفعل غيره.

(على من)، أي: إنسان. (قد وعا): حكم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وحفظه وذلك؛ لأن صلاح المعاش والمعاد إنما هو بطاعة الله

ورسوله، ولا يتم ذلك إلاَّ بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر حتى ولو كان مرتكب المنكر غير مكلف، فإنه ينكر عليه تعليماً له.

وتأديباً وإلى هذا أشار العلامة ابن عبد القوي بقوله:

وانكر على الصبيان كل محرم لتأديبهم والعلم في الشرع بالردى

ومما فضلت به هذه الأمة على سائر الأمم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، والآيات في ذلك كثيرة.

قال العلامة ابن رجب في جامع العلوم: والحكم قوله ﷺ: «من رأى منكم منكراً»، يدل على أن الإنكار متعلق بالرؤية، فإن كان مستوراً ولم يره ولكن علم به، فالمنصوص عن أحمد في أكثر الروايات أنه لا يتعرض له، ولا يفتش على ما استراب به. وعنه رواية أخرى: أنه يكشف المغطى إذا تحققه.

قال الإمام أحمد: وأما تسور الجدران على من علم اجتماعهم على منكر، فقد أنكره الأئمة مثل سفيان الثوري وغيره، وهو داخل في التجسس المنهي عنه، وقد قيل لابن مسعود: إن فلاناً تقطر لحيته خمراً. فقال: نهانا الله عن التجسس.

وقال القاضي أبو يعلى: إن كان في المنكر الذي غلب على ظنه الاستسرار به بإخبار ثقة عنه انتهاك حرمة يفوت استدراكها، كالزنا والقتل فله التجسس، والإقدام على الكشف والبحث حذراً من فوات ما لا يستدرك من انتهاك المحارم، وإن كان دون ذلك في الرتبة لم يجز التجسس عليه ولا الكشف عنه.

قال ابن رجب: والمنكر الذي يجب إنكاره ما كان مجمعاً عليه. فأما المختلف فيه فمن أصحابنا من قال: لا يجب إنكاره على من فعله مجتهداً أو مقلداً لمجتهد تقليداً سائغاً، واستثنى القاضي ما ضعف فيه الخلاف فينكر على فاعله.

وقد نص الإمام أحمد على الإنكار على من لا يتم ركوعه، وسجوده، ولا يقيم صلبه من الركوع مع وجود الاختلاف في وجوب ذلك لضعف الخلاف فيه.

(**وأن يكن ذا**)، أي: الذي علم بالمنكر (**واحداً**) عارفاً بما ينكر. (**تعينا**)، أي: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وصارا فَرْضًا عين (**عليه**)، وكذا لو كانوا جماعة، ولا يحصل المقصود إلاَّ بهم.

(**لكن شرطه**)، أي: شرط افتراضه على الواحد أو الجماعة سواء كان فرض عين أو كفاية. (**أن يأمنا**) ــ بألف الإطلاق ــ على نفسه، أو ماله، ولم يخف أذى أو فتنة تزيد على المنكر. وقيل: إن زادت وجب الكف، وإن تساويا سقط الإنكار، والإنكار الذي يسقط عند الخوف هو الإنكار باليد واللسان. وأما الإنكار بالقلب فهو فرض عين لا يسقط بحال.

ولما سمع ابن مسعود رجلاً يقول: هلك من لم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر. قال: هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر، يشير إلى أن معرفة المعروف والمنكر بالقلب فرض لا يسقط عن أحد، فمن لم يعرفه هلك. (**فاصبر**) على الأذى ممن تأمره وتنهاه، ولا تغضب لنفسك بل لله.

قال الإمام أحمد رحمه الله: يأمر بالرفق والخضوع، فإن أسمعوه ما يكره، لا يغضب فيكون يريد أن ينتصر لنفسه.

(**وزل**) المنكر عن مكانه (**باليد**)، وهو أعلى درجات الإنكار، وذلك كإراقة الخمر، وكسر أواني الذهب والفضة. (**واللسان**)، أي: وزل المنكر باللسان حيث لم تستطع تغييره باليد بأن تعظه وتذكره بالله، وأليم عقابه، وتوبخه وتعنفه مع لين وإغلاظ بحسب ما يقتضيه الحال (**لمنكر**) متعلق بزل.

(**واحذر**) من النزول عن أعلى المراتب حيث قدرت على أن تغير المنكر بيدك إلى أوسطها، وهو الإنكار باللسان إلاَّ مع العجز عن ذلك، ولا يسوغ العدول عن الإنكار باللسان مع القدرة عليه إلى الإنكار بالقلب الذي هو أضعف الإيمان.

فلذا حذر الناظم (**من النقصان**)، وأشار بذلك إلى ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». وهذا يدل كما قال العلامة ابن رجب: على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من خصال الإيمان، ويدل على أن من قدر على خصلة من خصال الإيمان وفعلها، كان أفضل ممن تركها عجزاً.

قال الإمام أحمد رحمه الله: الناس يحتاجون إلى مداراة، ورفق الأمر بالمعروف بلا غلظة إلاَّ رجل معلن بالفسق فلا حرمة له.

وقال سفيان الثوري رحمه الله: لا يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر إلاَّ من كانت فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر عدل بما ينهى، عالم بما يأمر عالم بما ينهى.

قلت: فليتأمل كلام الإمام سفيان، فإنه منطبق على القواعد الشرعية تمام الانطباق، ومنه يعلم خطأ كثير من الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر، فمنهم من يأمر وينهى لهواه، فمن وافقه فهو المحق، ومن خالفه فهو المبطل.

ومنهم جهال أغبياء سمعوا بعض الأحاديث ولم يفهموا معانيها، فسطوا على الناس بالتضليل والتفسيق، فأمروا ونهوا باعتبار أفهامهم الفاسدة. والغالب في هذا القسم أن بعضهم يقلد بعضاً بمفهومه الكاسد، وبضاعته المزجاة.

ومنهم ذئاب تظاهروا بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لنيل حطام الدنيا وأغراضها.

نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة في الدنيا والآخرة.

* * *

وَمَن نَهَى عَن مَّا لَهُ قَدْ ارتكَب فَقَد أتَى مِمَا بِهِ يُقْضَى العَجَب
فَلَـــو بَــدَا بِنَفْسِـــهِ فَـذَادَهَـــا عَـن غيِّهَـا لَكَـانَ قَـدْ أفـادَهَـا

شرح ابن شطي

ولاعتبار كون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عدلاً بما يأمر عدلاً بما ينهى أشار بقوله:

(ومن)، أي: أيّ إنسان (نهى) الخلق (عن ما)، أي: الشيء الذي (له)، أي: لذلك الشيء الذي نهى الناس عنه (قد ارتكب) وفعله وخالف قولَه عملُه من فعل المحظور وترك المأمور، (فقد) والله (أتى) من قاله وحاله (من ما)، أي: من العمل الذي (به)، أي: منه (يقضي) ببنائه لما لم يسم فاعله و (العجب) نائب الفاعل، أي: يقضي العقلاء وأهل العلم والحزم من مخالفته قوله لعمله العجب، أي: يحكمون بالعجب وهو إنكار ما يرد عليك ويخفى سببه.

والمراد أنه يعظم عليهم أن ينهى عن القبيح ويأتيه، ويأمر بالحسن ولا يأتيه. وقد ورد التحذير عن مثل ذلك كما في حديث أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه، أي: أمعاؤه. ومعنى تندلق تخرج، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان ما لك ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه، رواه البخاري ومسلم.

وقال بعض السلف: إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهي فإذا أمرت

بشيء فكن أول الفاعلين له المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء فكن أول المنتهين عنه.

ولهذا قال: (**فلو بدا**) الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر قبل أمره ونهيه لغيره (**بنفسه**) متعلق ببدا (**فذادها**)، أي: منعها وردّها (**عن غيها**) متعلق بذادها، أي: عن ضلالها (**لكان**) ببدايته بإرشاد نفسه وردها عما هي فيه (**قد أفادها**) النجاة والسلامة.

تنبيهات:

الأول: ما قدمنا من اعتبار كون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر مستقيم الحال هو عين الكمال والمؤثر أمره ونهيه في القلوب، وأما الوجوب فلا يسقط عن المكلف وإن كان بغير تلك الأوصاف، بل من غير أهل العدالة والعفاف. فعلى مرتكب الذنب النهي عن مثل ما ارتكب لأن تركه للمنكر ونهيه عنه فرضان متميزان ليس لمن يترك أحدهما أن يترك الآخر.

الثاني: متعلق الإنكار الرؤية للمنكر وتحققه، فلو كان مستوراً فلم يره ولكن علم به فالمذهب يجب عليه الإنكار لتحققه. والمنصوص عن الإمام في أكثر الروايات أنه لا يتعرض له ولا يفتش على ما استراب. وقد روي عنه أنه يكسر المغطى إذا تحققه وهذا المعتمد.

وأما تسوُّر الجدران على من علم اجتماعهم على منكر فقد أنكره الأئمة وهو داخل في التجسس المنهي عنه. نعم قال القاضي أبو يعلى: إن كان في المنكر الذي غلب على ظنه الاستسرار به بإخبار ثقة عنه انتهاك حرمة يفوت استدراكها كالزنا والقتل جاز التجسس، وإن كان دون ذلك لم يجز التجسس عليه ولا الكشف عنه. انتهى.

وحكمة عدم وجوب التفتيش مع وجود النصوص على التجسس أن المعاصي إذا أخفيت إنما تضر من يعملها وإذا أعلنت ضرت العامة.

فإن خاف على نفسه السيف أو السوط أو الحبس أو القيد أو النفي أو أخذ المال ونحو ذلك من الأذى، أو خاف مثل ذلك على أهله أو جيرانه سقط وجوب الإنكار، وأما مجرد خوف السب أو سماع الكلام السيء فلا يسقط الإنكار، وإن احتمل الأذى وقوي عليه فهو أفضل.

الثالث: إذا علم أنه لا يقبل منه فهل يسقط وجوب الأمر والنهي؟

حكى القاضي أبو يعلى عن الإمام روايتين وصحح القول بوجوبه، قال ابن رجب: وهو قول أكثر العلماء، وقد قيل لبعض السلف في هذا فقال: تكون معذرة، وقال ابن حمدان: ويجوز الإنكار فيما لا يرجى زواله وإن خاف أذى، وقيل لا، وقيل يجب.

الرابع: الذي يجب إنكاره من المنكر هو ما كان مجمعاً عليه، فأما المختلف فيه فمن علمائنا من قال لا يجب إنكاره على من فعله مجتهداً فيه أو مقلداً لمجتهد تقليداً سائغاً.

الخامس: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالشرع لا بالعقل خلافاً للمعتزلة، ودليله الكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب والسنة فقد ذكرنا ما يحصل به المقصود، وأما الإجماع فلأن المسلمين كانوا في الصدر الأول ومن بعدهم يتواصون بذلك ويوبخون تاركه مع القدرة، فعلى الناس إعانة الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ونصره على ذلك، وما يختص علمه بالعلماء يختص إنكاره بهم وبمن يأمرونه به من الولاة والعوام، ومن التزم مذهباً أنكر عليه مخالفته بلا دليل ظاهر ولا تقليد سائغ أو عذر ظاهر.

قوله: (ومن)، أي: إنسان (نهى) الخلق (عما)، أي: الشيء الذي (له)، أي: كذلك الشيء الذي نهى عنه (قد ارتكب) وفعله وخالف قوله عمله من فعل المحظور، وترك المأمور، (فقد أتى) من قاله وحاله (مما)، أي: من العمل الذي (به)، أي: معه (يقضي) ـ بالبناء للمفعول ـ و(العجب): نائب الفاعل، أي: يقضي العقلاء وأهل العلم والحزم من مخالفة قوله لعمله العجب، أي: يحكمون ويقطعون بالعجب.

قال بعض السلف: إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهي، فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء فكن أول المنتهين عنه.

قال تعالى حكاية عن شعيب أنه قال لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾.

(فلو بدأ) ذلك الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر قبل أمره ونهيه لغيره (بنفسه فذادها)، أي: منعها وردها (عن غيّها)، أي: عن ضلالها. والغيّ: الضلال والإنهاك في الباطل، (لكان) ببدايته بإرشاد نفسه وردها عما هي فيه من ارتكاب مهاوي الهوى والضلال، والغي والوبال، (قد أفادها) النجاة، والرشد والسلامة، وفي هذا المعنى قال أبو الأسود:

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام من الضنا	كي يشتفى منه وأنت سقيم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيّها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى	بالقول منك وينفع التعليم

ولقد أحسن أبو العلاء بقوله:

رويـدك قـد غـررت وأنـت حُـرٌّ ... بصـاحـب حيلـة يعـظ النسـاءَ

يحـرم فيكـم الصهبـاء صبحـاً ... ويَشـربهـا علـى عمـد مسـاءَ

يقـول لكـم غـدوت بـلا كسـاء ... وفـي لـذاتهـا رَهَـن الكسـاء

إذا فعـل الفتـى مـا عنـه ينهـى ... فمـن جهتيـن لا جهـة أسـاء

* * *

الخاتمة

نسأل الله حسن الخاتمة

مَـدَارِكُ العُلُـومِ فِـي العَيَـانِ مَحْصُورَةٌ فِي الحَدِّ وَالبُرْهَانِ
وَقَالَ قَوْمٌ عَنْدَ أَصْحَابِ النَّظَر حِسٌّ وَإِخْبَارٌ صَحِيحُ وَالنَظَر

شرح ابن شطي

الخاتمة

نسأل الله حسن الخاتمة

في فوائد جليلة لا يسع من خاض في مثل هذه العلوم الجهل بها، وهي في الأدلة وما يتعلق بها، وهي قسمان: مفردات ومركبات، ولذا قال:

(مدارك العلوم) المدارك جمع مُدرك، وأدرك الشيء أحاط به. والمراد المُدرك بالعقول جمع عقل وهو لغة المنع، واصطلاحاً هو ما يحصل به الميز بين المعلومات.

وعن الإمام الشافعي أنه قال: العقل آلة التمييز والإدراك وهو غريزة قاله الإمام أحمد، ليس مكتسباً بل خلقه الله تعالى بفارق به الإنسان البهيمة ويستعد به لقبول العلم وتدبير الصنائع الفكرية، فكأنه نور يقذف في القلب كالعلم الضروري، والصبر ونحوه حجاب له.

وقال البربهاري من أصحابنا: ليس العقل بجوهر ولا عرض ولا اكتساب وإنما هو فضل من الله تعالى.

قال شيخ الإسلام: هذا يقتضي أنه القوةُ المدركة للإدراك، ومحل العقل القلب عندنا وعند الشافعية والأطباء وله اتصال بالدماغ. وروي عن الإمام أحمد أن محله الدماغ وهو قول أبـي حنيفة، وقيل في الدماغ إن قلنا إنه جوهر وإلا ففي القلب.

والصحيح أن العقل يختلف كالمُدرك به. وقال ابن عقيل والأشاعرة والمعتزلة لا يختلف لأنه حجة عامة يرجع إليه الناس عند اختلافهم، فلو تفاوتت العقول لما كان كذلك.

وقال غير واحد: العقل عقلان غريزي وتجربـي مكتسب، فالغريزي لا يختلف والكسبـي يختلف، وحمل الطوفي الخلاف على ذلك.

وقوله: **(في العَيان)**، أي: المشاهدة **(محصورة)** في شيئين **(في الحد والبرهان)** هو الحجة والدليل. والبرهان عند أهل الميزان قياس مؤلف من مقدمات يقينية لإنتاج يقينيات، واليقين اعتقاد أن الشيء كذا مع اعتقاد أنه لا يكون إلا كذا مع مطابقته للواقع وامتناع تغييره.

(وقال قوم) بل مدارك العلم **(عند أصحاب النظر)**، أي: الفكر والتدقيق وهم النظار من المتكلمة والمنطقيين وعلماء الأصول ثلاثة:

أحدها: (حسّ)، أي: ما يدرك بأحد الحواس الخمس وهي جمع حاسة بمعنى القوة والحاسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس، فخلق الله تعالى كلاً من تلك الحواس لإدراك أشياء مخصوصة فلا يدرك بواحدة ما يدرك بالأخرى؛ والمُدرك بشيء منها يقال له محسوس.

(و) الثاني: (إخبار صحيح) مطابق للواقع.

(و) الثالث: (النظر)، أي: الفكر.

والحاصل أن أسباب العلم ثلاثة: الحواس السليمة، والخبر الصادق، والعقل.

شرح ابن مانع

الخاتمة

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة

في ذكر الأدلة وما يتعلق بها. وهي قسمان: مفردات ومركبات.

فالدليل المفرد: كالعلم الذي يمكن التوصل بصحيح النظر والتأمل في أحواله إلى وجود الصانع والمركب، كقولنا العالم ممكن، وكل ممكن يحتاج في وجوده إلى مؤثر، وهذا عند الأصوليين.

وأما عند المناطقة: فلا تكون إلا مركبة، وقد وضحت ذلك في حواشي رسالة الآداب[1].

قال الناظم رحمه الله تعالى:

قوله: (مدارك العلوم): المدارِكُ جمع مدرك ــ بضم الميم ــ مصدر ميمي بمعنى الإدراك، مصدر أدرك الشيء بالشيء، حاول إدراكه به. والإدراك وصول النفس إلى المعنى بتمامه، والمراد المدرك بالعقول.

والعلوم: جمع علم، وهو حصول صورة الشيء في الذهن. وينقسم إلى قسمين: تصور وتصديق، وكل منهما إما ضروري أو نظري.

---

(١) يعني رسالة في آداب البحث والمناظرة، فللمصنف حاشية على تلك الرسالة مفيدة. (هـ).

فالتصور حصول صورة الشيء في الذهن من غير حكم عليه بنفي ولا إثبات كإدراك الإنسان، والتصديق: إدراك أن النسبة واقعة، أو ليست بواقعة. أي: الإذعان لذلك كإدراك أن زيداً كاتب، أو ليس بكاتب، وما أوصل إلى التصور يسمى قولاً شارحاً ومنه الحد، وما أوصل إلى التصديق يسمى حجة ومنه البرهان.

(في العيان)، أي: المشاهدة **(محصورة)** في شيئين: **(في الحد)** ويكون تاماً وناقصاً على ما سيأتي، (و)في **(البرهان)** وهو الحجة والدليل. وفي الحديث «الصدقة برهان».

قال العلامة ابن رجب: البرهان: هو الشعاع الذي يلي وجه الشمس، ومنه حديث أبي موسى: «إن روح المؤمن تخرج من جسده لها برهان كبرهان الشمس». ومنه سميت الحجة القاطعة برهاناً لوضوح دلالتها على ما دلت عليه، فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان، أي: إيمان صاحبها لطيب نفسه بإخراجها.

والبرهان عند علماء المنطق: قياس مؤلف من مقدمات يقينية لإنتاج اليقين الذي هو اعتقاد جازم مطابق للواقع ممتنع التغير.

(وقال قوم): بل مدارك العلوم **(عند أصحاب النظر)**، أي: الفكر والتدقيق، والبحث والتحقيق، والنظار من المتكلمة والمنطقيين، وعلماء الأصول ثلاثة:

أحدها: **(حس)**، أي: ما يدرك بأحد الحواس الخمس، وهي جمع حاسة بمعنى: «القوة الحاسة، أي: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس».

(و)**الثاني**: (**إخبار صحيح**) ثابت رجيح مطابق للواقع وهو نوعان:

أحدهما: المتواتر الثابت على ألسنة قوم لا يتصور تواطؤهم على الكذب، ومصداقه وقوع العلم من غير شبهة، وهو موجب للعلم الضروري، كالعلم بالملوك الماضية، والأمم الفانية، والبلدان النائية، كوجود مكة وبغداد.

والثاني: خبر الرسول المؤيد بالمعجزة الخارقة المقرونة بالتحدي، فيوجب العلم الاستدلالي، وإنما كان استدلالياً لتوقفه على الاستدلال، واستحضار أنه خبر من ثبتت رسالته بالمعجزة، وكل خبر هذا شأنه فهو صادق، ومضمونه واقع، والعلم الثابت بخبر الرسول يشابه الثابت بالضرورة، كالمحسوسات والمتواترات في التيقن والثبات.

(و)**الثالث**: (**النظر**)، أي: الفكر الذي يطلب به علم أو ظن، وهو ترتيب أمور معلومة للتوصل إلى مجهول.

والحاصل أن أسباب العلم ثلاثة: الحواس السليمة، والخبر الصادق، والعقل.

* * *

فَالحَدُّ وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ عِلْمِ ... وَصْفٌ مُحيْط كاشفٌ لِلفَهمِ[1]

وَشَرطُهُ طَرْدٌ وَعَكْسٌ وَهُوَ إن ... أنْبَا عَنِ الذَّواتِ فَالتَّام اسْتَبِن

وإن يَكُنْ بِالجِنْسِ ثُمَّ الخَاصَّة ... فَذاكَ رَسْمٌ فَافْهَمْ المُحاصَة

شرح ابن شطي

إذا عرفت ما ذكرناه لك وطلبت تعريف الحد المذكور، **(فالحد)** وسمي التعريف حداً لمنعه الداخل فيه من الخروج عنه، والخارج عنه من الدخول فيه.

وقوله: **(وهو)**، أي: الحد **(أصل كل علم)** جملة معترضة بين المبتدأ الذي هو الحد وخبره الذي هو وصف إلى آخره، وإنما كان أصلاً للعلوم لأن من لا يحيط به علماً لا نفع له بما عنده.

وفي الاصطلاح الحد **(وصف محيط)** بموصوفه، أي: بمعنى المحدود **(كاشف)** بالرفع عطف على محيط، أي: مميز للمحدود عن غيره **(فافتهم)** والفهم إدراك معنى الكلام.

(وشرطه)، أي: شرط كون الحد صحيحاً، والشرط ما يعتبر للحكم[2] **(طرد)** خبر المبتدأ الذي هو شرطه؛ هو المانع الذي كلما وجد الحد وجد المحدود.

(وعكس) وهو الجامع الذي كلما وجد المحدود وجد الحد، فهذا

---

(١) كذا في الأصل للمتن وما في الشرحين (فافتهم) وما في النظم بالأعلى أحسن للوزن لئلا ينكسر البيت.

(٢) وهو ما يلزم من انتفائه انتفاء الحكم، فلا يوجد المشروط مع عدم شرطه، ولا يلزم من وجود الشرط وجود المشروط. (د).

عكس الاطراد ويلزم من ذلك أنه كلما انتفى الحد انتفى المحدود.

واعلم أن الحد من حيث هو تام ورسمي ولفظي، ولذا قال **(وهو)**، أي: الحد **(إن أنبا)**، أي: دل **(عن الذوات)**، أي: ذاتيات المحدود الكلية المركبة كما إذا قيل ما الإنسان؟ فيقال حيوان ناطق، **(فالتام)** وهو الأصل وله حد واحد لأن ذات الشيء لا يكون له حدان، مثاله حيوان ناطق فإنه حد للإنسان.

(استبن)، أي: اطلب البيان عن حقيقة الحد، فإن هذا هو الحد التام الحقيقي المنبىء عن ذاتيات المحدود، وإن كان بفصل قريب فقط من غيره ذكر جنس فحد حقيقي ناقص كما إذا قيل ما الإنسان؟ فقلت ناطق، وكذا إن كان بفصل وجنس بعيد كجسم ناطق بالنسبة إلى الإنسان.

(وإن يكن) الحد مركباً **(بالجنس)** القريب **(ثم الخاصة)** مثال ذلك حيوان ضاحك بالنسبة إلى الإنسان **(فذاك رسم)** تام، فإن الضاحك عرض فبالفعل مفارق لا بالقوة، وسمي خاصة لاختصاصه بحقيقة واحدة بالقوة والفعل بالنسبة إلى الإنسان لأن الضحك بالقوة لازم لماهية الإنسان مختص بها وبالفعل مفارق لها مختص بها؛ وإن كان الحد بها فقط كقولك الإنسان ضاحك سمي رسماً ناقصاً، وكذا إن كانت مع جنس بعيد كقولك: الإنسان جسم ضاحك.

(فافهم المحاصة)، أي: المقاسمة.

شرح ابن مانع

قوله: **(فالحد)**، أي: إذا علمت ما تقدم من التمهيد، وطلبت تعريف الحد، فالحد في اللغة: المنع، ومنه سمي البواب حداداً؛ لأنه يمنع من يدخل الدار، وسمي التعريف حداً لمنعه الداخل فيه من الخروج

عنه، والخارج عنه من الدخول فيه.

وقوله: **(وهو أصل كل علم)**. جملة معترضة بين المبتدأ الذي هو الحد، والخبر الذي هو وصف محيط. وإنما كان أصلاً للعلوم؛ لأن من لا يحيط به علماً لا ينتفع بما عنده.

والحد في الاصطلاح: **(وصف محيط)** بموصوفه. **(كاشف)**، أي: مميز للمحدود عن غيره. **(فافتهم)**: أمر بالفهم من باب الافتعال، وبنائه للمطاوعة غالباً نحو فهمته فافتهم، والفهم إدراك معنى الكلام بسرعة، وأسقط هذا القيد بعض العلماء؛ لأن من سمع كلاماً ولم يدرك معناه إلاَّ بعد شهر أو أكثر يقال له: فهمه، ولكن السرعة قيد في الفهم الجيد، وقيل: الفهم جودة الذهن من جهة تهيئة لاقتباس ما يرد عليه من المطالب، والذهن قوة النفس المستعدة لاكتساب الحدود والآراء.

قوله: **(وشرطه)**[1]، أي: شرط كون الحد صحيحاً. **(طرد)**، أي: كلما وجد الحد وجد المحدود، فلا يدخل فيه شيء من أفراد غير المحدود فيكون مانعاً.

(وعكس)، أي: كلما وجد المحدود وجد الحد، فلا يخرج عنه شيء من أفراد المحدود، فيكون جامعاً.

وترتيب المنع على الاطراد والجمع على الانعكاس هو مذهب الجمهور، وعكس ذلك بعض العلماء.

(وهو)، أي: الحد. **(إن أنبا)**، أي: دل وكشف **(عن الذوات)**،

---

(١) الشرط ما يعتبر للحكم وهو ما يلزم من انتفائه انتفاء الحكم فلا يوجد المشروط مع عدم شرطة ولا يلزم من وجود الشرط وجود المشروط. (هـ).

أي: ذاتيات المحدود الكلية المركبة، إما مطابقة[1] كقولنا في تعريف الإنسان جسم نام حساس متفكر بالقوة، أو تضمناً نحو: حيوان ناطق، أو مطابقة في البعض وتضمناً في البعض، نحو: جسم نام حساس ناطق، أو حيوان متفكر بالقوة (فـ)ـهو الحقيقي (التام)، ويكون الحد التام هو الذي يذكر فيه جميع الذاتيات لا يكون للشيء الواحد حدان تامان، وقيل: بلى، والخلاف مشهور.

ويشترط في تمام الحد تقديم الجنس على الفصل، فلو أخر الجنس عن الفصل كان حداً ناقصاً.

وقوله: (استبن). تتمة للبيت، وفيه الأمر بطلب البيان، والكشف عن حقيقة الحد، وقد ذكر الحد التام. وأما الناقص فهو الذي لم يذكر فيه جميع الذاتيات، ويكون بالفصل وحده إن قلنا بجواز التعريف بالمفرد، كقولنا: ناطق في تعريف الإنسان، أو بالجنس البعيد، والفصل القريب كجسم ناطق في تعريفه أيضاً.

(وإن يكن) الحد مركباً (**بالجنس**)، أي: من الجنس القريب (**ثم الخاصة**)، كحيوان ضاحك في تعريف الإنسان. (**فذاك**)، أي: المركب من الجنس القريب والخاصة (**رسم**) تام، أما كونه رسماً؛ فلأن الرسم لغة: الأثر والخاصة من آثار الحقيقة الدالة عليها، وأما كونه تاماً فلمشابهة الحد التام من حيث أنه وضع فيه الجنس القريب، وقيد بأمر مختص.

ويشترط في تمام الرسم تقديم الجنس على الخاصة، فلو أخر

(١) دلالة الشيء على كل معناه يسمى مطابقة ودلالته على بعضه يسمى تضمن وعلى ما يلزم من جهة الخارج يسمى التزاماً. (هـ).

الجنس عن الخاصة كان رسماً ناقصاً، وأما الرسم الناقص فهو ما يكون بالخاصة فقط، كقولنا: ضاحك في تعريف الإنسان إن قلنا بجواز التعريف بالمفرد، أو بالجنس البعيد، والخاصة نحو: الإنسان جسم ضاحك.

أما كونه رسماً فلما مر، وأما كونه ناقصاً فلعدم ذكر جميع أجزاء الرسم التام.

والخاصة تكون للجنس كالمشي للحيوان، وتكون للنوع كالضحك للإنسان، وكل خاصة نوع خاصة لجنسه ولا عكس، وتكون لازمة ومفارقة كالضاحك بالقوة، والفعل للإنسان.

(فافهم المحاصة) ــ بضم الميم فحاء مهملة فألف فصاد مدغمة في مثلها، المقاسمة ــ والمراد: افهم التقسيم المذكور للحد والرسم وكون كل منهما تاماً وناقصاً لتكون على بينة من ذلك. والله أعلم.

تنبيه: ما ذكره الناظم هنا بعض الكليات الخمس التي هي مبادىء التصورات، ونذكرها جميعها على سبيل الاختصار الكلي هو الذي لا يمنع نفس تصور مفهومه من وقوع الشركة فيه. والكليات خمس، ووجه الحصر أن الكلي إما أن يكون تمام الماهية، أو جزء لها، أو عرضاً لها.

الأول: النوع كالإنسان.

والثاني: إن كان مساوياً لها فالفصل كالناطق أو أعم منها، فالجنس كالحيوان.

والثالث: إن خصها فالخاصة وإلا فالعرض العام، وبقية التفصيل يطلب من محله في كتب المنطق، وفيما ذكرناه كفاية للنبيه.

* * *

وكـل معلـوم بحـس وحجـى فنكره جهل قبيح في الهجا
فـإن يقـم بنفســه فجــوهــر أو لا فــذاك عــرض مفتقــر
والجسم ما ألف من جزئين فصاعدا فاترك حديث المَيْن

شرح ابن شطي

(**وكل معلوم بحس**) من الحواس الخمسة الظاهرة (و) كذا ما يدرك به (**حجى**) كإلى، هو العقل (**فنكره**)، أي: إنكاره بعدم الوثوق به (**جهل قبيح في الهجا**)، أي: في الشكل والمثل، أي: قبيح في العادة المستمرة ومردود عند ذوي الهجا المجيدين في التبحر عن حقائق الأشياء.

قال ابن حمدان: كل مؤدٍ إلى حقيقة ثابتة تعلم عقلاً أو حساً فإنكاره سفسطة انتهى. والسوفسطائية أنكروا كلاً من الحسيات والبديهيات فقالوا نحن شاكون وشاكون في أنا شاكون، وهؤلاء ثلاث فرق: عنادية، وعندية، ولا أدرية.

تـنـبـيـه: اعلم أن العلم منه ما هو ضروري ومنه ما هو كسبي، فالضروري ما يلزم نفس المخلوق لزوماً لا يجد إلى الانفكاك عنه سبيلاً كالتصديق بأن الكل أعظم من الجزء وأن الواحد نصف الاثنين، وأن العلم البديهي أخص من الضروري لأن البديهي هو ما يثبته مجرد العقل من غير احتياج إلى شيء آخر، ويمكن الاحتياج في الضروريات إلى شيء آخر غير العقل كوجدان أو تجربة أو غيرهما، وأما الكسبـي فهو مقابل للضروري وهو النظري والاستدلالي وهو ما يتضمنه النظر الصحيح.

ثم إن الإدراك لماهية الشيء بلا حكم عليها بنفي أو إثبات: تصور، وتصور ماهية الشيء مع الحكم عليها بإيجاب أو سلب: تصديق.

ثم إن كل شيء لا يخلو إما أن يقوم بنفسه أو لا، (**فإن يقم**) ذلك الشيء (**بنفسه**)، أي: بذاته، ومعنى قيامه بذاته عند المتكلمين أن يتحيز بنفسه غير تابع تحيزه لتحيز شيء آخر، فلا يخلو القائم بنفسه من أحد أمرين: إما أن يكون مركباً من جزئين فصاعداً وهو الجسم كما يأتي، أو غير مركب.

فإن قام بنفسه وكان غير مركب (**فجوهر**)، والجوهر هو العين الذي لا يقبل الانقسام وهو الجزء الذي لا يتجزأ.

(**أو لا**) يقوم بنفسه بل بغيره (**فذاك**) الذي لا يقوم بنفسه بل لا بد أن يكون قائماً بغيره تابعاً له في التحيز أو مختصاً به اختصاص النعت بالمنعوت فهو (**عرض مفتقر**) إلى محل يقوم به.

(**والجسم ما**)، أي: شيء أو الذي (**ألف**)، أي: رُكب (**من جزءين فصاعداً**)، أي: أكثر (**فاترك حديث**)، أي: كلام (**المين**)، أي: الكذب، وأراد بهذا الرد على من زعم أنه لا يتركب من أقل من ثلاثة أجزاء لتحقق الأبعاد الثلاثة، أعني: الطول، والعرض، والعمق.

شرح ابن مانع

قوله: (**وكل معلوم بحس**)، أي: من الحواس الخمس الظاهرة التي لا شك فيها ولا آفة تعتريها. فإنكاره قبيح جداً، إذ هو مجرد مكابرة، كقولنا: الشمس مشرقة، والنار محرقة، وهل الحواس الخمس تستقل بالإدراك أو لا بد في إدراكها من العقل قولان، ويدل للأول: أن البهائم تدرك بحواسها ولا عقل لها، ويدل للثاني: أن الإنسان إذا نام وانفتحت عيناه لا يدرك شيئاً.

وذهب قوم إلى أن الحس لا يفيد يقيناً لغلطه في أمور، والرد عليهم في ذلك معلوم مشهور. (و)كذا ما يدرك بـ(ـحجى): كإلى، هو العقل. (فنكـره)، أي: إنكـاره ورده بعـدم الـوثـوق بـه. (جهـل قبيـح): متنـاهٍ فـي القبـح.

(في الهجا)، أي: في الشكل والمثل، يقال: هذا على هجا هذا، أي: علـى شكلـه، أي: قبيـح فـي العـادة المستمـرة ومـردود عنـد أهـل التحقيق.

قال العلامة نجم الدين ابن حمدان في نهاية المبتدئين: كل مؤد إلى حقيقة ثابتة تعلم عقلاً أو حساً، فإنكاره سفسطة[1]. انتهى.

(فإن يقم) ذلك الشيء (بنفسه) أي: بذاته، ومعنى قيامه بذاته عند المتكلمين أن يتحيز بنفسه غير تابع تحيزه لتحيز شيء آخر.

وعند الفلاسفة: معنى قيام الشيء بذاته استغناؤه عن محل يقومه، فلا يخلو القائم بنفسه من أحد أمرين: إما أن يكون مركباً من جزئين فصاعداً ــ وهو الجسم كما يأتي الكلام عليه ــ أو غير مركب.

فإن قام بنفسه وكان غير مركب من جزئين (فـ)ـهو (جوهر)، والجوهر: ما شغل حيزاً وقام بنفسه وحمل بعض الأعراض، ولم يقبل انقساماً لا فعلاً ولا وهماً ولا فرضاً، وهو الجزء الذي لا يتجزأ.

وعنـد الفـلاسفـة: لا وجـود للجـوهـر الفـرد، أي: الجـزء الـذي لا يتجزأ. ووافقهم كثير من المحققين كما تقدم في الباب الأول.

---

(١) السوفسطائية: هي من أنكر كل من الحسيات والبديهيات. (هـ).

وزعمت الفلاسفة أن الجسم متركب من الهيولى والصورة (**أو لا**) يقوم بنفسه. (**فذاك**) الذي لا يقوم بنفسه (**عرض مفتقر**) إلى محل يقوم به ويحمله.

قلت: تقسيم المعلوم[1] إلى جوهر وعرض، هو ما عليه أكثر الفلاسفة، وقد أثبت بعضهم قسماً ثالثاً ليس بجوهر ولا عرض، وسموه بالجوهر المجرد لتجرده عن المادة وعلائقها، وجعلوا منه العقول العشرة. وأيضاً تقسيم المعلوم إلى جوهر وعرض، إنما المراد به المعلوم الحادث. والأعراض تسعة والجوهر واحد، ويسمى المجموع المقولات العشر. وقد نظمها بعضهم بقوله:

زيد الطويل الأرزق ابن مالك   في بيته بالأمس كان متكى
بيده غصن لواه فالتوى   فهذه عشر مقولات سوى

فزيد: إشارة إلى مقولة الجوهر. والطويل: لمقولة الكم. والأرزق: لمقولة الكيف. وابن مالك: لمقولة الإضافة. وفي بيته: لمقولة الأين. وبالأمس: لمقولة المتى. وكان متكى: لمقولة الوضع. وبيده غصن: لمقولة الملك. ولواه: لمقولة الفعل. فالتوى: لمقولة الانفعال.

والثلاثة الأول: أمور وجودية عند المتكلمين والحكماء، والسبعة الأخيرة من الأمور الوجودية عند الحكماء، ومن النسب والإضافات عند المتكلمين، وتحقيق ذلك يعلم من كتب الحكمة.

(**والجسم ما**)، أي: شيء. أو الذي (**ألف**)، أي: ركب (**من** . .

---

(١) المراد به: المعلوم الحادث. (هـ).

جزئين[1]. **فصاعداً**)، أي: أكثر. يعني: ذاهباً إلى جهة الصعود والارتفاع عن اثنين، فيكون أقل ما يتركب من جزئين، ولا حد للكثرة.

(**فاترك حديث**)، أي: كلام (**المين**)، أي: الكذب. وأراد بهذا الرد على من قال: إنه لا يتركب من أقل من ثلاثة[2]، وعلى من قال: إنه لا يتركب من أقل من ثمانية، وعلى النظام القائل: إن الجسم مؤلف من أعراض اجتمعت.

* * *

(١) أي الطول والعرض. (هـ).

(٢) أي الطول والعرض والعمق. (هـ).

وَمُستَحِيلُ الذَّاتِ غَيرُ مُمكِنِ وَضِدُّهُ ما جازَ فَاسمَع زَكَنِي
وَالضِّـدُّ والخـلافُ وَالنَّقِيـضُ وَالمِثْـلُ والغَيـرَان مُسْتَفِيـضُ
وَكُـلُّ هـذا عِلْمُـهُ مُحَقَّـقُ فلـم نُطِـلْ بِـهِ وَلَـمْ نُنَمِـقُ

شرح ابن شطي

(ومستحيل الذات غير ممكن)، أي: المستحيل لذاته غير ممكن ولا مقدور، (وضده ما)، أي: الذي (جاز) وجوده وعدمه وتقدم الكلام عليه (فاسمع زكني)، أي: علمي وفهمي.

(والضد)، يعني: مع ضده فالضدان هما ما امتنع اجتماعهما في محل واحد في زمن واحد كالسواد والبياض والحركة والسكون، إذ الشيء الواحد لا يكون أسود أبيض في زمن واحد، ولا يكون ساكناً متحركاً في زمن واحد ويمكن ارتفاع الضدين مع بقاء المحل لا أسود ولا أبيض.

(والخلاف)، أي: الخلافان يجتمعان ويرتفعان كالحركة والبياض في الجسم الواحد (والنقيضـ)ـان لا يجتمعان ولا يرتفعان كالوجود والعدم المضافين إلى معين واحد.

(والمثلـ)ـان ما قام أحدهما مقام الآخر وسده مسده وعمل عمله. والجواهر متماثلة، وقيل هما اللذان يشتركان في الصفة اللازمة فهما لا يجتمعان ويرتفعان لتساوي الحقيقة كبياض وبياض.

(والغيران) هما المختلفان، وكل علم ذلك معلوم عند أهل هذا الفن وعند المناطقة (مستفيض).

(وكل هذا) المذكور (علمه) مشهور عند أرباب الفن (محقق فلم نطل به)، أي: بذكره (ولم ننمق) من التنميق وهو التحسين.

قوله: (ومستحيل الذات غير ممكن)، أي: المستحيل لذاته غير ممكن ولا مقدور، إذ لو تعلقت به القدرة لصار ممكناً؛ لأنها لا تتعلق إلاَّ بالممكنات كما سبق.

(وضده)، أي: ضد المستحيل. (ما)، أي: الذي (جاز) وجوده وعدمه.

فالحاصل أن الواجب ما لا يتصور في العقل عدمه، والمستحيل ما لا يتصور في العقل وجوده، والممكن ما جاز وجوده وعدمه ـ يعني قبل إيجاده ـ وتقدم الكلام على ذلك في الباب الأول.

(فاسمع زكني)، أي: علمي. قال في القاموس: زكنه كفرح وأزكنه علمه، وفهمه، وتفرسه، وظنه، أو الزكن ظن بمنزلة اليقين عندك.

(والضد). يعني: مع ضده، فالضدان هما ما امتنع اجتماعهما في محل واحد في زمن واحد كالسواد والبياض، والحركة والسكون.

(والخلاف)، أي: الخلافان يجتمعان ويرتفعان، كالحركة والبياض في الجسم الواحد.

(والنقيضـ)ـان لا يجتمعان ولا يرتفعان، كالوجود والعدم المضافين إلى معين واحد.

(والمثلـ)ـان: ما قام أحدهما مقام الآخر وسد مسده، كبياض وبياض.

وأما المتشابهان: فهما اللذان يتقاربان إما في الصورة، وإما في

المعنى، وإما في السبب الذي تعلق به وجودهما، ونحو ذلك مما تقع به المشابهة.

(والغيران): هما المختلفان. وقيل: هما الموجودان اللذان يمكن أن يفارق أحدهما الآخر بوجه.

وكل علم ذلك محقق عند أهل هذا الفن، وعند المناطقة **(مستفيض)** استفاضة ظاهرة لا تخفى على أحد له اعتناء بتحصيل هذه العلوم العقلية، وما ذكره الناظم في هذين البيتين هو بعض ما ذكره ابن حمدان في آخر النهاية، ونذكره هنا نقلاً عن مختصر النهاية المسمى: قلائد العقيان للعلامة البلباني قال رحمه الله:

فصل

المعلومات: إما نقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، وخلافان يجتمعان ويرتفعان، أو ضدان لا يجتمعان ويرتفعان لاختلاف الحقيقة، أو مثلان لا يجتمعان ويرتفعان لتساوي الحقيقة، وكل شيئين حقيقتاهما إما متساويتان يلزم من وجود كل وجود الأخرى وعكسه، أو متباينتان لا يجتمعان في محل واحد، أو إحداهما أعم مطلقاً، والأخرى أخص مطلقاً توجد إحداهما من وجود كل أفراد الأخرى بلا عكس، أو إحداهما أعم من وجه والأخرى أخص من وجه توجد كل مع الأخرى وبدونها. انتهى.

ولم يذكر الغيرين اكتفاء بذكر الخلافين، وقد يتعذر ارتفاع الخلافين لخصوص حقيقة كونها خلافين، كذات واجب الوجود ــ تعالى وقدس مع صفاته ــ وقد يتعذر افتراقهما كالخمسة مع الفردية، والجوهر مع الألوان ونحو هذا وهو كثير، لكن لا تنافي بين إمكان الافتراق والارتفاع بالنسبة

إلى الذات، وتعذر الارتفاع بالنسبة إلى أمر خارجي عنها، وهذا الذي ذكرناه كله بالنسبة إلى ممكن الوجود.

أما الله تعالى وصفاته، فلا يقال بإمكان رفع شيء منها لتعذر رفعه بسبب وجوب وجوده.

(**وكل هذا**) المذكور وأضعافه مما لم يذكر (**علمه**) مشهور عند المحصلين (**محقق**)، وحيث كان كذلك فلنقتصر على هذا المقدار الذي ذكرناه.

(**فلم تطل به**)، أي: بذكره. (**ولم ننمق**): من التنميق وهو التحسين والتزيين، إذ المقصود: إنما هو ذكر أمهات مسائل العقائد السلفية، وقد ذكر الناظم منها ما يُروي الغليل، ويشفي العليل رحمه الله تعالى.

ثم ختم أرجوزته بحمد الله تعالى، كما بداها به إلاَّ أن بين الحمدين فرقاً.

فالأول: حمد لذات الله تعالى وجميل صفاته.

والثاني: حمد لمقابلة النعمة العظيمة التي هي الإعانة على إكمال ما أراده فقال:

* * *

وَالحَمْدُ[1] لِلَّـهِ عَلَى التَّوفِيقِ لِمَنْهـجِ الحَق عَلـى التّحقيق
مُسَلِّمـاً لِمُقْتَضَـى الحَـدِيـثِ وَالنَّصِ فِي القَدِيمِ وَالْحَدِيثِ
لا أَعتَنِـي بِغَيْـرِ قَـوْلِ السَّلـفِ مُـــوافِـق أئِمَّتِـــي وَسَلَفِـــي
وَلَســـتُ فِـــي قـــولـــي بـــذا مُقَلِّـــدا
إلاّ النَّبِـــيَّ المُصْطَفَـــى مُبْـــدِي الهُـــدَى

شرح ابن شيطي

ثم حمدنا الله تعالى عوداً على بدء فقلنا:

(**فالحمد لله على التوفيق**) وهذا حمد في مقابلة نعمة التأهيل لهذا الفضل الجزيل.

قال المحقق: التوفيق هو إرادة الله تعالى من نفسه أن يفعل بعبده ما يصلح به العبد بأن يجعله قادراً على فعل ما يرضيه مريداً له محباً له مؤثراً له على غيره ويبغض إليه ما يسخطه ويكرهه. وهذا مجرد فعله تعالى والعبد محل له.

وقوله: (**لمنهج الحق على التحقيق**) متعلق بالتوفيق، والمنهج الطريق الواضح، والحق هو الحكم المطابق للواقع، والتحقيق إيقاع الأشياء في محالها وردها إلى حقائقها.

وقوله: (**مسلماً**) حال من معمول التوفيق، أي: الحمد لله على توفيقي لمنهج الحق حال كوني مسلماً (**لمقتضى الحديث**)، أي: لما يقتضيه الحديث الصحيح النبوي (**والنص**) الصريح القرآني. وقدم الحديث

(١) كذا في (أ)، وما في (ج) فالحمد.

لمراعاة القافية سواء أدركنا معناه بعقولنا أو لم ندركه وهذا هو الحق الواجب على كل مسلم.

وقوله: (**في القديم والحديث**) يحتمل معنيين كلاهما مراد.

أحدهما: راجع إلى الناظم وهو أن هذا عقيدتي واعتمادي التسليم والانقياد على مقتضى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية. وهذا في أول زمان وجود إدراك فهمي ولم ينفك عن هذا عقد لبي، فقديم زمني وحديثه على ذلك.

الثاني: أن مبني علمي وحقيقة حجتي إنما هو النص القرآني والخبر النبوي وما أجمع عليه السلف سواء في ذلك الأحكام المتعلقة بالعبادات ونحوها من المعاملات، أو الإخبار عن البرزخ والمعاد ونحوه مما يتعلق بالحادث والحوادث، أو كان مما يتعلق بالقديم الديان، من الذات والصفات والقرآن، حسبما برهنّا على ذلك في شرحنا هذا.

(**لا أعتني بغير قول السلف**)، أي: لا أعول حال كوني (**موافقاً أئمتي**) من أهل الأثر (**وسلفي**) في ذلك من كل همام معتبر.

(**ولست في قولي بذا**)، أي: بما أشرت إليه (**مقلداً**) لهم في اعتقادي بل نظرت كما نظروا فليس لي في كل سيري مقلداً ومعتمداً (**إلاَّ النبي المصطفى**) من سائر العالم (**مبدي**)، أي: مظهر (**الهدى**) بالدلائل الواضحة ومرشد العالم.

شرح ابن مانع

قوله: (**والحمد لله على التوفيق**). تقدم في أول الكتاب معنى الحمد، والفرق بينه وبين الشكر والتوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، والخذلان ضده، وهو أن يخلي بينك وبينها.

(لمنهج)، أي: طريق (الحق) الذي هو الحكم المطابق للواقع.

(على التحقيق): وهو إيقاع الأشياء في محالها وردها إلى حقائقها (مسلماً) حال من معمول التوفيق، أي: الحمد لله على توفيقي لمنهج الحق حال كوني مسلماً. (لمقتضى الحديث)، أي: لما يقتضيه الحديث الصحيح الثابت عن النبي ﷺ، وأما الأحاديث الضعيفة إما لضعف رواتها أو جهالتهم أو لعلة فيها، فلا يجوز أن يقال بها ولا اعتقاد ما فيها، بل وجودها كعدمها كما صرح بذلك الإمام الموفق وغيره.

(والنص) الصريح، أي: القرآني، وقد قدم الحديث مراعاةً للقافية، وفي نسخة كالنص فحينئذٍ النص هو المقدم.

(في القديم والحديث). يعني: أن هذا معتقده في أول أمره وآخره، فهو ــ رحمه الله ــ من أول نشأته سلفي الاعتقاد معتصم بحبل الله قولاً وعملاً واعتقاداً. (لا أعتني)، أي: لا أعول ولا يهمني ولا يعنيني، ولا أقول (بغير قول السلف) وهم: النبي ﷺ وأصحابه، وأفضل الأصحاب: الخلفاء الراشدون الذين حض ﷺ على اتباعهم بقوله: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة».

ومن السلف: الأئمة المجتهدون الذين يقولون الحق، وبه كانوا يعدلون، ثم من تبعهم بإحسان وقفى أثرهم عاملاً بطريقتهم إلى آخر الزمان، لم يغير ولم يبدل ما كانوا يقولون ويعتقدون، وهؤلاء هم الذين أراد عليه الصلاة والسلام بقوله: «ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

قال الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله سره ــ في الفتوى

الحموية: بعد كلام مهم مفيد، ولا يجوز أن يكون الخالفون أعلم من السالفين، كما يقوله بعض الأغبياء ممن لا يعرف قدر السلف، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها من أن طريقة السلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم، فإن هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلالة.

كيف يكون هؤلاء المتأخرون؟ لا سيما والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابهم، وغلظ عن معرفة الله حجابهم وأخبر الواقف على نهاية أقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم حيث يقول:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلاَّ واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

وقال: فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة، ومن حذا حذوهم على طريقة السلف، إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾.

وإن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات، وغرائب اللغات، فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالات التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر، وقد كذبوا على طريقة السلف وضلوا في تصويب طريقة الخلف، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف.

قلت: وبهذا الكلام تعلم خطأ من قال: إن مذهب السلف هو تفويض المعنى المراد من الآيات والأحاديث الدالة على الصفات الإلـٰهية، مع تنزيهه سبحانه وتعالى عن الجارحة. وهذا هو التأويل الإجمالي.

ويُنشد على ذلك بيت اللقاني:

وكـــل نـــص أوهـــم التشبيهـــا　　أوّلـــه أو فـــوّض ورم تنـــزيهـــا

فقد برأ الله تعالى السلف من هذين القولين اللذينِ لم يقم عليهما دليل، وإنما قام على خلافهما.

وأما قوله مع تنزيهه تعالى عن الجارحة فهو حق لا ينازع فيه مسلم، وقد دل عليه القرآن قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾. فمذهب السلف إنما هو الإثبات لا التفويض الذي هو أول درجات التعطيل. وقد قال الناظم فيما سبق:

فعقـــدنـــا الإثبـــات يـــا خليلـــي　　مـــن غيـــر تعطيـــل ولا تمثيـــل

وهذا هو معنى كلام الإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ حيث قال في جواب من سأله عن الاستواء: الاستواء معلوم والكيف مجهول، فلو كان مذهب السلف التفويض لكان الاستواء مجهولاً لا معلوماً، كما قاله إمام دار الهجرة، وما أحسن ما قيل:

فيا لك من آيات حق لو اهتدى　　بهـن مـريـد الحـق كـن هـواديـا

ولكـن علـى تلـك القلـوب أكنـة　　فليست وإن أصغت تجيب المناديا

قـال شيـخ الإسـلام ابـن تيميـة ـ رحمـه الله تعـالـى ـ في الفتـاوى الحموية: وكانت النتيجة استجهال السابقين الأولين واستبلاههم، واعتقاد أنهم كانوا أميين بمنزلة الصالحين من العامة، لم يتبحروا في حقائق العلم

بالله، ولم يتفطنوا لدقائق العلم الإلـهي، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله، ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلالة.

ثم أطال شيخ الإسلام الكلام بما يملأ القلب نوراً وإيماناً كعادته رضي الله عنه.

فالحاصل أن الناظم من أول نشأته سلفي الاعتقاد، كما قال (**موافقاً أئِمتي**) من أهل الأثر، (**وسلفي**) في ذلك من كل إمام همام.

قوله: (**ولست في قولي بذا**)، أي: بما أشرت إليه من اقتفاء الأئمة (**مقلداً**) لهم في اعتقادي من غير نظر في الدليل، بل نظرت كما نظروا وسبرت كما سبروا.

قلت: وهذه طريقة العلماء والفضلاء يتتبعون الأدلة، ويتعرفون مآخذ العلماء، سواء في ذلك ما يتعلق بالاعتقاد أو العمل، وبحثهم عن الدليل لم يخرجهم عن كونهم مقلدين، بل هم بأنفسهم يعترفون بالتقليد للأئمة المجتهدين ــ رضي الله تعالى عنهم ــ في المسائل الفرعية.

وأما الأمور الاعتقادية فلا يجوز فيها تقليد أحد (**إلَّا النبي المصطفى**) من سائر العالم.

(**مبدي**)، أي: مظهر (**الهدى**) بالدلائل الواضحة.

* * *

صلَّى عَلَيه اللَّـهُ مَا قَطرٌ نَزَل وَمَـا تَعَـانَـا ذكـرُه مِـنَ الأزل
وَمَا انْجَلَى بِهَدْيِهِ الدَّيجُورُ وَرَاقَـتْ الأوقَـاتُ وَالـدُّهُـورُ
وآلـه وَصَحْبِـهِ أهْـلِ الـوَفَـا مَعَادِنِ التَّقْوَى وَيَنْبُوعِ الصَّفَا
وَتـابِـعٍ وتَـابِـعٍ لِلتَّـابِـعِ خَيْر الوَرَى حقًّا بِنَصّ الشَّارِعِ

شرح ابن شيطي

(صلى عليه الله ما قطر نزل)، أي: مدة دوام نزول الأمطار، والقطر هو الماء، والنزول وكفه من العلو.

(وما تعاني) المعتنون (ذكره من الأزل) في الأعصار الخالية.

(وما انجلى)، أي: تفرق وزال وانكشف (بهديه) الناصع ونور شرعه المشرق اللامع (الديجور)، أي: الظلام، أي: مدة دوام انجلاء ظلم الشرك وسواد الإفك وغبار البدع بمنار هديه ونور شرعه.

(و) ما بهديه ﷺ (راقت)، أي: صفت (الأوقات) جمع وقت وهو المقدار من الدهر، (و) ما راقت (الدهور) جمع دهر وهو الزمان الطويل.

(و) صلى الله على (آله)، أي: أتباعه على دينه (وصحبه) وفي قوله: (أهل الوفا) إشارة إلى أنهم فعلوا ما أمروا ووفوا بما عاهدوا الله ورسوله عليه وقوله: (معادن التقوى) يصح جره على التبعية لما قبله ونصبه بفعل محذوف تقديره امدح ونحوه، ورفعه خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم.

(وينبوع الصفا) معطوف على معادن، والينبوع بفتح التحتية: عين الماء والصفاء ضد الكدر.

(و) على (تابع) لهم بإحسان (وتابع للتابع) على نهج الاستقامة والإتقان.

وهؤلاء القرون الثلاثة (خير الورى)، أي: من هذه الأمة حق ذلك (حقاً بنص الشارع)، يعني: النبي ﷺ.

شرح ابن مانع

(صلى عليه الله) تعالى (ما قطر نزل)، أي: مدة دوام نزول الأمطار، (و)صلى وسلم عليه (ما تعانى) المعتنون (ذكره من الأزل) في الأعصار الخالية، فإنه لم يخل زمان من ذكره والتنويه بشرعه ومبعثه، إلى أن جاء إبَّانُ رسالته، فظهرت شمس نبوته على سائر كواكب النبوات فانخسفت، وبهرت رسالته سائر المقالات فانطمست.

(و)صلّى الله وسلم عليه (ما انجلى)، أي: تفرق وزال وانكشف (بهديه) المشرق اللامع. (الديجور)، أي: الظلمة، (و)ما بهديه عليه الصلاة والسلام (راقت)، أي: صفت. (الأوقات): جمع وقت وهو المقدار من الدهر، وأكثر ما يستعمل في الماضي (و)ما راقت (الدهور): جمع دهر، وهو الزمان الطويل والأمد الممدود.

قوله: (وآله)، أي: وصلّى الله وسلم على آل النبي المصطفى، أي: أتباعه على دينه كما هو اختيار الإمام أحمد في مقام الدعاء. وقيل: أقاربه الأدنون من بني هاشم وبني المطلب، وهو اختيار الإمام الشافعي (وصحبه)، وهم كل من اجتمع بالنبي ﷺ مؤمناً به ومات على الإيمان. وقد تقدم تعريف الصحب والآل في أول الكتاب.

(أهل)، أي: أصحاب. (الوفا)، أي: الوافين بما أُمروا به.

(معادن التقوى): المعادن جمع معدن ــ بكسر الدال ــ قال الأزهري: سمي معدناً لعدون ما أنبته الله فيه، أي: لإقامته فيه ــ وأحرى

خلق الله تعالى بإقامة التقوى فيهم بعد أنبياء الله ورسله، هم أصحاب رسوله ﷺ ورضي عنهم.

والتقوى، التحرز بطاعة الله تعالى عن مخالفته وامتثال أمره واجتناب نهيه، وقد تقدم تعريفها بأبسط من هذا.

(**وينبوع الصفا**): الينبوع ـ بفتح التحتية، وسكون النون، وضم الموحدة، وبعدها واو ساكنة، فعين مهملة، عين الماء أو الجدول الكثير الماء، كما في القاموس. والصفا. ضد الكدر.

فالصحابة الكرام ينبوع كل خالص من الكدر، نقي من غبار البدع، فمن ورد موردهم شرب زلالاً صافياً، ومن زل عن نهجهم شرب ملحاً أجاجاً قذراً، وصلى الله تعالى (و)سلم على (**تابع**) لهم بإحسان، (**وتابع للتابع**) على نهج الاستقامة والإتقان.

وهؤلاء القرون الثلاثة. (**خير الورى**)، أي: الخلق، والمراد: أنهم أفضل هذه الأمة. (**حقاً**): مصدر منصوب بفعل محذوف تقديره أحق ذلك حقاً (**بنص الشارع**)، يعني: النبي صلوات الله وسلامه عليه. وقد تقدم أنه ﷺ قال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

قال عمران بن حصين: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة. رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: «خير أمتي القرن الذي بعثت فيه». ولهذا المعنى قال:

* * *

وَرَحْمَـةُ الله مَـعَ الـرِّضْـوَانِ والبـرِّ والتَّكْـرِيـم والإحْسَـانِ
تُهدَى مَعَ التَّبْجِيْلِ والإِنْعَامِ منّي لِمَثْوَى عِصْمَةِ الإِسْلاَمِ
أئمّـةُ الـدِّيْـن هُـداةِ الأُمَّـةِ أَهْلِ التُّقَى مِنْ سَائِرِ الأَئِمَّةِ

شرح ابن شطي

ولهذا المعنى قال (ورحمة لله) تعالى (مع الرضوان) من الله تعالى (والبر) الإحسان (والتكريم) لهم من فضله العميم (والإحسان) إليهم من الله تعالى لأنهم أحسنوا عملاً، (تهدى) بضم المثناة الفوقية على صيغة ما لم يسم فاعله، أي: هذه الأمور التي هي الرحمة والرضوان والبر والتكريم والإحسان (مع التبجيل)، أي: التعظيم (والإنعام) من الملك المنعم (مني)، أي: بأن أسأل الله تبارك وتعالى أن يفعل جميع ذلك بمنه وكرمه (لمثوى)، أي: منزل ومقام (عصمة) أهل (الإسلام) والعصمة المنعة وعلى كل حال إنما عصمة هذا الدين بعد الصحابة والتابعين كان بهؤلاء الأئمة المجتهدين.

ومن ثم قال (أئمة) أهل هذا (الدين) المتين (هداة الأمة)، أي: الدالين الأمة على نهج الرسول، ولست أخص بهذا الوصف والدعاء أحداً دون أحد، بل أسأل الله تعالى ذلك لهم جميعاً لأنهم هم (أهل التقى من سائر)، أي: جميع (الأئمة) المقتدى بأقوالهم وأفعالهم من كل إمام همام كالأئمة المتبوعة الآتي ذكرهم وغيرهم فإنهم وإن تباينت أقوالهم واختلفت آراؤهم من جهة الفروع الفقهية فالجميع سلفية أثرية.

شرح ابن مانع

قوله: (ورحمة الله) تعالى (مع الرضوان)، أي: من الله تعالى.

(والبـر)، أي: الشفقـة والإحسـان (والتكـريـم) لهـم مـن فضلـه العميـم، (والإحسان) إليهم من الله تعالى؛ لأنهم أحسنوا عملاً، وأخلصوا قولاً وفعـلاً، فيجـازيهـم بـالإحسـان لقـولـه تعـالـى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾.

(تهدى) ـ بضم المثناة ـ أي: هذه الأمور. (مع التبجيل)، أي: التعظيم (والإنعام) من الملك المنعم المهيمن السلام.

(منـي)، أي: بـأن أسـأل الله تعـالـى أن يفعـل ذلـك بمنـه وكـرمـه. (لمثوى)، أي: منزل، ومقام (عصمة) أهل (الإسلام) من البدع المضلة، والعصمة: المنعة، والعاصم المانع. والاعتصام: الاستمساك بالشيء.

(أئمة) أهل هذا (الدين) المتين (هداة الأمة [أهل التقى من سائر الأئمة][1]) لدلالتهم إياها على نهج الرسول، وكشفهم لهم عن معاني الكتاب والسنة.

* * *

(١) ما بين المعكوفتين سقط من (هـ)، وأثبته كما في (أ).

لا سيّمـــا أحمَـــدُ وَالنُّعْمَـــانُ ومَـــالِـــكُ مُحمـــدُ الصَّنْـــوَانُ

من لازم لكُلِّ أرْبَابِ العَمَل تَقْلِيدُ[1] حَبرٍ مِنْهُم فاسْمَع تَخَلْ

وَمَنْ نَحَا لِسُبلِهِم مِنَ الْوَرَى مَا دَارَتْ الأفلاكُ أو نَجْمٌ سَرَى

شرح ابن شطي

ثم بعد أن عمم خص الأئمة الأربعة فقال:

(لا سيما) هذه الكلمة مبنية على دخول ما بعدها فيما قبلها بالأولى فكل ما نسب لمن قبلها من الثناء والدعاء فمن بعدها كذلك وأولى بذلك، ويجوز في الاسم الذي بعدها الجر والرفع مطلقاً، وكذا النصب إذا كان نكرة.

---

(١) قال شيخنا محمد الجراح رحمه الله، قال الشيخ العلجي رحمه الله في لزوم التقليد مؤيداً لصاحب النظم.

قلت: وإليك كلام الشيخ العلامة مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي رحمه الله في عدم الاعتراض على الأئمة:

ذكر العلامة الشيخ مرعي بن يوسف الحنبلي في كتابه تحقيق الرجحان بصوم يوم الشك من رمضان بعد الخاتمة رأيهُ في تقليد الأئمة وعدم الاعتراض عليهم بقوله: «العاقل من ترك الاعتراض على الأئمة لأنهم قد مهدوا مذاهبهم ونقحوا أدلتهم واستنبطوا الأحكام من الكتاب والسنّة بعد بذل الجهد مع ذكاء القرائح، ورب دليل مرجوح عند مجتهد راجح عند آخر ورب حديث صحيح عند قوم ضعيف عند آخرين، والموجب لاجتهاد الأئمة أو مخالفة بعضهم بعضاً إنما هو تعارض الأدلة وورود الأحاديث من طرق مختلفة بمعان مختلفة، فالسعيد من سلم وقلد ما شاء ولم يتكلم لا سيما وقد قرر الأئمة على أحد القولين أن كل مجتهد مصيب وإن المذاهب كلها صواب ورجح كثير من العلماء القول بأن كل مجتهد مصيب =

الإمام (**أحمد**) بن محمد بن حنبل وتقدمت ترجمته.

(و) الإمام الأعظم والحبر المعظم أبـي حنيفة (**النعمان**) بن ثابت الكوفـي إمـام أهـل العـراق وفقيههـم بـالاتفـاق مـن أبنـاء فـارس وهـو مـن التابعين، فإنه رأى أنس بن مالك وأبا الطفيل رضي الله تعالى عنهما، وروى عن حماد والزهري وقتادة وخلق، وروى عنه ابنه حماد وأبو يوسف ومحمد بن الحسن ووكيع وعبد الرزاق.

= وأن حكم الله تعالى في كل واقعة تابع لظن المجتهد وهو أحد القولين للأئمة الأربعة ورجحه القاضي أبو بكر، وقال الأظهر من كلام الشافعي والأشبه بمذهبه ومذهب أمثاله من العلماء القول بأن كل مجتهد مصيب، وقال به ابن سريج والقاضي أبو حامد وأكثر العراقيين ومن الحنفية أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وأبو زيد الدبوسي. قال العلامة المازري أن قول من قال أن الحق في طرفين كقوله أهل التحقيق من العلماء والمتكلمين وهو مروي عن الأئمة الأربعة وإن حكى عن اختلاف فيها. قال القاضي عياض القول بتصويب المجتهدين هو الحق والصواب عندنا والله الموفق. والموفق من تدبر ما قررناه وعذر الأئمة في تعارض الأدلة وترك التعصب وحميهة الجاهلية وترك الوقوع في أعراض العلماء رحمهم الله تعالى. فقد قال الحافظ ابن عساكر: لحوم العلماء مسمومة وهتك أستار منتقصيهم معلومة، وقال أيضاً: لحوم العلماء سم من شمها مرض ومن ذاقها مات».

ومن شاء الاستزادة في هذا الموضوع فعليه الرجوع إلى كتاب الشيخ العلامة مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي المسمى: تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين. والكتاب لم يطبع وتوجد منه نسختان مخطوطتان الأولى في مكتبة دار الكتب المصرية في القاهرة، والثانية في المكتبة الظاهرية بدمشق.

ونسأل الله أن يقيض له من يخرجه لتعم الفائدة، والله أعلم.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة، وكان يحيي الليل صلاة ودعاء وتضرعاً، ولد رضي الله تعالى عنه سنة ثمانين ومات سنة مائة وخمسين.

(و) الإمام أبي عبد الله (مالك) بالجر والتنوين وهو الإمام الكبير أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي المدني شيخ الأئمة وإمام دار الهجرة، روى عن جماعة من التابعين، وعنه الإمام الشافعي وخلق. قال الإمام الشافعي: إذا جاء الأثر فمالك النجم. مات في المدينة سنة تسع وسبعين ومائة وهو ابن تسعين سنة رضي الله تعالى عنه ودفن في البقيع.

والإمام أبي عبد الله (محمد) معطوف على ما قبله سقط حرف العطف لإقامة الوزن، ابن إدريس المطلبي الشافعي رضي الله تعالى عنه.

وقوله: (الصنوان)، أي: القرابة للنبي ﷺ فهو إمام الأئمة وقدوة الأمة ولد بغزة هاشم سنة خمسين ومائة وحمل إلى مكة المشرفة وهو ابن سنتين وكان رضي الله تعالى عنه جم المفاخر منقطع النظير اجتمعت فيه من العلوم ما لم يجتمع في غيره.

قال أحمد: كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن.

توفي رضي الله تعالى عنه في شهر رجب سنة أربع ومائتين ودفن بعد العصر من يومه بالقرافة الصغرى وقبره مشهور يزار ويتبرك به. ثم أشار إلى أنه يجب على كل أحد من هذه الملة ممن له عمل وتقوى أن يقلّد واحداً من هؤلاء الأربعة على الأصح الأقوى فقال:

(من)، أي: الذين هم فهي مبتدأ خبره فرض (لازم) لا انفكاك عنه (لكل) واحد مكلف من (أرباب)، أي: أصحاب (العمل) الصالح ممن

ليس فيه أهلية الاجتهاد المطلق، **(تقليد حبر منهم)**، أي: من الأئمة الأربعة المعلومة مذاهبهم.

والحبر بفتح الحاء وكسرها وسكون الموحدة العالم المتقن.

وقوله: **(فاسمع تخل)**، أي: فاسمع نظامي وما أشرت إليه، وقوله: تخل، أي: تظن وتعلم ذلك.

(و) رحمة الله تعالى مع البر والإحسان والعفو والغفران تهدى لـ **(من)**، أي: إنسان **(نحا)** قصد متبعاً **(لسبلهم)** ككتب جمع سبيل، وهو الطريق الواضح.

كما أنه خص الأئمة الأربعة بعد عموم الأئمة دعاء لمن تبعهم أو تبع واحداً منهم **(من)** سائر **(الورى)** الخلق **(ما دارت)**، أي مدة دوران **(الأفلاك)** جمع فلك جدار النجوم **(أو نجم سرى)**، أي: مدة دوام سري النجوم، والنجم الكوكب.

شرح ابن مانع

قوله: **(لا سيما)**. هذه الكلمة ليست من كلمات الاستثناء حقيقة، لكن ذكروها في بابه؛ لأن ما بعدها مخرج مما قبلها من حيث أولويته بالحكم مما قبله، ولا: نافية للجنس. وسيّ بمعنى مثل اسمها. وما: بمعنى الذي. فما بعدها خبر لمحذوف وجوباً لمشابهة لا سيما إلاَّ، وهي لا تقع بعدها الجملة. ولهذه المشابهة جاز حذف صدر صلة ما هنا، ولو لم تطل أو نكرة موصوفة، وخبر لا محذوف. فإذا قلتُ: جاءني القوم ولا سيما زيد، فالمعنى ولا مثل الذي أو رجل هو زيد موجود بين القوم الذين جاؤوني، أي: بل هو أخص بـي وأشد إخلاصاً في المجيء ليّ، ويجوز

جعل ما زائدة وجرّ ما بعدها بإضافة سيّ إليه وجعلها نكرة تامة ونصب ما بعدها تمييزاً لها إن كان نكرة، وكذا إن كان معرفة على مذهب من يجوز تعريف التمييز، أو مفعولاً لفعل محذوف وجوباً تقديره أعني، والواو الداخلة عليها في بعض المواضع اعتراضية، إذ لا سيما مع ما بعدها جملة مستقلة.

(أحمد): ابن محمد بن حنبل الشيباني سيدنا وإمامنا، وتقدمت ترجمته في صدر الكتاب. **(والنعمان)**: معطوف على ما قبله، وهو أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي إمام أهل العراق، وفقيههم بالاتفاق، وإمام أصحاب الرأي. وقد أثنى عليه الأئمة الكبار منهم عبد الله بن المبارك حيث قال:

لقد زان البلاد ومن عليها … إمام المسلمين أبو حنيفة

بأحكام وآثار وفقه … كآيات الزبور على صحيفة

فما في المشرقين له نظير … ولا في المغربين ولا بكوفة

يبيت مشمراً سهر الليالي … وصام نهاره لله خيفة

فمن كأبي حنيفة في علاه … إمام للخليقة والخليفة

وقد قال ابن إدريس مقالاً … صحيح النقل في حكم لطيفة

بأن الناس في فقه عيال … على فقه الإمام أبي حنيفة

وصان لسانه عن كل إفك … وما زالت جوارحه عفيفة

يعف عن المحارم والملاهي … ومرضاة الإله له وظيفة

وهو رحمه الله تعالى من أبناء فارس، ولهذا يقول بعض الفضلاء في مدحه:

يـا مـن عـلا فـي الاجتهـاد منـاره ... وبـدر مـذهبـه غـلا مقـداره
لله درك مـن إمـام أعظـم ... يُعزى إلى كسرى الملوك نجاره

ولد رضي الله عنه سنة ثمانين، وتوفي سنة مائة وخمسين رحمه الله تعالى.

(ومالك) ـ بالجر والتنوين ـ معطوف على ما قبله، وهو الإمام السالك أحسن المسالك، إمام دار الهجرة مالك بن أنس بن عامر التيمي، وكنيته أبو عبد الله.

ولد في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة أربع، وقيل سنة ثلاث وتسعين. ومناقبه جمة أفردت بالتأليف وثناء الأئمة عليه. معروف مشهور أخذ الرواية عن تسعمائة شيخ منهم ثلاثمائة من التابعين، والبقية من أتباع التابعين، ولقد أحسن الحافظ السِّلفِي إذ يقول في مدح أبـي عبد الله الإمام مالك رحمه الله:

إمام الورى في الشرع بالشرق مالك ... وبالغرب أيضاً في جميع الممالك
فمـن يـك سنيـاً وللشـرع تـابعـاً ... وللعلـم طـلابـاً عليـه بمـالـك

ولما حضرته الوفاة تشهّد، ثم قال: لله الأمر من قبل ومن بعد، فتوفي رضي الله عنه سنة تسع وسبعين ومائة بالمدينة الشريفة وعمره خمس وثمانون سنة، ودفن بالبقيع رحمه الله.

(ومحمد): معطوف على ما قبله بإسقاط حرف العطف لإقامة الوزن. **(الصنوان)**، أي: القرابة للنبـي ﷺ فهو رضي الله عنه محمد بن إدريس بن العباس المطلبـي الشافعي.

يجتمع نسبه مع رسول الله ﷺ في عبد مناف. ولد سنة خمسين

ومائة، وكان جم المفاخر، منقطع النظير، اجتمع فيه من العلوم بكتاب الله، وسنة رسوله، وأقوال الصحابة، وآثارهم وأخبارهم وغير ذلك من معرفة كلام العرب، واللغة العربية والشعر، ما لم يجتمع بغيره، حتى قرأ عليه الأصمعي مع اجتهاده بهذا الشأن أشعار الهذليين.

وقال الإمام أحمد: عرفنا ناسخ القرآن ومنسوخه لما جالسنا الشافعي.

قال الشافعي: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر.

قدم بغداد سنة خمس وتسعين ومائة. فأقام شهراً ثم خرج إلى مصر، وكان وصوله إليها سنة تسع وتسعين ومائة. قاله ابن خلكان. وكان الحميدي يقول: حدثنا سيد الفقهاء الشافعي.

توفي رحمه الله ورضي عنه بمصر سنة أربع ومائتين في شهر رجب.

قوله: (من)، أي: الذين هم فهو مبتدأ. قال الشارح: خبره فرض (لازم) لا انفكاك عنه (لكل) واحد مكلف من (أرباب)، أي: أصحاب (العمل) الصالح ممن ليس فيه أهلية الاجتهاد المطلق.

(تقليد حبر منهم)، أي: من الأئمة الأربعة.

(فاسمع) نظامي وما أشرت إليه من لزوم كل مكلف لم يبلغ رتبة الاجتهاد تقليد أحد الأئمة الأربعة.

(تخل)، أي: تظن وتعلم ذلك حقاً، وإنما قال: لكل أرباب العمل، ليحترز به عن التقليد في عقائد التوحيد من معرفة الله تعالى، ونعوت ذاته وصفاته والرسالة، وكذا في أركان الإسلام الخمسة، وجميع

المسائل العبادات: إذ لا يعبد الله إلاَّ بما شرع، فلا تقليد في شيء من ذلك، والتقليد لغة: وضع الشيء في العنق، وعرفاً: أخذ قول الغير من غير معرفة دليله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فليس المصير إلى الإجماع تقليداً؛ لأن الإجماع دليل، ولذلك يقبل قول النبي ﷺ ولا يقال: تقليد بخلاف فتيا الفقيه. وقد اختلف العلماء في جواز التقليد في المسائل الفرعية الشرعية، فذهب جماعة من أهل العلم إلى أنه لا يجوز مطلقاً.

قال الإمام الشوكاني في إرشاد الفحول: قال القرافي: مذهب مالك، وجمهور العلماء وجوب الاجتهاد، وإبطال التقليد، وادعى ابن حزم الإجماع على النهي عن التقليد.

قال ابن حزم: فههنا مالك ينهى عن التقليد، وكذا الشافعي وأبو حنيفة. وقد روى المزني عن الشافعي في أول مختصره: أنه لم يزل ينهى عن تقليده وتقليد غيره.

وقال ابن عربي في الباب الثامن والثمانين من الفتوحات والتقليد في دين الله: لا يجوز عندنا لا تقليد حي ولا ميت.

وقال في شرح الإقناع عند قول الماتن فيما يشترط في القاضي وأن يكون سميعاً بصيراً ناطقاً مجتهداً إجماعاً. ذكره ابن حزم؛ ولأنهم أجمعوا على أنه لا يحل لحاكم ولا لمفتٍ تقليد رجل لا يحكم ولا يفتى إلاَّ بقوله؛ لأن فاقد الاجتهاد إنما يحكم بالتقليد، والقاضي مأمور بالحكم بما أنزل الله؛ ولأن المفتي لا يجوز أن يكون عامياً مقلداً. فالحاكم أولى.

قال: لكن في الإفصاح: أن الإجماع انعقد على تقليد كل من

المذاهب الأربعة، وأن الحق لا يخرج عنهم. ثم ذكر أن الصحيح في هذه المسألة أن قول من قال: إنه لا يجوز إلَّا تولية مجتهد، فإنه إنما عنى به ما كانت الحال عليه قبل استقرار ما استقرت عليه هذه المذاهب.

وقال الإمام الموفق في خطبة المغني: النسبة إلى إمام في الفروع كالأئمة الأربعة ليست بمذمومة، فإن اختلافهم رحمة، واتفاقهم حجة قاطعة. وقال أيضاً في الروضة: وأما التقليد في الفروع فهو جائز إجماعاً، وذهب جماعة من العلماء إلى التفصيل، وهو أنه يجب التقليد على العامي ويحرم على المجتهد.

قال في إرشاد الفحول: وبهذا قال كثير من أتباع الأئمة الأربعة. قال: ولا يخفاك أنه إنما يعتبر في الخلاف أقوال المجتهدين وهؤلاء هم مقلدون، وليسوا ممن يعتبر خلافه، أي: لأنهم ليسوا من العلماء، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد. منهم: ابن القيم في النونية حيث قال:

وإذا دعوناكم إلى البرهان كا	ن جوابكم جهلاً بلا برهان
نحن المقلدة الأولى ألفوا كذا	آباءهم في سالف الأزمان
قلنا فكيف تكفرون وما لكم	علم بتكفير ولا إيمان
إذا أجمع العلماء أن مقلداً	للناس كالأعمى هما إخوان
والعلم معرفة الهدى بدليله	ما ذاك والتقليد مستويان

وقال في فصل عقده لبيان الاستغناء بالوحي المنزّل من السماء عن تقليد الرجال والآراء:

والعلم أقسام ثلاث ما لها	من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإلٰه وفعله	وكذلك الأسماء للرحمٰن

والأمـر والنهـي الـذي هـو دينـه وجـزائـه يـوم المعـاد الثـان

والكـل فـي القـرآن والسنـن التـي جـاءت عـن المبعـوث بـالقـرآن

والله مـا قـال امـرؤ متحـذلـق بسـواهمـا إلاَّ مـن الهـذيـان

قلت: وما ذكره صاحب الإفصاح ـ وهو عون الدين أبو المظفّر يحيى بن هبيرة ـ من أن الإجماع انعقد على تقليد كل واحد من المذاهب الأربعة، وأن الحق لا يخرج عنهم ربما يَرِدُ عليه ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله في بعض فتاويه: أما الثوري فله مذهب باقٍ إلى اليوم بأرض خراسان، انتهى.

وابـن هبيـرة متقـدم على شيـخ الإسـلام، فـإنـه تـوفـي سنـة ستيـن وخمسمائة، وشيخ الإسلام توفي سنة سبعمائة وثمان وعشرين.

إذا علم هذا، فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله، وفهم معنى ذلك أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾، الآية. وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾. ولا يخالف في هذا إلاَّ الجهّال لجهلهم بالكتاب والسنة.

قال صدر الوزراء ابن هبيرة: إنه من مكائد الشيطان أن يقيم أوثاناً في المعنى تعبد من دون الله، مثل أن يتبين له الحق فيقول: هذا ليس بمذهبنا، تقليد المعظم عنده قد قدمه على الحق.

وقد قال الإمام الشافعي كما في فتح المجيد: أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد.

قال في شرح الإقناع: وفي المبدع قال أحمد في رواية المروذي: إذا سئلت عن مسألة لم أعرف فيها خبراً، قلت فيها بقول الشافعي؛ لأنه إمام عالم من قريش. وهذا يدل على أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم، وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفها لقول إمام من الأئمة، فالواجب عليه الأخذ بالحجة كما تقدم، والله أعلم.

قوله: **(ومن نحا)**، أي: ورحمة الله تعالى لمن نحا، أي: قصد. **(لسبلهم)**: جمع سبيل، وهو الطريق الواضح، **(من)** سائر **(الورى)**، أي: الخلق. **(ما دارت الأفلاك)**، أي: مدة دوران الأفلاك. **(أو نجم سرى)**، أي: وتهدى لهم الرحمة مدة دوام سري النجم.



هَـــديــةٌ منّـــي لأربـــابِ السَّلـــف
مُجَـانِبـاً لِلخَـوضِ مِـنْ أهـلِ الخَلَـفَ
خُذْهَا هُديتَ واقتَفِي نِظَامِي تَفُـزْ بِمـا أمّلـتُ والسَّـلامِ

«تمت بحمد الله»

شرح ابن شطي

ولما كان نظم هذه العقيدة بسؤال بعض أصحابنا قال:

(**هدية**) مهداة (**مني**) بمعونة الله تعالى (**لأرباب**) جمع رب بمعنى صاحب طريقة (**السلف**) وعقيدة أهل الأثر حال كوني (**مجانباً**) في أصل نظمي لها وتضميني إياها أقوال السلف وعقائد أهل الأثر (**للخوض**) في التأويل كما هو (**من**) دأب (**أهل**) مذهب (**الخلف**).

(**خذها**)، أي: هذه العقيدة (**هديت**) على صيغة ما لم يسم فاعله، أي: هداك الله تعالى (**واقتفي**)، أي: اتبع (**نظامي**) في هذه العقيدة السلفية فإنك إن فعلت (**تفز**)، أي: تظفر (**بما**) بالذي (**أملتـ**)ـه من نيل الفلاح.

(**و**)تظفر أيضاً بـ(**السلام**) أي: الأمان من التخليط الجدلي.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وهذا آخر ما قصدت إيراده على منظومتي وأنا أتوسل إليه بلسان الافتقار، وأتذلل لديه بجنان الذل والاحتقار، وأتضرّع بجوارح العجز والانكسار، وأتشفّع بجاه النبي المختار، وآله الأطهار، وأصحابه الأخيار، وأصهاره الأبرار، وبجميع الأنبياء والمرسلين، وبالملائكة المقربين وبالعلماء العاملين، أن يجعل هذا الشرح خالصاً لوجهه الكريم، وسبباً للفوز لديه في جنات النعيم، وأن

ينظر إلي وإلى من كتبه وقرأه وأقرأه بعين العناية، وأن يحفظني وأهل بيتي وإخواني من كل ضلالة وغواية، وأن ينفع به من كتبه وقرأه، وفهمه ووعاه، إنه جواد كريم، رؤوف رحيم.

وكان الفراغ من شرحه ضحوة الأربعاء لست بقين من ذي القعدة من شهور سنة ألف ومائة وخمسة وسبعين ١١٧٥هـ.

وكان الفراغ من اختصار هذا الشرح يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الآخر من شهور سنة سبع وأربعين ومائتين وألف (١٢٤٧).

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

* * *

شرح ابن مانع

(هدية): أي: هذه هدية. أي: مهداة (مني) بعون الله تعالى. (لأرباب): أي: أصحاب مذهب (السلف) وعقيدة أهل الأثر حال كوني (مجانباً) في نظمي (للخوض) في التأويل العليل، كما هو أدب المتنطعين (من أهل) مذهب (الخلف) المخالف لمذهب السلف. (خذها): أي: هذه العقيدة (هديت) في اعتقادك. (واقتفى): أي: اتبع (نظامي)، فإنك إن فعلت ذلك (تفز). أي: تظفر، (بما): أي: بالذي (أملت) من الخير. (و)تظفر بـ(ـالسلام): أي: الأمان من التخليط في اعتقادك والخبط فيه خبط عشواء.

وإلى هنا وقف جري القلم حيث تم النظام.

فالحمد لله أولاً وآخراً فهو الأول، والآخر، والباطن، والظاهر، وهو بكل شيء عليم. والصلاة والسلام على خير الأنام نبينا محمد وعلى آله وأصحابه الكرام. وكان الفراغ من تبييضه ضحوة يوم الأربعاء سادس عشر جمادى الآخرة سنة ألف وثلثمائة وأربع وثلاثين على يد جامعه الفقير إلى رحمة ربه: محمد بن عبد العزيز بن مانع الحنبلي مذهباً، والسلفي اعتقاداً. غفر الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات، آمين رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

* * *

الفهرس[1]

(١) تنبيه: علماً بأني قد جمعت المختصرين في هذا الكتاب، ولكل منهما فهرس مختص به، فتيسيراً للقارىء قمت بدمج الفهرسين في فهرس واحد مع التفصيل فيه. حيث رمزت لشرح ابن شطي بحرف «ش»، وشرح ابن مانع بحرف «م»، وما لم أرمز له فهو من زياداتي.

وتمّت بحمد الله وفضله

صدر للمحقق

أولاً ـ تأليف:

١ ـ إخلاص النية في الحديث المسلسل بالأولية	١٤١٥هـ
٢ ـ التحفة المزروعية في المسلسلات النبوية	١٤١٥هـ
٣ ـ جمع الجوامع إلى طرق وأسانيد حفص في البلدان والجوامع	١٤١٥هـ
٤ ـ حاشية اللؤلؤ والمرجان في تراجم إسناد القرآن	١٤١٦هـ
٥ ـ دعاء ختم القرآن لجمع من المشايخ	١٤١٧هـ
٦ ـ حاشية على مختصر التجويد للشيخ عمر عاصم الإزميري	١٤١٧هـ
٧ ـ حاشية على تحفة الإخوان في تجويد القرآن للشيخ حسن الشاعر	١٤١٨هـ
٨ ـ تحفة الألباب إلى جمع متون تجويد الكتاب (تحت الطبع)	١٤١٩هـ

ثانياً ـ تحقيق:

١ ـ متن دليل الطالب مصحح على فضيلة الشيخ محمد الجراح رحمه الله	١٤١٢هـ
٢ ـ متن العقيدة السفارينية مصحح على فضيلة الشيخ محد الجراح رحمه الله	١٤١٢هـ
٣ ـ المسائل الفقهية للشيخ عبد الله خلف الدحيان رحمه الله	١٤١٨هـ
٤ ـ دعاء ختم القرآن للشيخ عبد الله خلف الدحيان رحمه الله	١٤١٨هـ
٥ ـ تبصير القانع في الجمع بين شرحي ابن شطي وابن مانع على السفارينية (وهو هذا الكتاب)	١٤١٧هـ

• • •